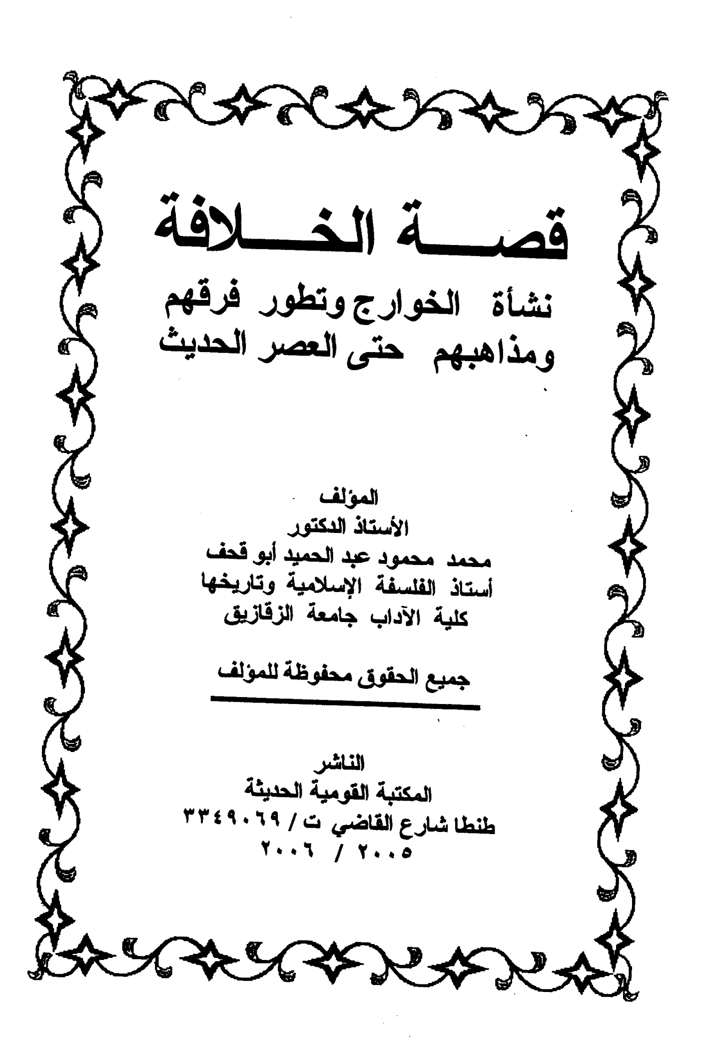
قصـــة الخلافـــة

نشـأة الخـوارج
وتطـور فرقهـم ومذاهبهـم
حتى العصر الحديث

دكتــور
محمد محمود عبد الحميد أبو قحف
أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخها
كلية الآداب - جامعة الزقازيق



قصة الخلافة

نشأة الخوارج وتطور فرقهم ومذاهبهم حتى العصر الحديث

المؤلف

الأستاذ الدكتور

محمد محمود عبد الحميد أبو قحف

أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخها

كلية الآداب جامعة الزقازيق

الناشر

المكتبة القومية الحديثة

طنطا شارع القاضي ت/ ٣٣٤٩٠٦٩

٢٠٠٥ / ٢٠٠٦

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً
وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم
مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴾ سور آل عمران(١٠٣)

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين " .

" وبعد "

" مقدمة عامة "

نتناول من خلال هذا البحث بالتحليل والنقد والمقارنة ، دراسة تركيبية عن قصة الخلافة ونشأة الخوارج وفرقهم وتطور مذاهبهم حتى العصر الحديث ، فقد شكل الخوارج وفرقهم المتعددة خطراً كبيراً في التاريخ السياسي والعقائدي الإسلامي ، وقد كان لنشأتهم قصه عميقة الأثر ، بعيدة الجذور . فلم يكن هؤلاء وزعماؤهم مجرد طوائف أو جماعات مختلفة متناحرة ، بل لقد عبروا عن أكبر انشقاق سياسي وديني في التاريخ الإسلامي ، فهم أول حزب سياسي عقائدي إسلامي ، فلم يسبق هؤلاء انشقاق بين المسلمين بهذا العمق ، إذ أن اختلاف المسلمين حول مسألة الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان خلافاً هادئاً لا يتعدى الحوار والمناقشة وسرعان ما ألتئم وتمت البيعة لأبي بكر بالخلافة ، ثم تتابعت بعد ذلك في عمر بالتعيين من جانب أبي بكر بعد أخذ الرأي والمشورة عليه من المهاجرين والأنصار ، ثم انتقلت الخلافة إلى عثمان بعد قصة الشورى . واستقرار الرأي عليه ، وبايعه كافة المسلمين إلى أن حدث نوع من التذمر بين بعض المسلمين وكبار الصحابة من الناحية السياسية الاقتصادية والاجتماعية لدى عثمان . الأمر الذي أدى إلي الثورة علية ومقتلة نتيجة للفتنة التي غذاها بعض الموالي والحاقدين على الإسلام من اليهود كابن السوداء أو عبد الله ين سبأ ، وقد سارع المسلمون إلى الأمام عليّ كرم الله وجهه لمبايعته حتى لا تكون فرقة واختلاف بين المسلمين ، فقبل عليّ البيعة بالخلافة وهو كاره لها ، إلا أن بعض الناكثين لعهودهم له خرجوا عليه بالإضافة إلى حزب معاوية وبني أمية مدعين المطالبة بدم عثمان ثم لبسوا قميصه على هذا المعنى ، وحدث قتال بين عليّ وبين الناكثين لعهده كالزبير ، وطلحة ومن سار في ركبهم وهزمهم الإمام على في موقعة الجمل ، ثم حدث صدام بين على ، ومعسكر

معاويـة وكـاد ينتصـر علـيّ معاويـة في موقعـة صـفين لـولا عملية التحكم . إذ نـادى أنصـار معاويـة بعد أن رفعوا المصـاحف علـى الرماح قائلين لنحتكم إلـى كـتاب الله تعـالى ، إلـى هـذا الحـد لـم يتشـكل المسـلمون إلـى أحـزاب أو شـيع أو طـوائف لهـا مبادئ أو صـيغ تميزها عن غيرها ، فلم يكن ثمّة : خوارج أو شيعة أو سنة إلى أن حدث " التحكيم " بين عليّ ومعاوية .

بدايـة الـتحزب نشـأ بين المسلمين بظهور الـخوارج - إذ صاح زعيم منهم " لا حكم إلا لله " - وصـاروا معـه معلنين تكفيرهم لعلـيّ ، ومعاويـة والحكمين ، ومـن رضـي بـالتحكيم ، وبـايعوا زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي بالإمامة بعد أن خلعوا علياً من الطاعة لإمامته. ثم اتجهوا إلى حروراء لمحاربة الإمام عليّ ، وصياغة أصولهم ومبادئهم السياسية والعقائدية .

إذن : بنشـأة الـخوارج - نشأ أول حزب سياسـي يقوم على مبادئ عقائدية فـي الإسـلام - أمـا خـروج الـثوار علـى طاعـة عثمان وقتلة فإنـه لـم يـتمخض عنه تكويـن سياســي أو عقــائدي . إذ أن مجـرد الـثورة كـان لأسـباب اقتصــادية أو اجتماعية لا لأسباب سياسية أو دينية .

ظهـر الـخـوارج ، وتكونـت فـرقهم وطـوائفهم مـنذ الـبداية - علـى أصـول سياسـية وعقائديـة ، وكـان أكـثر مـا يجمعهم علـى أصـول واحدة هي : قولهم": لا حكم إلا لله"، وإقرارهم مبدأ الاختيار الحر للإمـام دون التقيد بشرط القرشية أو العروبة أو الحرية ، مستبدلين هذه الشروط في الولايـة أو البيعة للإمـام بشرط الإسـلام والعدالـة فقط ، ثـم قولهـم : بعدم وجوب الإمامـة مـا دام المسـلمون علـى وفـاق بينهم ، وأجازوا الخروج على الأمام الجائر ، والظالم والثورة علية وعزله أو قـتله ، كذلـك قولهـم بمـبدأ الولايـة ، وتكفـير مرتكـب الكـبيرة ، أو المعصـية صـغيرة أو كبيرة وخلـوده فـي العذاب أو الـنار مثل المشركين ، وتكفيرهم للقعدة عن القتال ، والقتل غيلة وسبي النساء والأطفال المخالفين لمذاهبهم .. وهكذا.

كذلك فـإن بعضـهم يذهـب مذاهـب المعـتزلة في القـول بـالقدر وأن الفعل الإنساني للفرد خيره وشره ولا ينسب إلي الله تعالى.

وقـد كـان مـن أشـهر هـؤلاء الـخـوارج : المحكمـة الأولـى ، حيث وضـع زعماؤها الأصـول الأولـى لهـم ، ثـم الأزارقـة أصـحاب نـافع الأزرق وهـم اشد

الخوارج تطرفاً ، والنجدات : شاركوا السابقين عليهم في مبادئهم الجوهرية واختلفوا معهم في البعض الأخر ، ثم جماعات من خوارج العجاردة ، والبيهسية ، والحمزية ، والشيبانية ، والشبيبية ، والصفرية ، والإباضية ، واليزيدية ، وغيرهم يضاف إلى ذلك أن الخوارج رفضوا مبدأ التقية ، والقعدة عن القتال لمخالفيهم وكفروا هؤلاء فقد كانوا على قدر كبير من الصراحة ، والشجاعة والتمسك بالنص دون جدل أو تفلسف مع خصومهم ، وظهر هذا النمط في فكرهم وأدبهم نثراً وشعراً، كفر الخوارج عثمان في سنواته التالية لإمامته ، بينما أقروا علياً على الإمامة في سنواته الأولى وقبل عملية التحكيم ، وكفروا سائر المسلمين الذين لا يهاجرون إليهم ، وحرّموا الزواج أو الميراث منهم وفيهم . وكفروا مرتكب المعصية كفر ملة عند بعضهم أو كفر نعمة عند البعض الأخر ....وهكذا

لكن حدث نوع من التطور الفكري والعقائدي السياسي لبعض فرق الخوارج عبر العصور ، وحدث نوع من التأثير والتأثر بالفرق الأخرى وكما تتبعنا ذلك بالتفصيل ، فإننا نشير فقط إلى بعض هذه الجوانب منها قول بعض الخوارج : كالبيهسية ، والإباضية والصفرية ، بالقدرة مع الاستطاعة في الفعل - مقتربين بذلك من أهل السنة ، وقولهم بصلة الإيمان بالعمل والطاعات مقتربين من مذاهب المعتزلة ، وقولهم بحق الولاية والإمامه فيمن تتوافر فيه شرط الإسلام والعدالة دون القرشية والعروبة والحرية . نظراً لامتزاجهم بعناصر وأجناس غير عربية ولا تتمتع بالحرية إعمالاً بحديث الرسول الكريم ﷺ-" أسمعوا وأطيعوا لمن ولي عليكم ولو كان عبداً ذا زبيبة " أو فيما معناه - مطبقين مبدأ المساواة في الإسلام أو متزعمين ذلك .

يضاف إلى ذلك أنه قد حدث تطور أخر في الإمامة عند جماعات الإباضية في شمال إفريقيا والمغرب الأوسط منذ عهد الدولة الرستمية ، إذ أقر الإباضية بمذاهب أهل السنة وأخذوا بعقائدهم ، أباحوا مبدأ التوريث في الإمامة للابن أو للأخ ، كذلك أوجبوا الإمامة ووضعوا شروطاً لها منها الفضل ، والفضيلة والعدالة ، والعلم والشجاعة .. الخ .

وأجازوا أيضاً ولاية إمامين في وقت واحد ، وبمكانين متجاورين ، وقد كان لمذاهب الإباضية والصفرية في هذا النطاق المتطور تأثير بالغ في بعض النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية بأفريقيا حتى العصر الحديث ، والوقت المعاصر .

إذ نجد تقارباً شديداً وواضحاً بين مذاهب هؤلاء الخوارج الإباضية والصفرية والنظم الثورية في ليبيا ، لذا نجد المراسم السياسية والاجتماعية عند الزعيم الليبي قريبة الصلة من مذاهب هؤلاء المعتدلين ويظهر ذلك من خلال الكتاب الأخضر وشروحه إذ يؤكد الزعيم الليبي على ضرورة التحام الشعب والجماعة بالزعيم لذا كان نقده المستمر للمجالس النيابية وحبّذ مكانها نظام اللجان الشعبية ، وهذا يذكرنا بطريقة الإمام عند هؤلاء كما أتضح لنا مدى التقارب بين الخوارج ونزعاتهم المتطرفة وبين بعض الجماعات الأصولية الحديثة والمعاصرة مثل جماعات التكفير والهجرة ، والجهاد وبصفة خاصة فيما يعتقدون بمقاومة الحاكم ، ومبدأ الحاكميه ، كذلك هناك تشابه بين مبدأ الحاكمين والجاهلية . أو الجهالة عند جماعات الإخوان وبين مبدأ لا حكم إلا لله عند الخوارج . ووجوب الثورة على الحاكم الجائر أو الظالم وعزله .....وهكذا .

ولكن وجدنا أن بعض جماعات الإخوان المسلمين المعاصرين أكثر اعتدالا ونقية وتمسكاً بالكتاب والسنة والأصول العقائدية من هؤلاء .

فليس معنى التقارب أو التشابه في الأصول أو الفروع بين هؤلاء وأولئك الطعن أو الذم في عقائدهم ، فكلهم مسلمون وعلى الحجة البيضاء والحمد لله ونسأل الله تعالى الهداية والصواب والصدق والنصرة للإسلام والمسلمين، والأخذ بأسباب التطور والتقدم في ظل التمسك بالقيم والمبادئ الإسلامية في مواجهة هجمات العلمانية ، والتطرف المقيت الذي منه الإسلام براء .

وقد استطعنا أن نلم بجوانب هذا البحث من خلال تمهيد عن " الخلافة " ومعناها ودلالتها في القرآن الكريم والسنة النبوية بالإضافة إلى ما جاء عنها في عرف المفكرين والفقهاء والفلاسفة وتصور الخلافة عند أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية من أهل السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة .

ثم وضعنا سبعة فصول وخاتمة هي نتائج البحث وقائمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية على النحو التالي :

الفصل الأول : الخلافة بعد النبي ﷺ وحتى الإمام عليا كرم الله وجهه .

حيث استعرضنا بالتحليل والتفصيل وفاة الرسول الكريم ثم خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان كذلك أشرنا إلى الفتنة الكبرى في عهد عثمان وأسبابها وأوضحنا بالأدلة والأسانيد أن عثمان قتل مظلوماً ، ورد شبهات الخوارج وغيرهم ممن أدعى التكفير في حقه .

الفصل الثاني : بين خلافة الإمام عليّ رضي الله عنه ومعاوية.

حيث أستعرضها بالتحليل والنقد صحة خلافة وبيعة الإمام عليّ وظلم الناكثين لعهودهم معه ثم موقعة الجمل وأسبابها وقد تابوا إلى الله تعالى ولا يجب تكفيرهم كما ذهب الخوارج ثم استعرضنا شبهات الخوارج والمعتزلة والرد والتفنيد لمزاعمهم.

الفصل الثالث : التحكيم بين عليّ ومعاوية وظهور الخوارج .

استعرضنا بالتحليل أيضا قصة التحكيم وكيف حدثت بين عليّ ومعاوية وكيف ظهرت فرقة الخوارج ، وطوائفها المتعددة بناء على مبدأ : لا حكم إلا لله

ثم وضحنا مناظرات الإمام عليّ للخوارج ورده القاطع على حججهم وأسانيدهم في رفضهم لإمامته ، وكيف أن الإمام عليّ كان في مرحلة الاقتداء بالنبي علية السلام في كل أمر من الأمور ومهتدياً بكتاب الله تعالى .

الفصل الرابع : الخوارج وفرقهم المختلفة.

أوضحنا بالتفصيل ظهور فرق الخوارج ، وعقائدهم السياسية والدينية وتطورهم حتى العصر الحديث . ثم وجهنا النظر إلى حكمة الخوارج ومدلولاتها ومعناها وكيف أنها تنسحب على كل من خرج عن طاعة الإمام أو الخليفة أو الحاكم وعلى طوائف الخوارج بصفة خاصة.

الفصل الخامس : الأصول السياسية والعقائدية عند الخوارج.

تحدثنا عن أصولهم السياسية أولاً لأن مبدأهم وظهورهم كحزب سياسي وكما أن منطلق الخلافة والبيعة عندهم مستمد جذوره من مبدأ " لا حكم إلا لله " ثم تناولنا نظرية الخوارج بالتحليل والنقد في الإمامة . وقولهم لا حكم إلا لله

ومبدأ الحاكمية . ثم تحدثنا عن أصولهم العقائدية والدينية التي تتسجم مع أصولهم السياسية .

الفصل السادس : الخوارج في المغرب العربي وشمال أفريقيا .

تحدثنا في مدخل تمهيدي عن كيفية انتقال الخوارج إلي شمال أفريقيا والمغرب الأوسط . ثم عقائدهم السياسية وظهور دولة بني رستم وتطورهم فكريا وسياسيا وعقائديا ، ووضحنا أن هؤلاء ينتمون إلي الإباضية والصفرية . والإباضية بصفة خاصة مع انتشارهم ببلاد المشرق عمان ، مسقط ، زنجبار .. الخ فإنهم منتشرون أيضا بالمغرب وأن مذاهبهم تتفق مع مذاهب أهل السنة ويمثلون المذهب الخامس هناك.

وأوضحنا مدي التطور الحاصل لمذهبهم في الإمامة والعقائد الأخرى . ثم أشرنا إلى فرق الإباضية بأفريقيا وآراؤهم الكلامية المختلفة .

الفصل السابع : الخوارج بين الفرق الإسلامية والجماعات الأصولية في العصر الحديث.

تحدثنا بالتحليل والمقارنة بين مذاهب هؤلاء وبين مذاهب الفرق الإسلامية مثل أهل السنة أو الشيعة والمعتزلة والمرجئة. ولاحظنا مدى الاختلاف أو التقارب بين مذهب هؤلاء وأولئك .

ثم تحدثنا عن مذاهب الأصوليين المحدثين والمعاصرين ومدى التقارب بين مذاهبهم وبعض عقائدهم السياسية والدينية مع الاختلاف البين في بعض الجوانب الدينية.

وأخيرا لا ندعي أننا وصلنا بذلك إلي حد الكمال فالكمال لله تعالي وحده

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين

دكتور محمد محمود عبد الحميد أبو قحف
أستاذ الفلسفة وتاريخها
جامعة الزقازيق

فصل تمهيدي

الخــــلافـــة

" الخـــلافــة "

" فصل تمهيدي "

أولاً : كلمة الخلافة لغة واصطلاحاً :

الخلافة لغة مصدر " خلف " يقال " خلفه خلافة " ، كان خليفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء ، فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد ، ومن ثم سمي من يخلف الرسول ﷺ في إجراء الأحكام الشرعية خليفة ، ويسمى أيضاً " إماماً " فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في أتباعه والإقتداء به ، ولهذا يقال الإمامة الكبرى ، أما تسمية خليفة فلأنه يخلف النبي في أمته ، فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله ، واختلف في تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة للآدميين في قوله تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ سورة البقرة آيه (٣٠) وقوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ سورة الأنعام آية (١٦٥) ، ومنع الجمهور منه ، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به ، وقال لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ، ولأن الاستخلاف أما هو في حق الغائب ، أما الحاضر فلا.[1]

ويذهب أصحاب المعاجم اللغوية في تخريج وتفسير معنى خلف ، وخلفت وخليفة وخلافة وإلى غير ذلك من الاشتقاقات اللغوية لهذا المصطلح أو اللفظ ، قالوا " خلفت فلاناً على أهله وماله خلافة : صرت خليفته ، وخلفته ، جئت بعده ، والخِلفة بالكسر : اسم منه ، كالقعدة لهيئة القعود . واستخلفته جعلته خليفة . وخليفة يكون بمعنى فاعل ، وبمعنى مفعول ، وأما الخليفة بمعنى السلطان الأعظم ، فيجوز أن يكون فاعلاً لأنه خلف من قبله ، أي جاء بعده ، ويجوز أن يكون مفعولاً لأن الله تعالى جعله خليفة ، أو لأنه جاء به بعد غيره

---

١. ابن خلدون - المقدمة - صـ ١٩١ كذب دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي جـ ١- صـ ٤٣٨ ط دار النهضة المصرية - ١٩٧٩م .

كمـا قـال تعالـى﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ سورة الأنعام آية (١٦٥) قال بعضـهم ولا يقـال خليفة الله بالإضـافة إلا لآدم ، وداود عليهما السـلام ، لـورود النص بذلك وقيل يجوز وهو القياس لأن الله تعالى جعله خليفة كما جعله سلطانا ، وقد سمع سلطان ، وجنود الله ، وحزب الله ، وخيل الله ، والإضافة تكون بأدنى ملابسة .

والخليفة : أصله خليف بغير هاء ، لأنـه بمعنى الفاعل ، والهاء مبالغة ويكون وصفاً للرجل خاصة ، ومنهم من يجمعه فيقول : الخلفاء مثل شريف وشرفاء ، ويجوز تذكير العدد أو تأنيثه ، ويكون مفرداً وجمعاً ،
فيقال : ثلاثة خلفاء ، أو خلائف ، أو ثلاث خلفاء أو خلائف ، وهذا خليفة ، بالتذكير ، أو خليفة بالتأنيث .

وأخلف الله عليك : رد عليك ما ذهب منك ، وخلف الله عليك كان خليفة أبيك عليك أو من فقدته ممن لا يتعوض كالعم ....الخ .
ويقال أيضاً : أخلف الشجر والنبات : ظهر خلفه ، وخلف الرجل الشيء : أي تركه بَعده ، وتخلف الرجل عن القوم أي قعد عنهم ، ولم يذهب معهم [1] وهكذا إلى أخر الاشتقاقات اللغوية لهذه الكلمة ، لنرى مدى مالها من دلالة في الفكر الإسلامي ....وهكذا .

أما معنى الخلافة في الاصطلاح : فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ ، ولذلك يذهب ابن خلدون (٨٠٨)هـ ، يقول : " هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ،إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا.[٢]

١- أحمد بن علي المقري الفيومي " معجم المصباح المنير - جـ ١ - صـ ١١٧ مادة (خليفة) ، ط المطبعة الوهبية بمصر - ١٣٠٠ هـ
٢ ابن خلدون – المقدمة – صـ١٩١.

ومما لا شك أن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول عليه السلام من المؤمنين له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على شئون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمني والروحي بخلاف ما نجده في الغرب في العصور الوسطى .(١)

ثانياً : مدلول كلمة الخليفة في القرآن الكريم :-

وردت كلمة " خليفة " في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، وتشير في مدلولاتها ومعانيها إلى الإنسان ، الذي خلقه الله تعالى ليجعله خليفة في الأرض ، إما بالنيابة عنه سبحانه وتعالى ، وإما بمدلول استخلافه نيابة عن السابقين من خلق الله تعالى ، أو بمدلول اللاحق لمن تقدموه من مخلوقات وهكذا ، لذا نورد هنا بعض الدراسات والتفسيرات التي صدرت عن بعض الباحثين والعلماء والمفكرين ، حتى ينجلي الأمر ، ونصبح على بينة من دلالة أو معاني هذا اللفظ .

وعلى ذلك ، نجد في القرآن الكريم كلمة تعد مفتاحاً لتحديد منزلة الإنسان، في العقيدة الإسلامية ، وقد نلاحظ تغير وتطور في تفسير معناها وهي كلمة " خليفة " بمشتقاتها ، وذلك حين تطبق على " آدم " وغيره من البشر . وقد يرد على الذهن معنى كلمة " خليفة " في صيغتها الأصلية الكاملة، وهي خليفة رسول الله ﷺ ، أو في اللقب الذي كان يحمله بعض الخلفاء الأمويين وهو " خليفة الله " ويترجم في هذه الحالة بعبارة " النائب عن الله " لأن الله تعالى لا يمكن أن يخلفه أحد ، واللفظ في هاتين الحالتين السابقتين يكون المقصود بتلك الصيغة هو الرئيس الأعلى للأمة الإسلامية .

غير أننا قد نجد " خليفة " ترد مشتقاتها إلى " الخلفاء " أو اللاحقين للأجيال السالفة ، أو الجماعات السابقة ، فالآية الكريمة التي يرد فيها قول الله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من

١- دكتور حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي – ج١ – ص٤٣٩ .

يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ سورة البقرة آية (٣٠) يمكن أن تفهم بمعنى أن آدم ومعه البشر سيخلفون في المستقبل الملائكة ، أو الكائنات الأخرى بوجه عام ، ويسكنون الأرض .

ومن ناحية أخرى نجد أن مدلول كلمة " خليفة " ترد في آية قرآنية أخرى مرتبطة بوظيفة الحكم بين الناس بالحق . في قوله تعالى ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ سورة ص آية (٢٦) فالله تعالى يطلب من داود أن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى حيث أنه تعالى جعله خليفة فيها . ولهذا مدلول سياسي بلا شك ، لأنه مرتبط بمصالح الناس وأحوالهم مما يستوجب من القائم عليها أن لا يتبع الهوى في الحكم عليهم أو بينهم .

ويقرر الطبري في تفسيره الكبير أن كلمة " خليفة " بمعنى اللاحق إذا قام مقامه فيه بعده أي اللاحق للأفراد أو القرون أو الأجيال أو الجماعات السابقة ، ويستبعد معنى " النائب " كذلك يستخدم الكلمة للاستدلال على السلطان الأعظم مع شرح الكلمة بمعنى اللاحق للسابق . دون أن يشير إلى دلالتها في صيغة خليفة رسول الله ﷺ وفي تفسير الطبري لكلمة " خليفة " الواردة في سورة البقرة (٣٠) ، السابقة الذكر . يشير إشارات قد تسمح بتأويلها بمعنى أن الله جعل على الأرض " خليفة " له ، أو خليفة ينوب عنه في الحكم بين خلقه ومع ذلك فإن الطبري يتمسك بفهمه لكلمة " الخلافة " بمعنى تتابع الأجيال أو القرون " [1]

ولعل استخدام كلمة الخليفة للدلالة على حاكم الدولة الإسلامية العالمية كان أمراً مألوفاً وشائعاً في عصر الدولة الأموية أو العباسية ، وبصفة خاصة إذا تذكرنا أن خلفاء الدولتين كانوا يرغبون أن ينسحب دلالة لفظ الخليفة بمعنى النائب عن الله في خلقه ؛ وعليهم .

١- فريتس شتيبات – خليفة الله – قراءات عن صورة الإنسان في الإسلام –(بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكا) – صـ١٠٤ ،صـ١٠٥- ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي – مجلة عالم المعرفة – الكويت – مطابع السياسة بالكويت عام ٢٠٠٤- عدد إبريل .

إلا أن المسلمين وجمهرة العلماء لم يألفوا أن يكون دلالة اللفظ بهذا المعنى بالتحديد ولم يقرروا ذلك للمسافة الشاسعة التي تفصل الإنسان عن الله عز وجل .

وإذا اتجهنا إلى مفسر أخر كالبيضاوي مثلاً لاستجلاء مدلول كلمة الخليفة وذلك في القرنين (السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي) نجده يفسر الكلمة على المعنيين معاً " اللاحق والنائب " حين يقول بوضوح " من يخلف غيره وينوب منابه " .

أما قوله تعـــالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ .. الآية من سورة الأنعام آية (١٦٥) ، يمكن أن ينصرف معناها إلى خلفاء الله في أرضه يتصرفون فيها ، وقد ينصرف معنى خليفة الله في أرضه على الأنبياء عليهم السلام وهم الذين يتوسطون بين الله والناس حيث يصبح آدم أول الأنبياء ، لا أول البشر فحسب .(١)

وربما كان للإمام الغزالي – حجة الإسلام – رأي آخر في هذه المسألة ، وهو ينظر إليها من البعد الصوفي بلا شك ، فهو ينظر إلى العلاقة بين الإنسان والله تعالى بأنها علاقة روحية باطنة ، وهي مناسبة لا تجعل هذه العلاقة قاصرة على المحبة بين العبد وربه فقط بل جعلت وضع الإنسان كنائب عن الله تعالى في أرضه أمراً معقولاً وقابلاً للتصديق.(٢)

وإذا اتجهنا لاستجلاء رأى بعض العلماء والمفكرين في العصر الحديث ، فيما يتعلق بهذه المسألة ، نجد الإمام محمد عبدة (١٩٠٥م) في تفسير المنار الذي كتبه تلميذه محمد رشيد رضا ، في شرحه للآية الكريمة من سورة البقرة آية (٣٠) فإنه يلفت النظر إلى المعنيين السابقين ، أي بمعنى أن الإنسان بمنزلة خليفة عن السابقين فهو لاحق لهم ، ونائب عن الله تعالى في أرضه.(٣)

١- المصدر السابق صـ١٠٦ ، وكذلك البيضاوي – التفسير – جـ١- صـ٢٠ ، صـ١٥٠ ، صـ٦٦ – ج٢ - صـ١٦٤ (تفسير سورة البقرة ، سورة الأنعام ، سورة النور ، وسورة ص) - ط القاهرة ١٩٥٥ م .

٢- المصدر السابق نفسه صـ١٠٧ كذلك راجع أبو حامد الغزالي – إحياء علوم الدين – جـ١ – صـ٣٦ - ط الشعب بدون تاريخ

٣- المصدر السابق – صـ١٠٨ . كذلك محمد رشيد رضا – تفسير المنار جـ١ صـ٢٥١ .

ومما لا شك أن الإمام محمد عبده كان يضفي على تفسيره روح العصر الحديث من حيث استجلاء معاني النصوص ودلالاتها بما يتفق مع التطور الحديث والحضارات الجديدة ، فهو أن كان ينظر للإنسان كخليفة لله في أرضه ، أو نائباً عنه من حيث القدرة على استيعاب كل ما يدور حوله ، ويستغله لصالحه بفكره وعقله وبما زوده الله تعالى من إمكانيات عقلية وروحية ومادية ، فإن الإسلام أكد على هذه الحقيقة ، وأثبت خلافة الإنسان لله تعالى بناءاً على هذه المعطيات ، ويشير تشارلز آدم إلى ذلك بقوله " لقد أدرك الإمام محمد عبده بأمانة البحث العلمي الحر ، وفاق في دفاعه عن الإسلام غيره من الكتاب بروحه المتسامحة ، وأدرك أن الإسلام يؤدي إلى الجديد والدخول في منافسة الآخرين" [١] لذلك فإن هذا التفسير بمعنى النائب عن الله في الأرض ينسحب على جميع البشر بما فيهم المسلمين .

وربما تطرق إلى هذا المفهوم أيضاً مفكر وفيلسوف إسلامي في العصر الحديث وهو محمد إقبال (١٨٧٢- ١٩٣٨) م. إذ تجده يربط بين مدلول كلمة " خليفة " الواردة بسورة البقرة آية (٣٠) وبين " الأمانة " التي ذكرها الله تعالى في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ... ﴾ سورة الأحزاب آية (٧٢) .

فقال محمد إقبال في تفسير وترجمة الآية " حقاً إنني سأضع من ينوب عني على الأرض " – ثم نحمله الأمانة – والأمانة عند محمد إقبال تدل دلالة دقيقة على وظيفة " النائب عن الله " وَقد كتب الله على خليفته (أو الإنسان) أن يشكل مصيره ، ومصير الكون سواء بالتلاؤم مع قواه ، أو بتوجيه كل طاقته نحو استغلال هذه القوى لتحقيق أغراضه وغاياته .

وعلى كل حال فإن تصور محمد إقبال ينطوي على رؤية اجتماعية ، فوظيفة الإنسان كنائب عن الله تعالى يفترض أن تتحقق في دولة إسلامية مثالية ،

١- Charles , C , Adams , Islam and Modernism in Egypt , PP , ١٢٧, ١٤٢ , oxford university, press Humphery nrilfard London , ١٩٣٣ .

تكون فيها الأرض كلها بوسائل الإنتاج ، ملكاً لله تعالى في الوقت الذي يكون فيه واجب الإنسان أن ينتج الثروة لمصلحة البشرية كلها.[1]

ومن الجدير بالذكر أن معظم الباحثين والكتاب في الفكر الإسلامي ، قد أشاروا إلى أهمية الإسلام للإشارة إلى هذه المواضع الدقيقة اللازمة لتقدم وتوجيه نظر البشرية ومناهجها في البحث والتفكير والتأمل . إذ أشار " سير توماس أرنولد في كتابه عن العقيدة الإسلامية " " إلى أن القواعد الإسلامية والمأثورات كانت هي المبادئ الأساسية التي أقام عليها الأصوليون اعتقاداتهم وكانوا على اتفاق تام بأنها المبادئ التي يجب على كل إنسان ومسلم اعتناقها " [2]

ويعلق أحد الباحثين الغربيين تشارلز آدمز : بأن هذه العقيدة تعتبر إحدى علامات الرقي للعقل الإنساني ، تلك التي تعمل على عدم التطرف بما تمنحه من تعاليم لإنقاذ الإنسان من الخطأ ، وتساعد العقل الإنساني لتحقيق العدالة بجانب الاعتقاد الصحيح [3]

وإذا اتجهنا لمعرفة رأي بعض الأصوليين المحدثين في دلالة خلافة الله الإنسان في أرضه. نجد بعض زعماء جماعة الأخوان المسلمين يقرر أن الإنسان هو النائب عن الله في أرضه ، إذ يذهب " سيد قطب ١٩٠٦- ١٩٦٦ م " ولعله أهم علماء هذه الجماعة في تفسير الآية الكريمة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. ﴾ سورة البقرة آية (٣٠) ، يقرر أن الإرادة العليا قد سلمت مقاليد الأرض للإنسان وأعطته حرية التصرف ، ووكلت إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتنويع والتركيب " ومنحته الملكات والقدرات التي يحتاجها لأداء هذه المهمة ، وبذلك تمت الوحدة والتنسيق بين

---

١ فريتس شتيبات – خليفة الله ، قراءات عن صورة الإنسان في الإسلام (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) صـ١٠٩

٢ Sir, Thomas , W , Arnold , the islamic Faith london , ١٩٢٨ , P , ١٢ , ١٦ .

٣ Charles , C , Adam's , islam and Modernism in Egept , ١٢٦.
وكذلك محمد إقبال – تجديد الفكر الديني – صـ١٢ ـ ط ١٩٥٥ م .

نواميس الكون وبين القوانين والأحكام المفروضة على الإنسان . وبذلك أيضاً بلغ الإنسان منزلة رفيعة في نظام الكون في مجموعه ". [١]

أما الداعي الإسلامي أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣- ١٩٧٩) م زعيم جماعتي إسلامي في الهند وباكستان فهو يرى : أن من الأمور البديهية أن يكون الإنسان هو نائب الله على أرضه ، ويبقى هذا الإنسان خاضعاً للقانون أو الشرع الإلهي . حيث أنه ثابت ثبوتاً مطلقاً ، وصادق صدقاً أبدياً فحسب ، بل ينسحب ذلك على الجماعة الإسلامية المهيأة للوفاء بشروط " النيابة عن الله هز وجل " وهذه مرتبة رفيعة ، كما أن هذه الجماعة تشارك في حمل " الأمانة " فإن كل فرد فيها مكلف بها ويحملها أيضاً ، وتستطيع الجماعة أن تعهد بأمانة هذه النيابة لشخص يتمتع بثقتها ، ولكنه إذا فقد هذه الثقة فلابد أن يستقيل من مهمته . [٢]

هكذا نجد أن كلمة " خليفة " اتخذت معان ومدلولات مختلفة ومتطورة عبر العصور ولدى المفسرين وفي القرآن الكريم ، ولدى الأصوليين قدماء ومحدثين .

ثالثاً : الخلافة في عرف المفكرين والفقهاء والفلاسفة :-

نتناول منذ البداية هنا – الخلافة في عرف عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هجرياً) وهو أحد المفكرين العرب المسلمين الذين عاصروا تقلبات الحياة السياسية في تاريخ الدول الإسلامية والعربية ، وتوافرت لديه قراءات واسعة وترك أبحاثاً عارمة في هذا المجال ، منذ القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، وأول ما نجده عند ابن خلدون ، ما ضمنه في الفصل الخامس والعشرين من المقدمة . تحت عنوان " في معنى الخلافة والإمامة " محللاً ومعللاً هذه المسألة وأهميتها .

---

١ فريتس شتيبات – خليفة الله .. (ضمن كتاب الإسلام شريكاً صـ١١٠ ، وكذلك كتاب سيد قطب : في ظلال القرآن جـ١- صـ٢٩ – ط القاهرة بدون تاريخ .

٢ المصدر السابق صـ١١١ – كذلك انظر : A, Ahmad, islamic Modernism in india and Pakistan,London , ١٩٦٤ , P, ١٤٨ .

فيذهب ابن خلدون " إلى أن الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به " . (١)

ويعلل ابن خلدون الخلافة أو الإمامة ، وأهميتها لذا نحاول أن نلتقط بعض التعبيرات الموجزة حتى لا نطيل في هذا الموضع ، فيرى " لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه ،،، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم ،،،، وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة ،،، ينقادون لأحكامها كما كان ذلك للفرس ،، وغيرهم من الأمم ،،،، فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء أو أكابر الدولة ،،، كانت سياسة عقلية ،،، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسية دينية نافعة في الحياة الدنيا والآخرة . (٢)

ويتابع ابن خلدون هذا التحليل لأهمية الخلافة فيرى " أن الخلق ليس المقصود دنياهم فقط . فكلها عبث وباطل – وغايتها الموت والفناء ، والله تعالى يقول ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾فالمقصود هنا إنما هو دينهم المفضي بالناس إلى السعادة في أخرتهم ، فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى الملك على منهاج الدين ، ؛؛؛؛؛ وأحكام السياسة تطلع على مصالح الدنيا فقط ؛ ،، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم ، وآخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ، ومن قام في مقامهم وهم " الخلفاء " ؛؛؛ وقد تبين بذلك معنى الخلافة ، وأن الملك الطبيعي: هو حمل الكافة

---

١ - ابن خلدون – المقدمة – صـ١٩١ .
٢ - المصدر السابق – صـ١٩٠ .

على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسي : هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .. وهكذا . (١)

ومما سبق يتضح أن ابن خلدون ينظر إلى الخلافة ، معللاً أهميتها في حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية ، ومبينا الفرق بين الخلافة والملك بمقتضى العصبية والسياسية بمقتضى النظر والعقل . فقط .

ويرى ابن خلدون أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه في صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم ، ويقرر ابن خلدون نظريته التي تقوم على العصبية المطلقة لا العصبية القرشية التي بدأت عقب وفاة الرسول ﷺ ، واختلاف الصحابة فيمن يخلفه ، ويرى ابن خلدون أن الإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين ، ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً ، إذ رأى الخليفة في القاهرة (٢) في عصره (عصر المماليك) لا يملك من أمر المسلمين شيئاً ، وأن الخلافة قد أصبحت صورية ، وبذلك قرر نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة . (٣)

وابن خلدون بذلك يختلف مع جمهور أهل السنة الذين يرون حصر الخلافة في قريش ، ويختلف مع الشيعة الذين يرون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول عليه السلام وفي بيت عليّ وأبنائه من بعده . كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ، ثم اشترطوا الإسلام والعدل ، وكذلك يختلف مع المعتزلة الذين يرون أن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشياً " (٤)

١- المصدر السابق – صـ١٩١ .
٢ - نقصد بالخليفة في القاهرة هنا : هو الخليفة العباسي ، الذي ينتمي إلى بيت العباسيين والذي استقدمه الظاهر بيبرس . وأخذ البيعة له وأقام بمصر لكي يطفي الشرعية الدينية والإسلامية على الحكم بالنسبة للمماليك بمصر .
٣ - دكتور – حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي والثقافي – جـ٤- صـ٣٠٥ ، ط مكتبة النهضة المصرية – ١٩٨٢ م . كذلك ابن خلدون المقدمة – صـ١٩١ – صـ١٩٦ .
٤ - مصدر السابق – صـ٣٠٦ .

أمـا ابـن حـزم (ت عـام ٤٥٦هـ – ١٠٦٤م) : فقـد جعـل أمـر القرشـية الشـرط الأساسـي الأول فـي الإمامـة كمـا لـم يجـوز خلـع الإمـام إذا ظلم ، بل أشار بمنـع المسلمين إياه من الظلم ، فإذا لم يمتنع كان لهم أن يعزلوه .[١]

والواضـح أنـه مـن خـلال آراء ابن حزم وابن خلدون وغيرهما أن الفقهاء كـانوا يبحثـون مسـألة الخلافـة فـي عصـر انحـلال الدولـة العباسية ، حيـن لـم يكـن للخليفة مـن الأمر شئ ، لذا نجد الفقهاء يبحثوا هذه المسألة من الناحيتين النظرية والعملية .

فالبيرونى أبو ريحان (ت عام ٤٤٠هـ- ١٠٤٨م) أوضح ما آل إليه آخر الخلفـاء العباسيين ، فقـال لـم يبق للخليفة مـن الأمـر شـئ اللهم إلا مـا كـان متعلقاً بالدين وحراسته ، كذلك تعرض لمسـألة الخلافـة فقيه آخر هو أبـو الحسن عليّ المـاوردى (ت عام ٤٥٠هـ - ١٠٥٨ م) وقد بحث الماوردى الخلافة بحثاً نظرياً ، قد لا يتفق والعصـر الذي وقعت فيه الحوادث من قبله ومن بعده ، فهو يقول " إن مركـز الخليفة انتخابي ، ثم يذكر الشـروط التـي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير ، ويسرد تـاريخ البيعة منذ أيـام أبـي بكر الصديق ويدلي بالحجـة علـى أن بيعة كل من الخلفـاء الراشدين صـحيحة شرعاً ، كما يشير إلي شـروط أهل الإمامـة وواجبات الخليفة الدينية والإدارية ، والقضائية والحربية ، وهكذا .[٢]

كذلك تناول مسـألة الخلافة فقيه أخر هو " نظامي عروضي السمرقندي " الذي يـرى : ضـرورة قيام مـن يخلف النبي ﷺ للمحافظة على الشريعة ، وكما يقـول: إن هـذا القـائم بالأمـر يجب أن يكـون خـير المجـتمع ، ويقـول أيضـاً : إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها ، ولا بد إذا من أن يكون له نواب يمثلونه في الولايات النائية .[٣]

---

١ - ابن حزم – الفصل في الملل والأهواء والنحل – ج٤ – صـ١١ ط- الحلبي عام ١٣٢٠هجريا ١٩٠٢ م - كذلك دكتور حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي – ج٤ – صـ ٣٠٦ .

٢- دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - ج٤ - صـ٣٠١ .كذلك الماوردي - الأحكام السلطانية صـ٤ ، صـ٦ ، ٨ ، ١٢- ط القاهرة ١٢٩٧ هجرياً .

٣- المصدر السابق - صـ٣٠٤ .

أما عن مسألة الخلافة عند مجموعة من الفلاسفة الإسلاميين ، نجدهم يصيغون نظرياتهم في قوالب فلسفية ، ويضفون على الخليفة أو الإمام وهو رئيس الدولة طابعاً فلسفياً مثالياً ، متأثرين في ذلك بفلسفة اليونان وبخاصة فلسفة أفلاطون وأرسطو ، إذ نجد لجمهورية أفلاطون[١] تأثير واضح في تصور فيلسوف إسلامي وهو أبو نصر الفارابي (٣٣٩هـ-٩٥٠ م) للدولة ونظمها والرئيس القائم عليها - وذلك نجده من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة " ، إذ شبه الفارابي الدولة بالكون الذي ينتظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة ، تخضع لسلطان الله تعالى كما شبه الكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء ، ويجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه في شكل منظم يسيطر عليه القلب ، والدولة المثالية هي التي يشرف عليها زعيم يعرف ما هي السعادة الحقه ، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلي هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم (الإمام أو الخليفة) . ولعل هذا التصور للفارابي ينطبق على العالم الإسلامي في عصره من الناحية النظرية أو الدينية فقط .[٢]

أما مجموعة الفلاسفة الآخرون فهم جماعة إخوان الصفاء ، فقد تعرضوا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم ، وهم يمثلون الاتجاهات الشيعية بلا شك . فقالوا : إن الملوك خلفاء الله في الأرض ، وأن الملك حارث الدين ، وحارث الرعية ، وهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهيه. وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة، ومن هؤلاء أيضاً : نظام الملك ، وزير السلطان ملكشاه السلجوقي إذ تناول موضوع الحكومة في كتابة " سياسة نامة " الذي وضعه عام ٤٨٥ هجرياً وبحث من خلاله " إعداد الحكام وإدارة الدولة ".

أما نصير الدين التوصي الشيعي (وهو ممن انضموا لهولاكو للقضاء على الدولة العباسية عام (٥٦٦ هـ - ١٢٥٨ م) فقد وصف في كتابه الأخلاق - " أخلاقي ناصري " الإمام أو الخليفة - كحاكم مثالي ، كما بين فلاسفة اليونان

---

١ راجع أفلاطون - جمهورية أفلاطون - ترجمة حنا خباز - ط دار القلم ببيروت ١٩٨٠ م - كذلك دكتور - فؤاد ذكريا - دراسة لجمهورية أفلاطون - ط دار القلم ببيروت ١٩٦٧ م .
٢ دكتور - حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - جـ٤ - صـ ٣٠٤. صـ ٣٠٥ ط مكتبة النهضة المصرية - ١٩٨٢ م -.

من قبل ، أفلاطون وأرسطو في هذا المجال [١] هكذا نجد كلمة الخلافة ، ومصطلح " خليفة " و " الخليفة " ، نالت قسطاً وافراً من دراسات وبحوث وتحليلات مجموعة العلماء والباحثين العرب والغربيين . [٢]

أما فيما يتعلق ـ بمسألة الخلافة ـ أو الإمامة ـ ومدلولاتها في عرف الصوفية وفلاسفة التصوف الإسلامي ، فمما لا شك أنها اتخذت اتجاهاً آخر يختلف عن اتجاهات أصحاب الفرق ، والمفكرين أو الفلاسفة ، إذ أن الصوفية ينظرون إلي الخلافة نظرة روحية باطنية قلبية وإشراقية نورانية ، تتصل بالصلة بين العبد وربه ، أو بين الله والإنسان ، تتصل بحيات الإنسان الروحية ، وتربيته الأخلاقية السلوكية ، ولا صله لهذه المسألة في عرف هؤلاء بالجوانب السياسية أو الاجتماعية . أو الحياة الدنيوية بصفة عامة ، فخليفة الله : هو الإنسان القريب الصلة من الله عز وجل ، هو الذي يتولى الخلائق بالتربية الروحية ، والتعمق الباطني والروحي في الدين ، هو الإنسان الذي يحمل الأمانة الإلهية مدار الوحي الإلهية في عالم الملك كما يمثل عالم الملكوت الإلهي في عالم الخلق والأمر .

فهو إذاً القطب الغوث . الذي يملك مفاتيح الحياة الروحية والواصل بين السماء والأرض . يغيث الملهوف إذا استعان به ، وهو الذي يمثل الدائرة الروحية الإلهية . لا ينشغل بأمور السياسة أو الحكم ، أو أي شئ غير مراقبة الله عز وجل هذا عند أصحاب الطرق الصوفية ، وهو رئيس الحكومة الباطنية التي تتكون من سبعة دوائر روحية أيضاً يشغلها : الإمامان ، والأوتاد ، والنقباء ، والنجباء ، والرجباء ، والبدلاء . وهكذا ، لا صلة لهذا الخليفة بأمور السياسة أو الحكم .

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٣٠٥ .

٢ { You can see , Encyclopedia of Islam , V ١١ - The caliphate London , ١٩٢٨.

بل هو الحكيم المتأله عند فلاسفة الصوفية الإشراقيين أمثال : شهاب الدين السهروردي المقتول عام (٥٨٧ هـ) فهو خليفة الله في الأرض في حمل الأمانة النورانية الإشراقية . [1] وهكذا .

رابعاً : الخلافة - الإمامة - في عرف أصحاب المذاهب والفرق :

رأينا فيما سبق كيف اتخذت مصطلحات - الخلافة - الإمامة - والخليفة والإمام ، وخلائف - معان ومدلولات لغوية واصطلاحية في عرف الفقهاء والمفكرين والفلاسفة ، فضلاً عما ورد من تفسيرات اتخذت صوراً متعددة في القرآن الكريم ، ولدى المفسرين والأصوليين ، قدماء ومحدثين أو معاصرين .

ونحن هنا نود أن نعطي فكرة موجزة ومحددة عن مدلول كلمة خلافة وإمامة ، أو خليفة وإمام - دون تفصيلات مطولة - في عرف بعض أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، لما لذلك من توضيح وتمهيد لما سوف نعرضه من تحليلات متعددة ومتشابكة بين الفرق والمذاهب فيما بعد سواء عند الخوارج والشيعة وأهل السنة أو المعتزلة والمرجئة وهكذا .

١- الخلافة - الإمامة - عند أهل السنة وجمهور المسلمين :

حقيقة هذا المنصب أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين ، وسياسة الدنيا ، به تسمى خلافة ، وإمامة ، والقائم به خليفة و إماماً ، فأما تسميته إماما فتشبيهاً بإمامة الصلاة واتباعه والإقتداء به ، ولهذا يقال الإمامة الكبرى ، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته ، فيقال خليفة بإطلاق. وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختلف في تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالي ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ سورة البقرة (٣٠) وقوله تعالي ﴿ جعلكم خلائف الأرض .. ﴾ سورة الأنعام (١٦٥)

---

١ - للمزيد من التفاصيل - راجع دكتور محمد محمود أبو قحف - التصوف الإسلامي خصائصه ومذاهبه (مع دراسة ميدانية للطرق الصوفية) .
الباب الأخير (الحكومة الباطنية عند الصوفية) - ط المكتبة القومية بطنطا - ١٩٩٢ م .

ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه . وقد نهى أبو بكر رضى الله عنه عن ذلك لما دعا به ، وقال أبو بكر : لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ . ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا .

ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن صحابة رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى البيعة لأبي بكر رضي الله عنه ، وتسليم النظر إليه في أمورهم ، وكذا في كل عصر من بعد ذلك ، ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام ، وقد ذهب بعض الناس إلا أن مدرك وجوبه العقل ، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه ، وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم متفردين ، والتنازع لازدحام الأغراض ،، فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر ،، وانقطاعهم ، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية ... وهكذا لكن هذا الرأي فاسد لأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد ،،،،، وعلى ذلك فإن تنصيب الإمام يكون بوجوب الشرع أولاً بالعقل في عرف جمهور المسلمين وأهل السنة ، لذلك " فإن نصب الإمام وجوبه إنما هو بالشرع ، وهو الاجتماع الذي قدمناه " . [1]

وإذا تقرر أن هذا التنصيب واجب بإجماع فهو من فروض الكافة وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل ، فيتعين عليهم نصبه ، ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ سورة النساء آية (٥٩) .

وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي [2].

---

١ - ابن خلدون - المقدمة - صـ١٩١ ، صـ١٩٢ .
٢ - المصدر السابق - صـ١٩٣ .

ويضيف بعض العلماء بعض الشروط الأولية في الخلافة والإمامة وفيها أن تكون : اختيارية : وهي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها، ويشترط في هذا الشخص الذي يرشح لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة السابقة .[1]

وإما أن تكون قهرية : وهي التي نالها صاحبها بالغلبة والقوة ، ويرى الفقهاء انعقادها ، ولزوم الطاعة لصاحبها .

أما القرشية : فتعني النسب ـ والمراد بها أن يكون الخليفة من قبيلة قريش بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة على ذلك ، واحتجاج قريش على الأنصار ، لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة الأنصاري ، بقول الرسول ﷺ " الأئمة من قريش " . وبأن النبي أوصانا أن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ،ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحاجوا الأنصار ، فعدلوا عما هموا به من بيعة سعد بن عبادة ، وثبت في الصحيح أيضاً قول الرسول الكريم " لا يزل هذا الأمر في هذا الحي من قريش " ٠ و ثبت في الصحيح أيضا قول الرسول الكريم " الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة " .

وإن كانت هناك بعض الأحاديث التي اختلف بشأنها العلماء وأصحاب الفرق إلا أن الدلالة تنسحب على أن الإمامة منذ بدايتها أو الخلافة في قريش وقد نشر المهاجرون أحاديث كثيرة ، لكن القرآن الكريم لم يشر إلى قصر الخلافة في أسرة أو قبيلة معينة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ سورة الحجرات (١٣) ، وقال الرسول ﷺ " اسمعوا واتبعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة "[2] .

وقد ذهب بعض العلماء وأهل السنة إلى تفصيل الحديث عن كون تنصيب الخليفة أو الإمام واجباً وموقع الخلافة أو الإمامة من العقيدة ، فالجميع

١ـ دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ١ ـ صـ٤٣٩ ـ كذلك بدر الدين بن جماعة ـ تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ـ المجلة الألمانية عدد (٤) ـ ١٩٣٤ .
٢ـ المصدر السابق ـ صـ٤٤٠ ، صـ٤٤١ ، كذلك ابن خلدون ـ المقدمة ـ صـ١٩٤ كذلك صـ١٩٥ .

من أهل السنة يرون الوجوب شرعاً وإجماعاً وعقلاً ، لكنهم لا يرون في الإمامة أو الخلافة أصلاً دينياً عقائدياً ، يقول الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) " اعلم أن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد بحيث يفضي النظر فيها إلى قطع اليقين بالتعين " [١]

وقد قال جمهور أصحاب الحديث من الأشعرية وجماعة الشيعة وأكثر الخوارج يوجبوها ، فرضاً من الله تعالى ، ثم جماعة أهل السنة قالوا :هو فرض واجب على المسلمين إقامته ، واتباع المنصوب فرض واجب عليهم ، إذ لابد لكافتهم من إمام ينفذ أحكامهم ، ويقيم حدودهم ويحفظ بيضتهم ويعبئ جيوشهم ، ويقسم غنائمهم وصدقاتهم ، ويراعي في أمور الجُمع والأعياد ، وينصف المظلوم ، وينصب القضاة والولاة في كل ناحية ، .. إلخ [٢] يضاف إلى ذلك أن من مبادئ أهل السنة أن الإمامة - الخلافة لا تنعقد إلا لفرد واحد فقط ، لا يصلح انعقادها لاثنين كإمامة الصلاة .

ومما سبق يتضح لنا أن الخليفة هو رمز السلطة يتبوأ منصبه بناءاً على تعاقد منظم ، ويحدد علماء الدين الشروط التي يجب توافرها في المرشح لمنصب الخليفة أو الخلافة ، فلابد أن يكون حائزاً على خصال أخلاقية ، وعقلية ، وجسدية ، أو يكون من قريش ، ويكون تعيين الخليفة عن طريق الانتخاب [٣] كما أنها ليست من أصول الاعتقاد أو ركن الدين ، وقد تولاها أبو بكر باختيار المسلمين لتقدمه في الصلاة بأمر من الرسول ﷺ .

وحسبنا هذا القدر من تصور علماء السنة وجمهرة المسلمين لمنصب الخلافة والإمامة ووجوبها وشروطها ، وسوف نتناول في الفصل القادم وما يليه

---

١ الشهرستاني - نهاية الإقدام في علم الكلام - صـ٤٧٨ - تحقيق ألفرد جيوم - ط حديثة بدون تاريخ.
٢- المصدر السابق - صـ٤٧٨ .
٣- للمزيد - فريتس شتيبات - المسلم والسلطة (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً ..) - صـ١٦٥ - ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي - ط عالم المعرفة عدد إبريل ٢٠٠٤ م .

من فصول أخرى قصة الخلافة والإمامة وتطورها عند المذاهب الإسلامية ومواقف الخوارج والشيعة والفرق الأخرى في ذلك .[1]

٢- الخلافة - الإمامة - في مذاهب الشيعة :

إن الشيعة لغة : هم: الصَحْبُ والأتباع ، ويطلق في عرف الفقهاء ، والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وبنيه ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وإن علياً - رضى الله عنه - هو الذي عينه النبي ﷺ بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضي مذهبهم ، وأكثرها موضوع أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم .

ومن بين النصوص التي يحتج بها الشيعة على خلافة أو إمامة عليّ رضى الله عنه قول الرسول عليه السلام : " من كنت مولاه فعلي مولاه " قال الشيعة ولم تطرد هذه الولاية إلا في عليّ ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وكذلك قوله عليه السلام " أقضاكم عليّ " ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الأمر الواجبة طاعتهم في قوله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ سورة النساء (٥٩) والمراد الحكم والقضاء . ويدعي الشيعة أيضاً أن الرسول ﷺ بعث علياً لقراءة سورة براءة ، بعد أن بعث بها أبو بكر في موسم الحج ، .. وهكذا .[2]

---

١ - للمزيد من التفاصيل أنظر كذلك - الإمام الجويني (إمام الحرمين) كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد - صـ٤١٠ وما بعدها - تحقيق دكتور محمد يوسف موسى مكتبة الخانجي بمصر ١٩٥٠ م .

٢- للمزيد من التفاصيل - راجع ابن خلدون - المقدمة صـ١٩٧ ، كذلك كتابنا : محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - (الباب الأول) - ط القاهرة ٢٠٠٤ م .

هذه الأحاديث ، أو الأدلة التي يسيقها الشيعة للاستدلال على إمامة عليّ وغيرها . كلها أدلة شاهدة بتعيين عليّ للخلافة دون غيرة كذلك هناك نصوص أخرى تدل عندهم على انتقال الخلافة أو الإمامة إلى ذرية عليّ من بعده . كذلك يتبرأون من الشيخين أبي بكر وعمر حيث لم يقدموا علياً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص بل ويغمصون في إمامتهما .. وهكذا ، وإن كان بعض الشيعة من الزيدية لا يتبرأون من الشيخين بل ويقرون إمامتهما قائلين بمبدأ قريب من مبدأ أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين وهو " ولاية المفضول مع وجود الأفضل " [١] فولاية المفضول هذا المبدأ أقره الزيدية وأهل السنة ، بل وربما تأثر به بعض فرق الخوارج فيما بعد خاصة الإباضية الرستمية في إفريقيا والمغرب العربي كما سنرى فيما بعد .

وعلى ذلك فإن الشيعة بصفة عامة ، تؤكد على أن الخلافة ، الإمامة ، تكون في عليّ رضى الله عنه ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة ، وهم لا يحبذون فكرة الاختيار أو الانتخاب ، كما يجعلون للخليفة صفات دينية مقدسة ، وهو عندهم مستودع العلوم الشرعية والباطنية والروحية والإمام عندهم هو المنوط بتفسير أو تأويل النصوص الشرعية الكتاب والسنة . ولذلك لقبوا الخليفة بلقب الإمام . وله صفات القداسة والعصمة ، ولا يجوز عزله أو الثورة عليه ، لأنه يمثل ركن الدين ، الخلافة أو الإمامة ليست مصلحية بل ركن واجب بالدين. [٢] ويعلق بعض الباحثين المستشرقين المحدثين على عقيدة الشيعة في ذلك فيرى أن الشيعة تلتف حول الإمام الروحي الذي تجلله هالة من السحر والكرامة ، والذي يكون من سلالة الرسول الكريم ، كما أن الله وهبه العصمة. [٣]

ومما سبق يتضح أن الشيعة على اختلاف فرقهم غالوا في مسألة الإمامة أو الخلافة ، وقصروها على إمامة عليّ رضى الله عنه وذريته فقط ، وقالوا

---

١ - دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - (التشيع المعتدل) الباب الثالث .
٢ - دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - ج١ - صـ٤٤١ .
٣ - فريتس شتيبات - المسلم والسلطة (بحث منشور ضمن الإسلام شريكاً) - صـ١٦٦ .

بالنص والتعيين من قبل الرسول ﷺ ، وضمنوا العصمة المطلقة للأئمة وعدم جواز العزل أو الثورة .. وتأولوا النصوص على مذاهبهم بما يخالف مذاهب أهل السنة والجماعة والجمهور وكذلك مذاهب الخوارج والمعتزلة فيما بعد كما يؤمن الشيعة بنظرية الإمام المهدي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً ، ويقيم العدل ويحكم بالشريعة . (١)

٣- الخلافة - الإمامة- في مذاهب الخوارج والمعتزلة :-

الخوارج والمعتزلة على طرفي نقيض من مذاهب الشيعة في هذه المسألة ، وبعض المذاهب الأخرى . وإن كانا يتفقان في بعض الجوانب الخاصة بهذه المسألة مع مذاهب أهل السنة والسلف وأن اختلفا معهم في جوانب أخرى .

يذهب الخوارج على اختلاف فرقهم وفروعهم ، وبعض المعتزلة (٢) على الإقرار بصحة خلافة أو إمامة ، الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكذلك خلافة عثمان رضى الله عنه في السنوات الست الأولى من إمامته ، بينما ينكرون عليه السنوات الأخيرة لأسباب تفصيلية لا مجال لها في هذا التمهيد ونرجئ ذلك للفصول القادمة ، كذلك يقرون بصحة خلافة الإمام عليّ رضى الله عنه قبل قبوله مبدأ التحكيم ثم وظهور نتيجة التحكيم ، أما بعد عملية التحكيم فإنهم يكفرون الحكمين وعليّ رضى الله عنه ومن صار معه من شيعته .. لذلك فقد انضموا إلى عليّ في حربة للناكثين لعهده من أصحاب الجمل ، وكذلك معاوية وأصحاب صفين ، وبعد ذلك خرجوا على إمامته وحاربوه في النهروان واعتلوا خلعه ومبايعته لواحد منهم هو عبد الله بن وهب الراسبي " كإمام عليهم وبعد ذلك تفرقوا أحزاباً وفروعاً يقاتل بعضهم البعض الآخر .

ويعتقد الخوارج ومعهم بعض المعتزلة ، : أن الخلافة حق لكل عربي حر ثم اشترطوا الإسلام والعروبة بعد ذلك بدلاً من العروبة والحرية ، ولا سيما حين أنضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين والموالي من غير العرب ، لذلك

---

١ - راجع دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام - ط دار الأنصار - ١٩٧٧ م .
٢ - راجع - الشهرستاني - الملل والنحل - ج١ - (الخوارج والمعتزلة) ط١ الحلبي ١٩٦٨ م .

قالوا بحق الخلافة أو الإمامة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار أو الأرقاء على السواء ، وخالفوا بذلك آراء الشيعة الذين يقصرون الخلافة أو الإمامة في آل البيت النبوي وعليّ ابن أبي طالب بصفة خاصة ، مستندين في ذلك للنصوص القرآنية وبعض الأحاديث النبوية من ذلك قول الرسول عليه السلام " اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن في رأسه زبيبة". (١)

يضاف إلى ذلك أن الخوارج وبعض المعتزلة ، لم يروا وجوب تنصيب الإمام أو الخليفة . مخالفين بذلك آراء أهل السنة وجمهرة المسلمين وكذلك الشيعة . يقول ابن خلدون " وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع . منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم ، والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم للشرع . فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ، ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع (٢).

ويشير الشهرستاني (٥٤٨ هـ) - إلى بعض فرق الخوارج الذين قالوا بهذا الرأي منهم وهم النجدات من الخوارج وجماعة من القدرية (٣) وإن كان بعض الخوارج والمعتزلة من جهة أخرى قالوا بوجوب تنصيب الإمام عقلاً أو شرعاً . (٤)

ومن الجدير بالذكر أننا سوف نلاحظ فيما بعد ، وخلال تطور فكر الخوارج وعقائدهم السياسية والدينية في العصور المتأخرة - كيف أنهم يميلون إلى الأخذ بمذاهب بني أمية والعباسيين أو الشيعة في مسألة " توريث الإمامة " إما بانتقالها بالوصية - أو بالنص عليها بعد عقد اختيار صوري ، لأحد الأبناء أو للأخوات - بالإضافة إلى الأخذ بمبدأ الزيدية في ولاية المفضول . (٥)

١- دكتور - حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - ج١ - صـ٤٤١ .
٢- ابن خلدون - المقدمة - صـ١٩٢ .
٣ - الشهرستاني - نهاية الإقدام في علم الكلام - صـ٤٨١ .
٤- المصدر السابق - صـ٤٧٨ . كذلك راجع الإمام الجويني - كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة - (باب الإمامة) - صـ٤١٠ .
٥- هذا سوف يحدث في تطور مذاهب الخوارج الأباضية والصفرية أو الرستمية في شمال إفريقيا وبلاد المغرب (أنظر الفصول القادمة) .

ويرى بعض الباحثين الغربيين المحدثين ، أن مذهب الخوارج كان يعتمد أو يشير إلى أهمية الجماعة ـ السياسية ـ فالجماعة عندهم كانت أهم من الإمام ، وإن الجماعة هي حاملة السحر والكرامة والجلال والعصمة ، وهناك فريق من الخوارج الذين لا يرون أي ضرورة على الإطلاق في وجود خليفة ، كما إنهم يتفقون جميعاً في أن الانتماء لقريش ليس شرطاً لازماً للتعيين في منصب الإمام أو الخليفة ، وقد أجاز الخوارج خلال تطورهم إمكان وجود إمامين في وقت واحد في مكانين متجاورين بالمشرق وبالمغرب على سبيل المثال . كذلك من مبادئ الخوارج هو الثورة والخروج على الإمام الجائر أو الخليفة الظالم ، وهذا ليس حق بل واجب أيضاً ، وهو حتمي على الجماعة بل يصل الحد عندهم إلى المطالبة بإعدامه أو قتله [١]

ولدينا صوراً ومشاهداً كثيرة ومتنوعة وفظيعة عن الحروب والقتال الذي حدث بين الخوارج وبين دار الخلافة الأموية والعباسية ، وقد اتفق هؤلاء مع أولئك من الشيعة على مقاومة الخلفاء ومعاداة حكام بني أمية وبني العباس وولاتهم ، مما أدى إلى انقسامات مستمرة وحروب طائلة استهلكت طاقة الأمة العربية والإسلامية على مر العصور .

٤ـ المرجئة وموقفهم من الخلافة والإمامة :

المرجئة فرقة تخالف مقالات الخوارج والمعتزلة والشيعة في أصولهم ومذاهبهم حيث أنهم يرجئون الحكم على مرتكب الذنب ، أو الكبيرة إلى الله عز وجل أو الآخرة . حيث أقروا أيضاً مبدأ التسامح الشامل : وقالوا : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. [٢]

إذن فإن الفكرة الأساسية لهذه الفرقة ، هي أن المسلم لا يمكن أن يفقد إيمانه بسبب وقوعه في الإثم ، وأن الحكم على الخارج على الجماعة الإسلامية

١ ـ فريتس شتيبات ـ المسلم والسلطة ـ (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) صـ١٦٦ ـ صـ١٦٧ . كذلك للمزيد والتوثيق في هذا المجال ـ البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ (الخوارج) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار التراث .

٢ ـ للمزيد : راجع الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ ج١ (المرجئة) .

ينبغي أن يؤجل إلى يوم الدين ، وهكذا يبقى الحاكم مسلماً حتى وإن ارتكب الكبائر ، كما تبقى الجماعة مدينة له بالطاعة. [1]

وعلى ذلك فقد رضي المرجئة بحكم بني أمية مخالفين في ذلك الخوارج والشيعة ، فعقيدتهم الأصولية كما ترى عدم تكفير أي إنسان يعتقد أو يعتنق الإسلام كدين ، أو نطق بالشهادتين ، مهما ارتكب من المعاصي ويختلفون في ذلك أيضاً مع المعتزلة أو القدرية الذين قالوا : أن الإمامة لها شروط معينة ، وتتم بالاختيار أو البيعة من الأمة [2] .

وعلى كل حال فإن المرجئة - دون الدخول في التفاصيل - ظهروا بآراء كلامية [3] تؤيد خلافة الأمويين ، وتبرر الطاعة والإخلاص للخلفاء تبريراً دينياً .

ومما لا شك أن دراسة تاريخ الحركات السياسية الإسلامية تكشف لنا عن تلك الصراعات المريرة التي خاضتها جميع الأطراف تكشف لنا عن مدى اهتمام المؤمنين بمشكلة شرعية السلطة ، وقد لعبت هذه المشكلة دوراً أساسياً في الحفز على الشروع في المناقشات الدينية ، وبذل الجهود المضنية في صياغة العقيدة الإسلامية .

وإذا كان العلماء قد بدءوا في ذلك الوقت في جمع الحديث النبوي الذي سيصبح مصدراً أساسياً لعلوم الدين والشريعة ، فقد كانت المواقف المختلفة في الصراعات السياسية عاملاً حاسماً في ذلك .

---

١ - فريتس شتيبات - المسلم والسلطة - (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) صـ١٦٩ - كذلك - الشهرستاني نهاية الإقدام في علم الكلام صـ٤٧١ .
٢ - دكتور : حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي ج١ - صـ٤٤١ .
٣ - راجع ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٣ - صـ٢٥ ، ط القاهرة ١٣٠٢ هجرياً .

الفصل الأول

الخلافة بعد النبي ﷺ
وحتى الإمام عليّ كرم الله وجهه

" الفصل الأول "

الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وحتى الإمام عليّ كرم الله وجهه

أولاً : وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :-

ذهب النبي محمد رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى مكة ، في حجة الوداع الأخيرة ، وحوله مائة ألف من المسلمين أو يزيد ، في السنة العاشرة للهجرة ، وقد أتوا من كل صوب وحدب لأداء فريضة الإسلام الخامسة بصحبة نبيهم الكريم ، واستمعوا إلى خطبة النبي ﷺ حينما صعد بهم إلى جبل عرفات، وهم يستمعون إلى كلمات الوحي الأخيرة ، والتي تعلن تمام الرسالة السماوية الأخيرة بكلمات الله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾سورة المائدة (٣) وأعلن النبي ﷺ في خطبته الخالدة (١) دستوراً للمسلمين وسار الناس يرددون معه أو بعده كلماته الخالدة الواضحة " أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، أيها الناس : اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً "

" أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا " " وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت " " فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها " ، " وأن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون " (٢)

---

١ للمزيد عن خطبة الوداع ـ ابن هشام (محمد عبد الملك) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (سيرة ابن هشام) جـ٤ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ . ط دار التحرير القاهرة .

٢ البخاري ـ صحيح البخاري ـ ج٣ ـ صـ٨٤ ط الحلبي بدون تاريخ .

" أيها الناس : إن الشيطان قد يأس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم "

" أيها الناس : إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله " .

" وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد الذي بين جمادى " .

أما بعد .. أيها الناس.. " فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان (أسرى) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله " .

" فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنة رسوله " .

أيها الناس " اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُن أنفسكم " " اللهم هل بلغت " .. ردد الناس من خلفه ومن حوله ﷺ " نعم " فقال الرسول الكريم " اللهم فاشهد " [1]

بهذه الكلمات النبوية الشريفة ، أو بهذه العبارات الكريمة ، أوضح النبي الكريم للمسلمين دستور دينهم ، ومنار حياتهم ، حتى إذا نزل عن ناقته القصواء

---

١ دكتور محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - صـ٤٩١ - صـ٤٩٣ - ط دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م . كذلك راجع : البخاري – الصحيح – جـ٣ – صـ ٨٤- ط الحلبي – القاهرة بدون تاريخ .

- بعرفات - وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها حتى الصخران ، أعلن للمسلمين يوم الحج الأكبر ، اكتمال الدين الأخير ، وطي صفحة السماوات العلا ، عن الوحي الإلهي - بكلمات الله العزيز الحكيم ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ سورة المائدة (٣) ، وبهذا اكتملت الرسالات السماوية ، والبعثات والنبوءات الإلهية .

فلما سمع أبو بكر الصديق ما سمع من النبي ﷺ ، بكى حتى دمعت عيناه وأجهش بالبكاء ، إذ أحس أن النبي الكريم وقد تمت رسالته قد دنى أجله الذي سوف يلقى فيه ربه العزيز الكريم .

كان من خصائص النبي الكريم وصفاته التي منحها الله تعالى إياه ، دقة النظر ، وحنكة سياسية ، وفراسة للمستقبل ، فلم يمض على عودة النبي الكريم ثلاثة أشهر من حجة الوداع حتى شعر بألم المرض يأتيه بين الحين والآخر ، فأيقن أنه مودع الحياة الدنيا - إلى ربه الأعلى ، وكان يشغله حال المسلمين من بعده ، وبصفة خاصة بعدما شهد ، وتحقق من ثبات الدعوة الإسلامية ، وانتشارها في ربوع الجزيرة العربية وما سوف تؤول إليه الأمور بعد ذلك ، ودخل الناس أفواجاً واستظلوا بظل الإسلام ، وأحرز الإسلام بقيادته انتصارات فائقة ، وبمباركة السماوات العلا يقول تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ سورة النصر آيات (١ ، ٢ ، ٣) .

ولكثرة ما كان يقلق النبي ﷺ أحوال المسلمين وما سوف يؤول إليه أحوالهم من بعده ، كانت تصدر منه إشارات ولمحات ، وكأنها تنبيه للمستقبل ، وما يصير عليه أحوالهم من انتشار الفتن، والدسائس ، وتكالبهم على الدنيا وملذاتها ولذلك روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه " أن أبا مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال : أرسل إلي رسول الله ﷺ في جوف الليل فقال " يا أبا مويهبة : إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي ، فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر - ليهن عليكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه " أقبلت الفتن ، كقطع الليل المظلم ، يتبع

آخرها أولها ، الآخرة شرّ من الأولى " . ثم أخبر النبي ﷺ - أن الله تعالى خيره بين الدنيا والخلد فيها والجنة ، وإنه عليه السلام اختار الجنة ولقاء ربه (١).

مرض النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وآله ، بالحُمى ، واشتد به المرض حتى ليكاد يغمى عليه ولا يدري ما يدور حوله وهو في بيت زوجاته ، فإذا حضر وقت الصلاة نادى أبا بكر ليؤم الناس إلى الصلاة ، وقد غضب النبي الكريم ذات مرة حينما سمع عمر بن الخطاب ينادي بصوت جهوري على الناس بالصلاة ، فسأل النبي ﷺ عن أبي بكر ؟ وأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ..! (٢)

وكان الرسول الكريم قبل أن يشتد به مرض الوفاة ، قد أوصى لأسامة بن زيد بإمارة الجيوش أو تجهيز حملة تحت إمارته لغزو الروم على تخوم الجزيرة العربية - وأن تطأ خيل المسلمين دورهم بفلسطين ، لكن بعض الصحابة والناس ، كانوا يتساءلون في ذلك وبصفة خاصة ، في وجود كبار الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب كان تحت إمارة زيد .

فلما سمع النبي عليه السلام ، وتنبه إلى كل ما يدور من ذلك حوله والهمس من بعض المسلمين ! استمع إليهم ، ونهض ليحدد للمسلمين معالم الطريق ، ولا يلقى ربه دون ذلك خوفاً عليهم من الفتنة التي قد تعصف بهم بعد أن هداهم الله إلى دينه المستقيم .

ونقتطف بعض ما ورد في كتب السير والتواريخ عن حالة النبي ﷺ ، وما دار بخلده وما فعله قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بأيام قلائل .

وحين اشتد بالرسول الكريم وجع المرض ، وزادت الحمى عليه ، وكان يريد الخروج من المسجد للصلاة ومخاطبة أصحابه قال لأزواجه وأهله " هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم " فجيء بالماء من آبار مختلفة ، وأقعده أزواجه في مخضب(الطست) لحفصة

---

١ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة جـ ١٣ صـ٢٧ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار إحياء الكتاب العربي . ١٩٦٤ ، كذلك الطبري (محمد بن جرير) - تاريخ الطبري - جـ١ - صـ ١٧٨٠ - ط دار المعارف عام ١٩٦٢ م .

٢ دكتور - محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - صـ٥٠١ .

بنت عمر ، وصببن عليه الماء حتى طفق يقول : بيده ، حسبكم حسبكم " [١] ولبس ثيابه ، وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر ، وحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ، ثم قال " أيها الناس أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لإن قلتم في إمارته ، فقد قلتم في إمارة أبيه من قبل وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها " وسكت محمد ﷺ هنيهة خيم الصمت على الناس أثناءها ، ثم عاد الرسول الكريم إلى الحديث فقال " إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله " ثم سكت ، إلا أن أبا بكر أدرك أن النبي ﷺ إنما يعني نفسه فبكى حتى أجهش بالبكاء ، فنادى عليه الرسول الكريم : " على رسلك يا أبا بكر ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر فلما أقفلت قال الرسول الكريم " إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً ، وإني لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده " ، وبعد أن نزل عن المنبر التفت للناس وقال " يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً .. فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم " . [٢]

وبهذه العبارات يوضح الرسول الكريم أصول الطريق واستقامته من بعده ، فيشير إلى أصحابه بقفل جميع الأبواب فيما عدا باب أبي بكر ! ويعلن خلته وحسن صحبته له ، ثم يوصي خيراً بالأنصار ، وإحساناً لمسيئهم ، لتقدم المهاجرين عليهم بالفضل وسبق الإسلام ووأد الفتن في مهدها ، بإنفاذ جيش أسامة لمحاربة الروم وإمارته كما أمر .

وفوق كل ذلك اجتماع كلمة المسلمين على رأي واحد .. وهذا ما لم يتبعوه فيما بعد !

ومما يزيد الأمر وضوحاً ، ما ورد في كتب السيرة والتاريخ من إشارات من النبي الكريم لأبي بكر بالإمامة في الصلاة ؛ تمهيداً لخلافته في أمته من بعده

---

١ الطبري - تاريخ الطبري - ج١ - صـ١٨٠ - ١٨١ .
٢ محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - صـ٥٠١ .

! رأباً للصدع ووأداً للفتن في مهدها ، قبل أن تستفحل ، وينال مروجوها أغراضهم .

روى الأرقم بن شرحبيل قال " سألت ابن عباس رحمه الله ، هل أوصى رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ، قلت فكيف كان ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال في مرضه " ابعثوا إلي عليّ فادعوه ، فقالت عائشة : لو بعثت إلى أبي بكر ، وقالت حفصة لو بعثت إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً ، قال ابن عباس رضي الله عنه : فقال الرسول ﷺ ﴿ انصرفوا ، فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم ﴾ فانصرفوا ، وقيل لرسول الله الكريم ! الصلاة فقال : ﴿ مروا أبا بكر أن يصلي بالناس ﴾ فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق ، فمر عمر ، فقال : مروا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد ، فتقدم أبو بكر ، ووجد الرسول عليه السلام لديه خفة ، فخرج للصلاة ، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر ، فجذب الرسول ﷺ ثوبه ، فأقامه مكانه وقعد الرسول عليه السلام فقرا من حيث انتهى أبو بكر " [(١)]

هذه الرواية على زياداتها ، أو نقصها - إن دلت على شيء ، فإنما تدل على حرص الرسول عليه السلام على إمامة الصلاة ، وفيها إمامة المسلمين كافة ، وليكن ذلك خصية أو خصلة من خصيات أو خصال رفيقه وصديقه سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من بعده.

ومما يزيد الأمر وضوحاً ، فيما تناقلته الروايات والأحاديث على ألسنة أصحابه الكبار ، أن الرسول الكريم ، هم أن يكتب للمسلمين بحيث لا يضلون بعده ! لكن حدث نزاع بينهم بين يديه وهو مريض فلم يستطيع .

قال أبو جعفر الطبري ، وروى سعيد بن جبير قال ، كان ابن عباس - رحمه الله - يقول : يوم الخميس وما يوم الخميس ، ثم يبكي حتى تبلل دموعه الحصباء ، فقلنا له : وما يوم الخميس ؟ قال : يوم اشتد برسول الله ﷺ وجعه ،

---

١ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة ج١٣ - صـ٣٣ . كذلك الطبري - تاريخ الطبري - ج١ - صـ ١١٨١ - صـ١٨١٢ .

فقال " ائتوني باللوح والدواة أو قال بالكتف والدواة أكتب لكم ما لا تضلون بعدي ﴿ فتنازعوا ، فقال ﷺ اخرجوا ، ولا ينبغي عترتي أن يتنازع .. ﴾ [١]

وفي بعض الروايات أن قال بعض الحاضرين أن رسول الله ﷺ قد بلغه الوجع ، وعندكم القرآن ، وحسبنا كتاب الله ، ويذكر أن عمر بن الخطاب هو الذي قال هذه المقالة ، ولكن ابن عباس رأى أن المسلمين أضاعوا شيئاً كثيراً ، بان لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملاءه [٢] .

دنا أجل الرسول الكريم ، ولم يتبق من عمره في الحياة إلا ساعات قليلة ، ترى ماذا كان يفعل؟

روى القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن عائشة قالت رأيت رسول الله ﷺ يموت وعنده قدح فيه ماء يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ، ويقول " اللهم إني على سكرة الموت " ، وروى عروة عن عائشة قالت : اضطجع رسول الله ﷺ يوم موته في حجري ، فدخل عليّ رجل من آل أبي بكر وفي يده مسواك أخضر ، فنظر الرسول الكريم إليه نظراً عرفت أنه يريده فقلت له : أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ فقال النبي الكريم : نعم ، فأخذته فمضغته حتى ألنته ، ثم أعطيته إياه فاستن به ثم وضعه ، ووجدت الرسول ﷺ يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شخص وهو يقول : " بل الرفيق الأعلى في الجنة " فقلت خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق ، وقبض رسول الله ﷺ. [٣]

وقد وقع الاتفاق على أن وفاته عليه السلام يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، وقيل لاثنتي عشرة خلت من الشهر ، ولكن اختلف في تجهيزه عليه السلام فقيل يوم الثلاثاء - الغد من وفاته ، وقيل إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام - يوم الأربعاء - إذ اشتغل القوم عنه بأمر البيعة [٤] ، وأعتقد أن هذه المقولة الأخيرة مبالغ فيها ، وربما راجت بين أوساط الشيعة - لما تحمله من مغزى

---

١ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - ج١٣ - صـ٣١ - الطبري - تاريخ الطبري - ج١ - صـ ١٨٠٦ .
٢ محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - صـ٥٠٣ .
٣ ابن أبي الحديد - ج١٣ - نهج البلاغة - الطبري - تاريخ الطبري - ج١ - صـ١٨١٤ .
٤ المصدر السابق - صـ٣٥ - والطبري - ج١ - صـ١٨١٥ .

تكالب كبار الصحابة وأبو بكر وعمر - بصفة خاصة - على البيعة والخلافة دون الإمام علي كرم الله وجهه .

إذ الصحيح أن أبا بكر رضي الله عنه حين علم بوفاة النبي ﷺ - أتى من " السُنح " وهي ضاحية بجوار المدينة بها زوجته - وقد بلغه الخبر الفادح ، وبصر بالمسلمين وبعمر بن الخطاب يخطب فيهم ، فلم يقف طويلاً ، ولم يلتفت إلى شيء ، فقصد إلى بيت عائشة ، فاستأذن فدخل حجرة النبي ﷺ ، فألفى النبي عليه السلام مسجّى في ناحية من البيت عليه بُرد حيرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم قبله وقال : " ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً " ، بأبي أنت وأمي ، ثم أعاد البرد على وجه النبي عليه السلام مرة أخرى . وخرج يخطب الناس " وعمر بن الخطاب ما زال يكلم الناس ويقنعهم بأن محمداً ﷺ لم يمت ولكنه غاب عنا كما غاب موسى (عليه السلام) عن قومه ، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات " [1] فجاء أبو بكر فارتقى المنبر فقال :" بعد أن حمد الله وأثنى عليه .. أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لم يمت " ثم تلى قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم،ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ سورة آل عمران آية(١٤٤) [2] فلما سمع عمر بن الخطاب - مقولة أبي بكر ، والآية القرآنية - خر إلى الأرض. وصدق بوفاة النبي الكريم .

وتشير المصادر - إلى أن الصحابة تركوا أمر تجهيز دفن الرسول الكريم - لأهل بيته " الأدنى فالأدنى " - لروايات وآثار نبوية شريفة وردت في هذا المجال [3] وكان من هؤلاء الذين تولوا غسله وتكفينه ودفنه ﷺ - فيما تشير أكثر المصادر وثوقاً من ذلك : علي بن أبي طالب - والعباس بن عبد المطلب -

---

١ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - ج١ - صـ١٧٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط الحلبي - ١٩٦٤ م .

٢ المصدر السابق - صـ١٧٩ ، كذلك محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - صـ ٥٠٧ - صـ٥٠٨ .

٣ المزيد من الدراسة والبحث - راجع الطبري - تاريخ الطبري ج١ - صـ١٨٠٦ وما بعدها - كذلك نهج البلاغة - ج١٣ صـ٣٠ .

والفضل بن العباس ، وقُثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى الرسول الكريم ، وأوس بن خولى - من الخزرج والأنصار وهكذا [1]

وفي هذه الأثناء - اجتمع كبار الصحابة - بالسقيفة مع الحاضرين من المهاجرين والأنصار - للنظر في أمرهم من بعد وفاة نبيهم الرسول الكريم عليه السلام .

ذهب النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهو عن صحابتهَ راض ، وبعد أن وطّد أركان دعوته في نفوسهم ، ووثق عرى الإيمان في قلوبهم واطمأن على شمول الدعوة الإسلامية في جميع أرجاء الجزيرة العربية وحدودها الشمالية والجنوبية والشرقية وترك فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبداً ، كتاب الله ، وسنة رسوله عليه السلام ، وغرس في نفوسهم خصائص وصفات جمعت بين القاصي والداني ، فقد كان النبي الكريم يمتاز بالكثير من الصفات والخصائص التي أثمرت في نفوسهم منذ الرعيل الأول ولنذكر منها طرفاً في هذا الصدد - وقبل أن ننتقل إلى الموضوع التالي لما لذلك من دواعي الإصلاح الديني والسياسي للأمة الإسلامية بأثرها .

كان الرسول ﷺ حكيماً ذا رأي صائب ، وفكر ثاقب وقد بدت مهارته السياسية في التأليف بين أهل المدينة وهم ، الأوس والخزرج ، كما ظهر ذلك واضحاً وجلياً في تصرفاته التي كان يصدرها على البديهة ويخرج بها من أشد المآزق حرجاً ، مثال بسيط ومختصر على ذلك . حين رفض ﷺ - ما أشار عليه عمر بن الخطاب من قتل (أبي بن سلول) رأس الكفر والنفاق في المدينة ، وكذلك ترفقه عليه السلام بابنه (عبد الله بن أبي بن سلول) ومنعه من قتل أبيه أبي بن سلول - حتى لا تصير فتنة بين أهل المدينة والمسلمين في حينه أو فيما بعد ، كما ظهر ذلك أيضاً في انتفاع الرسول الكريم بحسن صلة (نعيم بن مسعود) - الذي أسلم وحسن إسلامه- بكل من بني قريظة وقريش وغطفان - في الإيقاع بينهم وتخذيلهم بعضهم عن بعض - حتى أذن الله تعالى وأزال عن المدينة خطراً داهماً في موقعة (الأحزاب - الخندق) - فالحرب خدعة ، كان النبي ﷺ -

---

١ ابن أبي الحديد - نهج البلاغة ج١٣ - صـ٣٧ - صـ٣٨ .

في مكة - والمدينة - واضح الهدف - متعدد الوسيلة - راجح العقل - حسن السياسة .

يضاف إلى ما سبق - من حسن الخصال - وحسن السياسة - وتمام الشمائل أن الرسول عليه السلام كان يتمتع بنفس سمحة - تحب الخير ، وتميل إلى العفو - لا تنزع نفسه إلى شهوة الثأر أو الانتقام . يعرف قيمة العفو عند المقدرة - حين يستطيع - وحين يقدر . في سبيل الوصول إلى قيمة أعلى - وهدف أسمى وأعظم - ألا وهو التأليف بين القلوب - وإعلاء الفضيلة - ونشر الدعوة وتأصيل مبادئ الإسلام في الأفئدة - تجلى ذلك بعضه أو معظمه في أمثلة كثيرة نختصر منها : عفو الرسول الكريم عن " وحشي الحبشي " مولى مطعم بن جبير الذي قتل عمه " حمزة بن عبد المطلب " في غزوة أحد ، وعفوه عن (هند بنت عتبة) زوجة أبي سفيان بن حرب ، والتي بقرت بطن عمه حمزة بن عبد المطلب حين قتل وأخذت كبده ولاكته في فمها ، وعفوه عليه السلام عن " مالك بن عوف " صاحب هوزان - الذي قتل المسلمين - وخدعهم في عماية الصبح . [1]

كان ﷺ قنوعاً ، صبوراً ، وما عاب الرسول الكريم طعاماً قط ، قال ابن مسعود : دخلت على الرسول ﷺ ، وقد نام على حصير ، وقد أثر في جنبه - فقلت يا رسول الله - لو اتخذت لك وطاءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه فقال : مالي وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها . [2]

لم يكن أحرص من الرسول الكريم على حسن معاملة أصحابه حتى أنه كان يكني عن الشخص الذي يريد تنبيهه إلى خطأ لكي لا يحقر بين الأقران .

روي عنه ﷺ : أنه ما لعن مسلماً قط ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يضرب بها في سبيل الله ولا يألو جهداً في أن يضرب لأصحابه المثل وينأى بهم عن مزالق الطمع - روي أن حكيم بن خزام قال : سألت رسول ﷺ فأعطاني ،

---

١ دكتور / حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) - ج١ - صـ١٥٣ - صـ١٥٤ ، ط - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٩ م .

٢ البخاري - صحيح البخاري (على هامش بن حجر العسقلاني) ج٦ صـ١٣٢ . ط الأميرية ١٣١٤ هجرياً .

ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : " يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإسراف (طمع) نفس لم يبارك لـه فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى " [١]

ومن الخصال - الحميدة والصفات الجميلة - التي كان الرسول الكريم يبديها لأصحابه - ليتأسوا بها من بعده - كذلك ..

أنه عليه الصلاة والسلام - كان أشد الناس حياءً ، لا يحدث أحداً بما يكره ، قالت عائشة رضى الله عنها - كان النبي ﷺ : إذا بلغه عن أحد ما يكره لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن ما بال قوم يصنعون أو يقولون كذا . وروى أنه عليه السلام كان لا يثبت بصره في وجه أحد .

أما شفقة الرسول الكريم - ورأفته - ورحمته - فقد وصفها القرآن الكريم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ سورة التوبة آية (١٢٨) .

روى أن إعرابيا جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئاً ، فأعطاه ثم قال :أحسنت إليك يا أعرابي ؟ قال : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول الكريم أن يكفوا ، ثم قام الرسول الكريم ودخل داره وأرسل إلى الأعرابي فزاده شيئاً ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له الرسول الكريم : إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شئ ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك ، فما كان العشي ، جاء الأعرابي . فقال الرسول : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك . قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، وروى عنه ﷺ أنه قال : " لا يبلغني أحد

---

١ المصدر السابق - (كتاب الزكاة) باب الاستعفاف عن المسألة ج٢ - صـ١٣٢ - مطابع الأميرية ١٣١٤ هجرياً

منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . " [١]

هذه بعض من خصال النبي الكريم عليه السلام - التي تركها لأصحابه وللمسلمين من بعد وفاته - ولم يتركهم إلا بعد أن غرس فيهم كل خصال الخير والحب والعدل والمساواة - وحسن الكياسة والسياسة والتآلف ترى ! هل كان أبو بكر على حق - حين دخل على النبي ﷺ وهو مسجى وكشف عن وجهه الكريم وقبله بين عينيه في جبهته الشريفة وهو يقول " فداك أبي وأمي يا رسول الله ، ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً " .

بل ونستطيع أن نردد مع ما ذهب إليه المستشرق " ميور : Muir أن ﷺ : امتاز بوضوح تعاليمه وكلامه ويسر دينه أو عقيدته ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، مثل النبي محمد " [٢]

ثانياً :خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (١١ - ١٣هـ - ٦٣٢- ٦٣٤م)

كان أول خلاف حدث بعد وفاة النبي ﷺ حول مسألتين رئيسيتين :

أولهما تتعلق بوفاة النبي ﷺ ودفنه - وما يتعلق بذلك من أمور مكملة للوفاة والدفن وأساليبه .. " فاعلم أن المسلمين وقت النبي عليه السلام وبعد وفاته كانوا على طريقة واحدة . بمعنى لم يكن بينهم خلاف ظاهر . ومن كان بينهم من المخالفين المنافقين ، ما كان يتمكن من إظهار ما كان يستره من أخباره . فكان أول ما ظهر بين المسلمين اختلاف بعضهم في وفاته ﷺ - حتى قال قوم [٣] منهم أنه لم يمت ولكنه رفع كما رفع عيسى بن مريم ، وارتفع هذا الخلاف ببركات

---

١ دكتور - حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - ج١ - صـ١٥٦ - كذلك شرح صحيح البخاري - ج٣ - ٢١٥ .

٢ Muir , Sir William Temple , The life of Mohammed , Edinburg , ١٩٢٣ , ٥٢٣ , ٥٢٨ .

٣ كان من بين هؤلاء الذين لم يصدقوا بوفاة الرسول الكريم عمر بن الخطاب - إذ أقسم أن يقتل من يدعي ذلك .

أبي بكر الصديق رضي الله عنه [1] حين صعد المنبر وخطب خطبته ، وتلا على المسلمين قوله تعالى ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ سورة الزمر آية (٣) .

ثم قال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت " فسكنت النفوس ، واطمأنت القلوب وأذعنت له الرقاب ، واعترفت الكافة بما ظهر من الأمر ، وزال الخلاف [2]

ويتعلق بذلك غسل الرسول الكريم وتكفينه وموضع دفنه ـ قال أبو جعفر روت عائشة أنهم اختلفوا في غسله : هل يجرد أم لا ؟ حتى ألقى الله عليهم السنة (النوم) ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت ـ لا يدرى من هو ، غسلوا النبي وعليه ثيابه ، فقاموا إليه فغسلوه ، وعليه قميصه [3]

ويتبع هذه المسألة ـ موضع دفن الرسول الكريم : قال قوم يدفن بمكة لأنها مولده ، وبها قبلته ، وبها مشاعر الحج ، وبها نزل الوحي ، وبها قبر جده إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقال آخرون ينقل إلى بيت المقدس فإن به تربة الأنبياء ومشاهدهم ، وقال أهل المدينة ، أنه يدفن في المدينة لأنها موضع هجرته ، وأهلها أهل نصرته ، وقال قائل ندفنه في مسجده ، وقال آخر ندفنه في البقيع مع أصحابه ، فقال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول " ما قبض نبي إلا ودفن حيث قبض " فرفع فراش الرسول الكريم الذي توفي فيه ، فحفر تحته ودفن " [4] ومما لا شك أن هذا الرأي وهذا الحديث مما يحسب لأبي بكر ويرجح أفضليته بين كبار الصحابة

---

١ أبو بكر الصديق : هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان التيمي القرشي أول الخلفاء الراشدين ـ ولد بمكة ونشأ سيداً من سادات قريش ـ وبويع بالخلافة بعد وفاة الرسول عليه السلام عام ١١ هجرياً وحارب المرتدين ـ وفتحت أيامه الشام وبعض العراق ـ ولد سنه ٥١ قبل الهجرة وتوفى عام ١٣ هجرية .

٢ الأسفراييني ـ أبي المظفر ـ التبصير في الدين (وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين ـ صـ ١٢ ـ تحقيق محمد بن زاهر الكوثري ـ ط الأنوار ١٩٤٠ .

٣ ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ١٣ ـ صـ٢٨ .

٤ الأسفراييني ـ التبصير في الدين ـ صـ١٢ ـ كذلك الطبري ـ تاريخ الطبري ـ جـ١ ـ صـ١٨٣٢ ، ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ١٣ ـ صـ ٣٤ ، ورد الحديث [دفن الرسول الكريم ـ البخاري والموطأ وطبقات ابن سعد]

أما المسألة الثانية : فكانت أكثر دقة وحساسية ، إذ تتعلق بأمر الخلافة أو الإمامة . وهذه قضية مصلحية تتعلق بمصلحة الأمة ، وصلاحها في أمور السياسة والحكم والشرع كذلك ، نيابة عن النبي ﷺ - أو بمعنى آخر فيها صلاح الناس في الدنيا والآخرة ، أو في الدنيا والدين - يقول ابن خلدون (٨٠٨هـ) والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به . (١)

وفي موضع آخر يضيف ابن خلدون " وإذ قد بينا هذا المنصب وإنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى :" خلافة " وإمامة - والقائم به " خليفة " وإماماً (٢) فأما تسميته إماماً ، فتشبيهاً بإمام الصلاة - في اتباعه والاقتداء به ، ولهذا يقال " الإمامة الكبرى " ، وأما تسميته " خليفة " فلكونه يخلف النبي في أمته ، فيكون الخليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله .

واختلف في تسميته " خليفة الله " فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة ، التي للآدميين في قوله تعالى ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ سورة البقرة آية (٣٠) . وقوله تعالى ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ سورة الأنعام (١٦٥) . ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه ، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال : لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ ، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا " (٣)

ونظراً لما لهذا المنصب ، أو لهذه المسألة من الأهمية الكبيرة في حياة الأمة بعد وفاة النبي عليه السلام . ولما لها من خطرها وجللها ، فإن نصب

---

١ - ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة - صـ١٩١ - ط دار القلم بيروت سنة ١٩٨٤ / ١
٢ - إمام من أمة : أم معناها الرئيس - وكل شخص أو شيء يتخذ دليلاً أو قدوة (ابن منظور - لسان العرب - ج١٤ - صـ٢٩١) ويرد في القرآن بمعنى المثل والدليل والقدوة (سورة البقرة آية ١١٨) وسورة الحجر آية (٧٩) . تطلق هذه الكلمة على الرجل الذي يصلي بالناس - وكان الإمام أول الأمر عند المسلمين هو النبي ﷺ أو من ينيبه عنه في غيبته وبعد وفاته حل محله في الإمامة الخلفاء " دائرة المعارف الإسلامية - مجلد (٢٩) صـ٣٩٣ ط الشعب .
٣- المصدر السابق - صـ١٩١ .

الإمام - أو الخليفة - واجب - عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب الرسول ﷺ عند وفاته - بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، وتسليم النظر إليه في أمورهم - وكذا في كل عصر - واستقر ذلك إجماعاً - حتى لا يترك الناس فوضى في كل عصر من الأعصار ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدارك وجوبه العقل ، وأن الإجماع الذي وقع ، إنما هو قضاء بحكم العقل فيه ، كذلك وجب بالعقل لضرورة الإجماعَ للبشر ، واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين - ومما لا شك أن من ضرورة الإجتماع التنازع لازدحام الأغراض ، فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج والفوضى [١] - وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع ومنهم الأصم [٢] من المعتزلة وبعض الخوارج - أو غيرهم [٣] - وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في الفصول القادمة - عند الخوارج والفرق الإسلامية الأخرى موضحين خصائص وشروط ولاية الإمام أو الخليفة عند كل فرقة أو مذهب . من فرق الخوارج وتحليل آراءهم ونظرياتهم .

ومن ذلك نستطيع أن نقول أن مسألة الخلافة - الإمامة - من أدق المسائل التي كاد أن يختلف بشأنها كبار الصحابة بعد وفاة الرسول الكريم - وكادت تحدث فتنة بين المهاجرين والأنصار وقى الله تعالى المسلمين شرها وشرارها .

فلم يوص الرسول ﷺ بزعامة لأحد من أصحابه [٤] بل ترك مسالة الخلافة شورى بينهم ، فلما تطاير نعيه بين الناس ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلاً منهم وهو " سعد بن

---

١ - نفس المصدر السابق - صـ١٩١ - صـ١٩٢ .

٢- الأصم هو : أبو بكر الأصم أحد شيوخ وزعماء المعتزلة القدرية . ويقع في الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة - راجع دكتور علي سامي النشار - طبقات المعتزلة - ط منشأة المعارف اسكندرية ١٩٧٠ .

٣ - ابن خلدون - المقدمة - صـ١٩٢

٤ - روى الأرقم بن شرحبيل قال : سألت ابن عباس رحمه الله : هل أوصى رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا ، وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت العجب كيف لم يقولوا لا يقصد الصحابة) للنبي في تلك الساعة (أي قبل وفاته عليه السلام) فمن يلي أمورنا بعدك ؟ لأن ولاية الأمر أهم من *السؤال* عن الدفن .. إلخ " ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١٣ - صـ٣٠ ، صـ٣٣ .

عبادة " سيد الخزرج فأدركهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح [١] وغيرهم من المهاجرين ، خشية أن ينظر الأنصار في الأمر من جانبهم فقط ، وكاد أن يقوم بين هؤلاء و أولئك خلاف شديد ، فقام خطيب الأنصار إلى سعد بن عبادة ، مخاطباً إياه للمبايعة مذكراً الحاضرين بفضل الأنصار على النبي - ﷺ - *إذ لبث في قومه بمكة نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام فما آمن منهم إلا قليل – ولا منعوا الرسول الكريم من الأذى – ولا أعزوا الدين* – فلما هاجر عليه السلام من مكة إلى المدينة نصره الأنصار – وآمنوا به ، وأعزوا دينه ، ومنعوه وصحبه ممن أراد بهم سوءً ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له الجزيرة العربية وتوفى ﷺ وهو عنهم راض ، وبهم قرير العين ، فهم أولى الناس أن يخلفوه . [٢]

ولكن فريقاً أخر من المهاجرين – احتجوا على ذلك ، ورأوا أن تكون الخلافة فيهم ، فهم أول من آمن به ، وصبروا على الأذى ولم يستوحشوا لقلة عددهم – وهم قومه وعشيرته – وهم من قريش والعرب لا تدين إلا لهم – فهم أولى بالخلافة من غيرهم [٣] ، فانبرى نفر من الأنصار للتوفيق بين الرأيين ، فقالت الأنصار منا أمير (أو إمام) ومنكم أمير (إمام) – وطال بينهم الكلام لولا أن قام بينهم أبو بكر الصديق خطيباً – وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش – وأن أمر العرب لن يصلح إلا إذا وليته قريش وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس ، فتذكر الأنصار ما كان بينهم في الجاهلية فاطمئنوا إلى رأي أبي بكر الصديق في ذلك ، ثم تلا أبو بكر عليهم قوله تعالى ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ سورة الحشر آيه (٨) ، فسمانا الصادقين.

---

١ دكتور – حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام – جـ١ – صـ٢٠٦ ، صـ٢٠٧ .
٢ أحمد أمين – فجر الإسلام – صـ ٢٥٢ – ط مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٣ .
٣ المصدر السابق – صـ٢٥٣ .

ثم أضاف أبو بكر رضي الله عنه : إن الله تعالى أمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين ، بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ سورة التوبة آيه (١١٩) ثم روى لهم حديثاً للنبي ﷺ أنه قال " الأئمة من قريش " فصدقوه في روايته ، ونزلوا على قضيته – واتفقوا على قوله فزال الخلاف [١] ثم حدث فيه خلاف قوم من الخوارج حيث قالوا :بجواز الخلافة من غير قريش [٢] كما سنبينه فيما بعد .

إلا أن الخلاف الذي نشب بين المهاجرين والأنصار ومن حضر منهم من بعضهم وبعض المسلمين [٣] لم يكن حاداً أو شديداً لدرجة أن يصل بهم إلى حد الاقتتال ، كما سوف يحدث فيما بعد – بين عليّ ومعاوية – بل كان خلافاً هادئ لا يتعدى مرتبة الحوار ومقارعة الرأي بالرأي والحجة بالأخرى – وقد كان لأبي بكر – وعمر بن الخطاب مهارة فائقة في إدارة هذا الحوار – الذي يصل بالمسلمين إلى بر الأمان ، ويقيهم شر فتنة قد تعصف بهم جميعاً ، والنبي ﷺ لم يتم دفنه بعد .

وسرعان ما أدرك الصحابيان الجليلان أبو بكر وعمر - دقة الموقف وسلامة الرأي والحوار وسرعة حسم الأمر بين المسلمين - فتناوبا تبادل الحديث مع معشر الأنصار - بأسلوب لين ، وكلمات حاسمة وهادئة وصادقة، إذ نهض أبو بكر مخاطباً الأنصار في تتابع الأحاديث ، " فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء - وأنصارنا على العدو ، وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً ، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، فمنا الأمراء ،

---

١ - الأسفرايني – التبصير في الدين – صـ١٢ ، صـ ١٣- (وردَ حديث الأئمة من قريش) بسند جيد عند الطبراني وغيره .
كذا نظرنا : دكتور - حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام – جـ١ – صـ٢٠٧.

٢ - الأسفرايني – التبصير في الدين – صـ١٣.

٣ - " لم ينشأ عن الاختلاف بين هذه الآراء – بين المهاجرين والأنصار – أي انشقاق حاد في صفوف المسلمين – ويبدو أن مكانة أبو بكر في نفوس المسلمين كان لها تأثير كبير في جمع كلمتهم حوله " دكتور يحي هويدي - دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية صـ٨٤- ط دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٧٢م.

ومنكم الوزراء ـ فقال أحد الأنصار " منا أمير ، ومنكم أمير " قال أبو بكر : بأسلوب فيه إقناع ، وملاينة وهوادة : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء " ، ثم أخذ بيد عمر بن الخطاب ، وبيد أبي عبيدة بن الجراح وقال قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم ، وكان أبو بكر قد جلس بينهما ـ أحدهما عن يمينه والأخر عن يساره ـ فتوسطهما إشارة منه بعبقرية فذه لأتلاف القلوب ـ وجمع الكلمة ، وهنالك ارتفعت الأصوات وكاد أن يكثر اللغط ، " فخشي عمر بن الخطاب أن يترك الناس فيختلفوا على أنفسهم ، ويضع الأثر الذي أحدثه حديث أبي بكر فيهم ، فقام عمر إلى أبي بكر وبايعه بالخلافة ، وقال له " أبسط يدك يا أبا بكر ـ فبسط أبو بكر يده ـ فبايعه ـ وعمر بن الخطاب يردد " ألم يأمر النبي بأن نصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين " فأنت خليفته .. ونحن نبايعك ، فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً ـ فمست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المهاجرين والأنصار ، فبايعه عمر وأبو عبيده بن الجراح وبشير بن سعد وغيرهم ـ وتتابعت البيعة لأبى بكر في السقيفة ـ ن وقد سميت بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة لأنها اقتصرت على من حضرها ، فلما كان الغد ـ جلس أبو بكر على المنبر في المسجد وبايعه المسلمون البيعة الكبرى ـ أو البيعة العامة ، حدث هذا ، بينما كان علي بن أبي طالب ـ قد أنحاز مع الزبير ونفر من بني هاشم إلى بيت فاطمة ، وقضى هو وأهل بيت الرسول الكريم ، يوم الثلاثاء في تجهيزه ودفنه ، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن علياً أخذ في نفسه شيئاً من جانب أبي بكر ومن بايعوه ـ لتجاهلهم مكانته وحقه [1] على أن علياً بايع أبا بكر بعد موت فاطمة ، أو بعد فترة قليلة . [2]

وبعد أن تمت البيعة الكبرى لأبي بكر رضي الله عنه ـ صعد المنبر وقام يخطب في المسلمين ـ ليحدد لهم سياسته العامة والمبادئ التي سيسير عليها منذ

---

١ للمزيد من التفاصيل في هذا الصدد : (أ) أبن هشام ـ سيرة النبي ﷺ ـ جـ ٤ ص٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(ب) دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام ـ جـ ١ ـ ﷺ ٢٠٦ ـ ص٢٠٧

(جـ) دكتور محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص٥١٠ .

٢ أبن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ٢ ـ ص٦ ، كذلك أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢٥٣ . كذلك ، دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام ـ جـ ١ ـ ص٢٠٧ .

لحظة اختياره خليفة للنبي الكريم - وسوف نلاحظ في خطبته القصيرة البليغة الجامعة ، مدى ما كان يتمتع به أبو بكر من بلاغة وفصل الخطاب في الجمع بين اللين والشدة ، دون نقص أو انتقاص في الحقوق والواجبات .

قال أبو بكر في خطبته - بعد أن حمد الله وأثنى عليه " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني ، وأن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق لـه أن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه أن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ألا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط ، إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعته لي عليكم ، قوموا إلي صلاتكم يرحمكم الله " (١)

بهذه الكلمات الموجزة والبليغة - حدد أبو بكر سياسته العامة والخاصة ، أمام المسلمين وفي حضور كبار الصحابة مهاجرين وأنصار ، فالجميع أمامه سواء ، قوي أو ضعيف ، لا فرقه ولا اختلاف ما دام مصدر الحكم واحد والتشريع واحد ، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فطاعة الله ورسوله الكريم ، والجهاد في سبيل نصرة الحق والدعوة ، ومقاومة الفاحشة ومصادر البلاء - قوامة للإسلام ، وإقرار للحق وإرساء دعائم العدل - هما ذروة الإسلام ودعائمه.

بهذه القواعد التي أقرها أبو بكر - استطاع أن يجمع كلمة المسلمين حوله بل وازداد اقتناع المسلمين بإمامة أبي بكر وخلافته - الكثير من الخصائص والصفات التي كان يتمتع بها أبو بكر ذكرها عمر بن الخطاب لحظة البيعة (٢) ، بل وزاد المؤرخون وكتاب الطبقات عليها عدة أمور أخرى أهمها :

كان أبو بكر رضي الله عنه من رؤساء قريش ، وأهل مشورتهم ، وكان رجلا مؤلفا لقومه محببا إليهم سهلا ، فلما جاء الإسلام آثره الرسول عليه السلام على من سواه ، فأخلص في الصحبة لرسول الله ﷺ ، ولم يخالجه شك في كل ما

---

١ - أبن هشام - سيرة النبي ﷺ - جـ٤ - صـ٣٤٠،صـ٣٤١ - كذلك الطبري - تاريخ الطبري - جـ٢ - صـ٢٠٣. دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - جـ١ -صـ٢٠٧ ، صـ٢٠٨

٢ - أشرنا إلى حديث عمر بن الخطاب لأبي بكر ومبايعته له - وتتابع المسلمين لذلك في الصفحات السابقة .

أتى به الرسول الكريم أو قاله له حتى سماه الرسول الكريم الصديق ، وقد أجمع أهل السير وكتاب الفرق والطبقات على أن أبا بكر لم يتخلف عن الرسول الكريم في مشهد من المشاهد ، وكان فيمن ثبت مع الرسول الكريم يوم أحد وحنين ، وقد اشتهر أبو بكر في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات في الخطوة ، إذ نهض بإتمام نشر الدعوة الإسلامية ، وتوحيد كلمة العرب بعد أن كاد يتمزق شملهم ، فحارب المرتدين ومانعي الزكاة وقال قولته المشهورة " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه " [1] وأنفذ جيش أسامة إلى الشام كما أمر الرسول الكريم قبل وفاته ، وأرسل الجيوش للفتح على حدود العراق والشام ، وقضى على الفتن في مهدها بعد أن كاد ينفرط العقد من جانب المنافقين ، والمدعين بعد وفاة الرسول الكريم .

من الأسباب الهامة التي ترجح كافة أبي بكر للخلافة - بإجماع المسلمين : أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال [2] وصدق برسالة النبي ﷺ ، فقد روي عن النبي ﷺ قال " إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت " [3]

وروى عمر بن إبراهيم الهاشمي ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أسيد بن صفوان صاحب النبي ﷺ قال " لما قبض أبو بكر جاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : فقال رحمك الله يا أبا بكر ، كنت أول الناس إسلاما " [4]

يضاف إلى ذلك : أن أبا بكر صاحب الرسول الكريم ليلة هجرته إلى المدينة : فكان ثاني اثنين إذ هما في الغار - ونزل في ذلك قرآنا فقال تعالى :

﴿ ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في

---

١ عباس محمود العقاد - عبقرية الصديق - ط دار المعارف ١٩٦٩

٢ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ١٣ - ص٢١٧ - ص٢١٦ ذكر قال أبو عثمان الجاحظ في كتابه (العثمانية) - أفضل الأمة وأولاها بالإمامة أبي بكر بن أبي قحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد في عصره - فقد قال قوم : أول الناس إسلاماً ابو بكر - وقال النخعي : أبو بكر أول من أسلم " .

٣ راجع المصدر السابق - ص٢١٧ .

٤ المصدر السابق - ص٢١٨ .

الغـــار ، إذ يقـــول لصــــاحبه لا تحـــزن إن الله معــــنا ﴾ سورة التوبة آية (٤٠) .

وقال كعب بن مالك : [١]

سبقت أخاتـــيم إلى دين أحـــمد وكنت لدى الخيران في الكهف صاحباً
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العـــداة به إذ صعـــــــد الجبلا

يضـاف إلـى مـا سبق من فضل أبي بكر : أن النبي عليه ﷺ بالمسلمين في حال مرضـه ، بل وأمر المسلمين أن يأمروا أبا بكر أن يصلي بالناس وفي ذلك حديث النبي الكريم " مروا أبا بكر فليصلي بالناس " [٢]

وقد روي عن أبي هريرة : قال : قال أبو بكر أنا أحقكم بهذا الأمر ألست أول من صلى .

وذكر النووي عن علي بن أبي طالب أنه قال : قدم رسول الله أبا بكر يصلي بالناس ، وأنا حاضر غير غائب ، وصحيح غير مريض ولو شاء أن يقدمني لقدمني ، فرضيناه لدنيانا ، وهو من رضيه الله ورسوله الكريم لديننا"[٣] وفي ذلك كله من ذكر لفضل أبي بكر ، وتقدمه وسبقه للإسلام وتصديقه لرسالة النبي الكريم وجهاده بالنفس والمال في سبيل نصر دعوة الإسلام بعد وفاة الرسول الكريم بالإضافة إلى زهده الشديد ، وثقته في نفسه ، وحصافة قوله وصدق مواقفه وتقدمه لإمامة المسلمين بالصلاة في حياة النبي الكريم – لدليل على صحة إمامة أبي بكر وخلافته.

ومن الجدير بالذكر أن الخلاف الذي حدث بين المهاجرين والأنصار في بيعة السقيفة لم يكن أشد خطورة من ذلك الذي حدث بين عليّ ومعاوية ، فتمزقت وحدة المسلمين فيما بعد شيعاً وخوارجاً ، كما أن أول خلاف حدث لم يمس أصلاً من أصول الدين ، فالخلاف لا يكون خطراً إلا إذا كان في أصول الدين ولم يكن

١- - المصدر السابق نفسه - ص٢١٧ .
٢- سبقت الإشارة إلى ذلك بالتفصيل فيما سبق .
٣- راجع دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي جـ ١ - ص٢٠٩ - ص٢١٠ . كذلك ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ١٣ - ص٢١٦ .

الخلاف بين المسلمين في ذلك بل كان اختلاف من كان يختلف في فروع الدين مثل مسائل الفرائض ، فلم يقع خلاف يوجب التفسيق أو التبري أو التكفير وهكذا جرى الأمر على السداد أيام أبي بكر وعمر وصدر من زمان عثمان ، ثم اختلف في أمر عثمان ، وخرج عليه قوم منهم فكان من أمره ما كان [١]

ثالثاً : خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣ - ٢٣ هجرية / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)

أدرك أبو بكر رضي الله عنه ما سوف يؤول إليه حال المسلمين بعد وفاته ، ولم يزل يتذكر ما حدث بين المهاجرين والأنصار في بيعة السقيفة من جدل وحوار وخلاف ، وما نزغ به البعض من اختلاف ودعاوى ، كادت تحدث فتنة وقي الله المسلمين شرها ، وما كان لعمر بن الخطاب من دور في حسم المسألة ، وإسراعه بمبايعته ، لرأب ما قد يحدث من فرقة بين المهاجرين والأنصار ، وإن كان الخلاف الذي حدث لم يتعد كلا الطرفين ، وأنحصر في محيط لا يتجاوز دائرة الخلاف في الرأي حول مسألة تتعلق بمصلحة الأمة، فما بال حال المسلمين ، وقد اتسعت رقعتهم ، وانتشر الإسلام وفتحت الفتوحات شرقاً وعلى حدود الشام وبلادها ، كان لزاماً عليه أن يختار للمسلمين من يتولى أمرهم ، ويقاتل عدوهم ، ويقيم شعائرهم ويقسم الفيء بينهم ، يرفضونه مختارين له بعد أن يطرح الأمر عليهم .

وفي ذلك تشير المصادر إلى أن أبا بكر حين دنو أجله ، دعي الصحابة ، وأفض إليهم بما يجول في خاطرة قال " قد حضرت من قضاء الله ما ترون ، وأنه لابد لكم من رجل يلي أمركم ، ويصلي بكم ويقاتل عدوكم ، ويقسم فيئكم " [٢]

---

١ - الأسفرايني - التبصير في الدين - ص١٣
٢ - الأمام أبن قتيبه (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت عام ٢٧٠ هـ - الإمامة والسياسة - جـ ١ - ص١٩ ط القاهرة ١٩٦٠

وتمثل هذه الكلمات التي عبر بها أبو بكر عما يدور في نفسه ، أعتمد أهل السنة فيما بعد أسس نظرياتهم في ضرورة تولي الإمام أمر المسلمين ، أو بعبارة أكثر دقة ، نظرية وجوب الإمامة سمعاً ، استدلالا بالأمر الواقع أيام الخلافة الراشدة .[1]

ومما لا شك أن عبارة أبو بكر تتضمن أبرز المهام التي تناط بالإمام وهي أولا : أداء الصلاة ، وهي الزكن الجوهري في الإسلام ، وهي إحدى الاستدلالات التي أثبت بها أهل السنة صحة وأولوية خلافة أبي بكر ،

وثانياً قتال الأعداء والذود عن ديار المسلمين .

وثالثاً : تقسيم الغنائم تفادياً للمنازعات والخصومات

وقد ظلت هذه المهام إجمالاً هي التي رسم حدودها أهل السنة قياساً على الأسس التي وضعت إبان الخلافة الأولى

ونشير هنا إلى نص ورد عند إمام الحرمين - أبو المعالي الجويني - يقول ، " الإمامة رياسة تامة ، وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة ، في مهمات الدين والدنيا ، متضمنها حفظ الحوزة ، ورعاية الرعية ، إقامة الدعوة بالحجة والسيف ، وكف الحنف والجيف "[2]

هذه أو غيرها - بعض الحيثيات - التي يرتئيها من لوازم وجوب الإمامة ، أو اولاية ، حين أدرك أبو بكر مغزاها ، ولكن ماذا كان من أبي بكر في أثناء ذلك .. تشير المصادر فيما يتعلق بعهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ..

" لما أحتضر أبو بكر ، قال للكاتب أكتب ، هذا ما عهد عبد الله بن عثمان (بن أبي قحافة) - أخر عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، في الساعة التي يبر فيها الفاجر ، ويسلم فيها الكافر ، ثم أغمى عليه ، فكتب الكاتب : عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر فقال أقرأ ما كتبت ، فقرأ وذكر أسم عمر قال : أنى لك هذا ؟

---

١ - دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الفكر الإسلامي - ص٤٦ ط دار الأنصار - ١٩٧٧ م

٢ - المصدر السابق - ص٤٧ . وللمزيد من التفاصيل في وجوب الإمامة ، أو الرياسة أو الخلافة - ص١٩ - ص١٩١

قال الكاتب ، ما كنت لتعدوه ، فقال أبو بكر : أصبت ، ثم قال : أتم كتابك ، قال وما أكتب ؟ قال : أكتب : وذلك حيث أجاله رأيه وأعمل فكره ، فرأي أن هذا الأمر لا يصلح أخره ، إلا بما يصلح به أوله ، ولا يحتمله إلا أفضل العرب ، مقدرة ، واملكهم لنفسه ، وأشدهم في حال الشدة ، وأسلسهم في حال اللين ، وأعلمهم برأي ذوي الرأي ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما لم ينزل به ، ولا يستحي من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوي على الأمور يرصد لما هو أت عتاده من الحذر ، وعندما دخل عليه قوم من الصحابة ـ منهم طلحة فقال لأبى بكر ، ما أنت قائل لربك غداً

وقد وليت علينا فظاً غليظاً ، تفرق منه النفوس ، وتنفض عنه القلوب ؟

قال أبو بكر : إذ قال (الله عز وجل) لي ذلك غداً قلت له ، (وليت عليهم خير أهلك) . [1]

وفي روايات أخرى نذكر منها طرفاً هنا ـ تبيناً لدقة الاختيار ، وحصافة الرأي ي ولاية ـ خلافة عمر رضي الله عنه ، إذ أن أبا بكر لما نزل به الموت دعا عبد الزحمن بن عوف فقال له ، أخبرني عن عمر ، قال : إنه أفضل من رأيك فيه ، إلا أن فيه غلظة ، قال أبو بكر : ذاك لأنه يراني رقيقاً ،ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيراً من مما هو عليه ، وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له أراني الشدة عليه ، ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرني عن عمر ـ فقال : سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله [2]

ومن الجدير بالذكر ، إن أبا بكر حين أمر الكاتب (وهو عثمان بن عفان) رضي الله عنه ، بكتابة كتاب للمسلمين ويه " قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب وقال له أقرأ ما كتبت على الناس ، فقراء عليهم ، ثم كبر أبو بكر وأمر بإتمام العهد ، لم يترك الأمر هكذا ـ بل أتجه إلى عمر مسدياً إليه نصائحه ، فقال له : أوصيك يا عمر : إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً في النهار لا يقبله

---

١ أبن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ١ ـ ص١٦٣ ـ ١٦٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الحلبي ـ من أتبع الحق مع ثقله عليه ، وإنما خفت موازين من أتبع الباطل لخفته عليه ، ١٩٦٤ م

٢ المصدر السابق ـ ص١٦٤ ـ ص١٦٥ .

في الليل ، وأنه لا يقبل نافلة ما لم تؤدّ الفريضة ، وإنما ثقلت موازين إنما نزلت أية الرخاء مع أية الشدة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنى بها على الله ما ليس له ، ولئلا يرهب رهبة يلقي فيها بيده ، فإن حفظت وصيتي ، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت ، ولست معجزه ـ ثم توفى أبو بكر رضي الله عنه [١]

ومما سبق يتضح أن أبا بكر رضي الله عنه ـ لم يعهد بالخلافة لعمر رضي الله عنه دون فكر أو روية أو مشورة أصحابه من خيرة المسلمين حوله ، وعندما صدقت فراسته فيمن يختاره ويعهد إليه من بعده كتب عهداً بذلك للمسلمين ، خشية الخلاف أو الفرقة ، ثم أوصى عمراً برعاية حقوق الله تعالى في نفسه وفي رعيته .

ولما ولي عمر الخلافة ـ صعد المنبر فقال " إني قائل كلمات فأمنوا عليهن ـ فكان أول كلام قاله عمر حين أستخلف " إنما مثل العرب مثل جمل أنف ، أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوله ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق " [٢]

لقد أنبرى عدد غير قليل من الأصوليين أو علماء الكلام لتفسير بعض مزاعم الشيعة في الطعن على خلافة عمر ، أو استخلاف أبي بكر له ـ فقد طعن الشيعة في إمامة عمر بسبب عهد أبي بكر لــه ، لكن الباقلاني / ٤٠٣ / هـ يتصدى لهذا الطعن يوضح أن العهد تم بمحضر من كبار الصحابة والمسلمين ، فاقروه جميعاً وصوبوا رأيه ، ولو كان ذلك خطأ في الدين لراجعوه فيه ـ إذ أن المراجعة انصرفت إلى صفة من يعهد إليه يقول طلحة " أتولي علينا فظاً غليظاً ؟ " ولم تكن المراجعة هنا منصبة على صحة العهد ، فالأمة لن تجتمع في عصر الصحابة على خطأ ، ولهذا فإن عهد أبي بكر صحيح ويجري مجرى العقد لعمر بن الخطاب . يضاف إلى ذلك أن أبا بكر كان ظاهر العدالة ، مشهوراً بها ولم تدل أفعاله على خيانة الأمة ، ولا يقبل أن يسلط على المسلمين بعد موته ظالماً أو جاهلاً بأمورهم كذلك أجمع الصحابة على رأي أبي بكر حين وصف أمامهم

---

١ المصدر السابق ـ ص١٦٥ ـ ص١٦٦ .
٢ الطبري ـ جـ ٤ ـ ص٥٤ ـ كذلك دكتور حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ـ جـ ١ ـ ص٢١٤ .

خصائص وأخلاق عمر ، خلاصتها أن عمر شديد في غير عنف ، لين في غير ضعف ، وقد حدث أن أعترف طلحة بعد ذلك بفضل عمر فقال لعمر " لقد استقامت العرب عليك وفتح الله على يديك ، وقد سبق أن أشترك مع عثمان وعبد الرحمن بن عوف في طلب العهد من أبي بكر لعمر لأنه أهل لها [(١)]

صار عمر خليفة للمسلمين وإماماً - يرضا الجماعة - وقد قاس مفكروا أهل السنة على ذلك جعلوا من توليه العهد مسلكاً في إثبات الإمامة في حق المعهود إليه ، لأن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عهد إلى عمر ، أقره الصحابة عليه [(٢)]

ويقرر النوبختي (٣١٠ هـ - ٩٢٢ م) أنه صار مع أبي بكر السواد الأعظم والجمهور الأكثر فلبثوا معه ومع عمر مجتمعين عليهما راضين بهما " [(٣)] وهذا دليل آخر على صحة خلافة وعهد أبي بكر لعمر بها - إذ أجتمع شمل المسلمين ، استمرارا لأيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، أستلم عمر خلافة المسلمين وقام إماماً لهم - بعهد أبي بكر له موثق بإجماع كبار الصحابة وجموع المسلمين ، وصعد المنبر وخطب في المسلمين بكلمات حاسمة وواضحة " وليت عليكم ولست بخير منكم ، فإن رأيتم بي اعوجاجا فقوموني ، فنهض رجل من الحاضرين قائلاً لعمر ، والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا ، فقال عمر الحمد لله الذي أوجد في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يستطيع تقويم عمر بسيفه " وصار عمر في أمة محمد عليه السلام ، سيرة الخليفة أبي بكر ، جمع بين اللين حين يتطلب اللين ، والشدة حين يتطلب الأمر ذلك - دون أن يزيد أو ينقص ، فأقر العدل ، وأقام شريعة الله على خير وجه من المساواة ، ومراعاة الحقوق وأداء لكل ذي حق حقه ، لا يلوم في الحق لومه لائم ضارباً المثل الأعلى ي الشجاعة ، وثبات الرأي والسكينة لا يترك نقصه لأحد إلا حاسبه عليها ، ولا محمده إلا وأقامها وأقرها لعاملها ، مرقاً بين الحق والباطل صدقت

---

١ - نظرنا : الباقلاني - التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة ص١٩٥-١٩٧ - تحقيق محمود الخضيري ١٩٤٧ م ، كذلك دكتور - مصطفى حلمي - نظام الخلافة - ص٤٧ ، ٤٨ ،

٢- المصدر السابق - ص٤٨

٣ - النوبختي - فرق الشيعة - ص٦ ط النجف ١٩٣٦ م

فيه مقولة النبي الكريم " أنك تفرق بين الحق والباطل ، وصدق من سماه " الفاروق عمر " ، لم يغمض لـه جفـن عـن نصرة الإسلام أو تجهيز جيوش المسلمين وإنفارها في غبار الفتوحات المظفرة ، موصياً ومؤكدا الذمة والكتاب ، زاهدا في كل شيء - لم يخص نفسه بمأكل أو مشرب - أو ملبس . يعيش على أقل القليل حتى أشفق عليه أصحابه ولم يستمع إليهم عاملاً بوصية أبي بكر وعهده إياه وصدق القائل " عدلت فأمنت فنمت يا عمر " واضعاً نعله تحت رأسه هذا " وقد ظلت خلافة عمر ما يقرب من عشر سنوات إلى أن لقي ربه مطعونا بخنجر مسموم إذ طعنه أبو لؤلؤة فيرروز المجوسي وهو قائم يصلي بالمحراب ، فكانت نهايته رضي الله عنه عام ٢٣ هـ .

رابعا : خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣- ٣٥)هـ - (٦٤٤- ٦٥٦)

عندما طُعن عمر بن الخطاب - وهو قائم يصلى بالمسجد يؤم المسلمين في الصلاة - حُمل إلي فراشه وهو يعاني آلام القتل والموت ، تذكر حال الأمة الإسلامية، وما سوف يصير إليه حال الصحابة، إن لم يحسم الأمر بالخلافة لأحد منهم من بعده ، وما حدث في سقيفة بنى ساعده من خلاف حول خلافة أبي بكر - ببعيد، لولا أن حسم الموقف من جانبه بالإسراع بالبيعة لأبي بكر، والتفاف معظم الصحابة والمسلمين من حوله .

فأجمع عمر في نفسه على اختيار من يولى أمر المسلمين، حتى لا ينفرط العقد، أو تشتد رياح الخلاف، إذا علمنا بما صارت عليه الدولة الإسلامية وما فتح الله عز وجل على المسلمين من فتوحات، وانتصارات في بلاد الفرس والروم، وتربص الأعداء والذين في قلوبهم مرض من المنافقين والطاعنين، وحتى يحفظ على المسلمين وحدتهم، وقوتهم، ويزداد الفتح وتنتشر الدعوة، وعلى ذلك أو غيرة - صرح عمر بالأمر حين دخل عليه مجموعة من كبار الصحابة وهو يجود بنفسه الأخير قبل الموت أن يولى الأمر بالخلافة لمن يختارونه من بين ستة أشخاص من

كبار الصحابة، الذين توفى عنهم الرسول ﷺ وهو راض، ويكون شورى بينهم - وقد حدد عمر رضى الله عنه مبدأ الشورى في هؤلاء الستة - كما تأتى وتتواتر الروايات في هذا الصدد - وإن كان في بعضها زيادة أو نقصان، إلا إننا نحاول أن نأخذ بأكثرها دقه وموضوعية.

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - صاحب " التاريخ " قال " لما طُعن عمر، قيل لـه : لو استخلفت، يا أمير المؤمنين، فقال : من استخلف ؟ لو كان أبو عبيده بن الجراح حيا لاستخلفته، وقلت لربى لو سألني : سمعت نبيك يقول "أبو عبيده أمين الأمة" ولو كان سالم مولي أبي حذيفة حيا، استخلفته وقلت لربي لإن سألني سمعت نبيك عليه السلام قول : " إن سالما شديد الحب لله "، فقال رجل : ولّ عبد الله بن عمر، فقال عمر : قاتلك الله ؟ والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد، ثم قال : فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (وهو أبو بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول ﷺ) . ولن يضيع الله دينه[1] ثم نظر إليهم وقال : إن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش " علىّ، وطلحة، وعثمان، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف " وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم([2]).

ويبدوا أن فراسة عمر رضي الله عنه - قبل وفاته - قد صدقت في هؤلاء الستة - أصحاب الشورى فيما بعد ،لذلك يجدر بنا أن نذكر شيئاً مما ورد في هذا الصدد باختصار .

تذكر الروَايات ، أن عمراً نظر إليهم قال : أكلكم يطمع في الخلافة بعدي ؟ فوجموا ، ثم أجاب الزبير وقال : وما الذي يبعدنا منها . وليتها أنت فقمت بها ،ولسنا دونك في قريش ، ولا في السابقة ، ولا في القرابة . فقال عمر([3]): أفلا

---

[1] - الطبري - تاريخ الطبري - جـ ٤ - ص ٢٢٧ - كذلك ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة - جـ ١ - ص ١٩٠ ، دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - جـ ١ - ص ٢٥٨ .

٢- أبن أبي الحديد - نهج البلاغة - حـ١ - ص ١٥٨.

[3] - ذكر البلازري هذه الرواية - عن عمر لإبن عباس رضي الله عنهما - بنفس ما ورد من معنى ودلالة في هؤلاء الستة - أصحاب الشورى - ويقال قد صدقت فراسة عمر فيهم - نظرنا : البلازري - أنساب الأشراف ص ١٦، ١٧ - ط القدس .

أخبركم عن أنفسكم ! قال الزبير : نعم ، قل ، فقال عمر : أما أنت يا زبير : فوعق لقس (يعني مضجر متبرم لا يستقيم على وجه) ، .. وما كان الله ليجمع لك الأمر لهذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم قال لطلحه : أما إني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والياو الذي حدث لك (يعني الكبر والفخر) .

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال له : إنما أنت صاحب مقنب (يعني جماعة الخيل) ، وصاحب قنص وقوس وأسهم ، وما زهرة والخلافة وأمور الناس - (يقصد عمر بزهره - قبيلة سعد بن أبي وقاص) .

ثم أقبل عمر على عبد الرحمن بن عوف فقال : أما أنت يا عبد الرحمن ، فلو وزن إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به ، لكن لا يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما لزهرة وهذا الأمر (يقصد بزهرة : قبيلة عبد الرحمن بن عوف كذلك) .

ثم ألتفت إلى علي بن أبي طالب وقال له : لله أنت لولا دعابة فيك ! أما والله لئن وليتهم لتحملنهم علي الحق الواضح ، والمحجة البيضاء .

وقال عمر لعثمان بن عفان : هيهاً إليك ، كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر ، لحبها إياك ، فحملت بن أمية ، وبني [1] أبي معيط علي رقاب الناس ، وأثرتهم بالفيء فصارت إليك عصابة من ذوبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لو فعلوا لتفعلن ، لئن فعلت ليفعلن ، ثم أخذ بناصيته فقال : فإذا كان ذلك فأذكر قولي ، فإنه كائن . [2]

---

[1] - ينتسب سيدنا عثمان رضي لله عنه إلى بني أميه من قريش : ولد عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميه بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي الأموي القرشي في السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول ﷺ ، بخمس سنوات وأمه أروى بنت كريز إبن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ - أشتهر عثمان بالفقه والحياء والحرم ، وكان لين العريكة كثير الإحسان والحلم - نظرنا : ابن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ ٤ - ص ٢٢٣ ط القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

[2] - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ١ - ص ١٨٥ - ص ١٨٦ - (جدير بالذكر أن الذي ذكر هذا الخبر كله - أبو عثمان الجاحظ - في كتابة (السفيانية) وذكر جماعة . غيرة في باب (فراسة عمر رضي الله عنه) .

هذه العبارات التي ذكرناها - آنفاً - لها دلالتها - وخطرها ، إذ أن الاختيار ، والولاية - من المسائل الدقيقة - والعميقة في التاريخ السياسي الإسلامي ، ليست من السهولة بحيث يتولاها أي شخص أو فرد يرتكن على عصبية قبلية أو مادية - بل هي مسألة خصائص وصفات ، وسمات تجمع بين القوه ، والشجاعة والثبات عند الشدة ، وسلامة الرأي والرؤية والشورى والعلم والفقه ، والإطلاع ببواطن الأمور ، بالإضافة إلى توخي العدالة وإقرار الحق والمساواة ، وعدم الممالئة أو المداراة والميل لشخص دون أخر . فكان اختيار عمر للخلافة من يستطيع القيام بها حقاً ، لا يخاف في الحق لومة لائم - لذا أظهر لكل رد من هؤلاء الستة ، ما يتوفر فيه من عيوب أو محاسن ، أو ما يتوافر في كل شخص منهم من محمدة أو مذمة ، حتى يتبصر نفسه ، فيصلح منها أن بدا نقص ، أو يزيد منها أن بدا إصلاح .. وهكذا لا على ما ذهبت الشيعة والخوارج إليه من بعده . بل يتضح شدة حرص عمر رضي الله عنه ، أنه لم يترك الأمة سدي بين هؤلاء الستة من كبار الصحابة ، بل حدد وقيد مبدأ الاختيار والمشورة فيهم بإطار دقيق حتى إذا وقع الأمر في أحدهم وأصبح خليفة أو إماماً للمسلمين - لا يختلفون بعدها .

وتذكر الروايات هذا السياق - إذ بعد أن أنتهي عمر رضي الله عنه من هذه المشاورات ، والمناظرات ، وتبادل الرأي والأخذ والرد وبعد أن أطمئن إلى حاجة المسلمين لوجوب اختيار خليفة وإلحاحهم علية في ذلك - وقولهم له " يا أمير المؤمنين لو عهدت عهد ! فقال لهم " عليكم بهذا الرهط الذي مات الرسول ﷺ وهو عنهم راض ، وقال فيهم أنهم من أهل الجنة : على بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام - حواري رسول الله وأبن عمته ، وطلحة بن عبيد الله - وعبد الله بن عمر ، علي ألا يكون له من الأمر شيء " . وأوصى عمر بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الأختيار من الفريق الذي في صفه عبد الله بن عمر في حالة تساوي الأصوات ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، ثم قال لهم عمر : إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، ثم أوصاهم عمر فقال لهم : فإذا مت فتشاوروا

ثلاثة أيام ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فإن قدم في الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم(يقال بأنه كان خارج المدينة عندما طعن عمر). [١]

ومع تشابك الروايات . واختلاط بعض الكلمات – لكننا هنا نسبق ما اجمع عليه جماعة الرواه وثقاتهم – إذ تذكر الروايات .. أن عمراً دعا صهيباً ليصلي بالناس ثلاثة أيام ولا يأتين اليوم الرابع من يوم موته إلا وعليهم أمير منهم " [٢]

ثم قال عمر " ادعوا إلى أبا طلحة الأنصاري ، فلما دعوه ، قال له عمر : أنظر يا أبا طلحة إذا عدتم من حفرتي ، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ، وأجمعهم في بيت (يقال بيت المسور بن مخرمه) ، وقف بأصحابك علي باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم فإن أتفق خمسة وأبى واحد ، فأضرب عنقه ، وأن أتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب عنقاهما، وإن أتفق ثلاثة ، وخالف ثلاثة فأنظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن - فأرجع إلى ما قد اتفقت عليه (يعني يختاروا واحداً من هؤلاء الثلاثة) ، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فأضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ، ولم يلتقوا على أمر فأضرب أعناق الستة ، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم ". [٣]

فلما دفن عمر رضي الله عنه أجتمع هؤلاء النفر في بيت المسور بن مخرمة ، لكن سرعان ما ظهر فيهم التنافس فقال لهم أبو طلحة الأنصاري ، أنا كنت لأن تدفعهوها أخوف مني لأن تنافسوها " ، لكن عبد الرحمن بن عوف اقترح عليهم اقتراحاً يزيل هذا التنافس فقال لهم " أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم " فلم يجبه أحد ، فقال أنا أخلع منها نفسي ، فرضي القوم بذلك وعلي كرم الله وجهه ساكت ، فقال ما تقول يا أبا الحسن ، فقال : أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم لرحمه ، ولا تألوا الأمة ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير

---

١ - دكتور - حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام – جـ١ - ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢ - المصدر السابق – ص ٢٥٩.
٣ - ابن ابي الحديد – نهج البلاغة – جـ١ – صـ١٨٧،صـ١٩١.

، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ، ألا أخص ذا رحم ولا ألو المسلمين " ، فأخذ عبد الرحمن منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله .

ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة ، وأمراء الأجناد ، وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء ، فكان بعض يشير بعلي ، وبعض آخر يشير بعثمان ، ثم استشار أصحابة في المشورة أيضاً . وقال لعلي : لو لم يكن لك هذا الأمر ، فمن ترضى ؟ فقال علي : عثمان ، وكذلك فعل مع الزبير وسعد فقالا عثمان ، ثم سأل عثمان ، فأشار بعلي ، [1]

ومن هنا نجد أن استحقاق الخلافة قد انحصر في الإثنين : علي وعثمان ، رضي الله عنهما ، ولما انتهى الأجل (ثلاثة أيام) جاء عبد الرحمن وقت صلاة الصبح إلى المسجد ، حيث اجتمع سائر أصحابه ، وحضر من عداهم من المهاجرين ، وأهل السابقة والفضل من الأنصار ، وأمراء الأجناد ، ولما ازدحم المسجد بالناس ، قام عبد الرحمن، وصعد المنبر ، وذكر الله وحمده وأثنى عليه – وقال في خطاب طويل – نختصر منه ما يهمنا هنا – فقال : " أيها الناس إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلني أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا علياً فقال له : يا علي : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من بعده أبي بكر وعمر ، فقال علي رضي الله عنه : بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي ! ثم دعا عثمان – رضي الله عنه – وأعاد عليه ما قاله لعلي ! فقال : نعم ، وفي روايات تقول : أن عبد الرحمن بن عوف كرر ثلاث مرات على عليَ ما سبق وهو ثابت على رايه ، وعندما اتجه إلى عثمان وأنعم ! أي أجاب عليه بنعم ! هنا صفق عبد الرحمن بن عوف على يد عثمان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين[2]، وهنا بايعه بالخلافة، وتابعه سائر الرهط ، والحاضرين مهاجرين وأنصار وسائر السملمين .

---

[1] - نظرنا كذلك – السيوطي (جلال الدين) – تاريخ الخلفاء – صـ١٣٩ طه عبد الرؤف سعد – ياسر صلاح عزب – ط المكتبة التوفيقية بدون تاريخ .

[2] - نظرنا : ابن أبي الحديد – نهج البلاغة – جـ١ – ص١٨٧ – ص١٨٨ وكذلك – الطبري – جـ٥ – صـ٣٤ ، صـ٣٥ ، صـ٣٦ ، وكذلك – دكتور حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام – جـ١ – صـ٢٦٠

ويقال بأن علياً : قال لعبد الرحمن بن عوف : لقد حبوته حبو الدهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علنا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو في شأن " (١)

ومن هنا ظهر أو بدأ التنافس بين عثمان وعلي ، أو بالأحرى بين بني هاشم وبني أمية ، لأن الخلافة قد انحصرت فيهما تقريباً ، في عصريهما – وقبل أن تحدث الفتنة الكبرى .

فالناس لم يكونوا يعدلون بغيرهما من المسلمين أحداً ، وكادت الخلافة تأول إلى علي – رضي الله عنه – لولا أن تمسك برأيه ، فحاد عنه عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان – رضي الله عنه – الذي قبل أن يسير وفقاً لسيرة الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما - .

وقد تمت البيعة بالخلافة لعثمان – رضي الله عنه – في آخر شهر ذي الحجة سنة ٢٣ هجرياً / المحرم سنة ٢٤ هجرياً .

وهكذا انتقلت الخلافة إلى عثمان رضي الله عنه وبويع بالأمانة للمسلمين كافة في جميع البلدان والأمصار – وطار الخبر بربوع الجزيرة العربية – وتطايرت أخبارها في الفتوحات- والجيوش الإسلامية الرابطة على ثغور البلاد المفتوحة وغيرها ، ومنذ اختيار عثمان للخلافة انقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين أو أمويين وعلويين ، يتقدمهم علي بن أبي طالب ، لسبقه إلى الإسلام . وزوج فاطمة بنت النبي ﷺ وتضحياته الكثيرة ، وجهاده في سبيل نصرة الإسلام في معاركه منذ بداية الدعوة . وشجاعته الفائقة في مواجهة خصومه فلم يهزم في معركة قط .

ولا يستغرب القارئ لهذا الكتاب – ما أطلنا وفسرنا فيما يتعلق بالإطار العام للولاية – والبيعة والمشورة وطريقة الاختيار وما صار من جدل ونقاش يشتد حيناً ويلين أخرى بين كبار الصحابة وأهل المشورة ، وأهل الحل والعقد ، وذلك لكي نبين ما وصل إليه الصدر الأول من خيار الصحابة من تمسك بمبادئ العقيدة ،

---

١ نظرنا : المصدر السابق – صـ١٨٦- كذلك دكتور حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام – جـ١ – صـ٢٦١ .

وشرائع الدين الإسلامي الحنيف – وهو مبدأ المشورة والذي تركهم عليه النبي ﷺ ، وقوله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ سورة آل عمران آية (١٥٩) ، وقـــوله تعالى ﴿ وأمـرهم شورى بينهم ﴾ سورة الشورى آية (٣٨) لندلل على صدق وصحة الخلافة والبيعة رداً على ما ذهب إليه بعض الخارجين من الشيعة والخوارج على السواء .

ولما كانت مسألة الخلافة – الإمامة – وشروطها – قاسماً مشتركاً بين أهل السنة وكل من الخوارج والشيعة ، إذ احتدم حولهما الجدل والنقاش منذ الصدر الأول حتى العصور الحديثة – فإننا ندلل على صدق البيعة وصحة خلافة عثمان رضي الله عنه ببعض الأدلة الدامغة ، فمنذ البداية نرد على ادعاءات الشيعة من قولهم بغبن وظلم للإمام علي رضي الله عنه واخذ البيعة لغيره في حق الشيخين الكبيرين وعثمان رضي الله عنه دونه – يقول الإمام علي رضي الله عنه فيما روى أبو جعفر رواية أخرى أطالها - وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم – فذكر كلاماً قاله عليّ عليه السلام في ذلك اليوم وهو قول علي : " الحمد لله الذي اختار محمداً منا نبياً ، وابتعثه إلينا رسولاً فنحن أهل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، أمان لأهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى ، لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم " (١)

يضاف إلى ذلك أن عبد الرحمن بن عوف فيما أفادت به المصادر – وكما عرضنا فيما سبق أخذت عليه العهود والمواثيق من الرهط الستة المجتمعون للمشورة ، كذلك أول من اختار وعرض الأمر كان عل عليّ - رضي الله عنه – وقرر له المشورة والاختيار ثلاث مرات – ولما استمسك عليّ برأيه ذهب إلى عثمان فقال: نعم مرة واحدة ، فصفق على يديه بالبيعة (٢) ، كذلك تشاور عبد الرحمن مع الرهط – والصحابة ، وأمراء الأجناد وسائر من حضر من المسلمين

---

١ - ابن أبي الحديد – نهج البلاغة – ج١ – ص١٩٥ .
٢ - راجع السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص١٣٩ – كذلك الباقلاني ت (٤٠٣) هـ التمهيد – ص ٨

ثلاثة أيام ، ورضي الرهط بما اختاره عبد الرحمن وعمل بوصية عمر رضي الله عنه ومن الجدير بالذكر أن القاضي عبد الجبار المعتزلي (٤١٥) هـ أثبت بالأدلة العقلية والنقلية صحة البيعة لعثمان رضي الله عنه . إذ يرى أن إمامة عثمان ثابتة وصحيحة ، لأن الأخبار تواترت بأن البيعة له تمت بعد مشاورة ، وأن أهل الشورى مكثوا أياماً يتشاورون ، فكانت بيعته معلنة للكافة ، وكانت الطريقة التي تمت بها أدعى للمسلمين كافة أن يهتموا بها ويتابعوا أخبارها ، ولم يقع في ذلك اختلاف ، بل أن القاضي عبد الجبار يستدل بما حدث أثناء المشاورة بأنه لا نص على إمامة علي ، لأنه دخل فيها راضياً " [1]

ومهما قيل في خلافة عثمان أو الطعن في إمامته ، فإن الثابت أن عثمان قتل شهيداً مظلوماً ، وأن ما قيل عنه من تصرفات قام بها هي محض افتراء ، كما أن معظم المفكرين الإسلاميين وأهل السنة يكذبون أكثر الوقائع التي نسبت إليه - رضي الله عنه - إما لأنها سردت " مرسلة ، أو أخبار آحاد ، أو لضعف سندها ، وربما كان مجتمع عثمان ساخطاً ثائراً فأحصيت عليه بعض الأمور التافهة وجعلت أحداثاً جثاماً وقع من أجلها أخطر انقلاب عرف في تاريخ الإسلام ، بعد عهد النبي ﷺ والشيخين أبي بكر وعمر . [2]

خامساً : عثمان – رضي الله عنه – والفتنة الكبرى :

بويع عثمان بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال - أواخر شهر ذي الحجة ٢٣ - أوائل المحرم ٢٤ هـ - أنقسم المسلمون فيما ذكرنا سابقاً - إلى أمويين - وهاشميين علويين . في مقدمتهم علي بن أبي طالب - أبن عم الرسول الكريم وزوج أبنته فاطمة الزهراء - فتى بني هاشم - البطل الشجاع الذي لم يأبه بالموت ولم يهزم

---

[1] القاضي عبد الجبار – المغني – أبواب التوحيد والعدل جـ٢ ، صـ٣ سنة ١٣٨٦ م – وكذلك دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة في الفكر الإسلامي – صـ٦٧ .

[2] للمزيد من الدراسة : دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة في الإسلام – صـ٦٨ – صـ٦٩ – كذلك محمد الصادق عرجون – الخليفة المفترى عليه صـ١٠٠ وما بعدها – ط القاهرة ١٩٥٥ م .

في معركة قط ، أما العباس عم النبي ﷺ فإنه لم يتطلع إلى الخلافة وإن أكتفي بمعاضدة علي في مواقفه.

أما عثمان رضي الله عنه ـ فقد تعلقت به أنفاس المسلمين ـ ونظروا إليه بعد أن بايعوه مختارين ما سوف يكون منه ـ وإلى ما يقودهم إليه ـ عندئذ صعد عثمان المنبر يخطب المسلمين خطبة البيعة ـ وهم يتطلعون وينصتون فقال : بعد أن ذكر الله وحمده وأثنى عليه مخاطباً الجمع المحتشد بالمسجد ، " أنكم في دار قُلعة (أي دار القلاع وليست بمستوطن) ـ وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ، إلا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، وأعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وأخوانها ، الذين أثروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمي الله بها ، واطلبوا بالآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، والذي هو خير فقال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ﴾ سورة الكهف آية (٤٥) .[١]

فإذا تأملنا هذه الخطبة بالتمحيص بالتحليل . نجدها تخرج عن كونها خطبة في المواعظ ، والإرشاد أو تبصير الناس بأحوالهم ، وما سوف تصير أمورهم بعد تكالبهم على الدنيا وترك الآخرة .

وعلى ذلك فالخطبة لا تخرج عن كونها تتعلق بأمور الدين أكثر من أمور السياسة ، فلم يشر عثمان رضي الله عنه لأمور الدولة ، ولا عن مبادى الحكم ولم يضع سياسة عامة تتعلق بالتنظيم للشئون الإدارية أو الجباية للأموال أو الزكاة أو الولاة أو سيرتهم في الأمصار .. الخ

ويبدو أن عثمان ـ قد تقدمت به السن ، فتجاوز السبعين من عمرة ، وكان يميل إلى اللين ، ومخاطبة القلوب قبل العقول . وقد فطر على آثار أسلافه من كبار

---

١ ـ خطبة عثمان للمزيد ـ الطبري ـ تاريخ الطبري ـ جـ ٥ ـ صـ ٤٣ كذلك دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام جـ١ : صـ ٢٦١ .

الصحابة ، لكن عثمان قد تنبه بعد ذلك إلى ضرورة إحكام الأمور ، وتحديد السياسات العامة للولاة في الأمصار ، فبعث بعدة رسائل إلى هؤلاء يحثهم فيها على : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعطف على أهل الذمة و جباية الخراج بالعدل ، فقال في بعض رسائله " أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم " (١)

أستهل عثمان رضي الله عنه خلافته - بلين يميل إلى الضعف - لا بلين يميل إلى الشدة كما كان عليه سلفه من قبل أبي بكر وعمر . إذ أفتقد للحنكة السياسية والفراسة وبعد النظر مكتفياً بالتفاف بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ومستنداً إلى عصبيته وقرابته من بني أميه ، فمال إلى أقربائه ، وزاد أعطياتهم وميزهم عن سائر المسلمين ، وأثرهم بالولايات ، وعزل كبار الصحابة وذوي الرأي والذين ارتضاهم سلفه من قبل مفضلاً عليهم ذوي قرابته مما زاد الحنق ، والحقد على سياسته ، في تسييره أمور دولته ، وفي عصره الذي ازدادت فيه الأموال ، والخراج ، وتدفقت من كل مكان وأصبحت هذه الدولة مترامية الأطراف ، تجمع أشتات العناصر والأجناس البشرية المختلفة ، وبما تحمل من أمشاج مذهبيه وديانات مختلفة ومختلطة في مقابل الدين الإسلامي - الفاتح الجديد .

ومن الجدير بالذكر ، أن كتب التواريخ والسير - تشير إلى الكثير من الروايات في هذا الصدد ، وتحكي عن سياسة عثمان رضي الله عنه ، وأفعال ذويه وأهل قرابته واستئثارهم بالمناصب والأعطيات لكننا نذكر هنا بعض الملامح التي أدت إلى الفتنة الكبرى في صدد الإسلام الأول ، ومقتل عثمان رضي الله عنه .

نلتمس من هذه الأسباب باختصار ، ونروي ما ورد وتناقلته كتب المؤرخين والرواة من أمور موضوعية ، ثم نتناول ذلك فيما بعد بالتحليل والنقد مع ذكر فضائل عثمان رضي الله عنه ، ضد ما تأولته فرق الخوارج أو الشيعة بما لا يستقيم مع مذاهب أهل السنة والمنطق الصحيح .

---

(١) -المصدر السابق جـ٥ صـ٢٦٢ كذلك - دكتور طه حسين الفتنة الكبرى (عثمان) - صـ ٧١ - ط دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م

كان عثمان رضي الله عنه قد تجاوز السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه ، كان سهلاً ليناً ، ولم يكن له حزم أبي بكر وعمر ، تلك الصفة التي كان لا بد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية في ذلك العهد ، وخاصة في دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة ، ولقد أغتبط المسلمون بخلافة عثمان لما وجدوه على لين وتيسير ، بعد شدة عمر وتضييقه ، قال الزهري ، فيما ذكره السيوطي " ولي عثمان اثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً ، وأنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمراً كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لآن لهم ووصلهم ، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباء أهل بيته في الست الأواخر "(١) وفي موضع أخر يذكر السيوطي نقلاً عن أبن عساكر عن الزهري قال " إن عثمان لما ولي الخلافة كره ولايته نفر من الصحابة ، لأن عثمان كان يحب قومه ، فولّي الناس اثنتي عشرة سنه ، وكان كثيراً ما يؤلي بني أميه ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صحبة " (٢)

نقتطف بعض هذه الهفوات التي أخذها عليه بعض المؤرخين والرواية ، فيما ذهب إليه أبن ابي الحديد يذكر " بايعه (عثمان) الناس بعد أنقضاء الشورى وأستقر الأمر له ، وصحت فيه فراسة عمر رضي الله عنه فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس ، وولاهم الولايات ، وأقطعهم القطائع ، وافتتحت إفريقيا في أيامه ، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان (بن الحكم) - وعلى ذلك أنشد عبد الرحمن بن حنبل الجمحي أعتقد أنه من الخوارج .. فقال

أحلف بالله رب الأنام	ما ترك الله شيئاً سدي
ولكن خلقت لنا فتنة	لكي نبتلي بك أو تبتلى
فإن الأمينين (٣) قد بينا	منار الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهما غيلة	ولا جعلا درهما في هوى

---

(١) - السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ١٤١ .
(٢) -المصدر السابق - ص ١٤١ .
(٣) - الأمينين هما : أبو بكر وعمر .

وأعطيت مروان خمس البلاد فهيهات سعيك ممن سعى

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صله ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم ، وأعاد الحكم بن أبي العاص[١] بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سيره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر ، وأعطاه مائه ألف درهم .

وتصدق رسول الله ﷺ بوضع سوق بالمدينة يعرف (بمهزور) على المسلمين ، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم ، وأقطع عثمان (فدكَ) لمروان بن الحكم ، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها عليه السلام تارة بالميراث ، وتارة بالنحلة فدفعت عنها .

وفدك : هذه قرية بالحجاز بينها وبين المدينة مسيرة يومان ، وقد أرسل أصحابها إلى الرسول ﷺ أن يصالحهم على النصف من ثمارها وأموالها فأجابهم إلى ذلك ، وقد أفاءها الله على الرسول الكريم في سنة سبع صلحاً ، وهي مما لم يوجف بخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ .

يضاف إلي ما سبق ، أن عثمان رضي الله عنه : حمى المراعى حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية - وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقية بالمغرب . وهي من طرابلس الغرب إلي طنجه ، من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين .

كذلك أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت مال المسلمين في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف درهم من بيت المال .

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسمها كلها في بني أمية وصرف زيد بن أرقم عن خزنة المال . عندما بدا منه معارضه لسياسته في تقسيم المال والأعطيات ..

وانضم إلي هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون ، كتسيير أبي ذر رحمه الله إلي الربذة ، وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ، وما أظهر

---

[١] الحكم بن أبي العاص : كان يتندر على الرسول ﷺ ويغمزه في مشيته ومقلداً لحركاته في سخرية فغضب علية الرسول الكريم ونفاه من المدينة إلى موضع ما بمكة ولم يرده أبداً وكذلك أبي بكر وعمر - وقد أعاده عثمان إلي المدينة

من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود ورد المظالم ، وكف الأيد العادية ، والانتصاب لسياسة الرعية .[1]

ومما زاد النقمة على سياسة عثمان رضى الله عنه ، وأدى فيما بعد لإذكاء نار الثورة في معظم الأمصار والأقطار الإسلامية ، ما تناقلته كتب الرواة ، منها : أنه عزل ولاة عمر من الأمصار وولاها ذوي قرباه ، من بني أمية ، وقد ذكر السيوطي تذمر بني هذيل وبني زهرة ومخزوم من سياسة عثمان تجاه عبد الله بن مسعود ، وغضب بنو غفار وأحلافها لأبي ذر الغفاري ، وبنو مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمار بن ياسر .[2] لذلك لا نعجب حين رأينا هؤلاء يسارعون إلي إجابة الدعوة للثورة على عثمان في الأقاليم . وقد كان عثمان يلجأ إلي تبرير معظم أفعاله وهو خليفة المسلمين - أمام الصحابة والمسلمين - ألا أن الدعاية السيئة ، والتبرم القائم ضده - لم يهدا - إذ لم يقتنع شيوخ الصحابة بكل سياسته ولم يخلوا من لومهم واعتراضهم على أفعاله ، وذكر الطبري والدينوري والسيوطي وغيرهم عدة أمور أستحدثها بشأن الدين - لم يسبق بها عهد الرسول الكريم ولا عهد أبي بكر وعمر - فهو أول من أقطع القطائع ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالآذان يوم الجمعة ، وقدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأول من فوض الناس إخراج زكاتهم ، وأول من حمى الحمى[3] لإبل الصدقة ، ولإبله ، وإبل بني أميه وخيلها ، وأول من جمع الناس على حرف واحدة في القراءة .[4]

وفي تصوري - بالاتفاق مع المؤرخين - أن سياسة عثمان رضي الله عنه في إقطاع القطائع ، وتوزيع الفيء والثروات ، والتساهل مع أعلام قريش وأقرباءه

---

[1] ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١ - صـ١٩٨ ، صـ١٩٩ . كذلك ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٦ - صـ٣٤٣ - ط ١٩٣٦م .

[2] السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص١٤١ .

[3] - يقال (حمى فلان الأرض يحميها حتى لا يقترب أحد منها ، والحمى موضع فيه كلأ يحمي من الناس أن يرعى (وقال ﷺ فيما فصله الشافعي (ت٢٠٤هـ) لا حمى إلا لله ولرسوله) وكان الناس في الجاهلية إذا نزل أحدهم ببلد بها كلأ يستعوي كلباً فيها حتى لا يقترب أحد منها ، وقد نهي النبي ﷺ أن يحمي علي الناس كما كانوا في الجاهلية) دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - جـ ١ - صـ ٢٤٦ .

[4] -السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص١٤٧

من بني أمية ومن لهم صلة به - أدت إلى ظهور طبقية اجتماعية - لم تكن مألوفة في عهد الشيخين الكبيرين من قبله .

فقد أباح عثمان لأعلام قريش أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق ، والشام ومصر ، وأن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار - وقد تصدى أبن مسعود رضي الله عنه لذكر نفر من هؤلاء الصحابة - لذا خرج هؤلاء من المهاجرين والأنصار إلى الأقاليم وأنشأوا لأنفسهم (أرستقراطية) دينية سداها المال ، ولحمتها السبق في الإسلام وصحبة الرسول ﷺ ، وقد تمنى إشباع هؤلاء وأتباعهم أن تصير الخلافة في يد صاحبه . لما كان يضفي عليهم - هذه الطبقة - من أموال وهبات وعطايا ، حتى قال أهل البصرة نولي الزبير ، وقال أهل الكوفة نولي طلحة ، وهكذا ، وقد وجد إلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية ، طبقة أخرى معدمه -فقيرة - أنشأها عمال عثمان ، باستئثارهم بالفيء ، والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وهذه الطبقة الأخرى - هم المقاتلة (من الجند والمحاربين) فليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب فلما رأى هؤلاء المحاربون - ومعظمهم من البدو هذه الثروات الضخمة والأموال الطائله يستأثر بها الحكام والقواد من قريش - ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد في ظلال السيوف ، وأن قريشاً احتكرتها لنفسها وحرمتهم من الغنائم التي كانت تعطى للمحارب في عهد الرسول الكريم وعهد الشيخين أبي بكر وعمر - حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبه لحقوقهم ، وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها ، لذلك لا تعجب حين أعلن المقاتلة من العرب أن أموال الفيء والغنائم أنما هي لهم وليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله كما يدعون. [1]

ولعل هذه الوقائع والأحداث السياسية والاجتماعية تفسر لنا بعض الأسباب الحقيقية وراء ما أعلنته فرق الخوارج وزعماءها من القول بالولاية أو الخلافة في غير قريش ، ورفض مبدأ الخلافة قرشية ، كذلك رضاء الخوارج عن خلافة عثمان في السنوات الأولى من ولايته ورفضهم بل وتكفيره في السنوات الأخيرة .

---

[1] - المصدر سابق - صـ٢٩٦ ، دكتور طه حسين - الفتنة الكبرى (عثمان) صـ ٧٧ وما بعدها

وهناك قصة أخرى ، لا نريد تجاهلها في هذا المقام . وهي دور عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، في التحريض وإذكاء نار الفتنة بين المسلمين ضد سياسة عثمان ومواقفه ، وربما كان للتغيرات الاجتماعية والمادية التي حدثت في عهده - وما صار إليه حال المجتمعات العربية الإسلامية ، وشيوع روح الطبقية ، والشعور بالظلم من جانب بعض الطبقات الفقيرة أو المحاربة بالإضافة إلى ذيوع روح العداء أو الحنق والمعارضة من جانب كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار لسياسة عثمان – أثر كبير في ظهور الفتنة والثورة عليه .

وقصة عبد الله بن سبأ ، ودوره في الفتنة انقسم بشأنه الكتاب والمؤرخون فمنهم من أيد هذا الموقف ، وأثبت الدور الكبير الذي لعبه في هذه الحادثة ، ومنهم من تناوله بالتحليل والنقد وقلل من أهميته .

ونحن نعرض لوجهة النظر هذه ، وتلك ، توخياً للموضوعية في العرض والحكم على طبيعة الحوادث والوقائع .

فقد ذهب معظم المؤرخين والكتاب إلى تأييد دور ابن سبأ في الفتنة من حيث التأليب والتحريض وبث الأفكار وإرسال الرسالات والتنقل بين الأقاليم والأمصار .

فقد وفد ابن سبأ [1] إلى الشام وحرض أبا ذر الغفاري على معاوية ، وقال له : يا أبا ذر لا تعجب على معاوية يقول : المال مال الله ؟ ألا أن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه (أي يضمه ويحتويه) دون المسلمين ، وقد كان أبو ذر مستاءً من قبل من سياسة عثمان ؛ لذا أعلن استياءه من سياسة معاوية ، وكان يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء

والإقلاع عن ادخار الأموال مذكراً بقوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ سورة التوبة آية (٢٤) ، وقد التف حوله الفقراء

---

[1] عبد الله بن سبأ (الملقب بابن السوداء) – يهودي من أهل صنعاء ، كانت أمه حبشية ، أسلم في عهد عثمان ، وكان يتنقل بين الناس يثيرهم عليه .

وثاروا وبلغ الأمر إلى معاوية ، فرفع معاوية الأمر إلى عثمان ، فأيقن أن الفتنة قد أخرجت – فبعث عثمان في طلب أبي ذر ونفاه إلى الربذة وهي قرية صغيرة على مشارف المدينة ، وقد وجد ابن سبأ الطريق ممهداً للثورة ضد عثمان بمثل هذه الأسباب فوجد في البصرة مرتعاً خصيباً لذلك – إلا أن عبد الله بن أبي عامر والي عثمان طرده من هذه البلاد ، فذهب إلى الكوفة حيث تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ، ومن القرشيين الذين استولوا على الأرض (السواد) واتخذوه بستاناً ، وواصل الثائرون على سياسة عثمان الاجتماعات في منازلهم ، ولعنوا عثمان جهاراً ، وخاض الناس في عماله ، وطرد ابن سبا من الكوفة ، فرحل إلى الشام فلم يلق من أهلها ما وجده في البصرة والكوفة ، فقصد إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين ، واتصل بالثائرين وبعث الدعاة إلى البلاد يدعون لعلي – واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس . فوضع مذهب الرجعة ، أي رجعة (محمد النبي ﷺ) ثم نشر مذهب الوصاية ، بمعنى أن علياً هو وصي النبي (محمد ﷺ) ، وأنه هو خاتم الأوصياء كما أن محمداً هو خاتم الأنبياء واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدي على حق علي في الخلافة كما روج بين المسلمين نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس الذين احتلوا بلاد اليمن قبل الإسلام ، أي أن علياً هو الوصي والخليفة بعد النبي عليه السلام وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ ابن سبأ العقول للاعتقاد بأن عثمان اغتصب الخلافة من علي وصي الرسول ، ويذكر الطبري نصاً لابن سبأ يقول فيه " إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا عليّ وصي الرسول ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر " [1] .

ويبدو أن دعوة ابن سبأ قد أتت ثمارها ، فازداد السخط وخاصة في مصر ، إذ اشتد سخط أهلها على عثمان وعلى واليه عبد الله بن أبي السرح وهو من ذوي قرباه ، وظهر ذلك في انضمام محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر على إذكاء

---

[1] دكتور حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي – جـ١ – صـ٢٦٨ ، ٢٦٩ كذلك الطبري – تاريخ الطبري – جـ٣ – صـ٢٩٤ .

السخط في مصر .[1] ولذلك قصة أخرى فيما بعد والتي أدت بملابستها إلى سخط الثوار وذهابهم برهط كبير إلى المدينة للمطالبة بخلع عثمان وما سيحدث من أمور أخرى أدت إلى مقتل عثمان ، ولكن يجب علينا هنا أن نعرض باختصار وتحليل لوجهة النظر الأخرى التي تقلل من دور عبد الله بن سبأ في إثارة الفتنة ، والتحريض عليها ، وهذه بالطبع تاتي من جانب الدكتور طه حسين (ت سنة ١٩٧٤) في حديثه عن الفتنة الكبرى .

يذهب الدكتور طه حسين إلى التقليل من أهمية الدور الذي لعبه ابن سبا وينكر على المؤرخين والكتاب ما ورد لديهم من أخبار .. فيقول : " ويخيل إلي أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً ...... ، ولست أدري أكان لابن سبا خطر أيام عثمان أم لم يكن ، ولكني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن ، فما كان المسلمون في عهد عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب " [2]

ومن ناحية أخرى يذهب طه حسين إلى أن أكبر الظن أن عبد الله ابن سبأ هذا إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً ، إنما قال ما قال ودعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف – فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها ، وأكبر الظن أن خصوم الشيعة من الأمويين والعباسيين بالغوا في أمر ابن سبأ ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث لعثمان وولاته وليشنعوا على عليّ ، وشيعته من ناحية أخرى .

وينتهي إلى الرأي : فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ، ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بهم رجل مثل ابن سبأ أسلم لا رغبة ولا رهبة ولكن مكراً وكيداً وخداعاً ثم أتيح له من النجاح ما كان يبتغي فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه ثم ينتهي إلى أن هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ ، وإنما الشيء الواضح الذي ليس فيه شك هو أن ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت

[1] المصدر السابق – ص٢٦٩ .
[2] دكتور طه حسين – الفتنة الكبرى – عثمان – ص١٣٢ .

بطبعها تدفع إلى الاختلاف في الرأي ، وافتراق الأهواء ، ونشأة المذاهب السياسية المتباينة [١] "

هذه وجهة نظر أخرى لها وجاهتها بلا شك فالتحليل النقدي لظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في عهد عثمان كانت مختلطة في بعض نواحيها ، ولا يمكن من السهولة أن يعقل عاقل أن يكون لابن سبأ الدور الأكبر في الفتنة ، ولا لديه القدرة على إقناع شخص صحابي جليل مثل أبي ذر الغفاري لمعارضة عثمان أو معاوية في شأن الولاة واجتباء الأموال وتخصيصها للأغنياء أو النخبة من القريشيين دون سائر المسلمين ! لكن لا يمنع من القول وهذا هو الصدق ، والثابت في المصادر الإسلامية والتاريخية - أن لعبد الله بن سبأ دورا فعّال في التحريض والإثارة للفتنة ، خاصة وهو يهودي أسلم للكيد والطعن في الإسلام عقيدة ومذهباً .

والقصة الأخيرة - في هذه الفتنة - تتعلق برهط وفد من مصر إلى المدينة لمطالبة عثمان بعزل عبد الله بن أبي سرح واليه عليها ، لما أظهر من عنف واضطهاد لهؤلاء أو ضربهم وقتل أحدهم ، فيما يرويه السيوطي " وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح ، فكتب إليه كتاباً يتهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، فضرب بعض من أتاه من قبل عثمان فقتله ، فخرج أهل مصر في سبعمائة رجل ونزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي السرح بهم ، فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد ، وأرسلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - إليه تدعوه إلى إنصافهم من عامله ، ودخل عليه علي بن أبي طالب فقال : إنما يسألونك رجلاً مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دماً ، فاعزله عنهم ، واقض بينهم ، فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه ، فقال عثمان لهم اختاروا رجلاً أُوليه عليكم مكانه ، فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر ، فقالوا استعمل علينا محمداً بن أبي بكر ، فكتب عثمان عهده وولاه ، وخرج معهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح فخرج محمد بن أبي بكر ومن معه ، فلما كان على مسافة ثلاثة أيام من المدينة إذا

---
١ - المصدر السابق – ص١٣٤ .

بهم بغلام أسود على بعير يسير مسرعاً ، فقال له أصحاب محمد ما قصتك وما شأنك ؟ فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين ، وجهني إلى عامل مصر ، فقالوا له : هذا عامل مصر ، فقال الغلام ليس هذا ما أريد ؟ فأخبروا بأمره محمد بن أبي بكر ، فأخذه وفتشوا ما معه ، فوجدوا رسالة ، وهو كتاب موجه من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح ، فجمع محمد بن أبي بكر من كان معه من المهاجرين والأنصار وفك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه : إذا أتاك محمد ، وفلان ، وفلان ، فاحتل في قتلهم ، وأبطل كتابه ، وقر في عملك حتى يأتيك رأيي ، وأحبس من يجيء إلي يتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك ، إن شاء الله تعالى " فلما قرأوا الكتاب فزعوا وأزمعوا ، فرجعوا إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ، ودفع الكتاب إلى رجل منهم ، وعندما قدموا المدينة جمعوا طلحة ، والزبير ، وعلياً ، وسعداً ومن كان من أصحاب محمد ﷺ ، ثم فضوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبروهم بقصة الغلام ، وأقرؤوهم الكتاب ، فلم يبق رجل بالمدينة إلا وحنق على عثمان وازداد غضب من كان قد غضب لأمر ابن مسعود وأبي ذر ، وعمار بن ياسر ، حنقاً وغيظاً وعندئذ دخل كبار الصحابة منازلهم ، وحاصر الناس منزل عثمان - رضي الله عنه - سنة خمسة وثلاثين هجرية - فلما رأى ذلك عليّ بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة البدريّين ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب ، والغلام ، والبعير ، فقال له عليّ : هذا الغلام غلامك ؟ قال : نعم ، قال: والبعير بعيرك ؟ قال نعم ، قال عليّ :فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف عثمان - رضي الله عنه- بالله ما كتب هذا الكتاب ، ولا أمر به ، ولا علم له به ، فقال عليّ له : فالخاتم خاتمك ؟ قال نعم ، فقال عليّ: كيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به ؟ فحلف عثمان رضي الله عنه للمرة الثانية ، بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط ، وأما الخط فعرفوا أنه خط (مروان) فسألوا عثمان أن يدفع لهم (مروان) - فأبى ، فشكوا في أمر عثمان إلا أن يدفع إليهم مروان حتى يبحثوا في أمره ، وقد علموا أن عثمان - رضي الله عنه - لا يحلف بباطل قط [1]

[1] - السيوطي - تاريخ الخلفاء - صـ١٤٢ ، صـ١٤٣ - كذلك راجعنا دكتور حسن إبراهيم - تاريخ

عندما أبى عثمان أن يدفع إلى الثائرين عليه (مروان بن الحكم) لأكي يسألوه ، إذ قام عندهم الدليل على أنه هو أي مروان ـ الذي بعث بالكتاب حاصروه اثنين وعشرين يوماً ، فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه منهم : محمد بن أبي بكر ، والحسن والحسين أبني عليّ وعبد الله بن الزبير وغيرهم وناشدهم عثمان عندما أشرف عليهم وقال لهؤلاء المتآمرين عليه : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ : ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزته . ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرته . (١) وهكذا ظل الأمر على هذا الحال حتى تسلل بعض هؤلاء المتآمرين الدار ـ وقتلوا سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة (٣٥ هـ -٦٥٦ م). وتولى عليّ الخلافة في الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فكان ذلك أول فصول هذه المأساة من تحزب العرب أحزاباً ، مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً .

ويشير ابن أبي الحديد ت عام (٦٥٦هـ) معبراً عن موقفه ومواقف أهل السنة والمتكلمين من المعتزلة والأشعرية في هذا الصدد " والذي نقول نحن إنها وإن كانت أحداثاً ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه ، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ، ولا يعجلوا بقتله ، وأمير المؤمنين عليه السلام (عليّ رضي الله عنه) : أبرأ الناس من دمه وقد صرح بذلك في كثير من كلامه ، فقال عليّ : والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله " (٢)

= الإسلام السياسي ـ ط ـ صـ٣٧١ .
١ ـ المصدر السابق – ص٣٧١ . كذلك السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص١٤٣ .
٢ ـ ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ١ – ص٢٠٠ .

سادساً : رد شبهات الخوارج وغيرهم وذكر فضائل عثمان رضي الله عنه:

تدور شبهات الخوارج [١] ومبادئهم وأصولهم العقائدية والسياسية حول فكرتين أساسيتين : الأولى : الخلافة وشروطها وأهميتها وضرورتها ، والثانية : حول الإيمان - وصلته بالعمل - وشروطه وصلة ذلك بالمبدأ الأول في عقائدهم ، لكننا نركز هنا على الفكرة الأولى باختصار لأنها تتعلق بخلافة عثمان رضي الله عنه ، بعد مقتله كما أن حجر الزاوية في أفكارهم يدور حول الخلافة ، الأمر الذي أدى إلى خروجهم على عليّ - رضي الله عنه .

تتفق الخوارج على اختلاف فرقهم وفروعهم - على صحة خلافة أبي بكر وعمر ، لصحة انتخابهما ، ويقرون بصحة خلافة عثمان في السنوات الأولى من خلافته ، فلما غير وبدل ولم يسر سيرة الشيخين الكبيرين وأتى بما أتى من أحداث وجب عزله ، ويقرون أيضاً بصحة خلافة علي - رضي الله عنه - قبل التحكيم أو إلى أن حكم الحكمين - وشهدوا عليهما بالكفر بعد ذلك .. والدليل على ذلك ما رواه الشهرستاني (٥٤٨ هـ) في الملل والنحل " إن عروة بن حدير (وهو رجل من الخوارج) نجا من حرب النهروان ، وبقى إلى أيام معاوية ، ثم أتى إلى زياد بن أبيه ومعه مولى له : فسأله زياد عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال فيهما خيراً ، وسأله عن عثمان فقال : كنت أوالي عثمان على أحواله خلافته ست سنين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله زياد عن عليّ بن أبي طالب فقال : كنت أتولاه إلى أن حكم الحكمين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً .. إلخ فامر زياد بن ابيه بضرب عنقه " [٢]

---

١ - الخوارج : كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة ويسمى خارجياً سواء كان الخروج أيام الصحابة والأئمة الراشدين او بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة . ونقصد هنا بهؤلاء الذين خرجوا على عليّ بن ابي طالب وكفروه وكفروا عثمان والحكمين - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ١١٤ - تحقيق عبد العزيز الوكيل - ط الحلبي ١٩٦٨ .

٢ - المصدر السابق - ص١١٨ .

إذن فابتداء الطعن في عثمان - رضي الله عنه - عند الخوارج في السنوات التالية لخلافته كما أن كلامهم يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم ، والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمناً ومن لا يكون " (١)

فمن شبهات الخوارج في خلافة عثمان - رضي الله عنه - إنكارهم ولايته بعد ست سنوات ، أنسياقا وراء بعض الهفوات التي أخذت علي سياستة ، في أمر الولاه ، و اقطاع القطائع ، و تفضيله لبني أمية علي سائر المسلمين ، واعتقادهم بأن عثمان أتي من المظالم والتجاوزات خلافاً لسيرة الشيخين من قبله أو تبديل بعض السنن و إحداثه لأوليات لم تسبق في حياة المسلمين من قبل ، مما يستحق التكفير والقتل أو الغزل ومن ذلك : أنه عليه السلام : حمي الحمي ، وضرب عمار ابن ياسر حتي فتق أمعاءه، و ابن مسعود حتي كسر أضلاعه . وأجلي أبي ذر إلى الربذة ، و أخرج أبي الدرداء من الشام ، ورد الحكم بن العاص بعد أن نفاه الرسول ﷺ ، و أبطل سنة القصر في الصلوات والسفر ، وولي معاوية ، و عبد الله بن عامر و مروان بن الحكم وولي الوليد بن عقبة بن أبي معيط - وهو فاسق - ليس من أهل الولاية ، و أعطي مروان خمس إفريقية ، وكان عمر يضرب بالدرة ، و ضرب هو بالعصي ، و علا علي درجة الرسول ﷺ و قد انحط عنها أبو بكر و عمر ، و لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمازان و كتب كتابا لابن ابي السرح يحسه علي قتل من ذكرهم فيه(٢)

وهكذا الي غير ما هنالك من شبهات بدت للخوارج و من شاركهم من الشيعة في الطعن علي خلافة عثمان ، و من ثم تخطئته و تكفيرة و قتله ، لكن أهل السنه و الجماعة، والعلماء و المنصفين من الباحثين في العصر الحديث ينصفون عثمان رضي الله عنه بالاضافة الي تخطئة الخارجين عليه أوالسائرين علي سياسته و يرون ان عثمانا قتل مظلوما فقد أخرج ابن عساكر من وجه أخر عن الزهري قال

---

١ - أحمد أمين - فجر الإسلام - ص٢٥٨ .

٢ - لمزيد من الدراسة راجع : د . حسن إبراهم تاريخ الاسلام السياسي . ج ١ . ص٣٦٢ و ما بعدها .

: قلت لسعيد بن المسيب : هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان ؟ و ما كان شأن الناس و شأنه ؟ و لم خذله أصحاب محمد ﷺ ؟ فقال ابن المسيب : قتل عثمان مظلوما ، و من قتله كان ظالما و من خذله كان معذورا . فقلت كيف كان ذالك ؟

قال : إن عثمانا لما ولى كره ولايته نفر من الصحابة ، لأن عثمان كان يحب قومه ،،، و كان كثيرا ما يولي بنى أمية .. و كان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم[١] وهكذا " إلى أخر ما ذكرنا فيما سبق من بعض الهفوات التي أخذت على سياسة عثمان رضي الله عنه .

كذلك ذهب أبو بكر بن العربي (٥٤٣ هـ) في تحليل هذه الوقائع والهفوات التي أخذت على سياسة عثمان في الولايات وغيرها ، ورد الطعن عليه وعلى خلافته وشبهات الخوارج أو غيرهم في ذلك .

فقال : أما الحمى فقد أختصه الرسول لأبل الزكاة المرصدة للجهاد والمصالح العامه ، وسار على ذلك أبو بكر وعمر بعد أن زاد فيه ولاسيما وأن حاجة الجهاد إلى الخيل والأبل زادت عن ذي قبل ، وأتسع عثمان فيه لأتساع الدولة ، وأزدياد الفتوح ، وقد وسع الحمى لكثرة أبل الصدقة ، وماشيتها وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصدقه ، فلا إثم عليه [٢]

أما ضربه لعمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه فلم يحدث لأنه لو فعل ما عاش أبدا، وسبب ضربه إياه لو حدث ، أن عثمان كان قد أرسله إلى مصر ليستقصي بعض الشائعات ، فألتف حوله السبأيون يستميلونه ، فجاء به عثمان وعاتبه ولم يضربه ، بل حلف فقط بضربه - كما أن عمارا كان قد أغلظ للخليفة في القول - مما يعني استخفافة بسلطان الخليفة محق عليه العقاب [٣] أما عبد الله بن مسعود فلم يضربه عثمان - ذلك أن عثمان لما عزم على تعميم مصحف واحد في العالم الإسلامي ، كان يود ابن مسعود لو أن كتابة المصحف الموحد نيطت إليه أو به ، لكن عثمان أختار زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد لأن أبا بكر وعمر أختاراه

---

١ - السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص١٤١
٢ - الباقلاني - التمهيد - ص٢٢٢ .
٣ - المصدر السابق - ص٢٢٦ .

من قبل لأنه كان قد حفظ آخر عرضة عرض بها كتاب الله على الرسول الكريم قبل وفاته ، فكان عثمان على حق في هذا ، وفي غسل جميع المصاحف الأخرى وفيها مصحف ابن مسعود . أما أبو ذر فهو الذي اختار أن يعتزل في الربذة ، فوافق عثمان لأن أبا ذر كان زاهداً وكان يقرع عمال عثمان ويتلو عليهم قوله تعالى ﴿ والـــــذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ سورة التوبة آيه (٣٤) ، أما إخراج أبي الدرداء إلى الشام فكان ، لأن أبا الدرداء كان زاهداً ، وأشتد في الحق مع معاوية ، وأهل الشام حتى عزله عن القضاء ، فخرج هو إلى المدينة ، وأما رد عثمان للحكم بين أبي العاص ، بعد أن كان النبي عليه السلام قد قضي بنفيه ، فلم يصح أن النبي نفاه إلى مكة . وإنما ذهب باختياره - وقد حدث أختلاف في رواية النفي من المدينة أو من مكة ولم تأت الشريعة بذنب يبقي صاحبة منفياً دائما ، وإذا صح خبر نفي الرسول عليه السلام للحكم بسبب محاكاة الحكم للنبي ﷺ في مشيته - أو من خلف الصفوف- فقد عزره النبي الكريم بالنفي ، وإذا عزر رجل بالنفي لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان ، إن هذا لا يعرف في شتى الذنوب ولم تأت الشريعة بذنب يبقي صاحبة منفياً دائماً ، بل غاية النفي المقدر سنة وهو نفي الزاني ، والمخنث حتى يتوب " [١]

وأما ترك القصر في الصلاة للمسافر بركعتين بدلاً من أربع ركعات ، فاجتهاد ، إذ سمع أن الناس أفتتنوا بالقصر ، وفعلوا ذلك في بيوتهم ، ورأى أن السنة ربما أدت إلى ترك الفريضة ، فأسقطها ، وأما معاوية ، فإن عمر أولاه وجمع له الشامات كلها ، وأقره عليها عثمان ، بل أن الذي ولى معاوية أبو بكر الصديق ، وأما عبد الله بن عامر فولاه عثمان لأنه كريم العمات والخالات ولجهاده وفتحة خرسان ،واطراف فارس وسجستان وكرمان ، ولا عصمة لغير الأنبياء ، فإذا أخطأ مثل عبد الله بن عامر فإن حسناته الكبيرة تغفر له هواته ، وإذا عل منكراً ، فإنه يتحمله وحده ، ولم يرض عثمان يفعله ، وأما تولية عثمان - الوليد بن عقبة - فإن أبا بكر كان يكلفة بالرسائل الحربية إلا قائده خالد بن الوليد في جهاده بفيالق

١- نظرنا : دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة في الفكر الإسلامي – صـ ٨٠ ، ٨١ ، كذلك دكتور : يحي هويدي – دراسات في علم الكلام – صـ ٩١.

الجهاد إلى شرق الأردن ، وأما فسقه فليست الزنوب مسقطة للعدالة ، إذا وقعت التوبة - وقصة شرب الوليد للخمر مشكوك فيها - كما أن توليته كان أجتهاد من عثمان ، وميلا لأقاربه مما لا يقدح فيه لأنه ظن أنهم أحق من غيرهم .

وفيما يتعلق بمروان بن الحكم - وما كان من أمر الكتاب - الذي أرسل إلى أبن أبي السرح لقتل من وردت أسمائهم به - - يذهب أهل السنة إلى القول " فلما أتهموا مروان لإنه كتب الكتاب الذي يحض على قتلهم - بعد أنكار عثمان أنه صدر عنه ، طلبوا تسليمهم مروان ، فأبى ، وكان عثمان محقاً في هذا ، إذا كان مروان قد أذنب بما أراده قتلهم ، فإن هذا الفعل أي القتل ، لم يتم ، فلا ينبغي قتله ، لهذا السبب ، وإنما يكتفي بتأديبه بأيه وسيلة ، أما الدم فأمر عظيم

أما قولهم أن عثمان أعطى مروان خمس إفريقية ، فهذا الخبر لم يصح ولكن الخبر الصحيح هو أن عثمانا أعطى خمس الخمس لعبد الله بن في غزوه إفريقية - وقد ذهب الإمام مالك ت (عام١٧٩هـ) وغيره إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس ، وينفذ فيه ما أداه إليه إجتهاده ، وإن أعطاه لواحد جائز ... وهكذا إلى آخر ما قال به الخوارج إنتقاداً لسياسة عثمان - وخروجهم على الإعتراف في سنواته الست الاخيره وردود أهل السنة وعلماء الأصول على هذه الشبهات بما يبرئ ساحة عثمان رضي الله عنه [1]

وهناك مسألة أخرى - ربما ثارت حولها شبهات الخوارج وغيرهم من المذاهب وهي تتعلق (بقصة قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان) - إذ أن عثمان لم يأمر بقتل عبيد الله بالهرمزان ، تورد المصادر قصة مقتل عمر بن الخطاب ودور الهرمزان في التحريض على ذلك ، وكيف أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان - ثم أتى إلى منزله فقتل جفينه ، ثم ذهب إلى منزل أبي لؤلؤة المجوسي وقتل أبنته - وأختلف المسلمون حوله - إذ كيف يقبل أبن عمر ويقتل هؤلاء الثلاثة دون أن

---

[1] - نظرنا في تحليل هذه الشبهات وعرضها والرد عليها المصادر التالية :-
أ- دكتور يحيي هويدي - دراسات في علم الكلام - صـ٩٢.
ب- دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الفكر الإسلامي - صـ٨٠: ٨٣
جـ-أبو بكر بن العربي - العواصم في القواصم - صـ٦٠، ٦٢ ، ٧٠، ٧٧ ، ٧٨.- تحقيق محب الدين الخطيب - ١٩٥٥م.

ينتظر رأي ولي الأمر في ذلك ، فمن المسلمين من أشار على عثمان بقتل عبيد الله بالهرمزان – لأنه قتل نفس بغير بينة – وأزهق أرواحاً أخرى بدون ذنب ودون استشارة ولي الأمر ، وكان الإمام علي بن أبي طالب من أشد المتحمسين لهذا الرأي (١) أما باقي المسلمين – فقد أشاروا على عثمان رضي الله عنه بأن يعفوا عن عبيد الله بن عمر ، وأن الأمر متروك لـــه كولي لأمر المسلمين بعد مبايعته بالخلافة بعد عمر بن الخطاب .

وقد تطوع عدد كبير من مفكري الإسلام والفقهاء - إلى تبرير عفو عثمان عن عبيد الله ، وعدم قتله بالهرمزان ، نذكر من ذلك ردا على شبهات الخوارج وغيرهم : ما ذهب إليه بعض المفكرين " لم يترك عثمان قتل عبيد الله إلا بعد أخذ المشورة ، وكانت هذه المشورة تنصح بالأيقتل لأن أباه (عمر) قتل من قبل ، فإذا قتل عبيد الله أيضاً فسوف يتحدث الناس بذلك جميعاً ، وفي ذلك ما يوهن من شان الدين ويذل سلطان المسلمين ، ولما لـــه من وقع في غير بلاد الإسلام . يقول القاضي عبد الجبار " وللوالي أن يعفو كما لـــه أن يقتل ، فجاز لعثمان أن يعفوا ، ولم يفعل إلا ما أجاز لـــه ، وروى أن عثمان سأل المسلمين أن يعفو وأن يتركوه فأجابوه إلى ذلك ، وإنما أراد عثمان بترك قتله وبالعفو عنه ما يعود إلى عز الدين ، لأنه خاف أن يبلغ العدو قتله فيقال : قتلوه وقتلوا أباه "(٢).

يضاف إلى ما سبق أن الهرمزان كان من المحاربين في صفوف كسرى ضد المسلمين فلما أسره المسلمون وجئ به إلى عمر أعتقه ، وللموضوع سابقة تجعل عبيد الله بن عمر يقع في الشبهه ، أذ أن عبد الله بن عباس وهو أفقه منه ، قد أستأذن في قتل الفرس الذين يحضرون إلى المدينة جميعاً عندما شاع منهم الفساد ، فكيف لا يعتقد عبيد الله بن عمر جواز قتل الهرمزان ، وكذلك فإذا كان عبيد الله بن عمر قد قتل الهرمزان بنفسه - دون أن يترك لولي الأمر قتله ، فقد فعل هذا متأولاً بشبهة ، فتدرأ هذه الشبهة القصاص منه ، كما حدث مع أسامة بن زيد بن حارثه ، فقد عزره الرسول ﷺ لقتله رجلاً بعد قوله لا إله إلا الله ، لأنه كان متأولاً ، وتأويل عبيد الله أصبح بالمثل شبهة تمنع من وجوب القصاص منه ، وأستشهاداً بالحديث

١- نظرنا دكتور طه حسين – الفتنة الكبرى (عثمان) – صـ ٦٥ .
٢- دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة في الفكر الإسلامي – صـ٩٠ ، ٩١. نقلاً عن : القاضي عبد الجبار – المغني – ج ٢ – ص ٥٦

الذي رواه مسلم ونصه " من جاءكم وأمركم على رجل وأحد يريد ان يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان " يرى الإمام ابن تيميه ت عام (٧٢٧هـ) ، أن النبي ﷺ أن يقتل الواحد المريد تفريق الجماعة ، ومن قتل إمام المسلمين (الخليفة) فقد فرق جماعتهم . فإذا كان قتل الأئمة عمر وعثمان وعلي - يعتبر محاربة لله ورسوله ، وفساد في الأرض كذلك الذين يشتركون في القتل كالهرمزان - يجب قتلهم أيضاً ، لهذا يحل قتله لأعانته على قتل عمر .[1]

أما عن فضائل عثمان رضي الله عنه - خصاله الحميده - فهي أكثر مما تعد ولعل في ذكر وتحليل شيء منها درء الشبهات الخوارج وغيرهم ممن تأولوا عليه بما ليس فيه.

أخرج أبن عساكر عن عبد الرحمن بن مهدي قال : خصلتان لعثمان ليستا لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما : صبره على نفسه حتى قتل ، وجمعه الناس على مصحف واحد ، وعلى حرف واحد في القراءه [2] وهو أفضل من قرأ القرآن على النبي ﷺ ، وهو أول من هاجر إلى الله بأهله الهجرتين وكان سفير الرسول عليه السلام بمكة لأداء العمره ، اشتهر بالفقه والحياء والكرم وكان لين العريكة كثير الإحسان والحلم ، كثير الصيام والوضوء والطهاره ليلاً أو نهاراً ، جهز جيش العسره وأشترى بئر رومه وتصدق به على المسلمين ، وكان من رواة الحديث ، وروى عنه كثير من الصحابه والتابعين ، مما يدل على قدمه الراسخ في الرواية وصدقه ، ولم يحلف بباطل قط ، وقد كان أبو بكر يتخذه اميناً وكاتباً له ، يستشيره في أمور ومهام الدولة ، وأجمع عليه أهل الحل والعقد والمشوره ، وعقدت له ولايه المسلمين بأختيار منهم ، راضين غير مكرهين ، لم يرتكب فاحشة ولا خطأ في جاهليه ولا إسلام ، كان عثمان رضي الله عنه يحج إلى بيت الله الحرام كل عام ، قالت عنه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما بلغها قتل عثمان " قتلوه ، وأنه والله لأوصلهم للرحم ، وأتقاهم للرب - وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راضي " - كان صهر الرسول الكريم لأبنتيه رقية وأم كلثوم وتمنى الرسول الكريم لو أن لديه ثالثة لزوجها له ، كان

---

[1] - نظرنا : المصدر السابق - صـ٩٠ ، ٩١ - ابن تيمية - منهاج السنة - جـ٣ - صـ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ - ط المدني عام ١٩٦٢م ، كذلك نظرنا : في الدفاع عن سياسة عثمان رضي الله عنه - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١٣ - صـ١٨ ، ٣٥ .

[2] - السيوطي - تاريخ الخلفاء - صت١٤٦ ، ١٤٧.

رضي الله عنه جواد وكريماً يحب التوسعة على الناس ، لم يقصد في بذل أعطياتهم ، ولم يقتصر على أعطائهم الكفاف من العيش ، ولم يرض أن يأخذ الناس بأكثر مما فرضه الله تعالى عليهم كان يأخذ على الولاة عهداً ألا يلبسوا رقيقاً ، ولا يأكلوا نقياً ، ولا يتخذون دون حاجات الناس حجاباً ، كان كثير المشورة وينزل على رأي المسلمين في مشوراتهم ، لكن كثرة الدس والوقيعة ألبت النفوس عليه ـ رحمه الله [1]

[1] ـ للمزيد : ابن حجر ـ الإصابة ـ جـ١ ـ صـ٤٢٣ ، د حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ١ ـ صـ٢٦٧وما بعدها، كذلك ابن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ١٣ ـ صـ ١٨ ، ٣٥ .

الفصل الثاني

بين خلافة الإمام علي ومعاوية

الفصل الثاني

بين خلافة الإمام علي ومعاوية

أولاً:خلافة الإمام علي كرم الله وجهه :(٣٥ - ٤٠)هـ(٦٥٦ - ٦٦١)م

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة " أنها وإن كانت أحداثاً ، إلا أنها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح دمه ، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ، ولا يعجلوا بقتله . وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام أبرأ الناس من دمه ، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله " [(١)]

صفات الإمام علي كرم الله وجهه - وخصاله - تكفيه مؤنة المديح أو الثناء بل إنها خصال المحامد - التي تزيده فضلاً على فضل . وتنأى به عن الإثرة إلى الإيثار ، وترتفع به من أريحية السريرة إلى فضيلة الحكمة . فلم نصادف كتابة من الكتب ، وسيرة من السير ، وطبقة من الطبقات - إلا وعليّ يحتل بين سطورها مكانة الفتيان ، الشجعان ، فكأنه الحكيم البليغ التي تسبق حكمته وحلمه وصبره - حنكته وسياسته وحربه . خصال عليّ في جملتها : النبل والشجاعة والمروءة والذكاء والحكمة.

بل وإن شئت فقل الفضل والفضيلة معاً ، ربما سبق حكمته وحلمه وفضله - حنكته السياسية تلك التي لم تتوافر في خصومه - وفاق بها أقرانه ، وربما دلت صفاته الجسدية بما امتازت به من قوة على سماته وفضائله ، فارتفعت بشخصه إلى استصغار المنايا ، والجرأة على الموت ، لا ينهض أحد إلى ميدان المناجزة والقتال - إلا ونهض له ، لم يهب في حياته قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت . إذ اجترأ على

١- ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ١ – صـ١٩٩ ، ٢٠٠ .

عمرو بن عبد ورد فارس الجزيرة العربية فبارزه وقتله ، ولم يزل صبياً شاباً في العشرين من عمره - في موقعة الخندق (الأحزاب بالمدينة).

كان علي رضي الله عنه في الفضل والحكمة والعلم لا ينهض إليه أحد ، ولا يعادله في قوة الحق ، وصلابة الرأي أحد من أصحابه ، وعرفوا له هذا الحق ، وصدق فيه قول عمر بن الخطاب " بئس القرية التي ليس بها أبا الحسن " .

وكان لا يعادله في الشجاعة والثبات أحد ، ولا ينكر عليه ذلك كله إلا معاند أو حاقد أو كاره أو مكابر .

إنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه فلم يسجد لصنم قط ، كما أنه لم ينهزم في موقعة ولا مناجزة قط . وهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن عبد مناف ، كان أول هاشمي ولد من هاشميين .

وعليّ أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأخو الرسول ﷺ بالمؤاخاة ، وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين ، وأول السابقين إلى الإسلام ، فقد أخرج أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال " بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء " وكان عمره عشر سنين ، بات في فراش النبي الكريم ليلة الهجرة ، ولم يهب بأس قريش ، وخلفه الرسول عليه السلام من ورائه بمكة أياماً حتى يؤدي عنه الأمانات والوصايا التي كانت عند النبي ﷺ لأصحابها ، شهد مع النبي ﷺ بدراً وأحداً وسائر المشاهد ، إلا تبوك فإن النبي ﷺ استخلفه على المدينة ، قال فيه الرسول عليه السلام " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " (١)

وله في جميع المشاهد آثار مشهودة ، أعطاه النبي الكريم اللواء في مواطن كثيرة ، وفي يوم خيبر أعطاه الراية ، وأخبر عليه السلام أن الفتح يكون على يديه .

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد و البزار ، من حديث أبي سعيد الخدري ، و ابن عباس و ابن عمر و غيرهم.

كان عليّ رضي الله عنه شيخاً سميناً ، أصلع ، كثير الشعر ربعة بين الطول والقصر ، عظيم البطن واللحية . مهاباً أدم شديد الأدمة (أي أسمر) تتوافر في شخصه وشمائله كل خصال القواد الأبطال الأشداء ، قوي في الحق لا يخشى في الحق لومة لائم ، كناه النبي ﷺ - أو سماه - أبا تراب[١] وكان من أحب الأسماء إليه - فقد غاضب عليّ فاطمة يوما ثم خرج وجلس إلى جدار في المسجد ، فجاءه النبي ﷺ وقد امتلأ ظهره تراباً ، فجعل يمسح الرسول ﷺ التراب عن ظهره ويقول له اجلس أبا تراب .

نزلت فيه آيات قرآنية ، وقيل في حقه أحاديث نبوية شريفة ، وكان هو فقيهاً عالماً بالتفسير والآيات وأسباب نزولها وفي أي المواطن والأماكن وفيمن نزلت. فلا نستغرب حين يعوز كبار الصحابة والخلفاء من قبله مسألة من مسائل الفقه ، يرجعون إليه ، ولا غرو أن بعثه الرسول الكريم إلى بلاد اليمن قاضياً ، ودعا له ، ورد في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ " أنا مدينة العلم وعلي بابها " كذلك قوله ﷺ فيه " من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " وقول الرسول الكريم " من سب علياً فقد سبني " ، أو " من أحب علياً فقد أحبني " وقول الرسول الكريم فيه أيضاً " إنك تقاتل على القرآن كما قاتلت على تنزيله " .. وهكذا . وفي القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ سورة آل عمران آية (٦١) .

كان عليّ مع قوته البالغة وشجاعته النادرة في الحق أو المناجزة يتورع عن البغي ، فلم يكن يبدأ أحداً بقتال قط - وله مندوحة عنه - كان يقول لابنه الحسن " لا تدعون إلى منازلة أو مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعي إليها باغي ، والباغي مصروع " - وقد تجلى ذلك فيما بعد - إذ لم يبدأ بقتال الخوارج أو الخارجين من الفئات ، الناكثة أو الباغية أو القاسطة قبل أن يقاتلوه ..

[١] - ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ١ – صـ ١١ .

وفي مروءة عليّ مندوحة لا يطاولها مثلها عند غيره ، إذ كان يأبى على جنده أن يقتلوا مدبراً ، أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً ، كان رفيقاً لخصومه رغم لددهم به أو عليه ، تمثل عليّ رضي الله عنه شيم الكرام - فكان يعفو عند المقدرة ، غير نهاز للفرص مهما كلفه ذلك من مشقة أو عسف ، كان جواداً ينصر الضعيف ويجيب الداعي عند الطلب ، فلم يتوان عن إجابة عثمان رضي الله عنه حين استنجده قبل مقتله فأرسل إلى داره قرب من ماء حين اشتد بأهل عثمان العطش عندما حاصره الثوار في داره ، بل وأرسل ابنيه الحسن والحسين ليدافعا عن خليفة المسلمين ، وأوصاهم أن يمنعاه من القتل ، إلا أن الأمر كان قد خرج من أيديهما ، رغم تحفظه على سياسته في قرباه من بني أمية وذوي الصلة به .

كان علي مع شجاعته ، وعلمه ، وفقهه ، لا يتكلف ، ولا يختال ولا يحتال على أن يتألف كما كان عند خصومه . فقد سبقت حكمته وقوته في الحق ، حنكته السياسية - ربما عاتبة عليها بعض أنصاره أو لحظها عليه بعض خصومه يجتمع لعليّ رضي الله عنه إلى ذلك كله: زهده في الدنيا وإن شئت القول - في الخلافة - فلم يتكالب على الدنيا ، ولم يجمع المال ، كان يراعي حق الله في كل شيء - دخل عليه ابن عباس رضي الله عنه ذات يوم وهو يخصف نعله .. فألتفت إليه عليّ رضي الله عنه وقال له : يا عبد الله : إن دنياكم عندي لا تخرج من هذه - مشيراً إلى نعله يخصفه[1] ضرب المثل الأكبر في الفصاحة والبلاغة لم يخطب المسلمين إلا وأخذ بقلوبهم جميعاً .

هذه الخصال ، والصفات وغيرها كثير - كافية لتأهيل الإمام علي رضي الله عنه لخلافة المسلمين بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ظلماً وعدواناً .

١- للمزيد في خصال وصفات الإمام علي رضي الله عنه مصادر كثيرة منها: السيوطي – تاريخ الخلافاء – صـ ١٥٠ وما بعدها ، ابن أبي الحديد – نهج البلاغة – جـ٢ – صـ ٢٥٦ وما بعدها ، كذلك الطبري – تاريخ الطبري – جـ٣ – صـ ١٤٣ وما بعدها ، ابن حجر – الإصابة – جـ ٤ صـ٢٦٩ وما بعدها ، كذلك هباس محمود العقاد – عبقرية الإمام – صـ ١٠ ، صـ ٤٠ – ط دار المعارف ١٩٨١م .

كان أبو بكر يستشير علياً في مهام الأمور ، وكان عمر بن الخطاب لا يعمل إلا بمشورة عليّ ، لما كان يعهده فيه من الفقه والدين والذكاء ، لذلك رشحه عمر ضمن الستة الذين رشحهم للخلافة من بعده ، وقال فيه عمر رأيه " والله لو ولوها الأجلح لسار بها " ، ونستطيع أن نقول : أن الخلافة تكاد تكون معقودة له بعد وفاة الرسول ﷺ " إلا أنه نزل إلى البيعة لأبي بكر انقياداً لرأي الجماعة ، وكادت تؤول إليه بعد وفاة عمر ، إذ انحصرت في عثمان وفيه إلا أنه أصر على رأيه - من الأخذ بسيرة أبي بكر وعمر على قدره ، مع العمل بكتاب الله وسنة رسولهم عليه السلام ، فلما مال عبد الرحمن بن عوف بالخلافة إلى عثمان رضي الله عنه على أن يسير سيرة أبي بكر وعمر فقال نعم ، فلم يمتنع عن البيعة ، فصافح عثمان ورضي به خليفة.

هذه مزايا وخصال علي ، وكيف لا ، وهو الذي تربى وعاش في منزل الوحي ، واستقى من رحيق بيت النبوة الطاهرة!

طلت الفتنه برأسها، وتجلت في مقتل عثمان رضي الله عنه ، تطلع المسلمون حولهم لرجل لديه من القدرة على رأب صدع المسلمين . ولم شملهم ، بعدما تهاوت بينهم هيبة السلطان ، وحرمة الإمامة ، وهان على المسلمين خليفتهم وهم يشهدون مصرعه ، فأشفقوا فيما بينهم - خوفاً على الدين وصيانة لحرمة العقيدة ، فاتجهت الأنظار إلى الإمام علي لخصال وصفات فيه قليلاً ما تتوافر في غيره من كبار الصحابة لكن علياً لم ضمن هؤلاء ولا أولئك ممن يحتالون ليؤلفوا ولا من الذين يحتالون الفرص - بغية الوصول ، بل كان مترفعاً بعيداً عن أي شبهه أو شهوة للحكم والإمامة .

فلم يكن عقد الخلافة أو الإمامة لعليّ في ذلك الوقت بالأمر الهين ، فلم يعهد عثمان لأحد قبل موته ، كذلك انتقلت الخلافة بعد وفاة الرسول عليه السلام من قبل باجتماع السقيفة والبيعة لأبي بكر - وأجمع عليه كافة المسلمين ، وعهد أبو بكر لعمر رضي الله عنه قبل وفاته ، فأجمع عليه

المسلمون دون منازع ، ثم آلت إلى عثمان بعد المشورة فرضي بذلك كافة المسلمين دون منازعة ، أما خلافة علي ، فقد اختلفت ولايتها وعقدها له عن سابقتها لسابقيه اختلافا بيناً . وقد أدرك الإمام علي رضي الله عنه ذلك ، وعلى ذلك فقد كف نفسه عنها ، ولم يطالب أحداً بها ولم يتكلف الطلب عليها ، بل ذهب إلى منزله ، ثم لزم بعد ذلك المسجد . ينظر فيما يكون عليه أمر المسلمين - منتظراً مشورتهم غيرمتحفز لولاية أو خلافة قدر ما كان متحفزاً للم شمل الأمة ، فهو كما وصفه المؤرخون " رباني هذه الأمة وعالمها " [1] وقد سيق رأي عمر رضي الله عنه في عليّ فقال عنه في نص أخر " لله أنت لولا دعابة فيك ؛ أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح ، والمحجة البيضاء "[2]

سمع المسلمون في المدينة رأي عمر في علي ، فضلاً عما امتازت به سيرة علي وخصاله الفريدة ، وقوته في الحق ، فاجتمعوا على بيعته بالخلافة ، دون غيره ، فلم يعدل بمثله أحد منهم . ولم يعدلوا بمثله أحد آخر ونحن نلجأ إلى المصادر والوثائق في هذا الصدد - حتى نستبين الأمر وفي ذلك رد على شبهات الخوارج ، والناكثين بعهودهم ومواثيقهم له قال أبو جعفر (الأسكافي)[3] " لما اجتمعت الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة ، أشار أبو الهيثم بن التيهان ، ورفاعة بن رافع ، ومالك بن العجلان ، وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر ، بعليّ عليه السلام ، وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناس إليه ، فقام كل واحد منهم خطيباً يذكر فضل عليّ عليه السلام ، فمنهم من فضله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلهم كافه ، ثم بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البيعة ،

---

[1]- دكتور علي سامي النشار - نشاة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ٢ - ط دار المعارف ١٩٦٦م.

[2]- ابن ابي الحديد - نهج البلاغة - جـ١ - صـ١٨٦.

[3]- هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافي - احد المتكلمين من معتزلة البغداديين - قال الخطيب البغدادي في تاريخه - جـ٥ - صـ ٤١٦ : "له تصانيف معروفة وتوفى عام ٢٤٠هـ . راجع تاريخ بغداد - ١٣٣٦هـ .

وهو يوم السبت لأحد عشره ليله بقين من ذي الحجة [١] سنة ٣٥ ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر محمداً فصلى عليه ، ثم ذكر نعمه الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا فزهدهم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال : أما بعد : فإنه لما قبض رسول الله ﷺ أستخلف الناس أبا بكر ثم أستخلف أبو بكر عمر ، فعمل بطريقته ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان ، فعمل ما أنكرتم وعرفتم ، ثم حصر وقتل ، ثم جئتموني طائعين فطلبتم إلي ، وإنما أنا رجل منكم ، لي ما لكم ، وعلي ما عليكم ، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، ولا يحمل هذا الأمر إلا أهل الصبر والبصر والعلم بواقع الأمر ، وإني حاملكم على منهج نبيكم ﷺ ومنفذ فيكم ما أمرت به ، إن استقمتم لي ، وبالله المستعان ، ألا إن موضعي من رسول الله ﷺ بعد وفاته ، كموضعي منه أيام حياته ، فأمضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه ، ولا تعجلوا في أمر حتى نبينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذراً ،،، ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارها للولاية على أمة محمد ﷺ - حتى أجتمع رأيكم على ذلك .....

ثم يأتي الإمام علي بحديث عن النبي ﷺ - في أمر الولاية - يلخص كل ما نذهب إليه ويهدف من ورائه تحديد سياسته حال توليه الخلافة ، فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول " أيما وال ولي الأمر من بعدي ، أقيم على حد الصراط ، ونشرت الملائكة صحيفته ، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله ، وأن كان جائراً أنتفض به الصراط ، حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوي إلى النار ، فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحر وجهه " ولكني لما أجتمع رأيكم لم يسعني تركُكم.[٢]

١- تشير بعض المصادر الأخرى : أن عثمان رضي الله عنه قتله الغافقي وغيره من الثوار في الثامن عشر من ذي الحجة في (٣٥هـ - ٦٥٦م) وتولى علي رضي الله عنه الخلافة في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٣٥هـ . نظرنا : الطبري – تاريخ الطبري – جـ٥ - صت١٣٠ ، ١٣٢، كذلك المسعودي – مروج الذهب – جـ١ – صـ ٣٠٦ ، ٣٠٧.

٢- ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ٧ – صـ٣٦، ٣٧ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط الحلبي بمصر ١٩٦٤م .

الواضح لنا من هذا النص ، أن الإمامة آلت إلى عليّ رضي الله عنه - بعد تشاور بين كبار الصحابة ، وتبادل الرأي حوله ، وذكر منهم لفضله وفضائله ، وبعد أن بويع بالخلافة- أعلن في خطبته سياسته العامة ، وسيرته في الرعية بإيجاز - فهو رضي الله عنه يشير إلى - مكانته من الرسول الكريم ، ثم يلزم الرعية بأتباع الأمر - وأتباع منهج النبي الكريم ، والتزام حدود الدين ، وإقرار العدل - كما أنه رضي الله عنه رجل من الرعية له مالهم ، وعليه ما عليهم ، لا يظلم ولا يظلم .. وهكذا . ويبدوا أن مسألة الولاية أو الخلافة بالنسبة لعلي لا تهمه كمنصب سياسي ، إلا أن يقيم بها عدلاً ويصلح جوراً – لذلك كان ععلي مترفعاً عنها ، زاهداً فيها ، ويتردد في أكثر من نص عنه مدى خلوصه من مسئوليات الخلافة وفي ذلك رد على شبهات الشيعة والخوارج - يقول الإمام علي نص لما أراده الناس للبيعة " دعوني والتمسوا غيري ، فإنما مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وأعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل ، وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعليّ أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً ، خير لكم مني أميرا "[١]

ومن هذه العبارات الأخيرة من كلام الإمام علي رضي الله عنه بعد البيعة - لننظر ما كان من مواقف بعض الصحابة - والموالين لبني أميه المطالبين بدم عثمان رضي الله عنه تجاه سياسة علي ، الأمر الذي أدى إلى خروجهم عليه .

تولى علي بن أبي طالب الخلافة في الحادي عشر أو الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية . وقد حدد الإطار العام لسياسته في الدولة والرعية أولها : إقرار العدالة وحمل المسلمين على المحجة البيضاء كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، وثانيهما: درء الفتنة في مهدها - وعدم استفحال أمرها بين المسلمين وملاحقة أصحابها الذين تسببوا في قتل عثمان رضي الله عنه وإخضاعه الموالين من بني أمية ومعاوية

١- المصدر السابق – صـ٣٣ .

وأصحابه الذين رفضوا مبايعته بحجة المطالبة بدم عثمان أو تسليم الأمر لهم لادعائهم أنهم أولياء دمه ومن سار في ركبهم .

أما بالنسبة للقضية الأولى ، فإن علياً أراد إقرار العدالة بين المسلمين ، وإقامة المساواة وتقسيم الغنائم والفيء ومال المسلمين بينهم بالتساوي - محاولاً إصلاح ما فات من تركة عثمان رضي الله عنه وعزل أولئك النفر الذين كونوا ثروات هائلة وبنوا القصور والضياع في الأقاليم والأمصار - إلا أنه اصطدم بهؤلاء النفر من المسلمين والصحابة وأولياء بني أمية ومعاوية - الذين آثروا إلا أن يظلوا على ما هم فيه من الغنى والثراء الأرستقراطي - والاختصاص لهم بولاية الأقاليم أو الأمصار التي هم عليها أو بعض المتطلعين الآخرين إلى أمثالها أو غيرها ، وبعضهم كان يريد من عليّ استشارتهم في كل أموره - مثل طلحة والزبير أو إعطاءهما ولايتي اليمن والبصرة .. وفي ذلك يشير المؤرخون إلى حوار وجدل حدث بين عليّ وهؤلاء - والذين بايعوه ظاهراً فقط ثم نكثوا بعهدهم له فيما بعد - بل وساروا يحرضون عليه ويثيرون ضده الفتن لذا يذكر المؤرخون لمحات من هذه المواقف - نختصرها - ونستخلص ما يفيد البحث " فبينما الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن عليّ عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير ، فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم فتحدثوا نجياً ساعة ، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فجاء إلى علي فقال له : يا أبا الحسن إنك قد وترتنا جميعاً ، أما أنا فقتلت أبي يوم بدر وخذلت أخي يوم الدار أمس ، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب ، وأما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه ، ونحن إخوانك ونظراءك من بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في أيام عثمان ، وأن تقتل قتلته ، وأنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام .

فقال له علي " أما ما ذكرتم من وتري إياكم فالحق وتركم ، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأما

قتلي قتلة عثمان ، فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس ، ولكن لكم علي إن خفتموني أن أؤمنكم وإن خفتكم أن أسيركم " .(١)

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم ، ثم افترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ، فقام أبو الهيثم وعمار بن ياسر وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة منهم - فدخلوا إلى عليّ رضي الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، أنظر في أمرك وعاتب قومك ، هذا الحي من قريش ، إنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، وقد دعونا في السر إلى رفضك ، وذاك أنهم كرهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسيت (أي سويت) بينهم وبين الآخرين أنكروا واستشاروا عدوك وعظموه وأظهروا الطلب بدم عثمان ، فرقة للجماعة ، وتألفا لأهل الضلالة " (٢)

أدرك عليّ رضي الله عنه نية هؤلاء - ومقاصدهم - فأعلن على الملأ من فوق المنبر " فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا ، وله أسلمنا ، وعهد نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرض به فليتبوء كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله ، والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه " (٣)

فلما فرغ علي من خطبته - اجتمع إلى طلحة والزبير فقال لهما : ناشدتكما الله هل جئتماني طائعين للبيعة ، ودعوتماني إليها ، وأنا كاره لها قالا : نعم ، فقال علي : غير مجبرين ولا مقهورين ، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما ، فقالا : نعم . قال علي : فما دعاكما بعد إلى ما أرى ؟ قالا أعطيناك بيعتنا على ألا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا ، وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت ، فاتجه الإمام عليّ إليهما . ورد عليهم حجتهم بما هو أقوى منها فقال لهما " فأما ما ذكرتما من الاستشارة ، فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ، ولكنكم

---

١ - المصدر السابق - صـ٣٨
٢ - المصدر السابق - صـ٣٨
٣ - نفس المصدر - صـ ٣٩

دعوتماني إليها وجعلتماني عليها فخفت أن أردكم فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت إلى ما دلاني عليه واتبعته ، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ولا رأي غيركما ، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ، ولا في السنة برهانه ، احتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه ".

وفي رواية أخرى : قال أبو جعفر روى أنهما (أي طلحة والزبير) قالا لعلي وقت البيعة : نبايعك على أنا شركاءك في هذا الأمر قال لهما : لا ، ولكنكما شريكي في الفيء لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشي بدرهم فما دونه ، لا أنا ولا ولداي هذان " [1]

هذا ما كان من طلحة والزبير ومن سار في ركابهما من أشياع بني أمية والحريصين على أن تؤول ثرواتهم وضيعهم إليها ، وأن يتفضل عليّ عليهم بالمشورة والولاية في الأقاليم والأمصار التي يرغبون - ومتذرعين في خروجهم على عليّ ونقض بيعتهم باتهام عليّ في دم عثمان وتواطئه في قتله . وسوف يكون لهؤلاء شأن كبير في الخروج على إمامة علي في واقعة الجمل .

أما القضية الثانية - تتعلق بمعاوية بن أبي سفيان وأهل الشام ومصر وأشياعهم - والمطالبة بدم عثمان - وعدم البيعة لعلي بالإمامة قبل الثأر ممن قتلوه - وقد سبق أن عرضنا لتبرئة عليّ من دم عثمان وما في ذلك من بينه ، وربما استمهلهم حتى تتم البيعة - ويصير الأمر في يديه ، فيجيب إلى ما ادعوه ، لكن يبدو أن الطمع في الدنيا - واستمراء الخلافة عند الأمويين ، غلب عليهم - وربما أرجع بعض المؤرخين أو الكتاب أن من أهم الأسباب في تباطؤ معاوية عن البيعة وقرنائه لعلي نزعة جاهلية ظهرت وطغت في نفوسهم - فلعليّ مآثر كثيرة تفوق مآثرهم . فهو من بني هاشم بن عبد شمس بن عبد مناف وابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته ، وأول من أسلم من الصبيان ، وتربى في حجر النبوة ، فضلاً عما أطاح برؤوس صناديد قريش من بني أمية لقوة شكيمته وشجاعته في مواقعهم ضد الإسلام وقبل دخولهم فيه ، إذ

---

[1] - المصدر السابق - صـ٤٠،صـ٤١ ، صـ٤٢

كيف تنحصر في رأيهم النبوة والإمامة في بني هاشم دون بني أمية أبناء عمومتها وهم قرشيون مكيون مثلهم ؟ وعلى كل حال : فإن كانت البيعة تمت لعلي بعد أن أصر على أن تنعقد له وفقاً لمبدأ الشورى الذي صار علي نهجه الأولون فقال لمن هرع إليه من وجوه المهاجرين والأنصار ومناشدتهم إياه قبولها ليحفظ الأمة ويصون دار الهجرة فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة "

فقد كان أول من بايعه طلحة ، ثم تلاه الزبير نيابة عن المهاجرين ، كما انعقدت له بيعة الأنصار على لسان ممثليهم وقد تخلف عن البيعة ثلاثة من قريش هم : مروان بن الحكم . وسعيد بن العاص . والوليد بن عقبة . وكان عذر هؤلاء : تضع عنا ما أصبنا ، وتعفي لنا عما في أيدينا ، وتقتل قتلة صاحبنا [١]

وكما سبق أن عرفنا فإن الإمام علي ألقى في وجوههم بيعته المعلقة على تلك الشروط فمن ضاق عليه الحق ، فالباطل عليه أضيق وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم " [٢]

والخلاصة هنا ـ فإن الباقلاني (٤٠٣) هـ ، ينبري لمثل هذه الاعتراضات على إمامة علي ووضع الشروط أو حتى التخلف عن البيعة له : فيرى أن إمامة (خلافة) علي منعقدة بالرغم من كل ما حاول البعض من فرض شروط أو تقاعس آخرين عن البيعة فقال في نص " وليس تفسد إمامة علي بخلع من عقدها له ، ولا بالتأويل عليه بأنها عقدت على شروط فيها ولا يوهنها قعود من قعد عنها " [٣]

---

[١] دكتور مصطفى حلمي ـ نظام الخلافة في الإسلام ـ صـ١١٤
[٢] ـ المصدر السابق ـ صـ١١٥
[٣] ـ الباقلاني ـ التمهيد ـ صـ٢١٢

ثانياً: خلافة علي وموقعة الجمل :

لم يكد علي بن أبي طالب- رضي الله عنه - يتولى أمر الخلافة بعد بيعة سبقتها شورى بين جمع من المهاجرين والأنصار منهم البدريين والقرشيين واخرين من المبشرين بالجنة ، متمثلا للسلطتين الدينية والزمنية أو الدنيوية ، إلا ووجد نفسه وأمر بيعته أو خلافته بين شقي الرحى : حزبين كبيرين يناوأنه الإمامة أحدهما : حزب الناكثين ، والأخر حزب القاسطين - ثم يأتي بعد هذين الحزبين ، حزب أخر أشد وطأة وأعظم نكاية وهو حزب الباغية أو الطائفة المارقة - وهم أهل النهروان " الخوارج " .

وقد أشار الإمام علي إلى هؤلاء الثلاثة في إحدى خطبه فقال " فما راعني إلا والناس إلى كعرف الضبع ، ينثالون علي من كل جانب ؟؟؟ مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون ، كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ سورة القصص آية (٨٣) ، بلي والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجدها " [١]

فأما الطائفة الأولى : فهم أصحاب الجمل ، وأما الطائفة الثانية الفاسقة فأصحاب صفين (وهم أصحاب معاوية والذين قاتلوا معه في موقعة صفين ضد علي رضي الله عنه وقد سماهم الرسول ﷺ القاسطين وأما الطائفة الثالثة فيما بعد فهم المارقة - أصحاب النهروان الذين خرجوا على عليّ وقاتلوه وكفروه .. على ما سوف نبينه فيما بعد ، وقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ " ستقاتل بعدي الناكثين ، والقاسطين والمارقين " وهذا الخبر من دلائل النبوي ، لأنه إخبار صريح بالغيب لا يحتمل التدليس ، وصدق قول عليّ في الخوارج فيما بعد " إذ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية "

---

١ - أبن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١ - صـ٢٠٠

وصدق في قوله الناكثين كونهم نكثوا البيعة ، وقد كان عليّ يقول وقت البيعة منهم له قوله تعالى ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ سورة الفتح (١٠) (١)

يتضح لنا فيما سبق أن علياً صنف الخارجين على إمامته على ثلاث طوائف الناكثين لعهودهم له بعد أخذ البيعة له واتفاق معظم المهاجرين والأنصار عليه ، والفاسقين أو القاسطين وهم الذين عارضوا في بيعته ، وكفوا أنفسهم مبايعته ، يتذرعون بدم عثمان، والمارقين الذين خرجوا عليه - الخوارج - قاتلوه وقاتلهم ، وسوف نتناول في هذه الجزئية الفئة الأولى ثم الثانية ، وترجئ الفئة الثالثة إلى الفصل القادم .

وفيما يتعلق بالناكثين عهودهم - فهم طلحة والزبير ومن خرج معهم ناقضين عهودهم لـه ، وقاتلوه فيما يعرف بموقعة الجمل . وقد أقنعوا السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين بالخروج معهم ، لما وجدوا لديها من استياء لمقتل أمير المؤمنين خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه ، ولترويج شائعات ضد عليّ رضي الله عنه مدعين عليه اشتراكه أو تقاعسه عن نصرته ، والذود عنه ضد سيوف الثائرين والمهاجمين لداره .

تروي المصادر طريقة هؤلاء في الخروج على علي ، وقتالهم ضده وطريقة الإمام علي رضي الله عنه في مطالبتهم بالكف عن القتال ، والخضوع لبيعته وعدم النكث بعهدهم له ، بالإضافة إلى إيضاح دور معاوية بن أبي سفيان في التحريض لطلحة والزبير للخروج على بيعة علي - ونقض عهدهما له - وهو يخادعهم ويمنيهم بالبيعة لهما ، أو أن الإمامة سوف تؤول لأحدهما أما الأخر فيصبح ولياً لعهده..

تذكر المصادر في أمر طلحة والزبير مع علي بن أبي طالب بعد بيعتهما له: " أنه لما بويع علي رضي الله عنه كتب إلى معاوية : يدعوه إلى مبايعته فقال لـه عليّ : أما بعد ، فإن الناس قتلوا عثمان عن غير

(١) المصدر السابق - صـ٢٠١

مشورة مني ، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابي فبايع لي ، وأوفد إلي أشراف أهل الشام قبلك "(١).

لكن معاوية بطريقه المعهودة ، ودهائه في السياسة والحرب ، دبر مكيدة لعلي رضي الله عنه ، بتأليب طلحة والزبير عليه ، لما قد داخله من تطلعها للإمامة وطمعهما في الخلافة مستغلاً ما حدث بين المسلمين من فتنة بمقتل عثمان ، والطلب لدمه .. إذ بعث بكتاب إلى الزبير بن العوام عن طريق رجل من بني عميس وفيه " بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان ، سلام عليك أما بعد ، فإني قد بايعت لك أهل الشام ، فأجابوا واستوثقوا ، كما يستوثق الجلب ، فدونك الكوفة والبصرة ، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب ، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فأظهرا الطلب بدم عثمان ، وأدعو الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجد والتشمير ، أظفركما الله ، وخذل مناوئكما . " فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير تسربه ، وأعلم به طلحه وأقرأه إياه ، فلم يشكا في النصح من قبل معاوية ، وأجمعا عند ذلك على خلاف علي رضي الله عنه.(٢)

وتفيد المصادر أن طلحة والزبير طلبا من الإمام علي رضي الله عنه أن يوسع عليهما ويوليهما بعض الأعمال ، حيث كان عثمان رضي الله عنه قد قصر في حقهما ، وكان بينهما وبينه جفوة بسبب بني أميه ، ولأيه الأقرباء منه ، وطلبا منه ولايتي البصرة والكوفة لكنه أستمهلهما - حتى يستشير في أمرهما بعض الصحابة ، إذ أشار عليه المغيرة بن شعبه بولايتهما ، بالإضافة إلى نصحه لعلي رضي الله عنه بإقرار معاوية على الشام - حتى تسكن الفتنه وشغب الناس ، ثم أتجه علي لاستشارة عبد الله بن عباس في هذا الأمر ، فنصحه أبن عباس رضي الله عنه بخلاف ذلك وقال له " يا أمير المؤمنين إن الكوفة والبصرة عين الخلافة وبهما كنوز الرجال ، ومكانة

---

١ - أبن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١ - صـ٢٣١
٢ - المصدر السابق - صـ٢٣١ ، صـ٢٣٢

طلحة والزبير من المسلمين ما قد علمت " ، فلم يصدع علي رضي الله عنه بنصائح المغيرة بن شعبه ، فلم يولهم أحداً منهما ولم يقر معاوية ، وأخذ بما يوليه عليه ضميره وصلابته في الحق ، ولذلك كما قلت من قبل أن قوة الحق سبقت الحنكة السياسية عند الإمام علي كرم الله وجهه بل وإن شئنا القول أن علياً أراد أن يسير في الطريقين معاً، أن يجمع بين القوه والعزم في إقرار الحق والعدل ، وحسن السياسة أو قيادة الجمع إلى ما يحقق المطلوب وهو إخماد الفتنة والثأر ممن قتلوا عثمان إحقاقاً للحق وإرضاءً لمطالب الأمويين أولياء الدم ، كما قالوا على لسان زعيمهم معاوية ، لذلك تذكر المصادر أن علياً " نصح الذين طالبوا بدم عثمان أن يتريثوا حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه ، وتمكن من إنزال الجزاء بقتلة عثمان رضي الله عنه " [1]

أما عن قصة خروج أصحاب الجمل على علي رضي الله عنه وهم طلحة والزبير والسيدة عائشة رضي الله عنها ـ فنختصر ما جاءت به المصادر الموثقة ، بما يفيد موضوع كتابنا في إظهار بطلان دعاوى الخوارج وغيرهم على علي رضي الله عنه ، كما أن ما ورد في هذا الشأن من أحداث وقتال بين المسلمين ، وما جرت به الفتنة بينهم ، ما يدمع العيون ، ويدمي الأجفان ، ويوجع القلوب .

جاء في ذكر الأخبار عن يوم الجمل وما فيه من الحروب ، أن طلحة والزبير لما يأسا من استجابة علي رضي الله عنه لمطلبهما وقوله لهما " أرضيا بقسم الله لكما حتى أري رأيي ، وأعلما أني لا أشرك في أمانتي إلا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي ، ومن قد عرفت دخيلته " [2] استأذنا علياً في العمرة ، فقال لهما : لعلكما تريدان البصرة أو الشام فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة ، وقد كانت عائشة رضي الله عنها بمكة ، كذلك عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة حيث هرب إثر أخذ البيعة لعلي وكان بها

---

١ ـ دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ١ ـ صـ٣٧٢
٢ ـ المصدر السابق ـ صـ٢٣١

علـى الـناس حارثـة بـن قدامـه السـعدي ، وأيضـا انصـراف يعلـيّ بـن منيـه عن اليمـن إلـى مكـة - وصـادف بهـا عائشـة وطلحـه والزبـير ومـروان بـن الحكـم وآخريـن من بنـي أميه ، فكـان ممـن حـرض علـى الطلب بدم عثمان . فأعطـى عائشـة وطلحـه والزبـير المـال والسـلاح وبعث إلـى عائشـة بـالجمل المسـمى عسكرا [1] فاجتمع هؤلاء ، وأولئك ، ونصحهم عبد الله بن عامر أن يتوجهوا إلـى البصـرة ، إذ له بهـا صـنائع وعدد ، وجهزهم بـآلاف الدراهم ، ومائة من الإبـل ، وسـار القوم نحـو البصرة في ستمائة راكب ، فلما انتهوا إلى ماء لبني كلاب يعرف (بالحوأب) عليه ناس من بني كلاب فعوت كلابهم على الركب ، فقالت عائشـة رضـي الله عنها :ما أسم هذا الموضع ؟ قال لها السائق لجملها : الحـوأب ، فاسـترجعت وتذكـرت حديـثاً للرسـول ﷺ فـي هـذا المكـان وعلـى دلالـته فقالت ردونـي ، لا حاجـة لـي فـي المسير ، فقـال الزبـير بـالله مـا هـذا الحـوأب ، ثـم جـاء طلحـه وكـان فـي سـاقه الناس وأقسم هو الآخر أن ذلك ليس بـالحواب ، وشـهد معـه خمسـون رجـلاً ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الإسلام . فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان بن حنيف عامل عليّ على خراجها ، فمـانعهم ، وجرى بينهم قتال ، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك منتظرين قدوم الإمـام علـيّ رضـي الله عنه . فلمـا قدم علـيّ رضـي الله عنـه إلى موضـعهم - خطـب خطـبة فيهم يمـنعهم عـن القـتال ويمـنع أصـحابه عـن مبادئـتهم بالقـتال ومـنذرا لهـم بـأن لا يقـتلوا مديـرا ، أو أسيرا أو جـريحا ولا يهـتكوا أسـتارا ، ولا يكشفوا عوره .. الخ . ثم تكلم عليّ رضي الله عنه إلى الزبير .. حتى يثنيه عن القـتال ، وإراقـة دم المسلمين ، فقـال له عليّ رضـى الله عنه : ويحك يا زبير ، مـا الـذي أخـرجك ؟ قـال الزبـير : دم عـثمان . قـال علـيّ : قـتل الله أولانـا بـدم عثمان أما تذكرت يوما قال النبي ﷺ وهو راكب حماره وأنت معه ، فقلت أنت يـا رسـول الله أمـا يـدع علـيّ زهوه ؟ فقال لك : ليس به زهو ، أتحبه يا زبير ؟ فقلت : أني والله لأحبه فقال لك النبي عليه السلام " إنك والله ستقاتله وأنت له

---

[1] سميت هذه الموقعة (بموقعة الجمل) لأن السيده عائشة رضي الله عنها ، كانت في هودجها على جمل يصاحب الخارجين على إمامة وبيعة علي وهي تشحذ همتهم للقتال

ظـالم " فقـال الزبـير : استغفر الله ، والله لو ذكرتها مـا خرجت ـ فقـال له علـيّ رضـي الله عنه أرجـع يـا زبير ، فقـال الزبير : كيف أرجـع وقد التقت حلقتا البطان ؟ هذا والله العار الذي لا يغسل ؟

فقال عليّ : يا زبير أرجع بالعار قبل أن تجمع العار بالنار . فرجع الزبير وهو يقول :

نادى عليّ بأمر لست أجهله	عار لعمـرك في الدنيـا وفي الدين
حسبك من عزل أبا حســن	فبعض هـذا الذي قـد قلـت يكفينـي

ثـم مضـى الزبير بعد أن أغضب أصحابه منصرفاً عن القتال ضد الإمام عليّ حيث قتل في وادي السباع ، إذ قتله غدراً عمرو بن جرموز ، وحين علم علـي رضـي الله عنه بمقتل الزبير قـال عنه : إن سيف الزبير طـالمـا جـلا الكرب عن وجـه رسـول الله ﷺ ، ولكنه الحين ومصـارع السوء ، وقاتلـه في النـار[1] هذا مـا كان بين عليّ رضي الله عنه والزبير ، أما ما كان من أمر بين علي وطلحة فإن علياً نادى طلحة وقال له : يا أبا محمد ، ما الذي أخرجك ؟ قـال طلحـة : الطلب بدم عثمان . قـال علي : قتل الله أولانـا بدم عثمان ، أمـا سمعت رسـول الله ﷺ يقول " اللهم وال من والاه ، وعادي من عاداه " وأنت أول من بايعنـي ثم نكثت ، وقد قال الله عز وجـــل ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ سورة الفتح آية رقم (١٠) .

فقال طلحة : استغفر الله ثم رجع .

فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ، ويرجع طلحة ، ما أبالي رميت ههنا أم ههنا ؟ وعندئذ رماه مروان بن الحكم في أكحله فقتله ، وقد وقع طلحة صريعاً وهو يقول : وكان أمر الله قدراً مقدورا ، ودفن بالبصرة ورثاه علي رضـي الله عنه .

---

[1]- المسعودي - مروج الذهب - جـ١ - صـ٥٦٣ - صـ٥٦٨ - ط دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٥ م

ثم حدث قتال شديد بين معسكر علي ومعسكر الجمل بعد ذلك وقتل من هؤلاء وأولئك الكثير [١] وانهزم أصحاب الجمل ، وانتصر عليهم علي رضي الله عنه .

أما ما كان بين علي كرم الله وجهه وبين السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن الإمام علي بعث إليها عبد الله بن عباس يأمرها أن ترحل إلى المدينة ، فأبت الرحيل ، إلا أن علياً بعث إليها مرة أخرى ابن عباس ، فأخبرها أن أمير المؤمنين علي يعزم عليك أن ترجعي ، فأنعمت (أي استجابت) إلى الخروج ، فجهزها عليّ وأكرمها ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده ، وأولاد أخوته ، وفتيان أهله من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همزان [٢]

وتذكر المصادر أن السيدة عائشة أرادت أن تسير إلى جانب علي لقتال أعدائه ، فقال لها بل ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه الرسول ﷺ .

وكانت قد طلبت من عليّ أن يؤمن ابن أختها عبد الله بن الزبير . فأمنه . كذلك أمن الآخرين : مروان ، والوليد بن عقبة ، وابني عثمان وغيرهم من بني أمية [٣] .

ونحن إذا تناولنا هذه الواقعة ، بمزيد من التحليل والنقد الموضوعي ، فإننا نستطيع أن نرد على شبهات الخوارج وغيرهم ممن ذهبوا إلى تكفير علي رضي الله عنه ، وأصحاب الجمل الزبير وطلحة والسيدة عائشة رضي الله عنها .. فكلا الفريقين التبس عليه الأمر فإما أن يكون مظلوماً أو معذوراً .

فالفريق الأول : معسكر الجمل - التبست عليهم الأمور - فالناس من حولهم أصابهم الذهول والحيرة ، وأخذتهم جميعاً مهاجرين وأنصار الصاعقة لمقتل إمامهم وخليفة المسلمين الذين أجمعوا عليه وذهب الرسول ﷺ وهو راض عنه وأحد المبشرين بالجنة ، والذي أجمع أهل الشورى على اختياره

---

[١] - المصدر السابق - صـ٥٦٨ ، صـ٥٦٩ ، كذلك ابن أبي الحديد - نهج البلاغة جـ١ - صـ٣٣٦

[٢] - المصدر السابق - صـ٥٧٢ - صـ٥٧٤ - كذلك نظرنا : ابن قتيبة : السياسة والإمامة - جـ١ - صـ٩٩ - ١٠٢ وما بعدها

[٣] الإمامة والسياسة - جـ١ - صـ٩٩ ، ١٠٢ وما بعدها

وتابعهم سائر المسلمين ، بالإضافة إلى شيوع الفتنة واستفحال أمرها وأصابع الاتهام تشير إلى علي وتواكب المغرضون على إذكاء الفتنة واتهام علي ، وكذلك الطمع الذي ساور البعض من ضعاف النفوس من المسلمين الذين أحاطوا بعثمان ، وكونوا الثروات الضخمة وخوفهم من إمامة علي لعلمهم بقوته في الحق ، فضلاً عن شجاعته وبطولته وحنكته الحربية وعبقريته الفكرية وعلمه الغزير وضلوعه في ميدان الفقه .

وكان ما كان من هؤلاء وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان في التغرير بالزبير وطلحة وشيعتهما من المهاجرين والأنصار ، وإطماعهما في الخلافة بدلاً من علي بن أبى طالب ، ولعل الكتابات التي كانت متبادلة بين معاوية والزبير خير دليل على ذلك .

وإذ أضفنا إلى ذلك كله ـ مكانة عثمان رضي الله عنه بين قبيلته وأقربائه من بني أمية فضلاً عن إمامته للمسلمين ، يتضح لنا مدى سخط وحنق هؤلاء على القاتلين والثائرين عليه ، وممن تسببوا في قتله غدراً وظلماً وعدواناً الأمر الذي يجب الجد في مطالبة قاتليه ، ومحاسبة من تسببوا في الوصول إلى هذه الفعلة الشنعاء .

أما المعسكر الثاني : علي رضي الله عنه وأصحابه ، فهو مظلوم ومن سار معه ، فقد كانت قرابته من الرسول الكريم معروفة ، كما أن سابقته وفضله في الجهاد والإسلام لا ينكره إلا حاقد عليه ، فضلاً عن كونه أحد المبشرين بالجنة ، والذين ذهب عنهم الرسول عليه السلام وهو راض ، وأحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة من بعده ، وانحصرت فيه وفي عثمان أمر الاختيار والبيعة . وكادت تؤول الخلافة إليه لولا أن ترسخت في ذاته حدة في الحق ، واستشراف للمستقبل سبقت حلمة وسياسته ، كذلك فإن علياً لم يستشر في أمر من أمور المسلمين من قبل سابقيه من الخلفاء آلا وشهد بالحق وقال بالصدق ، وكان من المنتقدين لسياسة عثمان رضي الله عنه ي الرعية والولاة وتغليب بني أميه وبني معيط على رقاب الناس - ويتذكر ما تحققت فيه فراسة عمر رضي الله عنه في ذلك ، يضاف إلى ذلك

أن علياً لم يتطلع للخلافة ولم يكن ممن يطلبونها وكف نفسه عنها حين طلبوها إليه ، ولما علم بانفراط عقد المسلمين ، وما سوف يترتب على الفتنه ومقتل عثمان رضي الله عنه من تمزق وتشتت شمل المسلمين شرقاً وغرباً ي دولة مترامية الأطراف - قبل البيعة ممن نكثوا بعهودهم وبيعتهم له - الزبير وطلحه ومن شايعهم فيما بعد - ولم يكن علي رحمه الله بغافل عما حدث من بعض المنافقين والذين ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة - إثر علمهم بوفاة النبي ﷺ ولولا حنكة الخليفة الأول للرسول عليه السلام أبو بكر الصديق وقوة إرادته وصدقة في محاربة هؤلاء وهزيمتهم والقضاء على فتنتهم لما استقام أمر المسلمين وقول الصديق رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه عندما قال له لا قبل لك بقتال العرب - فقال الصديق " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه "

هنا تذكر وأيقن علي رضي الله عنه - ما سوف يؤول إليه أمر المسلمين وولاتهم من الحاقدين والناكثين والمقسطين - من تأجج نار الفتنة وضياع هيبة الخلية ، وانفراط العقد ، فكان واجب عليه أولاً وقبل كل شيء رأب الصدع ، وإزالة الانشقاق ووأد الفتنة في مهدها . ثم يتفرغ بعد ذلك للبحث والتحري في قتلة عثمان وعقابهم . وهذا ما أكد عليه علي رضي الله عنه في كل مرة أو رسالة تصل إليه ، أو في كل حجة يحتج بها معسكر الجمل أو حتى معسكر الشام الذي كان يتزعمه معاوية وأنصاره .

وإذا أضفنا إلى ما سبق ، أن معسكر الزبير وطلحة - قد غررا بموقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وحلفا لها زوراً وبهتاناً - وجلبوا إليها الشكايات والتعليلات لخروجهم على علي رضي الله عنه ، مستغلين ما كانت تحمله في نفسها (كسيده) من سخط من موقف علي رضي الله عنه في حادث (الإفك) - لتبين لنا مدى ما كادت تصل إليه هذه الفتنة وعندما علمت بحقيقة الأمر ، وتسامح علي رضي الله عنه وعفوه عن المسيئين إليه من هؤلاء النفر الخارجين على طاعته - رجعت إلى الحق بل وطلبت من علي أن تسير معه لمناصرته ضد معسكر الشام ، إلا أن علياً أكرمها وبعثها إلى

المدينة مكرمه وعزيزة . لمكانتها من أمهات المؤمنين وزوجة النبي ﷺ ، لذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه ابن سعد في طبقاته " أنه والله كان بيني و بين عليّ في القديم الأما يكون بين المرأة وإحمائها ، وأنه عند عليّ معتبتي من الأخيار فيّ ، قال علي " صدقت والله وبرت ، وأنه ما كان بيننا إلا ذلك ، وأنها لزوجه نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة " [١]

كان علي رضي الله عنه يميل إلى المواجهة ، ومسالمة خصومه - المراجعة لهم واليهم قبل أن يبدأهم بقتال ، وهذا ما حدث في موقعة الجمل - كما ذكرنا فيما سبق ، وسوف يحدث أيضا مع معاوية قبل موقعة صفين ، فلم يكرب عليّ على القتال قدر ميله كدأبه إلى مفاتحته الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة " ولكن كان معه جماعة - السبئية - أتباع عبد الله بن سبأ - فكانوا أخلص الناس له وأغيرهم عليه - لكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بها دون القضاء على خصومه ، وربما لم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها " [٢]

ومما يزيد الأمور وضوحاً وجلاءً في مذاهبنا - وأهل السنة أن علياً قد بلغ قمة التسامح والخلق الكريم إزاء مقاتليه ، فقد ترحم عليهم ، وأمر بدفنهم وعرف لكل واحد منهم قدرة من الإسلام - وصحبنه للرسول ﷺ دون قدح في عقائدهم ، منوهاً بخطاهم في الانصياع للفتنة وروافدها ، ونكوصهم لوعودهم وبيعتهم ، فكان يقول " اللهم أغفر لنا ولهم " ، وعندما سئل عن سبب إحلال دمائهم دون أموالهم رد بقوله : " من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصور والنحر وهذه السنة في أهل القبلة " .

ولما سئل عليّ رضي الله عنه عما إذا كان قتلى الجمل مشركين أو منافقين ، أجاب بقوله : " من الشرك فروا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا

---

١ - أبن سعد - الطبقات الكبير - جـ٣ صـ٢٠ - ٥٦ - ط لندن ١٣٣٣ هـ
٢ - عباس محمود العقاد - عبقرية الإمام - صـ٨٩

قليلا ، أنما هم إخواننا بغوا علينا ، إنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على التكفير "

وقال الحارث بن خوط : للأمام علي رضي الله عنه ذات مرة " أظن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل " فقال علي " : يا حارث إنه ملبوس عليك ، أن الحق والباطل لا يعرفان الناس ولكن أعرف الحق تعرف أهله ، وأعرف الباطل تعرف من أتاه " (١)

ثالثاً : موقف علي ومعاوية وموقعة صفين :

كان الإمام عليّ رضي الله عنه بعد مبايعته بالخلافة في المدينة وفيما ذكرنا من قبل - بين شقي الرحى ، حيث نقض عهدهم له (الناكثون) وهم حزب أصحاب الجمل - طلحة والزبير ومن صار معهم - وقد قتلوا وهزموا وتشتت شملهم - ورجعت السيدة عائشة مكرمة إلى المدينة ، واستطاع الإمام علي دحرهم في نحورهم ، أم الشق الثاني فهم حزب معاوية ، الذين يتذرعون بدم عثمان . وهم الذين ذكرهم الحديث (بالقاسطين) والذين قال الله فيهم ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ سورة الجن (١٥) . وهم أصحاب صفين الذين أطلق عليهم الطائفة الفاسقة ، ولعل هذا الجانب كان أشد خطورة على أمامه علي رضي الله عنه ، فلما فرغ علي من حرب أصحاب الجمل ، أتجه إلى المعسكر الثاني لإخضاع أصحابه إلى الطاعة . وكفهم عن التمادي في العصيان والخروج على الإمام الحق ومن الجدير بالذكر : أن علياً لما عرف عنه من شدة في الحق - بادر بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار فتنة وخروج الثوار عليه ، وقد أذعن جميع الولاة لأمر علي رضي الله عنه ، فانصرفوا عما كانوا يلونه من الولايات ، أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوي من المرتزقة الذين

---

١ - دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام - صـ١٣٤ ، كذلك اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - جـ٢ - صـ٢٤٨ ، ط النجف - ١٩٢٩ م

انضموا إليه طمعاً فيما بين يديه من ثروات ، ولما كان يغدقه عليهم من العطايا والأرزاق - فقد أبى الإذعان لأمر عليّ ، وشق عصا الطاعة عليه ، وأتهمه بدم عثمان لأنه أوى قتلته في جيشه ، وأصر معاوية على أن يقاتل علياً بجند الشام ، بعد أن أوغر صدورهم عليه ، فلما بلغ علياً استعداد ومعاوية القتال ومعه أهل الشام توجه إلى الكوفة [١]. وذلك بعد أن ولى علي البصرة عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

ونحن كما نعلم أن علياً ، كان يميل إلى موادعة خصومه ، ولا يستعجل عليهم القتال ، فيبدأ دائماً بإرسال الرسل بالرسالات - التي يبصرهم فيها بالحق ، وبالوعد الصدق النابع من كتاب الله وسنة رسوله الكريم وكبار الصحابة ولذلك بادر عليّ رضي الله عنه بإرسال رسالة إلى معاوية كي يقنعه ويوجهه إلى ضرورة الإذعان والدخول في الطاعة دون الولوج في المعصية .

بعث عليّ رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلي رسالة إلى معاوية وقاله له عليّ قبل أن يبعثه " يا جرير أنطلق إلى معاوية بكتابي هذا وكن عند ظني فيك ، وأعلم يا جرير أنك ترى من حولي أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار والبدريين والعقبيين ، إني اخترتك عليهم لقول الرسول ﷺ خير ذي يمن جرير ، فأذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالتي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فأنبذ إليه بالحرب ، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً ولا العامة ترضى به والياً [٢] . فأنطلق جرير حتى أتى الشام ، ونزل بمعاوية فلما دخل عليه حمد الله وأثنى عليه وقال له : يا معاوية ، فأنه قد أجتمع لأبن عمك أهل الحرمين ، وأهل المصرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمين ، وأهل مصر وأهل العروض - والعروض عمان ، وأهل البحرين

---

١ - دكتور ابراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - جـ١ - صـ٣٧٧
٢ - أبن قتيبة الدينوري - الإمامة والسياسة - جـ٢ - صـ١٥٢ ط المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٠ م

واليمامة ، فلم يبعه إلا هذه الحصون التي أنت فيها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . (١)

وفحوى رسالة علي إلى معاوية تفيد أن علياً على حق في البيعة له وقد شهد ذلك أهل الأمصار والحجاز واليمن وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، كما أن أمر البيعة بالخلافة لمعاوية لا يجوز - لأنه من الطلقاء يوم فتح مكة حيث أسلم هو وأبوه . (٢) وليست له سابقة في الإسلام ولا له في المشورة . وهكذا يقول عليّ في رسالته إلى معاوية : " أما بعد : فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلكم لله رضا ، فإن خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين وأولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا ، وإن طلحة والزبير بايعاني بالمدينة ثم نقضا بيعتهما ، فكان نقضهما كردتهما فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فأدخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب أمورك إلى فيك العافيه ألا تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان ، فأدخل في الطاعة ثم حاكم القوم أحملك وإياهم على كتاب الله فأما التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن ، لعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ، وأعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد بهم ، ومعهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من

---

١ - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ٣ - صـ٣٥

٢ - الطلقاء : هم جماعة مكه والذين إسلموا بعد فتح مكة - ودخول الرسول ﷺ عام الفتح إليها ، حيث أمن الرسول الكريم أبا سفيان وأهله وقال عليه السلام فيهم ، " ما تظنون أني فاعل بكم ، قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال أذهبوا فأنتم الطلقاء " وهذا يفيد أن النبي ﷺ أعتقهم وعفى عنهم - فلا يحق لهم بالتالي الولاية أو الشورى فيهم لأنهم في حكم الأسرى

قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الأيمان والهجرة السابقة ، فبايع ولا قوى إلا بالله " [١]

وبعد إن دفع جرير بكتاب عليّ إلى معاوية ، قام يخطب الناس فقال جرير " أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيا عليا ، ومن شهده ، فكيف بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا علياً غير واتر ولا موتور ، وكان طلحة والزبير قد بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدث ، آلا وإن الدين لا يحتمل الفتن ؟؟؟؟ وقد بايعت الأمة عليا، ولو ملكنا أمرنا لم نختر لها غيرة ومن خالف هذا أستعتب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت إن عثمان ولأني ولم يعزلني فإن هذا لو كان لم يقم لله دين وكان لكل امرئ ما هو فيه " [٢]

وبعد أن فرغ معاوية من قراءة رسالة عليّ رضي الله عنه ، أستحثه جرير بالبيعة لعليّ ، فقال معاوية : يا جرير : إنها ليست بخلسة وإنه أمر له ما بعده ، فأبلغني ريقي حتى أنظر ، ومضت أيام ، ثم أمر معاوية منادياً ينادي بالصلاة جامعة ، فلما أجتمع الناس صعد معاوية المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب في أهل الشام بكلمات طويلة نذكر منها قول معاوية ك الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع لأيمان برهانا ،،، اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون أمتنا ، ويريدون إراقة دمائنا ، وقد علم الله أنا لا نريد لهم عقابا ،،، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ، أيها الناس قد علمتم أن خليفة أمير المؤمنين عمر وخليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم ، وأني لم أقم رجلا منكم على خزاية قط ، وإني ولي عثمان ، وقد قتل مظلوماً والله تعالى يقول ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا** ﴾ **سورة الإسراء آية (٣٣).**

---

[١] أبن قتيبة - الإمامة والسياسة - جـ٢ - صـ١٥٢ - صـ١٥٣ - كذلك ورد عند أبن الحديد نهج البلاغة - جـ ٣ - صـ٧٥

[٢] - المصدر السابق - صـ ١٥٤ ، كذلك ابن ابي الحديد - نهج البلاغة - جـ ٣ - صـ ٧٦ ، ٧٧

وأنـا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان : فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم ، حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله تعالى [١]

وبعد أن فرغى معاوية من خطابه لأهل الشام ، مبايعتهم له على القتال والثأر لدم عثمان أو الموت ، بعث معاوية إلى ثقاته يستشيرهم ، فأشار عليه أخوة عتبة بن إبي سفيان - أن يستقدم عمرو بن العاص من فلسطين - وأن يثمن لـه دينه أو يسترضيه ، فبعث معاوية برسالة إلى عمرو بن العاص وبعد مفاوضات بينهما استرضاه معاوية ليعطيه مصر والياً عليها ثم أتفقا معا [٢] .

و لكن ماذا كان رد معاوية على كتاب عليّ رضي الله عنه إليه ؟

كتب معاوية كتاباً إلى عليّ رضي الله عنه رداً على كتابه إليه وأرسله مع جرير قال فيه "من معاوية بن (أبي سفيان) بن صخر ، إلى عليّ بن أبي طالب : أما بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برئ من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمري ما حجتك على كحجتك على طلحة و الزبير لانهما بايعاك ولم ابايعك و ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، فأما شرفك في الإسلام ، وقرابتك من النبي ﷺ ، وموضعك من قريش فلست أدفعه "[٣].

فكتب عليّ رضي الله عنه كتاباً ثانيا رد فيه على كتاب معاوية قال فيه : " من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب ، أما بعد فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس لـه بصر يهديه ، ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فأتبعه ، زعمت أنك إنما أفسدت عليك بيعتي

---

١ - ابن ابي الحديد - نهج البلاغة - جـ ٣ - صـ ٧٧ ، ٧٨

٢ - للمزيد راجع المصدر السابق - صـ ٧٩ ، كذلك ابن قتيبه - الامامه و السياسة - صـ ١٥٥ و ما بعدها

٣ - المصدران السابقان الامامة والسياسة صـ ١٦٦ ، نهج البلاغة - جـ ٣ - صـ ٨٨ .

خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعمى ، وبعد فما أنت وعثمان ، إنما أنت رجل من بني ، وبنوا عثمان أولى بمطالبة دمه ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فأدخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى ، وأما تميزك بينك وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البصرة فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يستثني فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر ، وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله ﷺ ، وموضعي من قريش ، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته " [1]

مما سبق يتضح لنا أن علياً لم يكن حريصاً على قتال معاوية قدر حرصه على أن يبادر لمبايعته بالخلافة وولاية أمر المسلمين والدخول في الطاعة أولاً، ومعه رهط الشام وخلصاؤه ، لكن معاوية أبى البيعة لعلي أو الاعتراف له بالخلافة ، متذرعا المطالبة بدم عثمان من قاتليه ، ولم يكتف معاوية بذلك ، لكنه كان دائم التأليب والتحريض على شق عصا الطاعة للأمام علي ، إذ بعث معاوية إلى شرحبيل بن السمط بدعوة إلى تحريض الناس وأهل الشام ومدائنها ضد بيعة علي رضي الله عنه ، وقال له : " إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتم إلا برضا العامة ، فسر في مدائن الشام ، وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه ، فسار شرحبيل في الناس وأهل حمص وقام بينهم خطيباً فقال " أيها الناس إن علياً قتل عثمان ، وقتل صلحاء المسلمين ، وغلب على الأرض ، فلم يبق إلا الشام ، وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمرات الموت ، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً ، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية فجدوا وأنهضوا ،،، فأجابه الناس كلهم ... " [2]

رجع جرير إلى عليّ رضي الله عنه وأخبره بحال معاوية ، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر

---

١ - المصدر السابق - صـ ٨٩
٢ - المصدر السابق - صـ ٨٢

(قميص عثمان) ، الذي قتل فيه ، مخضباً بدمه ، وأصبع زوجته نائله معلقة فيه ، وأنه كتب إلى الأجناد بالخبر فآلوا على أنفسهم ألا يهدأ لهم بال حتى يأخذوا بثأر عثمان[1] . لاعتقادهم بأن علياً قتله وأوى قتلته ومنع منهم ، وأنهم لابد من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم " [2]

ومما سبق يتضح لنا أن كل من عليّ ومعاوية يناظر كل منهما الأخر ، محاولاً أن يقيم كل منهما الحجة على الأخر في سباق مع الزمن ، مستغلاً ما لديهما من آليات السياسة والدهاء ، فأراد عليّ رضي الله عنه رأب الصدع ووأد الفتنة في مهدها ، قبل أن تراق الدماء مستدلاً بمالديه من كلمة الحق وبراءته مما نسب إليه بشأن عثمان ، ومستمهلاً الأمور حتى تنجلي الغمة ويمتلك أمر الخلافة بالكامل ويفرغ للنظر فيه ، أما معاوية فقد أستغل ما لديه من دهاء سياسي ومكر الثعالب في إقناع خصوم علي على الإسراع بفض بيعته ورفض خلافته قبل أن يدفع عثمان والحكم عليهم ومنهما علياً بالضلوع في قتله .

وقد أيقن كل منهما أن الحرب والقتال واقعة لا محالة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فسار عليّ بجنده وعتاده لمواجهة جند معاوية وعتاده ، والتقى الجمعان " بصفين " [3] . ودارت رحى الحرب بين الجيشين ، ودارت الدائرة على كلا الجانبين ، إلا أن جيش عليّ كان أكثر قوة ، وأيمانا بقضيته ، وأحسن تنظيماً ، وكاد أن ينتصر على جيش معاوية انتصارا ساحقا بقيادة قائده الأشتر ، لولا حيلة ماكرة من داهية العرب ، وصاحب معاوية وحليفه عمرو

---

[1] - دكتور . حسن إبراهيهم - تاريخ الاسلام السياسي - جـ ١ - صـ ٣٧٧

[2] - المسعودي - مروج الذهب - جـ ٢ - صـ ١٥،١٧

[3] - في تفاصيل هذه الموقعه - و تحليلات المؤرخين لها راجع مصادر كثيرة اهمها

أ - المسعودي - مروج الذهب - جـ ٢ - صـ ٥٧٧ ، و ما بعدها .

ب - ابن ابي الحدبد - نهج البلاغة - جـ١ ، جـ ٣ ، و ما بعدها .

ج - الطبري - تاريخ الطبري - جـ ٢، جـ ٥ ، كذلك اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - جـ ٢ - صـ ٢٨٥ و ما بهدها

د - ابن قتيبة - الامامة و السياسة - جـ ٢ - صـ ١٦٨ ، ما بعدها .

بـن العـاص ، فأشـار علـى جـند معاويـة فبـيل الهـزيمة بسـاعات قلـيلة بـرفع المصـاحف علـى أسنة الرماح ، مدعيين أن الحكم لله ، وعلى كتاب الله تعالى .. وهنا نشأت مـا تسمى " بقضية التحكيم " ففـي موقعـة " الهرير " .[1] بصـفين ظهرت بدعـة عرفت " بدعـة رفـع المصـاحف " ـ فبعد أن اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أيامـا متوالية ، ولما قتل عمار بن ياسر أستاء عليّ لمقتله فزحفوا علـى جند معاويـة حتى أشرفوا علـى الفتح ، دعـا معاويـة بفرسـه ، ونادى أهل الشـام يـا معشـر العـرب الله الله فـي الحرمات والنسـاء والبنات ، وقال معاوية ، مخاطبا عمرو بن العاص ، هلم مخبئتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، تذكر ولاية مصر ، فاستطاع عمرو بن العاص بما أوتيه من دهاء أن يفرق بين جند عليّ ، فقـال لجنده " أيها النـاس من كـان معـه مصـحف فليرفعه علـى رمحه ، فرفعوا المصـاحف ، وارتفعت الأصـوات والضـجة . ونـادوا " هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم " ، فمن لثغور الشـام بعد أهل الشام ، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لجهاد الروم ، ومن للترك ، ومن للكفار ؟ .

فلمـا رأى أهل العراق المصـاحف مرفوعة قـالوا " نجيب إلى كتاب الله ، وننيب إليه ، وأحب القـوم الموادعـة ، وقيل لعلـيّ : قد أعطـاك معاويـة الحـق ودعـاك إلـى كتاب الله فاقبل منه ، وكان أشدهم في هذا اليوم الأشعث بن قيس . ولكن الإمام علـيّ رضـي الله عنه نصـح لهم ألا يغتروا بقول معاوية وما فعله أصـحابه وقـال لهم : إن ذلك لم يكن إلا خديعـة أرادوا بهـا أن يفرقوا كلمـتكم ، ويقضـوا علـى وحدتكم " فأبى أصـحاب عليّ ، وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر النخعي ليترك القتّال ـ فامتعض الأشتر ولم يزعن لطلب وقف القتال حتى يفتح الله عليه ، لكن أصـحاب علـيّ وعلى رأسهم الأشعث بن قيس ألحوا في طلب وقـف القـتال فقـالوا لعلـيّ " ابعـث إلـيه فلـيأت وإلا اعتزلـناك " ـ فأرسـل علـي الأشتر من يقول له أوقف القتال وأن يقبل بذلك " فإن الفتنة قد وقعت " ـ وتذكر

---

[1] ـ راجع احدثها : ابن ابي الحديد ـ نهج البلاغة ـ المجلد الاول ٣ ـ صـ ٢١٩ ـ ط دار الفكر ببيروت .

المصادر أنه قد جرا بين عليّ والقوم معه خطب طويلة ، وتهددوه أن يصنعوا به ما صنع بعثمان .

وعندئذ : قال الأشعث لعليّ : إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، قال عليّ : ذلك إليك فأته إن شئت ، فأتاه الأشعث : فقال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله ، وإلى ما أمر به في كتابه ، تبعثوا رجلاً ترضونه وتختارونه ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه ، وننقاد جميعاً إلى ما اتفقا عليه من حكم " ثم رجع الأشعث إلى علي فأخبره برأي معاوية فقال الناس " رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا " فاختار أهل الشام عمرو بن العاص وقال الأشعث ومن أرتد بعد ذلك إلى رأي الخوارج رضينا نحن بأبي موسى الأشعري ، فقال عليّ " قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن " إني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري . فقال الأشعث ومن معه : لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري ، فقال عليّ : ويحكم هو ليس بثقة ، قد فارقني وخذل الناس مني ، وفعل كذا ، وكذا ، وكذا ، ولكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك . فقال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضريان ، قال عليّ : فالأشتر ، قالوا : وهل هذا الأمر إلا الأشتر ، قال عليّ: فاصنعوا الآن ما أردتم ، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوا [1] . وهكذا أذعن عليّ لطلبهم على كره منه .

وقد نطق الإمام عليّ على قول الخارجين عليه في التحكيم " كلمة حق يراد بها باطل " [2]

---

[1] المسعودي - مروج الذهب - ص٥٨٩ - ٥٩١ . كذلك ابن قتيبة الإمامة والسياسة - ج٢ - ص ١٨٦ وما بعدها - كذلك ابن أبي الحديد - نهج البلاغة المجلد الأول (٣) ص٢٢١ - ص٢٢٣ - كذلك دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - ج١ - ص٢٧٨ - ص٢٧٩ . كذلك اليعقوبي - تاريخ - ج١ - ص٢١٨ - ص٢١٩ .

[2] هذه الكلمة قال بها علي رضي الله عنه عندما كان يرد على شبهات الخارجين عليه الذين قالوا : فإن الحكم لله - راجع ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ١ - ص٢٦٢ .

رابعاً: أصحاب الجمل وصفين بين الفرق الإسلامية وشبهات الخوارج

أختلف المفكرون وأصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية في مواقفهم وأحكامهم فيما حدث من فرقة واختلاف وما أعقب ذلك من قتال بين أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة، وبين علي رضي الله عنه ، وكذلك ما حدث من فرقة وقتال بين عليّ ومعاوية وأشياعهما ، وما احتج كل من هؤلاء وأولئك كل منهم علي الأخر بحجج يرى أنها صائبة في حقه ، وسولت لكل طرف من المتقاتلين الخروج على الأخر ، فأصحاب الجمل - وكما - وضحنا بالتفصيل فيما سبق نكثوا بعهدهم لعليّ وخرجوا عليه بسبب دم عثمان بالإضافة إلى أطماع في الخلافة ودسائس دخلت عليهم ، ومن ثم وجب على عليّ قتالهم لردهم عن عصيانهم ، ورأب الصدع والفضاء على الفتنة ، أما أصحاب صفين وزعيمهم معاوية فشقوا عصا الطاعة على إمامة (خلافة) عليّ مدعين دم عثمان في عنقه وهم ولاة أمره بالإضافة إلى كونهم لم يصدقوا على بيعته - أو لم تصح لعلي بيعة قبل أن يدفع لهم قتلة عثمان للاقتصاص منهم ، كذلك لأعتقاهم بعدم الإجماع على البيعة من سائر المهاجرين والمسلمين في الأمصار .

لكن المفكرين وأصحاب الفرق - تناولوا هذه القضايا - والشبهات بالتحليل والنقد ، فالأشعرية يؤكدون على صحة إمامة علي رضي الله عنه يقول أبو المعالي الجويني في عام (٤٧٨)هـ " لا اكتراث بقول من يقول لم يحصل إجماع على أمامه علي رضي الله عنه ، فإن الإمامة لم تجحد له وإنما هاجت الفتن لأمور أخر " [١]

أما القول في حكم قتال علي رضي الله عنه يقول الجويني " علي بن أبي طالب كان إماماً حقاً في توليته ، ومقاتلوه بغاة ، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه، وعائشة رضي الله عنها قصدت بالمسير إلى البصرة ، تسكين الثائرة ، وتطفئة نار الفتن وقد اشرأبت للاضطرام ، فكان من الأمر ما كان ، ولا يعصم واحد من الصحابة عن ذلل ، والله ولي

١- أبو المعالي الجويني (إمام الحرمين) – كتاب الإرشاد إلى قواطع في أصول الاعتقاد – صـ ٤٣٠- تحقيق دكتور محمد يوسف موسى وأخرون – ط مطبعة الخانجي بمصر ١٩٥٠م.

التجاوز بمنه وفضله ، وكيف يشترط العصمة لآحاد الناس ، وهي غير مشروطة للإمام ؟ [1]

وقد أجمع أهل السنة في تصويب الإمام علي في حروبه ضد أصحاب الجمل ، وصفين ، كذلك حروبه ضد الخوارج في النهروان ، وأقروا بإمامته أبان خلافته لأنه صاحب الحق فيها ، فاعتقدوا بتوبة كل من طلحة والزبير لأنهما رجعا عن الحرب ، حيث قتل الزبير غدرا بوادي السباع قتله جرموز أثناء الصلاة ، وقتل طلحة ، قتله مروان بن الحكم بسهم أثر توبته وخروجه من المعركة تائباً ، غيلة وعدواناً ، أما السيدة عائشة رضي الله عنها فلم تخرج إلا بقصد الإصلاح ، " فغلبها بنو ضبة والأزد[2] على رأيها ، وقاتلوا علياً دون أذنها حتى كان من الأمر ما كان " [3]، ومما يقول به الخوارج على اختلاف فرقهم ، زعمهم أن علياً وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ، وكل من رضي بالتحكيم ، كفروا كلهم ، وإن كانوا يقرون بإمامته - خلافة - عثمان وعلي في ولايتهما الأولى قبل ذلك [4] ، وقد كان لشيوخ المعتزلة رأي فأما واصل بن عطاء (ت عام ١٣١هـ) وهو شيخ المعتزلة الأول ، فقد أنفرد باعتقاد لا يتبع هذا ولا ذاك ، فأعتبر أن فرقة من الفريقين فاسقة ، لا بأعيانهم وأنه لا يعرف الفسقة منهما " ، فأجاز أن يكون الفسقة إما علياً وأتباعه ، أو طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم ، فالنتيجة لاعتقاده أنه إذا شهد من هذا المعسكر علي والحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر أومن المعسكر الثاني : عائشة وطلحة والزبير لم يقبل شهادتهم ، وقال في نص " لو شهدوا جميعهم على باقة بقل لم أقبل " ، وقد سارع أبو الحسين الخياط (ت عام ٣٠٠ هـ) - بتصحيح ما ذهب إليه شيخه في هذه المسألة ، ففسر ما

---

[1]- المصدر السابق -٤٣٣

٢- قبيلة بنو ضبه ، وقبيلة الأزد - ضمن القبائل العربية الذين ثاروا وصاحبوا الفتنة أيام عثمان وعلي وصاروا ضمن أصحاب الجمل والذين حرضوا على قتاله مع أصحاب الجمل ، وشاركوا في الشهادة زوراً للسيدة عائشة مع طلحة والزبير حين عوت كلاب ببني كلب عند ماء الحوأب ، وأرادت الرجوع إلى المدينة لما روي عن حديث الرسول ﷺ في هذا المكان .

[3]- دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام صـ١٣٩كذلك البغدادي - الفرق بين الفرض - صـ٣٤٣،

[4]- المصدر السابق - صـ١٣٥

ذهب إليه واصل ابن عطاء تفسيراً أخر، فيقول " أن القوم عنده أتقياء أبرياء مؤمنين، يشهد لهم بجهادهم وسابق أعمالهم وهجرتهم مع النبي ﷺ، فإذا حارب بعضهم بعضاً التبس الأمر عليه، فلم يعرف منهم من المصيب ومن المخطئ، وقال: لقد علمنا أنهم ليسوا بمحقين جميعاً وجائز أن تكون إحدى الطائفين محقه والأخرى مبطله، ولم يتبين لنا من المحق منهم من المبطل، فوكلنا أمر القوم إلى عالمه، وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال، فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا قد علمنا أن إحداكما عاصية لا تدري أيكما هي " (١)

ويتجه أبو الحسين الخياط إلى ذكر ما حدث من مواجهه ومناظرة بين عليّ وكل من الزبير وطلحة قبل القتال بموقعة الجمل، فيذكر أن طلحة والزبير لم يقاتلا، ولكن أصحابهما هم الذين بدءوا القتال على كراهه منهما ويذكر مقولة الزبير " سبحان الله، ما ظننت أن فيما جئنا له يكون قتال "[٢] وقول عليّ رضي الله عنه " أرجوا أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ سورة الحجر (٤٧) (٣).

والجدير بالذكر أن عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤) هـ، وافق أستاذه وصاحبه واصل بن عطاء فيما ذهبا إليه، وقد زاد عليه في تفسيق أحد الفريقين لا بعينه. بأن قال " لو شهد رجلان من أحد الفريقين مثل علي ورجل من عسكره، أو طلحة والزبير لم يقبل شهادتهما، وفيه تفسيق الفريقين وكونهما من أهل النار " (٤)

إذا كان هذا هو رأي أو اعتقاد كبار شيوخ المعتزلة في المتقاتلين بالجمل وصفين فإن أهل السنة أكدوا على أن الصواب كان مع عليّ رضي الله عنه وقتاله للمعسكرين، وقد سلك أهل السنة طريقة المتكلمين في الاستدلال على

١- المصدر السابق - صـ١٣٨
٢- المصدر السابق - ص٨٧ وما بعدها. وقد وردت هذه النصوص ايضاً عند ابن أبي الحديد- نهج البلاغة – أماكن متفرقة.
٣- المصدر السابق – نفس الصفحة.
٤ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص٤٩ .

صدق علي وصوابه في حربه لصحاب الجمل وصفين فقالوا : أن علياً كان محقاً في دفاعه عن خلافته بالسيف ، إذ ليس من حق الطالبين بدم عثمان أن يتولوا الحكم بدلاً من علي ، لأن طالب الدم إذا أتهم القاضي لا يوجب الخروج عليه ، وإنما يطلب الحق عنده فحسب ، وإن اتهموه هو نفسه بقتل عثمان ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ يصبحون متهمين جميعاً وهم ممن يقيمون بالمدينة - لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبونَ أربعين ألفاً ، أي أنهم تقاعدوا عن نصرته ، وقد بعث عليه فحاربوه لأنه هو الإمام الحق ، ولكن يجب أن يحسن الظن بهم لأنهم قصدوا الخير وإن أخطأوه [١]

وكما ذكرنا فيما سبق أنه لا يصح أن يقدح أحد في إمامة " خلافة " علي رضي الله عنه ، إذ انه لم يكن راغباً فيها لولا أن اجتمع إليه كبار الصحابة ومنهم طلحة والزبير وترجاه قبولها حتى لا ينفرط عقد المسلمين، ويلم شملهم جميعاً وبايعاه وبايع ورائهما الحاضرون من المهاجرين والأنصار أو المسلمين بالمدينة ، وإن كانا بايعاه كما يذكر المؤرخون بأيديهما دون قلوبهما ونكثا فيما بعد بعهدهما إليه . وصار ما صار من حرب الجمل ، فإنهما مردهما إلى الله عز وجل أولاً ثم رجعا عن قتال علي رضي الله عنه وتابا إلى الله ثم قتلا غدراً وخيانة .

كذلك يذهب الفقهاء إلى أن تعليق البيعة على شرط قتل قتلة عثمان غير جائز - وقد وضحنا ذلك فيما سبق - بالإضافة إلى أن عقد الإمامة لرجل بشرط قيامه بقتل جماعة بالواحد غير جائز أيضاً ، إذ لا يصح قتلهم إلا بعد قيام البينة عليهم بأعيانهم ، كما أن تأخر سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم عن مناصرة علي رضي الله عنه لا يخلعه من إمامته، فلم يطعنوا في إمامته ، ولم يعتقدوا في فسادها ، إذ قعدوا عن نصرة علي لأنهم لم يتيقنوا من وجود الحق في جانب أحد الطرفين المتحاربين إذ قال سعد بن أبي وقاص " لا أقاتل حتى تأتيني بسيف له لسان يعرف المؤمن

---

[١] - دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة - ص١٣٩ ، كذلك أبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم - ص١٦٤ - ص١٦٦ .

من الكافر ويقول هذا مؤمن وهذا كافر فأقتله " كذلك كانوا يخشون الدخول في الفتنة ، وهذا ما صرح به الصحابيان محمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد إذ قال أسامة بن زيد " يا علي قد علمت أنك لو دخلت بطن أسد لدخلت معك فيه ، ولكن لا مواساة في النار " . [1]

أما تأويل قول الإمام عليّ رضي الله عنه " والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله ، ولكن الله قتل عثمان وأنا معه " فيعنى أن الله أراد أماتته ويميتني معه ، لأن عليا حلف صادقاً أنه لم يقتله ولم يوغر بقتله ، كما أن دم عثمان في عنقه وواجبه الانتقام متى استطاع إقامة الحد عليهم ومعرفتهم وأحداً فواحداً ، أما الخوارج فقد ذهبوا بعيداً ، فحملوا العبارة مالا تحتمل لأنهم عطفوا (أنا) على موضع المنصوب (بأن) وجعلوا الضمير في قوله (معه) عائداً على الله تعالى . [2]

والإمام علي لم يكن باغياً ، ولا معتدياً ، ولم يبدأ خصومه بقتال قط ، كما ذكرنا سلفاً ، فواجب عليه مقاومة بغيهم عليه ، والافتئات على خلافته والنكوص في بيعتهم له ، أو شق عصا الطاعة عليه ، وهو الذي دانت له الأمصار والأقطار ودار الخلافة الأولى - المدينة - بالولاء والطاعة ، والإذعان لإمامته .. فكيف يتقاعس عليّ رضي الله عنه عن رأب الصدع والقضاء على دعاة الفتنة والفوضى ، إذ أعتبر نفسه مسئولاً أمام الله تعالى وأمام نفسه عن سلامة الأمة الإسلامية والتي أولى زعماؤها وكبار الصحابة بها ثقتهم به وبيعتهم له.

جدير بالذكرَ ، أن هناك بعض وجهات النظر لها طرافتها وأهميتها في محيط الدراسات والبحوث الإسلامية والعربية حول هذه المسألة التي شجرت بشأنها الخلافات بين الفرق والمذاهب الإسلامية من سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة ، وتمثل وجهة النظر هذه عند ابن خلدون (٨٠٨)هـ - إذ يرجع أسباب الخلاف بين علي وخصومه من أصحاب الجمل أو صفين ، وعلى

---

[1] - المصدر السابق . ص١٤٦-١٤٨
[2] - المصدر السابق ص١٤٥

رأسهم معاوية بن أبي سفيان إلى مقتضى العصبية لا إلى البيعة وصحتها لعليّ ولا إلى الخلاف حول عثمان ومن تأمروا على قتله ، فيقول " لما وقعت الفتنة بين عليّ ومعاوية وهي (مقتضى العصبية) ، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي ، أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم ، وينزع إليه ملحد ، وإنما أختلف اجتهادهم في الحق وسنة كل واحد ينظر صاحبة باجتهاده في الحق ، فاقتتلوا عليه ، وإن كان المصيب علياً ، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق ، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ، ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها ، واستشعرته بنو أميه ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من اتباعهم ، فأعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة . [1]

ويستدل ابن خلدون على نظريته في الملك ـ أو الخلافة ـ على مقتضى العصبية يقول عمر بن عبد العزيز إذ رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر " لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة " ويعلق أبن خلدون على هذه المقولة : ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد فلا يقرر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة ، وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية ". [2]

والواضح أن ابن خلدون لم يرد أن يدخل في أمور خلافية ، ومنازعات فكرية ودينية أو سياسية ، فلم يشأ يخطئ أحداً من الفريقين المتقاتلين في معسكر علي أو في معسكر معاوية ، وما يستلزم ذلك الحكم عليهما بالصدق أو الكذب ، بالإيمان أو الكفر ، كما ذهبت بعض الفرق وبصفة خاصة فرقتي

---

[1] ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٢٠٥ ط بيروت ـ دار القلم ـ ١٩٨٤ م
[2] ـ المصدر السابق ـ ص ٢٠٦ .

الخوارج والمعتزلة ، فالمسألة كما عرضنا مسألة متشابكة وشائكة لأنها تتعلق بالبيعة لعليّ ، والناكثين بالعهود والذين شقوا عصا الطاعة على إمامهم كمعاوية وأصحابه ، وما يتعلق بذلك من استحلال دماء المسلمين ، وتأجج نار الفتنة بينهم.

وجدير بالذكر في هذا المقام - أن نذكر آراء شيوخ المعتزلة من البغداديين إذ قالوا " أما أصحاب الجمل فهم عندنا هالكون كلهم إلا عائشة وطلحة والزبير رحمهم الله ، فإنهم تابوا ، ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي ، وأما عسكر الشام بصفين فإنهم هالكون كلهم عند أصحابنا لا نحكم لأحد منهم إلا بالنار ، لإصرارهم على البغي وموتهم عليه ، رؤساؤهم والأتباع جميعاً ، أما الخوارج فإنهم مرقوا عن الدين ، ولا يختلف أصحابنا في أنهم من أهل النار .

وجملة الأمر أن أصحابنا يحكمون بالنار لكل فاسق مات على فسقه ولا ريب في أن الباغي على الإمام الحق والخارج عليه بشبهه أو بغير شبهة فاسق ، وليس هذا مما يخصون به علياً رضي الله عنه ، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام العدول ، لكان حكمهم حكم من خرج على علي رضي الله عنه .[1]

وإذا كان المعتزلة قد أقروا بتخطيء أحد الفريقين في واقعة الجمل ، إلا أن الخوارج كان اعتقادهم أن عائشة والزبير كفروا بمقاتلتهم علياً، وكان علي يومئذ على الحق في رأيهم ولكنه كفر بعد التحكيم. [2]

وهذا بطبيعة الحال اعتقاد يخالف مذاهب أهل السنة والسلف كما ذكرنا فيما سبق . إذ أن أحد الفريقين مخطئ ثم تابوا بعد ذلك إلى الله تعالى ، والله يقبل التوبة ويعفوا عمن يشاء .

---

١ - ابن أبي الحديد - نهج البلاغة - جـ ١ - ص٩ .
٢ - فخر الدين الرازي - (٦٠٦) هـ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - ص٤٤ - تحقيق طه عبد الرؤف سعد ، مصطفى الهواري ، ط مكتبة الكليات الأزهرية - ١٩٧٨ م

الفصل الثالث

التحكيم بين علي ومعاوية
وظهور الخوارج

"الفصل الثالث "

" التحكيم بين علي ومعاوية "
"وظهور الخوارج "

أولاً : التحكيم بين على ومعاوية: -

أُكره عليّ على قبول التحكيم - بعد حادث رفع المصاحف على أسنة الرماح ، كما أكره على اختياره لأبي موسى الاشعري ضمن الحكمين ، إذ لم يكن يثق به لأنه فارقه وخذل الناس عنه ، بينما كان معاوية ت عام (٦٠ هـ) وأهل الشام راضين بعمرو بن العاص ضمن الحكمين .

فأبن قتيبه (٢٧٠) هـ يورد لنا اختلاف أهل العراق في الحكمين : قال : وذكروا أن عليا لما استقام رأيه على أن يرسل عبد الله بن عباس مع عمرو بن العاص ، قام إليه الأشعث بن قيس وشريح أبن هانئ ، وعدي بن حاتم ، وسعد بن قيس ومعهم أبو موسى الأشعري ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا أبو موسى الاشعري وافد أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ ، وصاحب مغانم أبي بكر وعامل عمر بن الخطاب ، وقد عرضنا ابن عباس على القوم فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ظانين في أمرك ، ولكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل العراق والشام بتقيته ، ثم تكلم القوم ومنهم أبن الكواء [1] فقال يا أمير

---

[1] - أبن الكواء هو : عبد الله بن الكواء اليكشري بن بكر بن وائل زعيم الخوارج الحروريه خرج على عليّ رضي الله عنه ، وكانت لعلي معه مناظرات وسموا بالحروريه لاجتماعهم بهذه القرية (الحروراء) قرية من قرى الكوفة - المسعودي - مروج الذهب - ص٥٩٣ .

المؤمنين إنك أجبت الله فأجبناك ، ولكنا نقول الله بيننا وبينك ، إن كنت تخشى من أبي موسى الاشعري عجزاً فشر من أرسلت الخائن العاجز ولست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد إن لا يجعل حقك لغيرك يدرك حاجته منك ، وأعلم أن معاوية طليق الإسلام وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه أدعى الخلافة من غير مشورة ، فإن صدقك فقد حل خلعه ، وإن كذبك قد حرم عليك كلامه ، وإن أدعى أن عمر وعثمان استعملاه فقد صدق ، ثم ما كان من استعماله ثم لم يدع الخلافة ، ومهما نسى فلا ينسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأنها بيعة هذا ، ولم يقاتل إلا عاصياً أو ناكثاً ، فقال أبو موسى الاشعري رحمك الله ، أما والله أني لواقف عندما أرى ، ولرضاء الله تعالى أحب إلي من رضاء الناس ، وما أنا وأنت إلا بالله ، عندئذ قال عليّ : أن الأنصار والقراء أتوني بأبي موسى فقالوا : أبعث هذا قد رضيناه ، ولا نريد سواه والله بلغ أمره (١)

وبعدما أرتضى الناس على اختيار أبي موسى الاشعرى وعمرو بن العاص ، كحكمين لمعسكري علي وأهل العراق ، ومعاوية وأهل الشام ، ذكروا أن أهل الشام قالوا لأهل العراق أعطونا رجالاً نسميهم لكم يكونون شهوداً على ما يقوله صاحبنا وصاحبكم بيننا وبينكم صحيفة ، فقال : عليّ رضي الله عنه سموا من أحببتم : فسموا أبن عباس والأشعث بن قيس وزياد بن كعب وشريح بن هانئ وعدي بن حاتم وحجر بن عدي وعبد الله بن الطفيل وعروة ابن عامر و غيرهم ، و طلب أهل العراق من أهل الشام تسمية : عتبة بن أبي سفيان ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ويزيد بن أسيد ، وأبو الأعور وأبن الحصين بن غير ويسر بن أرطاه ومخارق بن الحارث وغيرهم كذلك ، لما سمى أهل العراق رجال أهل الشام وسمى أهل الشام رجال أهل العراق ، قال معاوية أين يكون موضع هذين الرجلين فرضي الناس أن يكون بدومة الجندل (٢)

---

١ - أبي قتيبه - الإمامة والسياسة - جـ ٢ - ص٢٠٨ ، ص٢٠٩ ، ص٢١١

٢ - المصدر السابق - ص٢١٠ كذلك المسعودي - مروج الذهب - جـ ٢ ص٢٤ - ٢٥

ذكر أبن قتيبه قال : فلما وضع الناس السلاح ، التقوا بين العسكرين ، وجئ بالكتاب قال علي أكتب " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان - فقال معاوية ، علام قاتلناك إذ كنت أمير المؤمنين ، أكتب عليّ بن أبي طالب ، فقال الأشعث أطرح هذا الاسم فإنه لا يضرك ، فضحك عليّ ثم قال : دعاني رسول الله ﷺ يوم الحديبيه حين صده المشركون عن مكة فقال : ياعليّ أكتب هذا ما نقاض عليه محمد رسول الله ومشركو قريش ، فقال : سهيل بن عمرو لقد ظلمناك إذن يا محمد إن قاتلناك وأنت رسول الله ، ولكن أكتب أسمك وأسم أبيك فقال الرسول الكريم : أكتب محمد بن عبد الله وإني رسول الله " [١]

وعلى ذلك فقد كتب في الصحيفة " بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي عليّ على أهل الكوفة ومن معه من شيعتهم من المؤمنين المسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين المسلمين ، أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ، من فاتحته إلى خاتمته ، ما أحيا القرآن أحييناه، وما أمات القرآن أمتناه ، ما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعرى (عبد الله بن قيس) ، وعمرو بن العاص القرشي ، عملا به وما لم يجد في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة ،وأخذ الحكمان [٢] من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس ، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها إلى حرب ولا فراقه حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلىٰ رمضان ، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار

---

١ - المصدر السابق جـ ٢ - ص ٢١١ ، ص ٢١٢

٢ لمزيد من التفاصيل - أبن أبي الحديد - نهج البلاغة - جـ ٣ - ص ٢٣٠ ص ٢٣١ وما بعدها - ط بيروت

مكانه ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصار علي من ترك ما في هذه الصحيفة [1]

ومما يلفت النظر أنه قبيل اجتماع الحكمان ـ بالمكان الذي اختاروه ـ بدومة الجندل أخذ كل وفد من المعسكرين المتحاكمين يسدي النصح لفريقه . إذ قال عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري أن عليا لم يرض بك حكماً لفضل على غيرك ، والمتقدمون عليك كثيرون ، وأن الناس أبوا غيرك ، وأني لأظن ذلك لشر يراد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنسى أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة ،

ثم أوصى معاوية عمرو بن العاص حين رافقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى الأشعري فقال : يا أبا عبد الله ، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأخذ الجد .. لا تلقيه برأيك كله " [2]

وهكذا ، صار كل فريق من المتحاكمين يحشد للآخر ما لديه من أساليب ومحاورات وجدال ونصائح وحجج وألاعيب ، ومكائد ودهاء وسياسة .

اجتمع الحكمان ، أبا موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص في شهر رمضان في سنة ٣٨هـ الثامن والثلاثين من الهجرة ، ذكر المسعودي " لما التقى أبو موسى الأشعري وعمرو ، قال عمرو لأبي موسى : تكلم وقل خيراً فقال أبو موسى ، بل تكلم أنت عمرو ، فقال عمرو : ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك ، ولك حقوق كلها واجبه لسنك وصحبتك رسول الله ﷺ .

فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : يا عمرو : هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة ،

---

[1] ـ الطبري ـ تاريخ الطبري ـ جـ ٦ ـ ص٢٩ ، ص٣٠ ـ كذلك أبن قتيبه ـ الإمامة والسياسة ـ جـ ٢ ـ ص٢١٢ ـ ص٢١٣

[2] ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ جـ ٢ ـ ص٢٤ ، ص٢٥ ، كذلك دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ١ ـ ص٢٨٠ ، كذلك أبن قبيبه – الإمامة والسياسة ـ جـ ٢ ص٢١٤ ـ ص٢١٥ .

ويلم الشعث ويصلح ذات البين ، فقال عمرو : إن للكلام أولا وأخراً ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ أخره حتى ننسى أوله ، فأجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا .

قال أبو موسى : أكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى ، لما أراد من المكر به ، ثم قال له : بحضرة الجماعة : أكتب فأنك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فإذا أمرك فأكتب ، وإذا نهاك فأنتهي حتى يجتمع رأينا . أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم " هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) ، وعمرو بن العاص ، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم قال عمرو : ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسوله ، حتى قبضه الله إليه ، وقد أدى الحق الذي عليه ، قال أبو موسى الأشعري : أكتب ، ثم قال في عمر مثل ذلك ، فكتب ، ثم قال عمرو وأكتب : وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضا منهم ن وأنه كان مؤمناً ، فقال أبو موسى الأشعرى : ليس هذا مما قعدنا له ، فقال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً .

فقال أبو موسى : كان مؤمنا ، قال عمرو : فمره يكتب فقال له : أكتب قال عمرو : فظالماً قُتل عثمان أم مظلوماً ؟

قال أبو موسى : بل قتل مظلوماً

قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطلب بدمه ، ؟ قال أبو موسى : نعم

قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟

قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟

قال أبو موسى : بلى ، فقال عمرو : فأنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان قال أبو موسى الأشعري : هذا أمر قد حدث في الإسلام ، وإنما اجتمعنا لغيره فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد ﷺ ، قال عمرو : وما هو ، قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا ، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً ، فهلم نخلعهما جميعاً ، ونستخلف عبد الله بن عمر .

قال عمرو : أيفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟ قال أبو موسى : نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل ، فعمد عمرو إلى كل ما قاله ومال إليه أبو موسى الأشعري فصوبه ، وقال له : هل لك في سعد ؟ فقال أبو موسى : لا فعدد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر .

فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختمها جميعا .

ثم قال عمرو لأبي موسى الأشعرى : أرأيت أن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشام ، أتقاتل أهل الشام ، قال أبو موسى : لا . ثم كرر القول في أهل العراق ، فقال الأشعري : لا أيضا .

قال عمرو : أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فأخطب الناس ، وأخلع صاحبينا معا ، وتكلم باسم هذا الرجل الذي نستخلفه.

فقال أبو موسى : بل أنت قم فأخطب فأنت أحق بذلك.

قال عمرو : ما أحب أن أتقدمك ، وما قولي وقولك للناس إلا قول وأحد ، قم يا أبا موسى راشدا.[1]

ومما سبق يتضح لنا مدى ما كان يتمتع به عمرو بن العاص من دهاء . ومكر السياسي المحنك ، ويتبين لنا أيضا مما كتب في الصحيفة مبلغ تفوق عمرو على أبي موسى الأشعري الدهاء ، قد أستدرج أبا موسى حتى أقر له بأن عثمان قتل مظلوما ، وأن لمعاوية الحق في أن يطلب بدمه ، وهكذا نلاحظ أن عمراً استطاع أن يصل إلى بغيته وهدفه والذي سوف يتضح فيما بعد - وهو خلع علي بن أبي طالب ، وتثبيت معاوية على الرغم من تثبيت

---

١ - المسعودي - مروج الذهب - جـ ٢ - ص٢٥ ، ص٢٧ ، ص٢٨.

أبـي موسـى بخلـع معاويـة واسـتخلاف عـبد الله بـن عمـر دون غـيره مـن الصحابة .

وعلـى ذلك تتضـح تمـام الخدعـة ـ فيـما أورده المسـعودي وغيـره من المؤرخين إذ قـام أبـو موسـى الأشـعري : فخطـب فـي النـاس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمرنا ، فرأينا أقرب مـا يحضـرنا من الأمـن والصـلاح ولـم شـعث الأمة وحقن الدماء وجمع الألفـة ، خلعنا عليـاً ومعاويـة ، وقد خلعت عليـاً كمـا خلعت عمامتي هذه (ثم أهوى إلـى عمامتـه فخلعهـا) ، واسـتخلفنا رجـلاً قد صـحب رسـول الله ﷺ ، وصـحب أبـوه النبـي ﷺ ، فبرز فـي سـابقته ، وهـو عبد الله بن عمر . وأطراه ورغـب النـاس فيه ثم نـزل ، فقـام عمـرو وصـعد المنبـر وخطـب فـي النـاس : فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال : أيها الناس إن أبا موسى عبد الله بن قيس ، قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، وهو أعلم بـه ، إلا وأنـي قد خلعت عليـاً معـه ، وأثبـت معاويـة علـي وعلـيكم ، وأن أبـا موسـى قد كتب فـي الصـحيفة أن عثمان قد قتل مظلومـاً شـهيداً ، وأن لوليه سلطانا أن يطلب بدمـه حيث كان ، وقد صـحب معاوية رسول الله ﷺ بنفسه ، وصـحب أبـوه النبـي عليه السلام ، وأطراه عمرو ورغب الناس فيه . ثم قال : هو الخليفة علينا، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان .

فقـال أبـو موسـى : كـذب عمـرو ، لـم نسـتخلف معاويـة ،ولكـنا خلعـنا معاويـة وعلـياً معـاً [١]وفـي بعض الـروايات نذكـر أن أبـا موسـى الأشـعري وعمـرو كانـا قد اتفقـا علـى خلـع علـيّ ومعاويـة ، وتـرك الأمـر شـورى بيـن المسلمين ليختاروا خليفة لهم ، لكن عمراً قد أقر بخلـع علي ثم قال : هذا قد خلـع صـاحبه ، وأنـا أخلـع صـاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية فقال لـه

---

[١]ـ المصدر السابق ص٢٧، ص٢٨ ـ كذلك الطبري ـ تاريخ ـ جـ ٦ ص٣٠ .

أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. [١]

وبعدما تشاتم أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وتبادلا الاتهام كل منهما يرمي الآخر بالكذب ، والخداع والمكيدة ، لحق أبو موسى بمكة وظل بها لا يرى وجه علي رضي الله عنه ، ولحق عمرو بصاحبه وأهل الشام ولما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال : إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي ؟ ، والله أني أعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ، ولو شاء أخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه يريد بذلك (الأشعث بن قيس) ، إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله ، وحكما بالهوى بغير حجة ولا حق معروف ، فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحييا ما أماته ، وأختلف في حكمهما كلامهما ، ولم يرشدهما الله ، ولم يوفقهما ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . فتأهبوا للجهاد ، واستعدوا للمسير ، وأصبحوا في عساكركم إن شاء الله تعالى . [٢]

ومما لا شك أن أبا موسى الأشعري لم يكن على قدر كبير من الحصافة والاحتياط للأمور ، ولم يكن محاوراً ماهراً كعمرو ، بل فاته بعض الأمور التي كان يجب أن يتنبه إليها في مثل هذه القضية الشائكة والبالغة الأهمية والتي يتوقف عليها حقن دماء المسلمين ، والصلح بين الفئتين المتقاتلتين في شبهات كان يمكن ملافاتها ، ومن ذلك أن أبا موسى : تعجل خلع صاحبه عليّ رضي الله عنه قبل عمرو ، ثم أقر لمعاوية بأنه ولي دم عثمان والمطالب بالقصاص له . يضاف إلى ذلك اقتراحه اختيار عبد الله بن عمر ولم يتنبه إلى مكر عمرو في التأمين عليه والموافقة له ، وهو الذي يعلم

---

[١] - دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - جـ ١ - ص٢٨٣ كذلك المسعودي - ص٢٨ وابن أبي الحديد - نهج البلاغة جـ ٣ - ص٢٣٩

[٢] المسعودي – مروج الذهب – جـ٢ – صـ ٢٨، صـ٢٩ وما بعدها . كذلك نظرنا – ابن ابي الحديد – نهج البلاغة – جـ١٣ – صـ٣٠٩ وما بعدها . كذلك للمزيد من كلام علي في الحكمين – ابن ابي الحديد- نهج البلاغة – جـ٣ – صـ٢١٨- ط بيروت .

أن عبد الله بن عمر لم يكن ليلي الخلافة ، حيث أن عمراً أباه استبعده منها من قبل وإن جعل له في الشورى بشرط ألا يكون له من الأمر شيء كذلك فإن عبد الله بن عمر لم تجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمامة ويحكمون على الناس ، يضاف إلى ذلك سبب ثالث يمنع من ولاية ابن عمر وهو : إنه لم يستأمر الرجل في نفسه ولا علم ما عنده من رد أو قبول . لذلك ذكر المؤرخون في رسالة من عبد الله بن عمر إلى أبي موسى الأشعري يقول له فيها " يا أبا موسى فإنك تقربت إلي بأمر لم تعلم هواي في ، أكنت تظن أني أبسط يداً إلى أمر نهاني عنه عمراً ، وكنت تراني أتقدم على عليّ وهو خير مني ، لقد خبت إذاً وخسرت ، ثم اعظم من ذلك خديعة عمرو إياك وأنت حامل القرآن ووافد أهل اليمن إلى نبي الله، فقدمك عمرو للقول مخادعاً حتى خلعت علياً ، قبل أن تخلع معاوية .. وهكذا "[1]

هذا ما كان من أمر التحكيم والحكمين ، وعلى أثر ذلك ظهر الهرج والمرج وسادت الفوضى في صفوف وجند العراق ، وانقسم بين فريق مؤيد لحق عليّ في الخلافة رغم ما حدث من خداع والتباس ، وبين مفارق وثائر منهما كل من الحكمين بالكفر ، ومن رضي بالتحكيم كافراً أيضاً وقالوا ﴿إن الحكم إلا لله﴾

وعلى أثر هذا الانشقاق في صفوف جند علي والعراق ظهر الخوارج فخرج جماعتهم على الحكم والتحكيم ، متهمين علياً بالخطأ في قبول التحكيم من أساسه ومن ثم تكفيره ومن رضي به .

ثانياً : ظهور الخوارج وما كان بينهم وبين عليّ من مناظرات :

وضعت الحرب أوزارها بين عليّ ومعاوية ، على أثر فشل مسالة التحكيم بينهما ، عقب خدعة عمرو لأبى موسى ، وإقراره خلع علي من الخلافة متضامناً مع رأي أبي موسى ، وتثبيته لمعاوية ، ثم تشاتم الحكمان وتلاعنا أمام جمع من المسلمين من كلا المعسكرين ، فلحق أبا موسى بمكة

[1] ابن قتيبه – الإمامة والساسة – جـ٢ – صـ٢٢١ ، صـ٢٢٢ .

معتزلاً علياً ولحق الآخر عمرو بصاحبه معاوية . وأصبح المسلمون في هذا الوقت وحينئذ حزبين : حزب عليّ وشيعته وهم أهل العراق، وحزب معاوية وأنصاره من أهل الشام . وبينما الناس في غلط واختلاط ولغط وفوضى ، إذ خرج رجل من بني يشكر من ربيعة كان مع عليّ بصفين ، فلما رأى الفريقين التحكيم استوى على فرسه وحمل علي أصحاب معاوية وقتل منهم رجلاً ثم حمل على أصحاب عليّ وقتل منهم رجلاً ثم نادى بين المعسكرين إنه بريء من عليّ ومعاوية ، وقال " إني خلعت علياً ومعاوية ، وبرئت من حكمهما " فقاتله أصحاب عليّ وهم قوم من همدان فقتلوه " هذه هي البذرة الأولى لظهور الخوارج " إذ استقر عند جماعة هذه الشبهة ، واستقرت بقلوبهم ، فلما رجع عليّ على الكوفة وكان قد عقد العزم على مواصلة قتال معاوية وأنصاره إذ خطب في أصحابه وحرضهم على الجهاد فقال : " سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدماً ، فإنهم طالما سعوا في إطفاء نور الله ، ألا إن رسول الله امرني بقتال القاسطين (حزب معاوية بصفين) وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ، والناكثين (أصحاب الجمل) وهؤلاء فرغنا منهم ، والمارقين (وهم هؤلاء الخوارج) " . فلم نلقاهم بعد. [1]

لكن أصحابه لم يلقوا لقوله بالاً ، ظهرت فتنة الخوارج . فقد انحازوا إلى (حروراء) ، وتركوا علياً بعد أن رجع من صفين إلى الكوفة ، وكان زعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء ، وشيث بن ربعي ، فخرج إليهم عليّ يناظرهم ، فوضحت حجته عليهم ، فانحاز إليه جماعة منهم ، بينما انحاز الباقون منهم إلى النهروان . وأمّروا على أنفسهم رجلين منهم : عبد الله بن وهب الراسبي [2] والآخر يدعى حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثديه . والتقوا في طريقهم إلى النهروان برجل رأوه يهرب منهم فأحاطوا به وقالوا له : من أنت فقال أنا عبد الله بن خباب بن الأرت . فقالوا له حدثنا عن

---

١ ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ جـ٢ ـ صـ ٦٠١.

٢ ـ هو أول من أمره الخوارج عليهم أول ما اعتزلوا وخرجوا على عليّ رضي الله عنه . وجعلوا شيث بن ربعي المقدم ذكره أمير قتالهم لكنه امتنع عليهم فلم يقنعوا إلا به ، فكان إمام القوم وقتل مع أصحابه عام ٣٨هـ ـ الأشعري مقالات ـ جـ١ ـ صـ١٩٥ .

حديث سمعته عن أبيك عن الرسول ﷺ فقال سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ " ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ، فمن استطاع أن يكون مقتولاً فلا يكونن قاتلاً " فقتله أحد الخوارج وقتلوا زوجته ونساءه وأولاده ... وكانوا قد كثرت أعدادهم وقويت شوكتهم ، وسعوا فساداً ، فقصدهم عليّ ، وبعث إليهم برسول أن ادفعوا إلي قاتل عبد الله بن خباب ، فقتلوا رسوله إليهم وأرسلوا إليه أنا كلنا قتله ، ولئن ظفرنا بك لقتلناك أيضاً ، فأتاهم عليّ بجيشه ، وبرزوا إليه بجمعهم ، فكرر عليهم أن يرجعوا ويتوبوا عما هم فيه .[1]

وخاطبهم " ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طالب القوم لها مكيدة ، وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت ، فلما أن فعلت شرطت واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة وعملاً بالهوى ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول فما نبأكم ومن أين أتيتم (قال الخوارج لعليّ) : إنّا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا بذلك وكنا كافرين ، وقد تبنا من ذلك . فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت كما تبنا وأشهدنا ، فنحن معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء . فقال عليّ : أبعد إيماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله أبوء وأشهد على نفسي بالكفر . لقد ضللتم إذا ... إلخ" [2]

وكما قررّنا أن علياً لم يكن يبدأ قوماً بقتال إلا بعد أن يستنفذ كل الأساليب التي تدعوهم إلى الطاعة ، والرجوع عن المعصية ، ويبسط لهم كل الحجج والأسانيد حتى يرجعوا مؤمنين ، قبل أن يقاتلهم عاصين لله ولرسوله وأولي الأمر منهم .

---

[1]- البغدادي – الفرق بين الفرق – صـ٧٥ - صـ٧٨ – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط دار التراث القاهرة – كذلك الإسفرايني – التبصير في الدين – صـ٢٥ – صـ٢٧.

[2]- ابن قتيبه – الإمامة والسياسة – جـ٢ – صـ٢٣٥ – صـ٢٣٧ .

وقد تجلت عبقرية عليّ رضي الله عنه في جداله ومناظراته لخصومه من الخوارج قدر ما انجلت حنكته العقلية ومناجزاته العسكرية في ميادين القتال ، وهذا التجلي يتضح لنا في تحليله الفكري لحجج الخوارج عليه في ثلاثة مواضع . إذ سألهم عليّ قبل قتالهم .. ماذا تنقمون مني حتى فارقتموني لأجله ؟

قال زعماء الخوارج أول ما نقمنا منك: أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا في معسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم . فكيف استحللت أموالهم دون النساء والذرية ؟ فقال عليّ : إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة (وهي أم المؤمنين وزوج النبي ﷺ) في سهمه ؟ فخجل القوم (الخوارج) من هذا .

ثاني موضع في احتجاجهم عليه قولهم : نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين عن أسمك في الكتاب الذي بينك وبين معاوية ، لما نازعك معاوية في ذلك ، فقال عليّ : فعلت مثلما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال له سهيل بن عمرو ، لو علمنا أنك رسول الله لما نازعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتب " هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو " وأخبرني النبي ﷺ أن لي منهم يوماً مثل ذلك ، فكانت قصتي مع الأبناء مثل قصة النبي ﷺ مع الآباء .

ثالث هذه المواضع : قولهم له فلم قلت للحكمين : إن كنت أهلا للخلافة فاثبتاني ، فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى ، فقال عليّ : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، وأسكن الثائرة ، ولو قلت للحكمين حكما لي بالخلافة لم يرض بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهله وقال لهم ﴿ تعلوا ندع أبناءنا وأبناءكم .

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ سورة آل عمران آية (٦١) ، فأنصفهم بذلك من نفسه ولو قال الرسول ﷺ " أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم " لم يرض النصارى بذلك ، لذلك أنصفت معاوية من نفسي ولم أدر غدر عمرو بن العاص .

رابع هذه المواضع قولهم : فلم حكمت الحكمين في أمر كان لك ؟ قال عليّ رضي الله عنه : وجدت النبي ﷺ قد حكم سعد بن معاذ في بني قريظه ، ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضا حكماً ، لكن حكم الرسول ﷺ قد حكم بالعدل ، وحكمي خدع حتى كان من الأمر ما كان ، فهل عندكم شيء سوى هذا ؟

فقال أكثر الخوارج : صدق والله عليّ ، ثم ناشدوه التوبة ، واستأمنوه فأمنهم ، لكن بعضهم مرقوا وخرجوا عليه ، فأمر علي رضي الله عنه بقتالهم ، وكان على رأسهم عبد الله بن وهب الراسي ، وحرقوص بن زهير البجلي الملقب بذي الثديه [1] وقتلا في موقعة النهروان كما قتل الخوارج يومئذ ، ولم يفلت منهم غير تسعة نفر ، صار منهم رجلان إلى سجستان - أتباعهما خوارج سجستان - ورجلان إلى اليمن ، ومن أتباعهما إباضية اليمن ، ورجلان صارا إلى عمان ، ومن أتباعهما خوارج عمان ، ورجلان إلى ناحية الجزيرة ، ومن أتباعهما كان خوارج الجزيرة - وصار رجل منهم إلى تل موذن[2] وقال علي لأصحابه يومئذ اطلبوا ذا الثديه فوجدوه تحت داليه ، وتحت يده عند الإبط مثل ثري المرأة ، فقال علي : صدق رسول الله ، وأمر بقتله. [3]

---

١ - ذي الثريه - يلقب به حرقوص بن زهير البجلي - حيث رأوا تحت يديه عند الإبط مثل ثدي. المرأة - ويقال أن إحدى يديه قصيره مثل ثدي المرأة نظرنا : المبرد - الكامل في التاريخ - جـ ٢ - ص١٣٩ - أبن أبي الحديد - نهج البلاغة - جـ ٣ - صـ٢٤٩.

٢ - نظرنا : البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٧٨ - ص٨١ ، كذلك الأسفرايني التبصير في الدين - ص٢٧ - ٢٨ ، كذلك أبن أبي الحديد - نهج البلاغة - جـ ٣ - ص٢٤٩ .

٣ - ذكر في حديث عن النبي ﷺ إشارة إلى ذلك الحدث فقال " سيخرج من ضنضي هذا الرجل قوم يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية وهم الذين أولهم ذو الخويصره وآخرهم ذو الثديه ".

وبعد أن فرغ الإمام علي من قتال الخوارج وهزيمتهم بالنهروان ـ وفرق شملهم أنتشر بعضهم بالبلاد ـ وظلت بينه وبينهم مناوشات بين الحين والأخر ، وأراد بعد ذلك أن يتفرغ لإعادة الكره على أهل الشام وإخضاع معاوية لكن أصحابه ثبطوا من عزيمته ، وتزرعوا بالكثير من الأسباب والأعذار فقالوا " يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا ، وكلت إذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا فأرجع بنا نحسن عدتنا " ثم أخذ أصحابه يتسللون إلى الكوفة لزيارة نسائهم وأبنائهم ـ وتركوا علياً ومعه نفر قليل [1]
ولم يكن بين عليّ ومعاوية من الحرب إلا ما وصفنا بصفين ، وكان معاوية في بقية أيام عليّ يبعث بسرايا تغير ، وكذلك كان عليّ يبعث بسرايا يمنع معاوية من إيذاء الناس ، وهكذا [2] حتى قتل الإمام عليّ رحمه الله وفي هذا الموقف ذكر المؤرخون أن الخوارج تآمروا على قتله رضي الله عنه ومعه معاوية وعمرو بن العاص ـ متعللين أن أمر الخلافة يجب أن يوكل إلى الأمة ، ليختاروا من يلي أمر الخلافة بعد هؤلاء الثلاثة .

ففي سنة ٤٠ هـ أربعين أجتمع بمكة جماعة من الخوارج . فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة ، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، اتفقوا وتواعدوا على ألا ينقص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه حتى يقتله أو يقتل دونه ، وهم :
عبد الرحمن بن ملجم : يقتل علياً ، والحجاج بن عبد الله الصريمي وهو البرك يقتل معاوية ، وعمرو بن بكر مولى بني العنبر الملقب زادويه : يقتل عمرو بن العاص ، وتعاقدوا أن يكون ذلك ليلة ١٧ سبع عشرة من شهر رمضان فخرج عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة وتزوج من فطام وهي امرأة من الخوارج قتل علي أباها وأخاها يوم النهروان ، وتواعدت أبن ملجم أن يقتل علياً، فقعد أبن ملجم للإمام علي رحمه الله حين خرج للصلاة في الفجر نهار الجمعة ليلة سبع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ أو ليلة إحدى

[1] ـ أبن قتيبة ـ الإمامة والسياسة ـ جـ ٢ ـ ص٢٣٨
[2] ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ ص٦٠٥ .

وعشرين ، فوثب عليه وهو يقول " الحكم لله لا لك يا عليّ " وضربه على رأسه بسيف مسموم ، ومكث عليّ يوم الجمعة ويوم السبت وتوفى ليلة الأحد . وغسله الحسن والحسين ومحمد بن الحنفيه وعبد الله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن أبنه ودفن بالكوفة وخفي قبره حتى لا تنبشه الخوارج[١].

أما معاوية فقد نجا من القتل ، إذ أصيب بطعنه في إليته فقط ، وكانت غير قاتله ، بينما نجا عمرو بن العاص ، في ليلته ،إذ أصيب بوجع في بطنه أقعده عن صلا ة الصبح بالمسجد ، فأمر عامله (خارجه) القاضي لمباشرة الصلاة بدلاً منه ، فقتله عمرو بن بكر الملقب زادويه.[٢]

١- ابن قتيبة – الإمامة والسياسة – جـ٢ – صـ٢٥٣، صـ٢٥٥، المسعودي - مروج الذهب - ص٦٠٧ .

٢ - المصدر السابق- ص٦١١ الإمامه والسياسه جـ٢ صـ٢٤٠

الفصل الرابع

الخوارج و فرقهم المختلفة

"الفصل الرابع "

" الخوارج و فرقهم المختلفة "

أولا : كلمة الخوارج : معناها و دلالتها في النصوص الإسلامية :

كلمة الخوارج : تعني كل من خرج على الإمام الحق الذي أتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً ، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان و الأئمة في كل زمان. [١]

و من الجدير بالذكر أن الشهرستاني (ت عام ٥٤٨ هـ) ، يجعل المرجئة و الوعيدية ممن ينسحب عليهم هذا المعني الاصطلاحي لكلمة الخوارج ، و إن لم يكونوا منهم كحزب مستقل بل لموافقتهم لحزب الخوارج في بعض المسائل العقائدية. فيما يتعلق بمسائل الأيمان و العمل أو الإمامة ، فيرى " أن المرجئة صنف آخر تكلموا في الإيمان والعمل ، إلا أنهم وافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة ، و الوعيدية داخلة في الخوارج ، و هم القائلون بتكفير صاحب الكبيرة، وتخليده في النار " [٢]

وإذ كانت كلمة الخوارج تطلق بصفة عامة كاسم يطلق على كل من خرج على الإمام الحق المتفق عليه [٣] فإنها قد تنسحب - بغض النظر قليلا و في تصوري - على الطائفة الناكثة من أصحاب الجمل. والطائفة الفاسقة أو الفاسطة- أصحاب صفين ، بالإضافة إلى الطائفة المارقة بالنهروان وهؤلاء الطوائف الثلاثة هم الذين خرجوا على بيعة الإمام عليّ رضى الله عنه و شقوا عصا الطاعة عليه ، و حاربوا ، و قد أشار الحديث النبوي الشريف إليهم بقوله ﷺ (لعليّ رضي الله عنه): " سيقاتلك بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين ".

١-الشهرستاني - الملل و النحل - ج١-ص١١٤ .
٢-المصدر السابق - ص١١٤
٣- طه عبد الرؤوف سعد - المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين و المشركين ملحق بكتاب (الرازى - اعتقادات فرق المسلمين و المشركين) - ص٥١ ، ط مكتبة الكليات الأزهرية - ١٩٧٨ م .

وهم كما أشار إليهم الرسول ﷺ " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ".[١]

وإذا كانت كلمة الخوارج تطلق بصفة عامة على أولئك المتمردين على طاعة الإمام وبدون أن يعتنقوا مذهباً سياسياً أو عقائدياً معيناً يحدد خصوصياتهم كفرقة أو كحزب له خطره ، فإن مصطلح الخوارج قد انسحب بخصوصياته وتفصيلاته للدلالة على حزب أو فرقة معينة ، عرفت في تاريخ الفكر السياسي والديني الإسلامي بهذا الاسم ، وقد صنفها المؤرخون وأصحاب الطبقات والفرق ، كفرقة مستقلة محددة المعالم والتفاصيل ، في مقابل مجموعة الفرق والمذاهب العقائدية والسياسية في التاريخ الإسلامي . بالإضافة إلى ما يشملها من فروع تشعبت منها عبر العصور والتواريخ ، وانتشر أفرادها وزعمائها في شتى الأقطار العربية والإسلامية حتى العصور الحديثة .

إذاً فإننا نعني هنا بمصطلح الخوارج : أولئك القوم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ، ممن كان معه في حرب صفين ، وقاتلهم الإمام عليّ في النهروان ، وكونوا حزباً سياسيا – يعتبر الحزب السياسي الأول في تاريخ الفكر الإسلامي – حيث أثاروا الجدل حول مسألة الإمامة ، والتحكيم وأمر الحكمين ، والمسائل المتعلقة بالمعسكرين المتقاتلين عليّ ومعاوية بصفين ومن قبلهما أصحاب الجمل وحكم الشرع فيهم من حيث الكفر أو الإيمان.

فالجوانب الفلسفية السياسية حول فكرة الإمامة أو الوصاية ، وأحقية الخلافة لم تثر بشدة إلا في محيط هؤلاء الخوارج الذين خالفوا إجماع المسلمين في فكرتهم عن الخلافة " [٢] .

ولكن من هم الخوارج ؟ وكيف تكونت فرقهم ؟ وما دلالة هؤلاء في النصوص الإسلامية ؟ وما أخلاقهم وأجناسهم وصفاتهم ؟

يتفق المؤرخون على أن " أول من خرج على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، جماعة ممن كان معه في حرب صفين وأشدهم عليه ومروقاً

١- ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ١ – صـ٢٠١ .
٢ -دكتور علي سامي النشار – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – جـ٢ – صـ٢٠ – ط دار المعارف ١٩٦٥.

من الدين ، وهم : الأشعث بن قيس الكندي ، ومصعر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، حين قالوا : القوم يدعوننا إلي كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف! حتى قال: أنا أعلم بما في كتاب الله ! انفروا إلى بقية الأحزاب ! انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله ، قالوا : لترجعون الأشتر عن قتال المسلمين ، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان فاضطر إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجند (أي معاوية وأهل الشام) ، وكان من أمر الحكمين : أن الخوارج حملوه على التحكيم أولاً ، وكان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، فما رضي الخوارج بذلك ، وقالوا هو منك ، وحملوه على بعث أبي موسى الأشعري على أن يحكم بكتاب الله تعالى ، فجرى الأمر على خلاف ما رضي به ، فلما لم يرض بذلك خرجت الخوارج عليه وقالوا لم حكمت الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان.

ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما ، ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة أمراً واجباً . [1]

وبالإضافة إلى ذلك بينما يعظمون أبا بكر وعمر فإنهم يكفرون عثمان وعلي وأصحاب الجمل طلحة والزبير ومعاوية وأنصاره[2]

وللخوارج أسماء متعددة أطلقت عليهم لها دلالات فكرية أو عقائدية أو سياسية ، ونعتبرها ألقابا وأسماء فنية ، ساعدت في تعميق فكرهم ، وعقائدهم ومن هذه : اسم : الحرورية : لأنهم حينما انشقوا عن عليّ رضي الله عنه عند رجوعه من حرب صفين إلى الكوفة ، انحازوا إلى حروراء وهي قرية قرب الكوفة ، والشراه : وذلك لقولهم : شرينا أنفسنا في طاعة الله أخذين هذا المعنى من قوله تعالى ﴿ ومــن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ سورة البقرة آية ٢٠٧ .

---

١ - الشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ١١٤ ، صـ١١٥ ، كذلك– البغدادي – الفرق بين الفرق – صـ٧٢ ، صـ٧٣ وما بعدها ، الإسفريني – التبصير في الدين – صـ٢٦، صـ٢٧.

٢ - الرازي – إعتقادات فرق المسلمين والمشركين – صـ٥١، كذلك الإسفريني – التبصير في الدين – صـ٢٦ .

والمارقة :لاعتقادهم أنهم هم المؤمنون ، ومن عداهم هم الكافرون والمشركون والمارقون .

والحكمية : لقولهم لا حكم إلا لله . والنواصب : جمع ناصبي ، أو ناصب وهو الغالي في بغض عليّ بن أبي طالب . وعلماء الشريعة وأهل السنة يطلقون عليهم اسم : البغاة [١] لإصرارهم على البغي مثلما حدث من أصحاب الجمل .

إلا أن اسم : الخوارج هو الصق الأسماء بهم ، وأشهرها ، وذلك ينعكس على اختلافهم مع بعضهم ، فكثر الخروج بينهم ، فبينما نجد أحدهم تلميذاً لأستاذ ما إذ به بين عشية وضحاها ينقلب على أستاذه ، ويصبح معه على خلاف وينادي برأي مخالف له . وقد كثرت الخلافات بينهم فتفرقوا شعباً كثيرة متناحرة فيما بينها .

والخوارج من أقدم الفرق الإسلامية ، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق ، فهم في رأي المؤرخين وعلماء المذاهب شيعة علي وأنصاره " خرجوا عليه وانشقوا عنه مع أنهم كانوا بالأمس من حزبه وأعوانه ، إذ كانوا يعتقدون أن علياً إمام بويع بيعة صحيحة ، وحاربوا في صفوفه الناكثين من أصحاب الجمل وهزموهم ، ولا معنى لقبوله التحكيم مع جماعة (معاوية وأنصاره) خرجوا عليه ، بل كان خليقاً أن يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس أو يقتلوا عن أخرهم " [٢] كذلك فهم في رأي البعض الآخر " يطلق عليهم أسم الفرقة لأنهم اختلفوا مع جمهور المسلمين في مسألة الخلافة ، فلم يتفق الخوارج مع المسلمين في إجماعهم على خلافة خليفة من الخلفاء " [٣] فيما عدا خلافة الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهم فرق تعدت نزعاتهم ، وتباينت أراؤهم (كما سنرى فيما بعد) ، ولدتهم السياسة مباشرة ، واكتووا بنارها ، كانت نواتهم الأولى من عرب البادية ، ثم أنضم إليهم أخلاط من الناس

---

١ الأشعري – مقالات الإسلاميين – جـ١ – صـ١٥٦ ، وكذلك طه عبد الرؤوف سعد – المرشد الأمين – صـ٥١، صـ٥٢.

٢- دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - جـ ١ - ص٣٨٥ .

٣- جولد تسيهر - العقيدة والشريعة في الإسلام - صـ١٦٨ - ترجمه دكتور محمد يوسف موسى وآخرون - ط - المكتبة العربية سنة ١٩٥٥م

والأجناس ، ظهروا ـ أول ظهور لهم ـ سنة ٣٧ هـ على إثر موقعة صفين ، يوم أن قبل علي التحكيم ، وقولهم : بمبدأ " لا حكم إلا لله " (١)

أما عن أجناسهم ، وطبائعهم وخصائصهم ، فعلماء المذاهب يشيرون إلى أن أكثر من أعتنق المذهب الخارجي ، في أول الأمر ، كانوا عرباً سكنوا البصرة والكوفة بعد فتوح عمر رضي الله عنه ، وكانت تغلب على أكثرهم البداوة وكان كثير منهم من بني تميم ، وقد دخل بعض الموالي في عقيدتهم ، ولعل السبب في دخولهم أنهم اشتركوا مع الخوارج في بغض الأمويين (فيما بعد عصر علي وخلافته) ـ واعتقادهم بعدم صلاحيتهم ووجوب الخروج عليهم حتى تزول دولتهم ، ومع دخول بعض الموالي فإن المذهب الخارجي مصبوغاً إلى درجه كبيرة بالصبغة البدوية في محاسنها ومساوئها ، فهم كثيروا الخلاف على الرؤساء ، كثيروا التفرق ، محدودا النظر ضيقوا الأفق والأفكار في نظرهم لمخالفيهم ، وهم مع ذلك كانوا يتصفون بالشجاعة ، والصراحة في الأقوال والأعمال ، أسهل شيء يبيعون أنفسهم في سبيل عقيدتهم ، لا يعترفون ولا يؤمنون بمبدأ (التقية) عند الشيعة ، يحتقرون من باعوا ضمائرهم وأراءهم للخلفاء الأمويين أو العباسيين ، طمعاً في الجاه أو المال ، ويعتبر الخوارج كذلك ، على مر العصور أبعد من غيرهم عن التطور الفكري والديني والعلمي والاجتماعي ، ويغلب عليهم البساطة الأولى ، وفيما عدا شذوذهم في بعض عقائدهم يمثلون بساطة الإسلام على فطرته الأولى . قبل أن تدخل تعاليم الأمم الأخرى وظل أيمان الخوارج أيمان قلب لا أيمان عقل أو علم وهكذا ظلت أو تظل حياتهم الفكرية والاجتماعية والدينية بدوية بسيطة لم تتغير بتغيير الأيام إذ يذكروننا بالوهابيين الآن وإن اختلفت تعليمهم ، (٢)

وهكذا نجد أن الخوارج ـ على اختلاف فرقهم وفروعهم ـ تغلب عليهم طابع البداوة ، والبساطة الأولى في الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية ـ لذلك جاءت عقائدهم الدينية والسياسية خاليه إلى حد كبير من الجدل الفكري الفلسفي ،

---

١ ـ دكتور إبراهيم بيومي مدكور ـ في الفلسفة الإسلامية (منهج وتطبيقه) جـ ٢ ـ ص١٠٩ ، ص١١٠ ـ ط ادار المعارف بمصر ١٩٨٣ .
٢ ـ أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ جـ ٣ ـ ص٢٣٢ ص٢٣٣ ـ ط مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٧٨ م .

بل امتازت آرائهم بطابع الجفاف والخشونة في الرأي وأن لم تخلو من الطابع الأدبي ، فكان للخوارج ولع شديد بالنثر والشعر الموزون والمقفى الممتزج بالنسيج الاجتماعي الذي يعكس طابعهم العقائدي والسياسي ونتيجة لذلك كله - أصبحوا مصدر قلق دائم ، واضطراب شديد ومتلاحق تجسد في حروب طاحنة في خلافة الأمويين والعباسيين على السواء ، وبعد تضييق الخناق عليهم في المشرق العربي - أو الإسلامي - على مر العصور لم تكن لهم قائمة - إلا من رجل منهم إلى بلاد المغرب الأقصى في شمال إفريقيا ، فكونوا فرقتين كبيرين وهما - الصفرية والإباضية ، وأحتفظ الإباضية حتى اليوم بكثير من آرائهم ومعتقداتهم ، وأن أصبحت الخلافة غير ذات أهمية في عقائدهم الآن ، وإن وجد شرازم منهم في بلدان مثل عمان ، ومسقط ، وزنزبار .

وتشير بعض المصادر عند علماء المذاهب إلى " أن كثيراً منهم رجال تقوى وورع ،ولم يفتهم أن يسهموا في الحركة الفكرية ، فقد وضع بعض شيوخهم الأول كتباً وأن لم تصل إلينا حتى الآن ، يبدوا فيها ما لديهم من بلاغة أخاذة وجدل مفحم .. وهكذا [١]

أما عن دلالات الخوارج في النصوص الإسلامية ، فقد أفردت لها أقلام المؤرخين وكتاب الفرق والمذاهب صفحات طويلة ، وكذلك في كتب الأحاديث والمأثورات النبوية ، وأشار كبار الصحابة والأئمة ، أيضاً عنهم في كتب أهل السنة والشيعة ، وعلماء المذاهب والفرق .

ففي صحيح البخاري ورد حديث عن النبي ﷺ ، لـه دلالـه قوية على هؤلاء الخوارج ، تناقلته معظم كتب المؤرخين وأهل السنة والشيعة على السواء ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ قال " يخرج ناس من قبل المشرق ويقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه ، قيل ما سيماهُمْ ؟ قال : سيماهم التحليق ، أو قال التسبيد " [٢]

- أبن النديم - الفهرست - ط ليبسيك ١٨٧١ م - كذلك دكتور - إبراهيم مدكور - في الفلسفة الإسلامية - جـ ٢ - ٢ص١١٠ .
٢- البخاري - صحيح البخاري - جـ ٤ - صـ٣١١ - المجلد (٢) - ط مكتبة زهران بدون تاريخ .

وورد في كتب الشيعة - أقوال وتحليلات طويلة - نختصر منها ما ورد عن الإمام علي رضي الله عنه قال " إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ ، فلئن أخر من السماء أحب إلى من إن أكذب على رسول الله ﷺ ، وإذا حدثتكم فيما بيننا عن نفسي فإن الحرب خدعة ، وإنما أنا رجل محارب ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام قولهم من خير أقوال أهل البريه ، صلاتهم أكثر من صلاتكم ، وقراءتهم أكثر من قراءتكم ، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم أو قال حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فاقتلوهم ، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة " .

وجاء في كتاب صفين أيضا للمدائني عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قالت لما عرفت أن عليا قتل (ذا الثدية) [١] - لعن الله عمرو بن العاص فإنه أخبرني أنه قتله بالإسكندرية ، إلا أنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته عن رسول الله ﷺ " يقتله خير أمتي من بعدي " [٢]

وورد في كتب أهل السنة - ومؤلفاتهم - أخبار تفيد ما سبق أن أشرنا إليه ونبوءة الرسول ﷺ - بما يصير عليه وما يكون من هؤلاء الخوارج في حق الإسلام ، والمروق عن الدين والجماعة - فمنهم أبناء وأحفاد المنافقين للنبي ﷺ - إذ أشار أبن الجوزي البغدادي (ت عام ٥٩٧) هـ ، أن أول الخوارج وأقبحهم حالة (ذو الخويصرة) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بعث عليّ رضي الله عنه من اليمن إلى رسول الله ﷺ (بذهبه في أديم مقروظ) أي مدموغ ، فقسمها الرسول عليه السلام بين أربعة من الصحابة ، هم زيد الخيل والأقرع بن حابس وعيينه بن حض وعلقمة بن علاثة، ثم أتاه رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناتئ الجبهة ، كث اللحية مشمر الأزار ، محلوق الرأس ، فقال الرجل : أتق الله يا محمد فرفع الرسول ﷺ رأسه إليه فقال : ويحك أليس أحق الناس أن يتقي الله أنا . ثم أدبر فقال خالد يا رسول الله ألا أضرب

---

١ - ذا الثديه : هو حرقوص بن زهير البجلي الملقب بذى الثديه رأس من رؤوس الخوارج وكان له تحت الإبط - أو الذراع - قطعة تشبه ثدي المرأة - وعرضنا له فيما سبق .

٢ - - أبن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ٣ ،ص٢٤٥ (صفحة الأخبار الواردة عن الخوارج وقتل ذي الثدية) - ط دار الفكر ببيروت .

عنقه فقال الرسول ﷺ ، فلعله يكون يصلي فقال أنه رُبّ مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله ﷺ إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم - ثم نظر النبي ﷺ إليه وهو مقف فقال أنه سيخرج من ضئضئ هذا الرجل قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " (١)

ويعلق ابن الجوزي على هذه الرواية : أن هذا الرجل يقال له ذو الخويصرة التميمي ، وفي لفظ آخر قال النبي ﷺ : أعدل فقال : ويلك ومن يعدل ، إذا لم أعدل ، فهذا أول خارجي خرج في الإسلام ، وأتباع هذا الرجل هم الذين قاتلوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٢)

ووردت روايات أخرى تذكر فتنة الخوارج وفيها أحاديث عن النبي ﷺ فقد سمع زعماء الخوارج - بعدما انشقوا على عليّ وانحازوا إلى حروراء حديثاً نبوياً عن عبد الله بن خباب بن الأرت - حين سألوه قال " قال رسول الله ﷺ :" أنه تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول " قالوا : لعبد الله بن الأرت هل سمعت ذلك عن أبيك عن النبي ﷺ قال نعم ، فقتلوه وأم ولده وبقروا بطنها (٣)

وجدير بالذكر أن مشاهد الخوارج وآراؤهم لم تكن بعيدة عن مشاهدات ومحاورات كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار معهم ولنذكر مشهداً واحداً لأبن عباس معهم ، ومحاوراتهم له ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : لما خرجت الحروريه - اجتمعوا في دار وهم ستة آلاف ، أتيت عليا فقلت يا أمير المؤمنين آتي هؤلاء القوم فأكلمهم ، قال علي : أني أخاف عليك ، قلت كلا ، فأتيتهم وهم مجتمعون في دارهم ، فسلمت عليهم ، فقالوا مرحباً بك يا أبن عباس ، فقلت أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ . من المهاجرين والأنصار ، لأبلغكم ما

---

١ -أبن الجوزي البغدادي (جمال الدين أبي الفرج) ، تلبيس ابليس - صـ٩٠ ، ط مكتبة المتنبي - القاهرة بدون تاريخ .

٢ - - المصدر السابق - صـ٩٠ - وجدير بالذكر أن هذه الروايات والأحاديث النبوية وردت في كتب الحديث الأخرى - في النووي على مسلم جـ ٧ - صـ١٦١ ، وفي السنن لأبي داوود - جـ ٤ - ص٢٤٣ .

٣- أبن الجوزي - تلبيس أبليس - ص٩١ .

يقولون ، فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل ، وليس فيكم منهم أحد . فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً فأن الله يقول ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ سورة الزخرف (٥٨) وقال أبن عباس : أتيت قوماً لم أر قوماً قط أشد اجتهادا منهم ، مسهمه وجوههم من السهر ، كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم ، فقال لهم : أخبروني ماذا نقمتم على عليّ أبن عم رسول الله ﷺ - وصهره والمهاجرين والأنصار . قالوا : ثلاثا ، إحداهن : أنه حكم الرجال في أمر الله وقال الله تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ سورة (يوسف ٤٠، ٦٧ ، والأنعام : ٥٧) . وما للرجال وما للحكم ؟

والأخرى : فإنه قاتل (يقصدون أصحاب الجمل) - ولم يسب ، ولم يغنم ، فإن كان الذي قاتلهم كفاراً فقد حل سبيهم وقتالهم ولئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم !

والثالثة : قال الخوارج لأبن عباس : أنه محا أسمه أو نفسه من أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين ؟ .. وهكذا [1]

وقد حاورهم أبن عباس ، ورد عليهم **بالحجة والمنطق** والقرآن الكريم ، كما ناظرهم وحاورهم الإمام علي رضي الله **عنه** من قبل . [2] وقد سبق أن ذكرنا مناظرات الإمام عليّ ورده عليهم بالحجة والدليل الأمر الذي جعل كبار زعمائهم ينحازون إليه وهو عبد الله بن الكواء دون قتاله . [3]

ثانياً : فرق الخوارج وتطورهم :

ذكرنا فيما سبق عن ظهور الخوارج وأول نشأتهم عندما خرجوا على علي رضي الله عنه في صفين وقالوا : لا حكم إلا لله ولا حكم للرجال ، وانحازوا عنه إلى حروراء ثم إلى النهروان . ثم رأينا كيف أنهم حملوا علياً على قبول التحكيم على مضض فلما قبل ذلك انقلبوا عليه . وقولهم له : إن كنت تعلم

١- نظرنا : أبن قتيبه - الإمامة والسياسة - جـ ٢ كذلك أبن الجوزي - تلبيس أبليس - ص٩١ ، ٩٢ .
٢ -- المصدر السابق - ص٩١ - ص٩٢ كذلك دكتور عامر النجار- الإباضية ومدى صلتها بالخوارج - صـ ٣٨ ، صـ٣٩ ط دار المعارف ١٩٩٣ م .
٣ - راجع الصفحات السابقة من الفصل السابق (مناظرات على الخوارج)

أنك الإمام حقاً فلم قبلت التحكيم ، وأمرتنا بالمحاربه " [١] وهذه بداية عقائدهم وفكرهم . ولكن كيف تكونت فرقهم وفروعهم المختلفة ، وتبلورت من خلال ذلك أفكارهم وعقائدهم الدينية والسياسية ؟

سوف نتناول هذه الفرق ، وتكوينها الفكري والعقائدي بما يتلائم مع توضيح توجهاتهم السياسية ، على أن نتناول عقائدهم وأصولهم السياسية في الفصل القادم بشيء من التحليل والنقد .

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن الخوارج عشرون فرقة ، بينما يذهب الشهرستاني إلى أنهم سبع فرق والباقون فروعهم أو ثماني فرق كبيره ثم فروعهم وهم : المحكمة الأولى ، والأزارقه ، والنجدات ، والصفريه ، ثم العجارده المفترقة فرقاً منها الخازميه ، والشعيبية ، والمعلومية ، والمجهولية وأصحاب طاعة لا يراد الله تعالى بها ، والصلتية والأخنسية ، والشبيبه والشيبانيه ، والمعيديه ، والرشيديه ، والمكرميه والحمزيه ، والشمراخية والإبراهمية ، والواقفة ، والإباضية .

وقد افترقت الإباضية فرقاً معظمها فريقان : حفصية ، وحارثية ، ثم تشير المصادر التاريخية إلى بعض غلاة الإباضية وهم اليزيدية ، والميمونية من العجارده ، وهاتان الفرقتان من الغلاه الكفره الخارجين عن فرق الأمة . [٢]

١- **المُحكّمة الأولى :** سموا مُحكمة لقولهم لا حكم إلا لله (كلمة حق أريد بها باطل) ، وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه . حين جرى أمر التحكيم ، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة ، وكان من زعمائهم : عبد الله بن الكواء ، وعتاب بن الأعور ، وعبد الله بن وهب الراسبي ، وعروة بن حدير ، ويذيد بن عاصم المحاربي ، وحرقوص بن زهير البجلي المعروف (بذي الثدية) ، وقد ذكرنا فيما سبق ما جرى بينهم وبين الإمام عليّ من مناظرات وجدل ، واقتناع بعض هؤلاء بحجة عليّ عليهم . فانحاز منهم ثمانية

١- الرازي - أعتقادات فرق المسلمين والمشركين - ص٥٢، وكذلك المقريزي - خطط المقريزي - جـ ٤٠- ص٢٩٨ - ط دار التحرير للطبع عن ط بولاق ١٢٧٠ هـ

٢ -البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٧٢ ، ص٧٣ ، كذلك الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - ص١١٥ .

آلاف رجل إلى حروراء ، وامتنعوا عن قتال عليّ وكان على رأسهم عبد الله بن الكواء ، وبقي أربعة آلاف رجل ، وكان على رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير البجلي (ذو الثدية) فقاتلهم الإمام عليّ رضي الله عنه بالنهروان وقتلوا جميعاً ما عدا تسعة منهم تفرقوا في الأقطار المختلفة ، ففر اثنان منهم إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد ذهب إلى تل مورون باليمن ، وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم وبقيت إلى اليوم [1]

تكونت هذه الفرقة الأولى من الخوارج عندما اختار الخوارج من بينهم إماماً لهم وبايعوه بالإمامة عليهم ، وتشير المصادر "إلى أن أول من بويع من الخوارج بالإمامة : عبد الله بن وهب الراسبي في منزل زيد بن حصين بايعه عبد الله بن الكواء ، وعروة بن حدير ، ويزيد بن عاصم المحاربي وغيرهم ، وكان يوصف برأي وبحدة . فتبرأ من الحكمين ، وممن رضي بهما وبقولهما ، أو صوب أمرهما ، ويقال أن أول من ابتدع مقولتهم رجل من بني سعد بن زيد من تميم يقال له الحجاج بن عبيد الله الملقب بالبُرك . وهو الذي ضرب معاوية على أليته ، إذ قال : أتحكم في دين الله . لا حُكْم إلا لله ، فلتحكّم بما حكم الله في القرآن به . وعندما سمعها رجل قال : طعن والله فأنفذا ! ولما سمع أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه هذه الكلمة قال :" كلمة عدل أريد بها جور ، وإنما يقولون : لا إمارة ، ولا بد من إمارة برّ أو فاجر "[2]

هذه قصة المُحكمة الأولى .. وكان دينهم إكفار عليّ ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ، ومن رضي بالتحكيم وإكفار كل ذي ذنب أو معصية ، ولا نريد ذكر حروبهم المستمرة بينهم وبين عليّ رضي الله عنه فقد ظل عليّ في حرب مريرة معهم ، وازداد فيهم قتلاً وتشريداً إلى أن

---

١ ـ المصدر السابق ـ جـ١ ـ صـ ١١٥، ١١٧ . كذلك راجع الأشعري ـ مقالات الإسلاميين ـ جـ١ ـ صـ١٥٧ وما بعدها . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م .
٢ ـ المصدر السابق ـ صـ١١٧ .

قتل رضي الله عنه ، فذلك مبثوث في كتب المذاهب والفرق والتواريخ ، كما ظلت شوكتهم قائمة في عهد معاوية فقاتلهم وقتلهم كذلك. [١]

٢- الأزارقة :

هؤلاء من الخوارج ، أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المكني بأبي راشد (قتل عام ٦٠ أو ٦٥) هـ ، ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد منهم شوكة خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز فتغلبوا عليها وعلى ما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير .

وكان من كبار زعماء هؤلاء الخوارج مع نافع الأزرق ، عطية بن الأسود الحنفي ، وعبد الله بن الماحوز ، وعمرو بن عمير العنبري ، وقطري بن الفجاءة عبيده بن هلال اليشكري وأخوه محرز ، وصخر بن حبيب التميمي وغيرهم ، وكان تعدادهم ثلاثين ألف فارس - ظلوا في حروب مستمرة إلى أن خرج إليهم المهلب بن أبي صفرة - فتغلب عليهم وقتلهم جميعاً في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي .

وبعد مقتل نافع الأزرق ، بايع الخوارج قطري بن الفجاءة ، أميراً للمؤمنين عليهم . [٢]

ويجمعهم القول على عدة بدع يخالفون بها مذاهب جمهور المسلمين وأهل السنة ومن ذلك : قولهم : أن قتل من خالفهم جائز وأكفار علي رضي الله عنه ، وتكفير عثمان وطلحة والزبير وعائشة ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وسائر المسلمين معهم ، وكذلك (القعدة) عن القتال والبراءة منهم وأكفار من لم يهاجر إلى أميرهم نافع بن الأزرق ، وقتل أطفال ونساء المخالفين لهم ، وإسقاط بعض الحدود . كحد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال ، ووجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء ، وعدم رجم الزاني ، إذ لم يرد عنه شيء

---

١ للمزيد راجع : البغدادي – الفرق بين الفرق – صـ٨١ وما بعدها ، كذلك الأسفرايني – التبصير في الدين – صـ٢٨ ، سـ٢٩ - - المقريزي – الخطط – صـ٢٩٨ وما بعدها .

٢ - الأشعري - مقالات الإسلاميين - جـ ١ - ص١٥٧ ، الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ ص١١٩ ، ص ١٢٠ ، للبغدادي - الفرق بين الفرق - ص٨٢ - ص٨٣ .

بالقرآن ، يضاف إلى ذلك قولهم أيضا : أن التقيه غير جائزة في قول ولا عمل ، وأن أطفال المشركين في النار .

ولعل من الأقوال الخطيرة عند الأزارقه أقوالهم : بأن الله تعالى يجوز أن يبعث نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته ، أو كان كافراً قبل البعثة ، كما اجتمعت الأزارقة على أن من أرتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة ، يخرج به عن الإسلام جملة ، ويخلد في النار ، واستدلالهم على كفر أبليس حيث أمره الله بالسجود لأدم فأمتنع ...وهكذا [١]

ومن الجدير بالذكر أن الأزارقه تأولوا بعض الآيات القرآنية خطأ على علي رضي الله عنه ، وذكروا شعراً يمتدح فيه شاعرهم مقتل عليّ على يد عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله . .

وفي ذلك يذهب أميرهم ، وشاعرهم قطري بن الفجاءة المازني في حق عليّ رضي الله عنه " أن الله أنزل في شانه قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ﴾ سورة البقرة آيه (٢٠٤) ، وصوب عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله وقال إن الله تعالى أنزل في شأنه ﴿ ومن الناس من يشري نفسه أبتغاء مرضاة الله ﴾ سورة البقرة (٢٠٧) ، وقد تشدق شاعرهم عمران بن حطان - وهو مفتي الخوارج الأزارقة في عصره ، في ضربة أبن ملجم لعنه الله لعلي رضي الله عنه : فقال :

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
اني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا [٢]

٣- النجدان العاذرية: هؤلاء أتباع نجدة بن عامر الحنفي استولى على اليمامة والبحرين عام ٦٦ هـ ، وقتله أصحابه عام ٦٩ هـ ، ولعل من أسباب زعامته ورياسته - ثورة الخوارج على نافع الأزرق ، عندما أظهر البراءة من (القعدة)

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - ص١١٩ ، ص١٢٢، كذلك أبن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ١ - ص ٣٨٠ وما بعدها ، كذلك المقريزي - الخطط جـ ٤٠ - ص٢٩٩ ، جـ ٢ - ص ٣٥٤ - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٨٣ وما بعدها ، الأسفرايني - التبصير في الدين ص ٢٩ .

٢ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٣٣١ ، ط مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٨ م وكذلك الشهرسناني - الملل والنحل - جـ ٤ - ص ١٢٠ ،

عنه بعد أن كانوا على رأيه وسماهم مشركين ، وأستحل قتل أطفال مخالفيه ونسائهم ، وفارقه أبو فديك ، وعطية بن الأسود الحنفي وراشد الطويل . ومقلاص ، وأيوب الأزرق ، وجماعة أخرى فذهبوا إلى اليمامة فأستقبلهم نجدة بن عامر ، فأخبروه بأحداث نافع الأزرق ، فاجتمعوا عليه ، فبايعوا (نجدة بن عامر) ، وأكفروا من قال بإكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم ، وأكفروا من قال بإمامة وإمارة نافع الأزرق ، إلى أن اختلفوا على إمامة نجدة بن عامر مرة أخرى في أمور نقموها منه ، فاختلفوا عليه وصاروا ثلاث فرق .[1]

ومن هنا نجد أن الخوارج بدأوا في التفرقة والفرقة والاختلاف ، على أئمتهم وزعمائهم ، لاضطراب عقائدهم ، وفكرهم السياسي واختلاف معتقداتهم الدينية والشرعية ، بالإضافة إلى نزعة التحزب والعصبية المتوارثة لديهم من النزعات العصبية والقبلية في الجاهلية ، كذلك فإن تشرزم فرق الخوارج إلى شرازم وجماعات مختلفة ومضطربة ، متقاتلة قد يرجع من ناحية أخرى إلى افتقادهم للنسق الفكري والعقائدي أو السياسي المتكامل ، إذ سرعان ما نلاحظ ـ ظهور بعض المعتقدات المتطرفة عندهم ، ثم يأتي فريق آخر ليعلن تكفير الآخر فيما يذهب إليه فتسارع أطراف وفروع أخرى بالخروج على زعمائهم وقتلهم وهكذا .

ويتبين لنا ذلك عندما نستعرض تلك الفروع التي انشعبت عن فرقة النجدات ، ولنرى مدى التباين والاختلاف أو الاضطراب في معتقداتهم فقد افترقت النجدات كما أشرنا إلى ثلاث فرق :

أ – فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي (سميت بالعطويه) ، قال المقريزي " عطية بن الأسود بعثه نجدة إلى سجستان ، فأظهر مذهبه بمرو ، فعرفت أصحابه بالعطوية ، وقال الأشعري " أنه لم يحدث قولاً أكثر من أنه أنكر على نافع الأزرق ما أحدثه من أقاويل ففارقه ، ثم أنكر على نجدة بن عامر ففارقه ومضى إلى سجستان [2] .

---

١ - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٨٧ .
٢ - المقريزي - الخطط - جـ ٢ صـ٣٥٤ ، كذلك الأشعري - مقالات الإسلاميين جـ١ - صـ١٦٤ .

ب ـ والفـــرقـة الثـانية : صارت مع أبي فديك حرباً على نجدة بن عامر ، وقتلوا نجدة عام ٦٩ هـ ، إذ أنكروا على نافع ونجدة (وسمو بالفديكية)
جـ ـ والثـــالثـــة منـــهم : عذروا نجدة بن عامر في إحداثه وأقاموا على إمامته . وسموا (بالعاذريه) [١]

ومما يدل على اضطرابهم لما كاتب عبد الملك بن مروان خليفة بني أمية ، نجدة بن عامر زعيمهم وأعطاه الرضا ، نقم عليه أصحابه فيه ، واستتابوه ، فأظهر التوبة ، إلا أن طائفة أخرى منهم ندمت على هذه التوبة وقالوا ، أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الإمام ، وما كان له أن يستتيب باستتابتنا إياه ، فتابوا من ذلك وأظهروا الخطأ ، وقالوا له :
تب من توبتك ، وإلا نابذنك ، فتاب نجدة بن عامر من توبته ، ففارقه عطية بن الأسود ، وأبو فديك ، ووثب عليه أبو فديك فقتله ثم برئ أبو فديك من عطية ، وبرئ عطية من أبي فديك ، [٢]

ومن الجدير بالذكر ، أن ما يجمع النجدات وفروعها من القول ـ نذكرها دون تفصيلات قولهم : معرفة الله تعالى ورسله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم ، والإقرار بما جاء من عند الله جملة ، وهذا واجب على كل مسلم ، والجهل به لا يعذر فيه ، كذلك قولهم : لا حاجة للناس إلى إمام قط ، كذلك من جوز العذاب على المجتهد المخطئ في الأحكام قبل قيام الحجة عليه فهو كافر ، وأن من زنى أو سرق غير مصر عليه فهو غير مشرك. [٣]

وهكذا إلى أخر مقالاتهم مما سوف نذكره بالتحليل والنقد في الفصول القادمة ، فضلاً عن ذلك كله ـ إجماعهم مع سائر فرق الخوارج الأخرى على إكفار علي وأصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ومعاوية والحكمين .. وهكذا .

---

١ ـالبغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ صـ٨٨ ، صـ٩٠ ، كذلك الأسفرايني ـ التبصير في الدين صـ٣٠ ، صـ٣١ . كذلك الأشعري ـ مقالات الإسلاميين جـ١ ـ صـ١٦٩ ، كذلك المبرد ـ الكامل في التاريخ ـ جـ٢ ـ صـ٢٥١ .
٢ ـالشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ صـ١٢٤ .
٣ ـالمصدر السابق ـ صـ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ كذلك عبد الرؤوف سعد ـ المرشد الأمين ـ ملحق بكتاب اعتقادات فرق المشركين للرازي) ـ صـ٥٥ .

٤ - البيهسية : منهم : أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر ، وهو أحد بني سعد بن ضبيعه ، طلبه الحجاج فهرب إلى المدينة ، فقبض عليه والي المدينة عثمان بن حيان وحبسه إلى أن جاء كتاب الوليد بن عبد الملك بقتله .

ويجمعهم القول : فضلاً عن مبادئ الخوارج جميعاً- من إكفار علي والحكمين قولهم : إذا كفر الإمام كفرت الرعية ، الغائب منهم والشاهد ، كذلك لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ورسله ، والبراءة من أعداء الإسلام (١)

كذلك قولهم الإيمان : هو أن يعلم كل حق وباطل ، وأن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل ، أو الإيمان هو : الإقرار والعلم معاً كله إيمان .

ومن البيهسية قوم يقال لهم (العونية) وهم فرقتان ،

- أحدهما تقول : من رجع من دار الهجرة إلى القعود برئنا منه.
- والثانية : تخالف السابقة وتقول : بل نتولاهم لأنهم رجعوا على أمر كان حلالاً لهم ، وتجمعان هاتان الفرقتان على القول أن الإمام إذا كفر كفرت الرعية.
- ومن البيهسية شعب أخرى يقال لهم : أصحاب (التفسير) غذ زعموا : أن من شهد من المسلمين شهادة أخذ بتفسرها وكيفيتها.
- وصنف من البيهسية يقال لهم : أصحاب (السؤال) ، وهم أصحاب شبيب النجراني - قالوا : أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد الشهادتين ، وتبرأ وتولى . وأمن بها جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم (فيسأل) ما أفترض الله عليه ، كما أنهم يقولون أن أطفال المؤمنين مؤمنون ، كما أن أطفال المشركين مشركون ، ووافقوا القدرية في القدر وليس لله مشيئة في أعمال العباد ...وهكذا
- ومنهم أيضا: أصحاب صالح بن مسرح ، لم يحدث قولاً يميزه عن الخوارج قتل وأستخلف على أصحابه(شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني) المكنى بأبي الصحاري - يذكر المؤرخون أن (الشبيبية) يسمون مرجئة الخوارج لما ذهبوا إليه من الوقف ، وهم يقرون بمذاهب البيهسية

١- الشهرستاني - الملل والنحل ، جـ١ - ص١٢٥- كذلك عبد الرؤف سعد - المرشد الأمين - ص٥٦ .

أيضـا . وقد أدعى شبيب الشيباني الإمامة لنفسه [١] ولأمة غزاله [٢] وهكذا ، وكما لاحظنا وذكرنا فيما سبق أن كل من يخرج على إمامة إمامه من الخوارج ـ يدعي لنفسه الإمامة ، ويبتدع أقوالاً مخالفه أو موافقة.

٥ـ **العجارده** : هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد ، وهو زعيم العجارده من الخوارج ، ومن أخنث هؤلاء هلك عام ٨٤ هـ ، وافق النجدات في بدعهم ، وقيل أنه كان من أصحاب أبي بيهس ، وقيل أنه كان من أتباع عطية بن الأسود الحنفي ، ثم خالفهم وتفرد بعدة مبادئ منها : أن أطفال المشركين في النار مع آبائهم ، ولا يرى المال فيئاً حتى يقتل صاحبه ، كذلك كان العجارده يتولون القَعَدة إذا عرفوهم بالديانة ، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ، ويكفرون بالكبائر .

ومن الأمور أو المبادئ الاعتقادية الغريبة عند العجارده ـ أنهم يزعمون أن قصة يوسف عليه السلام ، وكذلك سورة يوسف ليست من القرآن ، وحجتهم أنه لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن [٣]

وقد تفرعت فرقة العجاردة من الخوارج إلى فروع متعددة ، لكل فرع منها مذهبه الخاص به ، وهم :

أ- **الصلتية** : أصحاب عثمان بن أبي الصلت ، أو الصلت بن أبي الصلت ، ومن مبادئهم : أن الرجل إذا أسلم توليناه وتبرأنا من أطفاله حتى يدركونه فيقبلوا على الإسلام .

ب ـ **الميمونية** : أصحاب ميمون بن خالد ، من جملة العجارده ، تفرد عنهم بمبدأ ، إثبات القدر خيره وشره من العبد ، وإثبات الفعل للعبد خلقاً وإبداعاً ، ، وإثبات الاستقامة قبل الفعل ، وأن الله يريد الخير دون الشر ، وليس لله مشيئة في معاصي العباد ، ولهم بعض الآراء والمبادئ الغريبة عن الإسلام

---

١ ـ المصدر السابق ـ جـ١ ـ ص١٢٧ ـ ص١٢٨ .
٢ـ المقريزي ـ الخطط ـ جـ١ ـ ص٢٠٠ ، ص٢٠١ .
٣ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ حـ ١ ـ ص١٢٨ ، كذلك المسفرايني ـ التبصير في الدين ص٣٢ ، الأشعري ـ المقالات ـ جـ ١ ص١٩٥

مثل قولهم : بجواز نكاح بنات البنات وبنات الأخوة .. وذكر الأشعري إنكارهم لسورة يوسف من القرآن ، وأطفال المشركين عند الميمونية في الجنة ويقولون بقتال السلطان وحده [١]

جـ - **الحمزية** : أصحاب حمزة بن أكرك (أو أدرك) ، وقالوا : بالقدر وخالفوا الميمونية منهم بالقول أن المشركين وأطفالهم ومخالفيهم في النار ، كذلك من مبادئ الحمزية ، أنهم يجيزون وجود إمامين في عصر واحد ، ما لم تجتمع الكلمة ويقهر الأعداء . [٢]

د: **الخلفية** : أصحاب خلف الخارجي - وهم من خوارج كرمان ومكران خالفوا الحمزية في القول بالقدر . فأضافوا القدر خيره وشره إلى الله تعالى وقالوا بتناقض الحمزية في معتقداتهم .. إذ كيف يقضون بأن أطفال المشركين في النار ولا عمل لهم ولا ترك - كما أن الله لو عذب العباد على أفعال قدرها عليهم ، أو على ما لم يفعلوه كان ظالماً ؟ لذلك فإن الخلفية تتبع مذهب أهل السنة في القدر والاستطاعة ، لذلك فإن الخلفية من الخوارج لا يرون أن الخير والشر من الله تعالى كذلك فإن الخلفية يقرون بأن القتال ليس بواجب إذا لم يوجد الإمام [٣] .

هـ - **الأطرفية** : منهم - كانوا على مذهب الحمزية ، في القول بالقدر ، وعزروا أصحاب الأطراف في ترك ما لم يعرفوه من الشريعة إذا أتوا بما يعرف لزومه من طريق العقل . أثبت الأطرفية من الخوارج واجبات عقلية ، وكان رئيسهم - غالب بن شاذك من سجستان . [٤]

و - **الشعيبية** : أصحاب شعيب بن محمد - كان على مذهب الميمونة لكنه تبرأ من قولهم بالقدر .

ومن مبادئ هذه الفرقة ، أن الله تعالى خالق أعمال العباد ، والعبد مكتسب لها قدرة وإرادة ، مسئول عنها خيراً وشراً ، مجازى عليها ثواباً

---

١ - المصدر السابق - ص١٢٩ ، الأشعري - المقالات - جـ١ - ص١٩٥ .
٢ -المصدر السابق - ج١ - ص١٣٠ ، الأشعري - مقالات الإسلاميين - ج١ - ص١٦٥ .
٣- المصدر السابق - ج١ - ص١٣٠ ، الرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - ص٥٩ ، كذلك عبد الروف سعد - المرشد الأمين ص٥٩. كذلك البغدادى - الفرق بين الفرق - ص٩٦ .
٤- الشهرستانى - الملك والنحل - ج١ - ص١٣١ ، طه عبد الروف سعد - المرشد الأمين - ص٦٠ .

وعقاباً ، ولا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئة الله تعالى ، والشعيبية على بدع سائر الخوارج في القول في الإمامة والوعيد ، وعلى بدع العجاردة ، وحكم القَعدة . [1]

ز- الحازمية : منهم- أصحاب حازم بن علي - وهؤلاء الحازميه ،أو الخازمية [2] أكثر العجاردة بسجستان ، قالوا : في باب القدر والاستطاعة بقول أهل السنة ، أن الله خالق ، ولا يكون إلا ما شاء الله ، وأن الاستطاعة مع الفعل - كفزوا الميمونية من الخوارج لقولهم في القدر على مذهب المعتزلة والقدرية .

وقالوا : بالموافاة . وأن الله تعالى إنما يتولى العباد على ما علم أنهم صائرون إليه في أخر أمرهم من الإيمان ، ويتبرأ منهم على ما علم أنهم صائرون إليه في أخر أمرهم من الكفر ، وأن الله لم يزل محباً لأوليائه مبغضاً لأعدائه ، ويتميزون عن سائر الخوارج في أنهم يتوقفون في أمر عليّ دون تبرئته - ويكفرون عثمان والحكمين. [3]

٦- **__الثعالبة:__** أصحاب ثعلبة بن مشكان ، أو ثعلبة بن عامر – وتدعى الثعالبة إمامة ثعلبة بعد عبد الكريم عجرد ، إذ أنه خالفه في حكم الأطفال ، فلما اختلفا في ذلك – كفر عجرد ، وصار ثعلبة هو الإمام ، ومن مبادئ الثعالبة : أن ثعلبة كان على ولاية الأطفال صغاراً أو كباراً حتى يرى منهم إنكاراً للحق أو رضاً بالجور ، فتبرأ العجاردة منه ، وصار يكفر كلاً منهم الآخر . كذلك رأى ثعلبة – والثعالبةِ معه أخذ الزكاة من العبيد إذا استغنوا ، وإعطائهم منها إذا افتقروا ، وقد افترقت الثعالبة إلى عدة فرق أو فروع منها :

أ- الأخنسية : وهم أصحاب رجل يدعى أخنس بن قيس – من جملة الثعالبة .

وهم على أصول الخوارج في سائر المسائل – لكنهم انفردوا : فقالوا :

١- المصدر السابق جـ١ صـ١٣١ ، البغدادي الفرق بين الفرق - ص٩٥ .

٢- الخازمية - راجع البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٩٤ ، الحازمية - راجع الشهر ستان - الملل والنحل - جـ ١ - ص١٣١ .

٣- الأشعري - مقالات الإسلاميين - جـ١ – صـ١٦٦ ، الإسفرايني – التبصير في الدين - صـ ٣٢ ، الشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ١٣١.

بالتوقف في جميع من كان في دار التقية من أهل القبلة إلا من عرف منه إيمان يتولوه عليه ، حرموا الاغتيال والقتل والسرقة وأجاز الأخنسية منهم تزويج المسلمات من مشركي قومهم .

ب- **المعبدية** : أصحاب معبد بن عبد الرحمن – كان من جملة الثعالبة ، وخالف الأخنس في قوله بجواز تزويج المسلمات من مشرك ، وخالف ثعلبة في قوله بأخذ الزكاة من العبيد ، وتبرأ منهم .

جـ- **الرشيدية**: أصحاب رشيد الطوسي ، ويقال لهم العشرية – لأنهم مثل باقي الثعالبة أوجبوا أخذ نصف العشر فيما سقى من الزروع بالأنهار والقنى ، أو قال بعضهم بالعشر فقط .

د- **الشيبانية** : من فرقة الثعالبة . وهم أصحاب شيبان بن سلمة الخارج في أيام أبي مسلم الخرساني [١] صاحب دولة بني العباس – وأعان أبو مسلم في حروبه مع أعداءه ، وقد وتبرأت منه الخوارج لأنه أعان المخالفين لمذهب الخوارج على قتلهم ، أو قتالهم .

- وقد انفرد شيبان هذا بالقول : بتشبيه الله تعالى لخلقه ، وأكفره الخوارج ولم يقبلوا توبته حين قتل ، لأنه قتل الموافقين في مذهبهم وأخذ أموالهم . إلا أن يقتص من نفسه ، ويرد الأموال لأصحابها ، وقالت الشيبانية بعقيدة الجبر ، فوافقوا قول الجهم بن صفوان (١٢٨هـ) في مذهبه الجبري ، وهكذا .

هـ- **المكرمية** : من الثعالبة ، أصحاب مكرم بن عبد الله العجلي ، تفرد عنهم بالقول : أن تارك الصلاة كافر ، لا من أجل ترك الصلاة ، بل من اجل جهله بالله تعالى . وطرد هذا المفهوم الاعتقادي في كل كبيرة يرتكبها الإنسان ، مع ذكر حديث النبي ﷺ " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن بالله " [٢] .

---

١ - أبو مسلم الخرساني : هو صاحب الدعوة للعباسيين ، وهو الذي أقام صرح دولتهم ووطد أركانها – وكانت له فرقة من الخرمية يقال لها المسلمية ، يقولون بإمامة أبي مسلم الخرساني – فقتله الخليفة المنصور العباسي عام ١٣٧هـ . انظر المسعودي – مروج الذهب – جـ٣ – صـ٣٠٢ ، صـ٣٠٥ .

٢ - تخريج الحديث / البخاري (صحيح البخاري) (بحاشية السندي)

- وتفرد **المكرمية** عن **الثعالبة** وخالفوهم في القول : بإيمان الموافاه بالحكم بأن الله تعالى إنما يتولى عباده ويعاديهم على ما هم صائرون إليه من موافاة الموت ، لا على أعمالهم التي هم فيها ، فإن ذلك ليس يموتون به إصراراً عليه ما لم يعتقدوه فذلك هو الإيمان فنواليه وإن لم يبق فنعاديه .

و- **المعلومية والمجهوليه : المعلومية** – كانوا ينتمون للحازمية من الخوارج ، ولكنهم خالفوهم بالقول : من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه وصفاته فهو جاهل به . وقالت الاستطاعة مع الفعل ، والفعل مخلوق للعبد ..

- **أما المجهولية** : فقالوا: أن من علم بعض أسماء الله تعالى وصفاته وجهل بعضها ، فقد عرفه تعالى ، وقالت أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

ز- **البدعية** : أبدعوا القول : بأن من أعتقد أعتقادنا فهو من أهل الجنة ، ولا نقول إن شاء الله ، فإن ذلك شك في الاعتقاد ومن قال أنا مؤمن إن شاء الله ، فهو شاك ، وهم أصحاب يحي بن أصرم وادعوا أنهم أهل الجنة قطعاً . (١)

٧- الإباضية : من أكبر فرق الخوارج في عصورها المتطورة والمتأخرة ولها بعض الفروع المختلفة فيما بينها وبين غيرها من الخوارج الآخرين ويعتبرها بعض الكتاب والباحثين المحدثين. أفضل فرق الخوارج على الإطلاق ، وأقربهم من مذهب المعتدلين ، بل ذهب بعض الباحثين المعاصرين (٢) إلى اعتبار أن الإباضية معتدلة وقريبة في كثير من عقائدها من أهل السنة ، ويستنتج الدكتور عامر النجار في كتابه عن تلك الفرقة في بلاد المغرب العربي في العصور

١- نظرنا – الشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ١٣١ ، صـ١٣٤- كذلك الأشعري – مقالات الإسلاميين – جـ١ - صـ١٦٨ . كذلك التبصير في الدين – صـ٣٤ -كذلك البغدادي – الفرق بين الفرق - - صـ١٠٢ . كذلك المقريزي – الخطط – صـ٢٠٠ ،صـ٢٠٨. كذلك الرازي – اعتقادات الفرق – صـ٦١ وما بعدها .

٢- دكتور – عامر النجار – الإباضية ومدى صلتها بالخوارج – صـ٨٥ [يذكر : تعد الإباضية من أقرب الفرق للجماعة الإسلامية . لاعتدال مذهبهم وتسامحهم مع مخالفيهم ، ويغضبون ممن يعتبرهم فرقة من فرق الخوارج] .

المتأخرة ، أنهم قاربوا مذهب المعتدلين وأهل السنة ، مستنداً في ذلك للعديد من البحوث والدراسات الجديدة عن باحثين منهم [١]

ونظراً لأهمية هذه الفرقة " الإباضية " من الخوارج . ودورها الكبير وأئمتها في نشر أصول هذا المذهب وتطوره ببلاد المغرب العربي وفي شمال إفريقيا بصفة عامة ، فإننا سوف نفرد فصلاً خاصاً بها نناقش جوانب مذاهبها وعقائد أصحابها السياسية ، وكيف يمكن الحكم على هؤلاء باعتدالهم وقربهم في عقائدهم من مذاهب الجماعة الإسلامية ، لكننا هنا نؤرخ فقط لفرقة الإباضية ، ونشأتها وأهم زعمائها القدامى ، ومدى صلتهم بمذاهب الخوارج وفروعها الأخرى .

فقد ذهب مؤرخوا الفرق على أن " الإباضية " بكسر الهمزة - هم أصحاب عبد الله بن إباض من بني مرة بن عبيد من بني تميم - وهو رأس الإباضية من الخوارج ، وكان خروجه في عهد مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية ، فوجه إليه مروان بن محمد قائده عبد الملك بن محمد بن عطية فحدث قتال بين الفريقين واستمر هذا القتال حتى قتل عبد الله بن إباض في سنة ٨٥ هجرية .

ويقال أن إباض قد رجع عن أقواله وبدعته ، وتبرأ منه أصحابه ، ولكن استمرت نسبتهم إليه [٢]

ومن مبادئ الإباضية : إجماعهم على القول : بأن كفار هذه الأمة (يعني من يخالفهم في مذاهبهم) – براء من الشرك والإيمان ، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ، ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وحرموا دمائهم في السر ، واستحلوها في العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم – وقالوا أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد ، إلا معسكر السلطان ، فإنه دار بغي ، وقالوا : إن مرتكبي الكبائر موحدون لا مؤمنون ، وقالوا أيضاً : الاستطاعة

١- راجع المصدر السابق – صـ٨٥ ، ٩٥، ١١٩ وما بعدها.
٢ الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - صـ١٣٤ ، ص١٣٥ . كذلك البغدادي - الفرق بين الفرق - صـ١٠٣ . كذلك المقريزي - الخطط - جـ ٤ - صـ٢٠١ ، الأشعري - مقالات الإسلاميين ، جـ ١ - صـ١٧٠ ، مروج الذهب للمسعودي - جـ ٣ - صـ٢٥٨ .

عرض من الأغراض ، وهي قبل الفعل ، وأفعال العباد مخلوقة لله مكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، مرتكب الكبيرة كافر كفر (نعمة) يعني كافر بالنعمة لا كافر بالملة ، ومن بدعهم ، أو بدع فروعهم قولهم جواز خلق الرسول بلا دليل ، ويكلف العابد بما يوحي إليه ، ولا يجب عليه إظهار معجزة ، ولا يجب على الله ذلك إلى أن يخلق دليلاً ، ويظهر معجزة – ومنهم جماعة متفرقون في مذاهبهم تفرق الثعالبة والجعاردة. [1]

وقد تشعبت هذه الفرقة إلى عدة فروع نذكر منها باختصار :

أ- **الحفصية** : منهم : هم أصحاب حفص بن أبي المقدام ، زعم أن بين الشرك والإيمان خصلة واحدة ، وهي معرفة الله تعالى وحده ، فمن عرفه ثم كفر بمن سواه من رسول أو كتاب ،أو قيامة أو جنة أو نار وارتكب الكبائر من الزنى أو السرقة وشرب الخمر ، فهو كافر ، لكنه برئ من الشرك ، أما من جهل الله تعالى وأنكره فهو مشرك ، وجدير بالذكر أن هؤلاء الحفصية وزعيمهم آنف الذكر ، ابتدعوا تأويلاً عن عثمان رضي الله عنه مثل تأويل الرافضة أو الشيعة على أبي بكر وعمر ، كذلك زعموا أن علياً هو الحيران الذي أنزل الله فيه قوله تعالى :﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ سورة البقرة آية (٢٠٤) ، أن عبد الله بن ملجم هو الذي أنزل فيه قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ سورة البقرة آية (٢٠٧) وقال الحفصية بعد ذلك : أن الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله عز وجل ، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله عز وجل ، فصاروا بهذا القول الأخير متناقضين في عقائدهم وشركهم بالله تعالى .

ب- **الحارثية** : منهم أصحاب حارث بن يزيد الإباضي ، ويجمعهم القول : بالقدر على طريقة المعتزلة وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل ، أكفرهم

١- المراجع السابقة نفسها .

أصحابهم بهذا القول ، وتبرؤا منهم لأنهم على عقيدة أهل السنة في القول : أن الله تعالى خالق أعمال العابد ، وأن الاستطاعة مع الفعل .

جـ- **اليزيدية** : أصحاب يزيد بن أنيسه ، تولى المُحكمة الأولى ، وكذلك الإباضية من بعدهم ، وتبرأ من غيرهم من الخوارج ، يجمع اليزيدية منهم وزعيمهم القول : أن الله تعالى سيبعث سولاً مِن العجم . وينزل عليه كتاباً من السماء جملة واحدة ، ويترك شريعة المصطفى محمد ﷺ ، ويكون على ملة الصابئة الوارد ذكرهم بالقرآن ، يقولون أن كل ذنب صغير أو كبير فهو كفر وشرك ، ويقولون كل من يشهد بنبوة محمد ﷺ وإن لم يكن مؤمناً بالملة الإسلامية .. وقد تبرأ منهم جملة الإباضية بل ويعتبر هؤلاء كفاراً ومشركين . وخارجين على الإسلام . (١)

د- ذكر المؤرخون فرقة أخرى تنتسب إلى فرقة الإباضية من الخوارج ، وهي : فرقة يقال لها أصحاب طاعة لا يراد الله بها: زعم هؤلاء أنه يصح وجود طاعات كثيرة ممن لا يرد الله تعالى بها – كما قال بها أبو الهزيل العلاف من المعتزلة (٢) .

٨- **الصفرية الزيادية** : من أشهر فرق الخوارج . ابتدعوا عقائداً وأفكاراً خالفوا فيها من سبقهم أو عاصرهم من الخوارج ، واتفقوا في بعضها معهم ، وهم : أتباع : زياد بن الأصفر ، وقيل اتباع عبد الله بن صفار ، وقيل صفرية لصفرة في وجوههم ، وقيل سموا صِفرية (بكسر الصاد) لخلوهم من الدين ، كما قال الأصمعي : خاصم رجل منهم صاحبه في السجن فقال له : أنت والله صِفر من الدين ، وفي ذلك يقول أحد الخوارج الذين خرجوا على مذاهبهم ولجأوا إلى المرجئة وهو:ابن عاصم الليثي :

فارقت نجدة والذين تزرقوا * وابن الزبير وشيعة الكذاب

١- نظرنا : الأشعري – مقالات الإسلاميين – جـ١ – صـ١٧٠ ، والشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ١٣٥ ، صـ١٣٦ ، الإسفرايني – التبصير في الدين - صـ٣٤، المقريزي – الخطط - صـ٢٠١ .
٢ - البغدادي – الفرق بين الفرق – صـ١٠٥ ، كذلك ٠- الاسفرايني – التبصير في الدين - صـ٣٥ .

والصفر الآذان الذين تخيروا * دنيا بلا ثقة ولا بكتاب [1]

خالفوا الأزارقة ، والنجدات ، والإباضية في أمور منها :

أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال ، إذا كانوا موافقين لهم في الدين والاعتقاد ولم يسقطوا حد الرجم ، ولم يحكموا بقتل أو تكفير أطفال المشركين وخلودهم في النار ، وقالوا التقية جائزة في القول دون العمل ، كذلك ألزموا الحدود لأعمال أصحابها ، فالسارق ـ يسمى سارقاً ، والزاني يسمى زانياً ، لا كافراً ولا مشركاً.

ومن أهم مبادئهم التي تميزهم عن غيرهم من الخوارج : أن ترك الصلاة والفرار من الزحف عند لقاء الأعداء كفر ، وأننا مؤمنون عند أنفسنا لا ندري لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله تعالى .

كما أن الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان ، وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بإنكار النعمة ، وكفر بإنكار الربوبية والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود سُنّة ، وبراءة من أهل الجحود فريضة . [2]

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج وفروعهم المختلفة والمتعددة ، مختلفة فيما بينها ، ومتناحرة فيما بينها وبين غيرها من أصحاب المذاهب والفرق الأخرى وقد عرضنا لأشهرها وأشدها جلداً وثباتاً في تاريخ الحركات السياسية والفكرية والعقائدية الإسلامية ، منذ نشأة الحركات السياسية والحزبية في الإسلام حتى العصور المتأخرة ، لكن دورهم لم ينته إلى هذا الحد ، بل تطور إلى تكوين دويلات متعددة داخل الدولة الإسلامية الكبرى المترامية الأطراف شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ، وسوف نرى في الفصول القادمة مدى ما كان لفرقتين كبيرتين منهم من أثر فكري وعقائدي وسياسي في تاريخ الإسلام السياسي والفكري في العصور المتأخرة وحتى العصر الحديث . وأقصد بذلك :

---

١ ـ دكتور ـ عبد الروف سعد ـ المرشد الأمين في اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ملحق بكتاب (الرازي ـ اعتقادات ..) ـ صـ٦٥ .

الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص١٣٧ ، كذلك المقريزي ـ الخطط ـ ص٢٩٩ ، كذلك الأسفرايني ـ ٢التبصير في الدين ص٣١ .

فرقتي الإباضية والصفرية ، في بلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا بصفة عامة .

وقد عرضنا لما يقرب من تسع فرق كبيرة منهم ، تضم عدداً من الفروع المتشعبة قد تصل إلى ما يقرب من عشرين فرقة أو أكثر . ولكن حسبنا أن عرضنا بأمانة علمية شديدة لأهم عقائدهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية.

وقد أتفق مع ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أن الناظر إلى مذاهب الخوارج وفرقهم ليجد أنهم قد أشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار وعبدة الأوثان ، فلا عجب إذا أشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود لمبادئهم ، وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة ، والبطولة الفذة ، وشغلوا العالم الإسلامي والعربي في عصوره المختلفة من عصر الإمام علي رضي الله عنه والأمويين إلى عصر العباسيين مدة طويلة ، وكلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأرواح والأموال .. [١]

ونحن هنا بطبيعة الحال لا نؤرخ لأحداث أو وقائع حربية أو عسكرية ، بل نتتبع ونرصد وقائع وأحداث سياسية وحزبية [٢] ، وتحليل مواقف فكرية وأصول عقائدية . كذلك فإننا قد نتفق مع رأي نيكلسون فيما ذهب إليه من القول " أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن عقائدهم والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ ، برغم ما كان من أعنافهم في ذلك المبدأ واشطاطهم في تلك العقائد مما أدى إلى إخفاقهم ، فابتدأ الاعتدال والتسامح يدب في نفوسهم بعض الشيء ، ويسود بعض أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم[٣] وربما نجد ذلك واضحاً بصورة ظاهرة عندما نتتبع سيرة الإباضية والصفرية من الخوارج ببلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا عبر العصور التالية وحتى العصور الحديثة إذ طرأ على فكرهم السياسي والعقائدي تطورات كثيرة قد تقربهم من خصومهم من الشيعة الذين انتشرت

---

١ ـ دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ١ ـ ص٤٠٢

٢ ـ الأمور الحربية والأحداث العسكرية والقتالية وما دار بين الخوارج وبين خصومهم من حروب وقتال ، متروك ومطروق بكتب المؤرخين وكتاب الفرق والطبقات ولسنا معنيون هنا بمثل هذه الأمور فليرجع من يشاء إليها .

٣ـ المصدر السابق ـ صـ٤٠٢ ، صـ٤٠٣ .

مذاهبهم ببلاد المغرب العربي وكذلك أهل السنة في بعض المسائل العقائدية والفرعية وهذا ما سوف نكشف عنه في الفصول القادمة.

وقد أختلف مع نيكلسون فيما ذهب من أن الخوارج لم تكن لهم مأرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركاتهم [(١)] فإن الخوارج منذ نشأتهم وزعمائهم لم يظهروا ذلك حقيقة ، لكنهم بعد ذلك تطلعوا إلى الإمارة ، والإمامة والسياسة ، ومحاولة بعض زعمائهم الاستقلال عن الدولة الأم سواء في عهد الأمويين أو في العهود العباسية . وقد حدث ذلك بالفعل في ظهور نزعة الاستقلال السياسي والعقائدي وظهور بعض الإمارات والدويلات ببلاد المشرق أو المغرب العربي وشمال إفريقيا.

فكتب التواريخ تعج بما أصبح أو كان للإباضية والصفرية من الخوارج من تأسيس لدويلات وإمارات ومحاولات الاستقلال وما دار بينهم وبين بعضهم من حروب وقتال وما بينهم وبين العباسيين ومن قبلهم الأمويين من حروب دامية . أضاعت على المسلمين فرصاً كبيرة في الفتح ونشر الدعوة الإسلامية التي لولاها لاستطاع المسلمون غزو أوربا وفتح شمالها جنوبها كما فعلوا بالأندلس . وقويت شوكة العرب والمسلمين ، ولما أصابهم من وهن وضعف ما زلنا نعاني منه حتى الآن .

ثالثاً : تطور الخوارج حتى العصور الحديثة :

لم يكد الخوارج يتم لهم تكوين أول حزب سياسي وديني في الإسلام . يناوئ سلطة الخلافة الأموية والتي ساعد الخوارج على تقويض أركانها بمساعدة أبي مسلم الخرساني فيما أشرنا إليه من قبل ، بالإضافة إلى مناوئة سلطة الخلافة العباسية فيما بعد وعلى طول الأزمان ، حتى دب بينهم وبين بعضهم والبعض الأخر - من الفرق والفروع التي تشعبت عنهم . الفرقة والخلاف المستمر والحروب وإثارة الفتن والدسائس ، فقامت بين فروعهم الحروب وخرج بعضهم على البعض الآخر ، وصار كل فرع يكفر الأخر

---
١ - المصدر السابق – صـ٤٠٣ .

ويقاتله ، فيما بين القرنين الأول والثاني الهجريين وحتى القرنين الثالث والرابع ، بالإضافة على ما شجر بينهم وبين سلطة الخلافة وما حدث من حروب وثورات استمرت معظم هذه القرون السالفة ، الأمر الذي أضعف قوتهم ، وأوهن عزائمهم في معظم الأحيان . وبصفة خاصة في بلاد المشرق العربي ، لكنهم لم ينتهوا تماماً، ولم يقض على فلولهم وشراذمهم نهائياً إذ سرعان ما حدث بعض التطور في الأحداث والتفكير والمعتقدات أتاحت للخوارج بفرقهم الفرصة للانتقال إلى أماكن أخرى وبصفة خاصة ببلاد المغرب العربي .

ويمكن أن نذكر شيئاً مختصراً من سيرة الخوارج وثوراتهم الفكرية والسياسية وما طرأ على فكرهم من تطور في غضون العصر العباسي المتأخر القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وقبل أن ننتقل إلى البحث عن تطور عقائدهم وفكرهم السياسي في بلاد المغرب ، والذي استطاع هذا الفكر الخارجي أن يعشعش ويفرخ أجيالاً متواصلة عبر العصور والأزمان وحتى العصور الحديثة .

ففي بلاد المشرق العربي ، لم ينته خطر الخوارج في العصر العباسي الأول ، فقد كانت لهم ثورات يذكونها بين الحين والأخر ففي سنة ٢٢٥ هـ خرج " مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري البجلي الخارجي " على والي الموصل في عهد الخليفة المستعين بالله " وهزم جيوش العباسيين واستولى على الموصل وأتخذها دراً للهجرة له ، على أن سرعان ما ساد الانشقاق والخلاف بين الخوارج على إثر حدوث بعض التطورات الفكرية والعقائدية عند هؤلاء من المعتدلين وهي : قبول توبة الخاطئ ، وعدم تكفيره وقبول توبته ، على حين تمسك البعض الأخر منهم بخلاف ذلك ، فكفر بعضهم البعض ، ولذلك نجد أن أبا عبيده زعيم الخوارج يتمسك بمبدأ تكفير العاصي ، ويخرج على أعوانه منهم ويقاتلهم حتى قتل ، وذكر المؤرخ أبن الأثير في حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن عليا بن مساور ، وطوفا الزهيري الخارجين ، خرجا في أربعة آلاف رجل وعاثا في البلاد الفساد ، وذكر الطبري في تاريخه أيضا في حوادث سنة ٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى الخوارج ، وأن الحروب قامت بينهم ولما مات مساور سنة ٢٦٣ هـ خلفه في زعامة الخوارج " أيوب بن حيان الوارقي البجلي " وقام نزاع

بينه وبين محمد بن خرازد ، وقتل أيوب ، فألت الزعامة إلى محمد بن عبد الله بن يحي الوارقي ، ولكنه قتل أيضا . فبويع هارون بن عبد الله البجلي فكثر أتباعه وأنصاره من الخوارج ، ودارت الحروب بينة وبين علي بن خرزاد فأنتصر عليه وأستولي على الموصل وجبى خراجها ، وصدوا بني شيبان عنها سنة ٢٧٢ هـ ، وصدوا كذلك جيوش العباسيين بقيادة يوسف بن أبي الساج في سنة ٢٧٩ هـ .

على أن أمر الخوارج أخذ في الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم ، فقد أنشق على هارون زعيم الخوارج ، محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزه ، وحدثت بينهم حروب قوية وشديدة الأمر الذي أتاح الفرصة أمام خصومهم العباسيين من قتالهم وقتلهم ، إذ استطاع عامل الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩) هـ أن ينتصر على محمد بن عبادة الخارجي وأن يسوقه إلى دار الخلافة ، كذلك استطاع عامل الخليفة العباسي أن ينتصر على هارون الخارجي بالموصل سنة ٢٨٢ هـ فقتل وصلب وقد نادى بأعلى صوته " لا حكم إلا لله ولو كره المشركون " وقد كان هارون البجلي هذا خارجياً صفراوياً [(١)]

على أن تطوراً أخر طرأ على الخوارج ببلاد المشرق وبصفة خاصة في اليمن وعمان ، فقد أنتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا في سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد ، فأقصوا عمال اليويهيين عنها ونشروا الأمن فيها ، وأظهر أبن راشد الخال ، العدل ، وأسقط المكوس ، واقتصر على رفع عشر ما يرد عليه،وخطب لنفسه،ولقب بالراشد بالله ، وليس الصوف وبني مسجداً . [(٢)]

على أن التشدد في الأصول العقائدية والسياسية عند الأزارقة من الخوارج لم يكن يصلح لبعض الفرق والفروع الأخرى منهم ، والذين طرأت على عقائدهم وأصولهم بعض التعديل والتطور ، وبصفة خاصة ما طرأ من تعديلات وتطورات في فكر النجدات ، والإباضية ، الأمر الذي أدى إلى ازدياد

١ـ دكتور ـ حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ـ جـ٣ (العصر العباسي الثاني) ـ ص ٢٠٧١ ، ص٢٠٨ ، ط ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٨٧ م .

٢ـ المصدر السابق ـ صـ٢٠٩ .

الفرقة بينهم وعجل باستئصال شأفتهم من ربوع الدولة الإسلامية أو ازدياد تشردهم في بلاد أخرى ، ازدادوا فيها ضعفاً واضطهاداً فقد أتم الحجاج بن يوسف الثقفي تأمين غربي بلاد العرب ، وتولى ولاية العراق سنة ٧٥ هـ ، وثبت الحجاج المهلب بن أبي صفرة ، في قيادة العمليات الحربية ، وأمر بالمضي في قتالهم فوراً، وبدأت سلسلة طويلة من الحملات شنها المهلب على الأزارقة ، أدت إلى إقصائهم شيئاً فشيئاً إلى أطراف الإمبراطورية الإسلامية ، إلى أن دب بينهم الخلاف أيضا وصار بينهم قوادهم أو زعمائهم قتال ضاري عجل بانتهاء ثورتهم التي كانت من دون فتن الخوارج جميعاً أشدها خطراً على وحدة الدولة الإسلامية ، وأعظمها هولاً بما أتسمت به من تعصب وحشي [١]

إذ بينما ذهب الأزارقة إلى تكفير جميع المسلمين ما عداهم ، وبراءتهم من القعدة وتكفيرهم [٢] وتكفير كل من لا يهاجر من المسلمين عليهم ، وقتل نساء مخالفيهم وأطفالهم ، والبراءة من الإسلام لكل من يجيز التقية قولاً وعملاً ، .. وهكذا ، إذ يذهب فريق من النجدات الخوارج إلى التخفيف والتطور لهذه المبادئ ـ تذهب إلى حد الاعتدال ، فنجد النجدات من الخوارج قد أباحوا : أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمرأن ، معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما عداه فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة ، وربما كان للإباضية منهم تطوراً اكثر اعتدالا من هؤلاء وأولئك ، الأمر الذي أدى لانتشار مذاهبهم ، ببلاد المغرب العربي أو بعض بلدان الشرق الإسلامي والعربي.

فالإباضية : لم يغالوا في الحكم على مخالفيهم ـ كالأزارقة مثلا، بل كانوا أميل إلى المسالمة والاعتدال في الرأي ، والتطور في فكرهم العقائدي والأصولي السياسي ، الأمر الذي أتاح لهم فرصة التواجد في الساحة السياسية والفكرية العربية والإسلامية ، وأستمر ذلك حتى العصور الحديثة .

١ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ جـ ١٧ ـ إبراهيم زكي خورشد ، أحمد الشنتناوي وغيرهم ـ ص١٦٦ (مادة الازارقة) ط دار الشعب ـ حديثة بدون تاريخ .

٢ـ القعدة : أي الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه ، ولو كان هؤلاء القعدة على مذاهبهم أي من الخوارج .

ولأهمية ذلك نود هنا أن نفرد شيئا من التوضيح ، لنتبين مدى التطور الفكري والسياسي لدى الإباضية – على أننا سوف نخصص فصلا كاملا لاستعراض هذا المدى لدي كل من الإباضية والصفرية من الخوارج بشمال إفريقيا والمغرب العربي.

وعلى ذلك يذهب الباحثون والمؤرخون إلى أن فرق الخوارج ظلت في تشتت وتشرزم وقتال في عصور الأمويين والعباسين ، وضعف شأنهم وهنت شوكتهم " إلا من رحل منهم إلى شمال إفريقيا ، وهم : الصفرية والإباضية فعادوا إلى السياسة مرة أخرى ، وأحتفظ الإباضية حتى اليوم بكثير من آرائهم ومعتقداتهم ، وإن أصبحت الخلافة غير ذات موضوع وهناك بقايا أخرى قليلة من الخوارج في عمان ومسقط وزنجبار " [١]

كذلك لم يرو المؤرخون عن الخوارج مذاهب فلسفية ، ولا فقهية واسعة أو منتظمة [٢] ولا نحو ذلك إلا ما كان من الإباضية ، فإن هذه الفرقة عاشت وأنتشر في شمالي أفريقيا و في عمان وفي حضرموت وزنجبار واستمرت إلى يومنا هذا فكان من الطبيعي أن يكون لهم أصول اعتقاديه وتعاليم فقهيه كذلك كانت تعدل من أصولها و أفكارها المذهبية مع الزمان .

فلهم أصول كلامية متأثرة إلى حد كبير بمذهب المعتزلة في القول بخلق القرآن و أن الله لا يُرى في الجنة و الله لا يغفر الكبائر ، وقالوا أيضا : بجواز الزواج من غيرهم المخالفين لمذهبهم ، بعد أن كانوا يحرمونه من قبل ، وبتوارث الخارجي وغيرة ، ونفوا قتال غير الخوارج أو سبيهم غيلة ، ولا يجوز إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال . [٣]

يضاف إلى ذلك أن الإباضية يعتقدون أنهم وحدهم الفرقة الناجية ، وليس بضروري أن يكون الإمام من قريش ، بل نكتفي أن بكون صالحا وورعا ، وأن

---

١ - دكتور إبراهيم بيومي مدكور - في الفلسفة الإسلامية - جـ ٢ - ص ١١٠.

٢ -ربما لم تصل إلى الباحثين والمؤرخين معظم مؤلفاتهم أو كتاباتهم الأصولية والفقهية اللهم إلا نتف ومناظرات فيما بينهم أو بين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى قليلة ومبثوثة في بطون الكتب لكثرة حروبهم

٣- - احمد أمين - ضحى الإسلام - جـ٣ - ص٣٣٧

يحكم طبقا للقرآن و السنة ، كذلك يقرون أن الله يغفر الصغائر ، و أن الكبائر لا تمحوها إلا التوبة و إن الثواب و العقاب في الآخرة أبديان .

هذا وقد أشتهر الإباضية بالجزائر بالمحافظة علي الفضائل الخلقية وقد لا يختلطون بأهل السنة كثيراً ، وقد يختلط بهم بعضهم مع بعض[١]

ويجب أن تشير هنا إلى أن الإباضية بشمال إفريقيا والمغرب العربي ، ما زال لهم صلات قوية مع الإباضيين في عمان وزنجبار ، وإن كانوا قد انقسموا إلى ثلاث فرق سياسية ودينية على السواء هي : النكارية والخلفية ، والنفاثية ، وإن كنا سنبحثهم بالتفصيل والتحليل فيما بعد ، لكن النكارية فهم كان لهم شأن في تاريخ الفتن الإفريقية ، لا تزال تمثلهم حتى الآن جماعات صغيره في" جربة ، وزواغة- طرابلس " ، ومن الطبيعي أن يعارض الإباضية بشدة في اتهام أهل السنة لهم بالمروق وهم يزعمون أنهم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة ، ويدعون أن فرقتهم هي الفرقة الناجية - ونشروا كذلك عدة مبادئ هامة أخرى بالإضافة على ما سبق ، من واجب كل مسلم أن يعمل المعروف وينهى عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وفرض على المسلمين الاعتراف بوحدتهم والتعبير عن هذه الوحدة بالقول والعمل ، والفرد الذي يخرج عن شرائع الدين حق عليه الحرمان من صداقة إخوانه في الدين ، ويعامل معاملة العدو إلى أن يقوم بفروض التوبة . [٢]

على أن بعض الكتاب المؤرخون - الذين تناولوا ظاهرة دخول الخوارج شمال إفريقيا وبلاد المغرب العربي ، لا يحددون بالضبط مواقيت وزمان هذا الدخول ، بل يشيرون إلى تغلغل مذاهب الخوارج من الإباضية والصفرية ، وانتشار عقائدهم السياسية بصورة واضحة وأساسية ، نتيجة لعدة عوامل هامة ، منها أن الثورة التي أشعلها الخوارج بالمغرب منذ سنة ١٢٢ هـ لا تتمثل في شكلها السياسي فحسب ، بل تكمن في طابعها الديني ، فالثورة

١- احمد أمين - ظهر الإسلام - جـ٤ - ص٢٣٦ ،ط مكتبة النهضة المصرية ،١٩٨٢م .كذلك أحمد أمين - فجر الاسلام – صـ٢٦٠ ، صـ٢٦١.

٢- دائرة المعارف الإسلامية - جـ ١ - ص١٢٩ (المادة الإباضية) - محمد زكي خورشد ، وأحمد الشنناوي وأخرون - ط الشعب

رفعت شعار المساواة بين جميع المسلمين دون أية تفرقة عنصرية ، وهو المبدأ الذي تركز عليه أفكار الخوارج لقد وجد البربر في مذهب الخوارج الذي يدعوا إلى المساواة التامة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم ، وإلى الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول ، رابطة معنوية تؤلف بينهم ضد العرب الذين أساءوا السيرة فيهم ، كما وجدوا فيه قاعدة شرعية للخروج على الخلافة ، بعد أن شكك في صحة تصرفاتها من الناحية الدينية ، وخاصة بعد أن جعل أساسه السياسي ، أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ،[1]

ولعل مذهب الإباضية ، يمثل في الحقيقة آخر تطورات فكر الخوارج ، فبعد تعصب الأزارقة – و هم الذين كفروا غيرهم من المسلمين ، و أباحوا دمائهم ، خفف الإباضية من قسوتهم ، و تطرف مبادئهم الغالية ، و أصولهم الفكرية و السياسة و العقائدية المتطرفة ، تلك الأصول التي جعلت جمهور المسلمين ينفروا منهم ، ويشتطوا في حربهم و القضاء عليهم ، و أستئصال شأفتهم من ربوع الدول الإسلامية أو العربية ، و قد ظهرت فرقة خارجية أخرى بالمغرب العربي و شمال أفريقية ، بجانب فرقة الإباضية أنفة الذكر و هي : الصفرية ، و قد سبق عرض أهم مبادئ وأحوال هذه الفرقة في بلاد المشرق العربي ، لكن رجالها رحلوا مع من رحل من رجال الإباضية إلي المغرب العربي ، و استقروا هناك و كانت لهم دولتهم و مبادئهم ، و كانت هذه المبادئ معتدلة إلى حد كبير بالمقارنة بالازارقة أو النجدات أو المحكمة الاولى ، فاصفرية في تطورهم الأخير لمذهب الخوارج لم يرموا غيرهم من المسلمين بالشرك ، بل و قفوا منهم موقفاً وسطاً بين التساهل و التشدد ، و قبلوا مبدأ التقية و هو يعنى كتمان العقيدة أو المبدأ ، كذلك لم يروا دار المخلفين لمذهبهم دار حرب ، و أن ظهر لديهم بعض القسوة و سبي النساء و المسلمين.

و قد ازداد اعتدال الخوارج إلى حد كبير علي مرور الزمن و الأيام ، وظهرت جماعة منهم لم تكفر المسلمين تكفيراً مطلقاً ، بل أشاروا إلي ما يسمى

---

١ - دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - ص٢٥٢ ، ص٢٥٣ ، ط دار المعارف - بدون تاريخ .

بكفر النعمة ، و لذالك حرموا دمائهم و سبي نسائهم و هؤلاء كما أشرنا إباضية المغرب العربي . [١]

هذه هي أهم ملامح التطور لدى فرق الخوارج ، المتأخرين ، وسوف يكون لنا وقفة أخرى مع هؤلاء في فصل خاص بالمغرب العربي .

١- نظرنا في ذلك : المصدر السابق - ص٢٨٦، ص٢٨٨ كذلك الشهرستاني الملل و النحل - ج١ - ص ١٣٧ ، ص١٣٨. و قد سبق عرضنا لمذاهب الصفرية والإباضية من قبل .

الفصل الخامس

الأصول السياسية والعقائدية
عند الخوارج

"الفصل الخامس "

" الأصول السياسية والعقائدية عند الخوارج "

أولاً: أصولهم السياسية :-

١- منطلق الخوارج " حزبي وسياسي " :-

تناولنا في الفصل السابق بالتحليل والدراسة نشأة الخوارج وفرقهم وتطورهم عبر العصور المختلفة . وعرضنا ما بين فروعهم من تباين واختلاف في فكرهم الديني والسياسي ، وما دار بينهم من حروب وقتال وبين خصومهم ، واتضح لنا عدم الاتساق المنهجي فيما بينهم ، إذ سرعان ما يختلفون ، ويخرج بعضهم على بعض ، ويحدث انشقاق بين لحمتهم فيسارع كل فرع لتكفير الآخر وتكوين فرقة له ويدعو أصحابه لمبايعته أميراً أو إماماً عليهم . ونتيجة لذلك ظلوا في حروب وشتات فيما بينهم وبين بعضهم أو فيما بينهم كحزب سياسي أو ديني وبين خصومهم من خلفاء بني أمية والعباسيين بعدهم ، فلم يتسع لهم الوقت لتدوين معظم أراءهم وأصولهم العقائدية ، أو فكرهم السياسي بصورة ونسق متكامل ، اللهم إلا بعض الاجتهادات في الأصول أو الفروع ، بالإضافة إلى نظريات فكرية جافة عن نظم الحكم والسياسة ، وقد جاءت نثرياتهم وأشعارهم الأدبية بطريقة رصينة لا تخلو من البلاغة والجفاف أحيان كثيرة .

ونحن هنا قد لا نجد تلك الأنساق الأصولية والفقهية أو السياسية المتكاملة ، إذ لم يتركوا هذه الآثار نتيجة للعوامل أنفة الذكر ، بل يعثر عليها الباحثون مبثوثة في بطون كتابات المؤرخين وأصحاب الطبقات والفرق بالإضافة إلى مؤلفات خصومهم من أهل السنة ، والشيعة أو المعتزلة .

وقد نستطيع أن نستنبط كما استنبط المتقدمون من العلماء في التاريخ والمذاهب . أنساق الخوارج الدينية والسياسية من نثرياتهم ، ومناظراتهم لبعضهم البعض أو لخصومهم ، وأشعارهم المتناثرة في بطون الكتب والمذاهب .

ونحن هنا نود أن نتناول بالتحليل والنقد أصولهم العقائدية أو السياسية ، حتى نستطيع أن نحقق الصلة بين الجانبين في فكرهم المذهبي ، ونجيب على السؤال الذي يلح في أذهاننا : هل استطاع الخوارج وفرقهم المختلفة أن يقيموا مذاهبهم السياسية على أصول دينية عقائدية ؟ وبالتالي لم تعجزهم الحيلة في تأييد فكرهم ونظرياتهم الحزبية السياسية بأدلة من النصوص القرآنية والسنة النبوية ، وتأولوا على هذه الاتجاهات والمبادئ السياسية النصوص والأحاديث بما يخدم أغراضهم المذهبية ؟ أم أنهم عولوا على الدين ونصوص القرآن الكريم وأحاديث السنة الشريفة ومن ثمة يكون منطلقهم ديني عقائدي قبل أن يكون سياسي حزبي ؟

وبمعنى آخر : هل كان منطلق الخوارج ، وخروجهم على الإمام عليّ رضي الله عنه وشق عصا الطاعة – نابعاً من مرتكز سياسي حزبي ؟ أم كان منطلقهم وخروجهم على أصول دينية أو عقائدية وفقهية ؟

مما لا شك أننا إذا استطعنا أن نجيب أو نوجد إجابات لهذه التساؤلات ، من خلال التحليل النقدي لأصولهم الدينية أو العقائدية والسياسية ، فإننا بذلك نكون قد حسمنا أمراً هاماً وخطيراً في تاريخ الحركات السياسية والمذهبية في الإسلام . منذ البواكير الأولى ، وبصفة خاصة أن الخوارج أول حزب سياسي ومذهبي في تاريخ الإسلام العقائدي والسياسي . لقد عاصر شيوخهم وكبار زعمائهم – كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، بالإضافة إلى التابعين لهم بإحسان ، وكان معظم هؤلاء الخوارج وزعمائهم المتقدمين من جلة وخيار القراء والحفاظ والورع . إنهم أهل صلاح وتقوى وإيمان ودين ، أقوياء في التمسك بحرفية الدين ، ونصوص القرآن الكريم ، وإن لكل حجة لديهم ما يناظرها من نصوص القرآن الكريم أو الحديث الشريف .

وقد نستطيع أن نخرج من تحليلنا النقدي لأصولهم العقائدية الدينية . أنهم لم تنطلق خلافاتهم على عليّ رضي الله عنه وخروجهم عليه بناءً على خطأ ديني أو عقائدي أو فقهي ينسب إليه ، فلم يكن الإمام عليّ رضي الله عنه وكرم الله وجهه ليخطأ في مسألة أو قضية فقهية أو عقائدية أصولية قط ، وقبل أن يقبل

بمبدأ التحكيم والذي فرضوه عليه مكرهينه عليه ! وهو في أكثر من موضع يبرئ نفسه منهم ، ومن الحكم والتحكيم والحكمين أيضاً ، شأنه في ذلك شأنهم أنفسهم أيضاً ! يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الخوارج كانوا شيعة عليّ وأنصاره في صفين ، وموقعة الجمل ، ولم يخرجوا عليه في مسألة دينية أو فقهية ، بل على مسألة سياسية تتعلق بأصول الخلافة والحكم والإمامة !

والدليل على ذلك أيضاً : أن الخوارج – وكما سنبينه فيما بعد – لم يكفروا عليّ ولم يكفروا عثمان ، في سنينهم الأولى للخلافة بل تولوا : خلافة الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر ، ثم عثمان قبل الفتنة ومقتله ، وعليّ قبل قبوله بمبدأ التحكيم!

يضاف إلى ذلك أن تكفيرهم لأصحاب الجمل طلحة والزبير ومن سار معهم من أصحابهما في خروجهم على إمامة أو خلافة عليّ رضي الله عنه ، لم يكن يحدث لو لم يخرجوا ويشقوا عصا الطاعة على إمامته ، وقد صحة بيعته - وصار خليفة للمسلمين حيث تمت البيعة بالمدينة دار الخلافة لمن سبقه من الخلفاء - وفي حضور أهل الحل والعقد من كبار الصحابة الحاضرين بالمدينة من المهاجرين والأنصار ، كذلك لم يكفروا معاوية (٤٠ – ٦٠)هـ ولا عمرو بن العاص وأصحاب صفين ، لو لم يشقوا عصا الطاعة على الإمام عليّ وينكروا خلافته .

أذن ، يمكن أن نقول ، أو نستنبط أن المنطلق عند هؤلاء الخوارج كان منطلقاً سياسياً ، حزبياً ، حدث من تلقاء الحادثة ، وجرى بمحض صدفة الواقعة ، رفع المصاحف وطلب التحكيم والنزول على حكم الله - وما جاء بكتاب الله عز وجل !

ويمكن أن نضيف إلى هذا التحليل النقدي السابق ، أن الخوارج جميعهم لم يطعنوا في خلافة وبيعة عثمان رضي الله عنه في الست سنوات الأولى من خلافته ، وإنما قدحوا في خلافته وإمامته في السنوات الست الأخيرة من إمامته ، بعدما ثارت ثورة الثائرين على سياسته ، في الولاية لأقرباءه ومعاونيه منهم ، بالإضافة إلى سياسته المالية في الأعطيات والإقطاعيات فلم يقدح الخوارج أو

زعمائهم في عقيدة أو دينة وفقهه ، إذن نلاحظ ، أن ثورة الخوارج وثائرتهم على عثمان وعليّ ورفضهم لنتيجة التحكيم ومعاوية وأهل صفين والجمل كانت على أصول سياسية – مؤيدة ومستنبطة على أصول عقائدية أو فقهيه !

فأساس الخوارج أساس سياسي حزبي ، قبل أن يكون على أسس عقائدية دينية أو أصولية فقهيه !

وبناء على هذه التحليلات المبدأية .. نحاول أن نضع أصولهم السياسية والعقائدية والفقهية في قوالب محددة - وأنساق مترابطة بين النظر والعمل ، أو بين الإيمان والعمل .

٢- الخلافة والبيعة : -

لا نريد هنا أن نستعرض الحديث عن معنى الخلافة ، وطريقها ووسائلها وظروفها وملابسات البيعة وخصائصها وما إلى ذلك ، فقد سبق عرض ذلك في الفصول السابقة ، وأبن خلدون أفرد لذلك صفحات مطولة ولكننا نزيد هنا أن نغوص في أعمال هذه المسألة الخطيرة عند الخوارج ، وبصفة خاصة في العصر الأول للإسلام ، وكذلك نتناول بالتحليل والنقد ما وراء هذه المسألة عند هؤلاء ونكشف عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذا الانشقاق الدامي بين الصحابة وأنصارهم ، ولكي نعرف المغزى الحقيقي وراء انشقاق الخوارج وخروجهم على عليّ ، وهم كانوا شيعته وأنصاره في سيرته منذ بيعته بالمدينة وحتى اشتراكهم معه في حرب الجمل وصفين.إلى أن بدأت فتنة التحكيم ، وقبول عليّ لمبدأ التحكيم والحكمين على مضض!

نقول أو نتسائل : هل كانت الظروف السياسية والدينية والبيئة الاجتماعية والاقتصادية في وقت ظهور هؤلاء الخوارج مهيأة لهذا الانشقاق ؟

وهل سبق هذا الخروج على الإمام عليّ رضي الله عنه وقائع وملابسات شجعت هؤلاء من زعمائهم على شق عصا الطاعة عليه ؟ أم كان لدى زعمائهم وهذه الطائفة أفكاراً وغرائز والتماس أسباب لمجرد شرارة كالتحكيم مثلاً لهذا الخروج ؟

بل نقول في تساؤل أخير - هل كانت في نفوس زعماء هؤلاء الخوارج من أنصار علي وبعد خوضهم بجيوشهم وأتباعهم حروباً دامية معه ، فكرة التحرر ، في اختيار الإمام ، أو بيعة من تتوافر فيه شروطها بغض النظر عن مبدأ القرشية ، أو العروبة أو حتى مبدأ أن يكون المختار للإمامة حراً أو عبداً حبشيا أو إسلاميا ؟

من هنا ، نبدأ فتح باب الحوار والجدل والمناقشة لآراء ونظريات الخوارج في مسألة الخلافة والبيعة أو لمن تكون ، وكيف تكون ولماذا ؟

سبق أن تعرفنا على ثورة بعض المسلمين من المهاجرين والأنصار من كبار الصحابة وعدم رضائهم عن سياسة عثمان رضي الله عنه في الأمور السياسية والاقتصادية وهذه الأمور تتعلق بمصالح الأمة لا بدينها ، حيث أنه كان يولي أقرباءه الولايات ، ويقطعهم القطائع ويخص بعضهم بالأموال ... الخ وقد خرج عليه عامة المسلمين وبعض الصحابة وحدثت الثورة عليه وطالبوا بعزله أو اعتزاله وحدثت الفتنه وانتهت بقتله رضي الله عنه .

وتعتبر هذه أول فتنة في الإسلام يحدث فيها خروج على الإمام والخليفة ولعل هذه الحادثة تركت أثراً في نفوس المسلمين ، وحركت المغازي والأفكار لاحتمال أو جواز الخروج على الإمام لمجرد الاستشعار منه الجور أو انتقاص العدالة في الأسباب المصلحية الدنيوية، وإن لم تكن دينية أو عقائدية أو شرعية ، حيث أنهم لم يخطئوه في أمور تتعلق بالدين والعقيدة .

وقد أقر الخوارج بهذا المفهوم - ولذلك كان هؤلاء الخوارج وزعمائهم مؤيدين لخلافة عليّ وبيعته صحيحة عندهم رغم تخلف بعض كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار عن البيعة لعلي إما انتظارا لحسم مسألة المطالبة بدم عثمان والثأر من قتلته ، وإما لتفرق بعضهم في الأمصار والأقطار حين حدوث الفتنة ، ومبايعة علي .

ولهذا قاتلوا معه الناكثين لعهودهم من أصحاب الجمل طلحة والزبير ومن كانوا في ركابهم - مقتنعين أنه على الحق ، وهو الإمام على الحقيقة لبيعته من قبل أهل الحل والعقد بالمدينة ، ومن ثم وجب على زعماء الخوارج

مناصرته ، وهذه أيضا تتعلق بمصلحة سياسية تتعلق بالجماعة وتماسك أوصالها ، خوفاً من فرط عقد المسلمين وعلى ذلك فإن الخوارج تولوا علياً ، إلى أن حدث التحكيم فتبرؤا منه ، وخرجوا عليه ، وكفروه ، كما سبق تكفيرهم لعثمان في سنواته الست التالية لإمامته وكذلك أصحاب الجمل وصفين من بعد ذلك ، فإذن - الخلاف هنا - والخروج - يتعلق بأمور سياسية من الدرجة الأولى ، ولم تظهر عوامل دينية أو عقائدية ، إلى أن مزجوا ذلك بالأمور العقائدية وتأولوا النصوص عليها فيما بعد.

ونذكر في هذا الصدد نصاً ورد عن بعض زعماء الخوارج يذكر الشهرستاني " أن عروة بن حدير (وهو أول زعماء الخوارج) نجا من حرب النهروان وبقي إلى أيام معاوية ، ثم أتى إلى زياد بن أبيه ومعه مولى له فسأله زياد عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال فيهما خيراً ، وسأله عن عثمان رضي الله عنه ، فقال كنت أوالي عثمان على أحواله في خلافته ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها ، وشهد عليه بالكفر ، ثم سأله عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، فقال كنت أتولاه إلى أن حكم الحكمين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه فقال : أولك لزانية ، وأخرك لدعوة ، وأنت فيما بينهما بعد عاص ربك ، فأمر زياد بضرب عنقه ، ثم سأل زياد مولاه فقال له : صف لي أمره وأصدق قال مولاه : ما أتيته بطعام في نهار قط ، ولا فرشت له فراشاً بليل قط ، هذه معاملته واجتهاده ، وذلك خبثه واعتقاده " [1]

إذن فمسألة التكفير عند هؤلاء الخوارج ، إنما تتعلق بالأمور المصلحية أو السياسية التي تنوط بالأمة ، وما يترتب عليها من البيعة والخلافة ، والتي ينضوي تحتها من أصول عقائدية ، وردت إشارات أو نصوص عليها في القرآن الكريم وتأولوها على أساسها ، فالولاية أو الخلافة تتعلق بالحكم ، والحكم بما أنزل الله ، لذلك أوجدوا صلة وثيقة بين الجانبين السياسي والعقائدي فيما بعد ، كذلك وجدناهم قد ثاروا وغضبوا بعد الحكم على عليّ رغم أنه ناشدهم وناظرهم

١- الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ ص١١٨ .

في هذه المسألة ، حيث أنه لم يرض بالتحكيم كمبدأ أولاً ، وهم الذين أرغموه على قبوله ، وثانياً : أنه لم يرض عن نتيجة التحكيم ورمى كل من الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، بالضلال ، إلا أن الخوارج عاتبوه بعد ذلك قالوا له : إنك قد حذفت أسمك من إمارة المؤمنين ، رغم أنك أمير المؤمنين حقاً للبيعة التي بايعك عليها الصحابة بالمدينة وعلى أساسها خرجنا معك وناصرناك في حرب الجمل (الناكثين) وصفين (القاسطين) وعلى ذلك فإن المصادر التاريخية تطالعنا ـ وكما ذكرنا فيما سبق ـ أن أول سيف سل من سيوف الخوارج سيف عروة بن حدير ، وذلك أنه أقبل على الأشعث بن قيس فقال : ما هذه الدنية يا أشعث ؟ وما هذا التحكيم ؟ أشرط أحدكم أوثق من شرط الله تعالى ؟ ثم شهر السيف وضرب به عجز بغلة الأشعث . وكما ذكرت المصادر أيضاً أن عبد الله اليشكري : صاح في معسكر صفين وشهر سيفه فصرع رجلاً ، ثم استدار وصاح في معسكر عليّ وصرع رجلاً أخر وهو يقول : كفر الحكمان ، لا حكم إلا لله " [١]

ولذلك نرى أن كلام الخوارج كان يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمناً ومن لا يكون [٢] إستنادا إلى هذا المبدأ ، وهذه القاعدة التي أوجبوها ودار حولها النقاش والجدل والخلاف

ومما يؤيد وجهة نظرنا هنا ، أن كثيراً من الباحثين ـ في تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية يؤكدون على أن الخوارج كانوا أول الأمر حزباً سياسياً ، لا يعدو بحثه مسألة الخلافة ، وما يتصل بها ، فأقروا بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي قبل تحكيم الحكمين ، كما أن صبغتهم منذ نشأتهم صبغة سياسية خالصة ، بخلاف ما ذهب إليه بعض المستشرقين أمثال نيكلسون ، الذي يرى أن الدفاع الأصلي للخوارج عن تلك الحركة وتركهم جند عليّ إنما هو دافع ديني رغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي ، وظلت هذه الصبغة

١ـ ذكرنا ذلك بالتفصيل فيما سبق ـ راجع الفصل السابق .
٢ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢٥٨ .

السياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا آراءهم السياسية بالأبحاث الدينية ، وربطوا بين الإيمان والعمل ، إذ أن العمل بأوامر الدين من صلاة أو صيام وصدق وعدل جزء من الإيمان ، وهكذا [١]

وإذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل خطورة وشدة عن أفكارهم السياسية ، فقد كان لتعصبهم السياسي أثر كبير في وجهة نظرهم الدينية أيضا ، ولذلك نلاحظ في خطبهم وكلماتهم الموجهة لأصحابهم ولخصومهم وردودهم على خطاب عليّ رضي الله عنه لهم ، تمتاز بالقوة ، والحدة السياسية .

فقد كتب عليّ رضي الله عنه كتاباً إلى الخوارج يحثهم فيه على اللحاق به لمواصلة حربة ضد معاوية وأنصاره ، رافضا لحكم الحكمين متصفاً كلاهما بالخطأ وأتباعهما الهوى ومخالفتهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال " أما بعد : فإن هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين اللذين ارتضيتموهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هوهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا للقرآن حكما فبريء الله منهما ورسوله ﷺ وصالح المؤمنين ، فإذا بلغكم كتابنا هذا فأقبلوا إلينا ، فأنا سائرون على عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الذي كنا عليه ، فكتبوا إليه : أما بعد : فإنك لم تغضب لله ، إنما غضبت لنفسك ، والله لا يهدي كيد الخائنين " [٢]

وإذ تأملنا كلمات زعماء الخوارج - وخطابهم لأصحابهم - بعد انفصالهم عن معسكر علي ، وخروجهم عليه وقتاله ، نجد أنها تدور حول أمور سياسية ، تتعلق بأصول الحكم ، والولاية أو الإمامة ، ففي خطبة لعبد الله بن وهب الراسبي وهو أول مَن بايعه الخوارج بالإمامة عليهم - قال موجهاً خطابه للناس " ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينسبون إلى حكم القرآن أن تكون لهذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق ، فأخرجوا بنا

١- دكتور - حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني - جـ ١ - ص٢٩٧ ، ص٢٩٨ .
٢- أبن قتيبة - الإمامة والسياسة - جـ ٢ - ص٢٢٨ ، ص٢٢٩ .

من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض المدائن منكرين لهذه البدعة المضلة والأحكام الجائرة " (١)

ثم جاء في خطبة لرجل أخر منهم - حرقوص بن زهير البجلي - مخاطباً القوم " يا قوم إن الرأي ما رأيتم ، والحق ما قد ذكرتم ، فكلوا أمركم رجلا منكم فأنه لا بد لكم من عماد وسند ومن راية تحفون حولها ، وترجعون إليها " (٢)

والحديث هنا يشير إلى ضرورة مبايعة رجل منهم ، إمام عليهم ، وراية ليستظلون بها ويحفون حولها كرمز لجهادهم ، وإشارة تميزهم ، وهذا ما حدث بالفعل حين بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي كإمام عليهم ، والبيعة تعني " العهد على الطاعة ، كأن المبايع يسلم لأميره الذي يعاهده النظر في أمر نفسه والمسلمين " (٣)

وفيما ذكرنا كذلك ، أن من طريقتهم أن يمزجوا بين نظرياتهم السياسية والنصوص الدينية متأولين النصوص عليها ، لذلك ذهب أحد زعماءهم يدعى - زفر بن حصين الطائي فقال وهم يرددون معه " إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق والجهاد في تقويم السبيل ، وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه السلام ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ سورة ص آية (٢٦) . وقال تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ المائدة (٤٤) (٤)

ومن خلال تحليلنا لهذه العبارات ، نلاحظ أن الخوارج يعضدون أفكارهم السياسية بالنصوص القرانية . ثم يرون مبايعة أحدهم لولاية قومهم كإمام عليهم وهذا ما حدث بالسبة لفرقة المحكمة الأولى ، وسوف نجدهم فيما بعد لا يرون حاجة إلى إمام . ولا إلى حكم ، إلا الله .

---

١ - المصدر السابق - ص٢٢٤ ، ص٢٢٥ .
٢- نفس المصدر السابق - ص٢٢٥ - ص٢٢٦ .
٣- أبن خلدون - المقدمة - ص٢٠٩ .
٤ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص٢٢٦.

لقد وضع الخوارج نظرية للخلافة : وهي أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا أختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ، ولو كان عَبداً حبشياً ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله به وإلا وجب عزله ، ولهذا أمروا عليهم من اختاروه منهم ، وسموا عبد الله بن وهب الراسبي أمير المؤمنين ولم يكن قرشياً ، وإنما هو من " راسب " وهو حي من الأزد ، وكذلك أمراؤهم من بعده ، وقد خالفوا بذلك نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة (الإمامة) في بيت ﷺ :الإمام علي وآله ، وأهل السنة القائلين بأن الخلافة في قريش.

ولعل هذه النظرية هي التي دعتهم إلى الخروج على خلفاء بني أمية ، وخلفاء بني العباس ، لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليهم شروط الخلافة على مذاهبهم .[١]

وإن ظلت نظرة الخوارج هذه تنطبق على خلفاء الأمويين ، كما أنها تنطبق على خلفاء العباسيين ـ طيلة تاريخهم السياسي ، وحتى العصور المتأخرة ـ في عصر الإباضية والصفرية منهم ببلاد المغرب العربي وشمال أفريقيا أيضاً .. وإن تحولت نظرتهم من نظام الاختيار بالبيعة الحرة إلى الأخذ بنظام الوراثة ، كما كان متبعاً عند الشيعة وبني أمية والعباسيين ، فقد كان يعهد إمام الإباضية أو الصُفرية منهم لأخيه أو أبنه من بعده [٢] وكذلك قولهم بجواز ولاية المرأة للامامة وربما كانت حجتهم في الخروج على الأمويين والعباسيين في عصورهم ، إلى نظرتهم المذهبية ، بأنهم لا يصلحون للإمامة أو الخلافة ، إذ لم يختر أحد من خلفائهم اختياراً حراً وصريحاً ، أو أن البيعة كانت تؤخذ من عصبيتهم باعتبارهم أهل الحل والعقد من القرشيين ،" ولم يستوف هؤلاء الخلفاء الشروط التي يجب توافرها في الإمام ، لذلك يجب الخروج عليهم ، ومقاتلتهم أو عزلهم إن أمكن ، أو قتلهم كذلك " [٣]

١ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢٥٨ ، ٢٥٩ .
٢ سوف نوضح ذلك بالتفصيل في الفصل القادم (عند فرقتي الأباضية والصُفرية) .
٣ أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ جـ٣ ـ صـ٣٣٧ .

٣- التحليل النقدي لنظرية الخوارج في الخلافة " الإمامة " :-

تناول كثير من الكتاب والعلماء بالفرق والمذاهب - نظريات الخوارج في مسألة الخلافة والإمامة بالتحليل والنقد ، ولقبوا ما جاؤا به من أفكار تعتبر غريبة علي البيئة السياسية والدينية الإسلامية والعربية في عصرهم ، بأنها بدع ومخالفات خطيرة لا تستقيم مع ما شرع له الإسلام ، بالإضافة إلى ما اجتمع عليه جمهور المسلمين ، يذهب الشهرستاني إلى اعتبار خروجهم في الزمن الأول كان على أمرين :

أحدهما : بدعتهم في الإمامة إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش ، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل وأجتناب الجور كان إماما ، ومن خرج عليه نصب القتال معه - وإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله ، وهم أشد الناس قولاً بالقياس وجوزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلا وأن أحتج إليه يجوز أن يكون عبداً ، أو حراً أو نبطياً أو قرشياً .

البدعة الثانية : أنهم قالوا : أخطأ عليّ في التحكيم ، إذ حكم الرجال ولا حكم إلا لله .

وقد كذبوا على عليّ رضي الله عنه من وجهين : الأول : في التحكيم ، أنه حكم الرجال ، وليس ذلك صادقاً ، لأنهم هم الذين حملوه على التحكيم ، والثاني : أن تحكيم الرجال جائز ، فإن القوم هم الحاكمون في هذه المسألة ، وهم رجال ، وتخطبوا عن هذه بتخطئة عليّ وتكفيره . (١)

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عليّ رضي الله عنه فند نظريات وعقائد هؤلاء الخوارج السياسية فيما يتعلق برفضهم لوجوب الإمام ، وقولهم أن لا حكم إلا لله فقال رضي الله عنه لما سمع قولهم لا حكم إلا لله " كلمة حق يراد بها الباطل ، نعم أنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله وأنه لابد للناس من أمير براً وفاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ

---

١ الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص١١٦ - كذلك أبن الجوزي البغدادي - تلبيس إبليس - ص ٩٦ ط مكتبة المتنبي القاهرة بدون تاريخ.

الله فيها الأجل ، ويجمع الفئ ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر . ويستراح من فاجر " [١]

وقد قال بن أبي الحديد : إن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام ، ثم يرجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي " [٢]

ويبدوا أن الخوارج ـ وكما أشرنا فيما سبق لم يكونوا وحدة واحدة ، ولم يكونوا على نسق مذهبي متكامل ، لكن شابت آراؤهم كثير من التطرف والانحراف والتخبط لدرجة أنهم كانوا ينضمون تحت إمارات مختلفة وألوية متعددة مختلفة ، يضرب بعضهم بعضا ، [٣] وقد رأينا أو نرى أنهم قد أجازوا تنصيب إمامين في زمن ووقت واحد أو في مكانين متباعدين ، بل أجازوا ذلك ولو في مكان واحد ، إذ سرعان ما يضرب بعضهم عنق بعض أو يخرج الموالين على ولاتهم لمجرد خطأ بسيط وقع فيه أمامهم أو أفتى بغير ما يهوّون أو يريدون ، وقد ينصب بعضهم على بعض ، فيختلفون فيعتقد كل منهما أنه الإمام الحق في ذات الوقت أو القبيلة أو المجموعة . يضاف إلى ذلك : أن فرقة الشبيبية " منهم [٤] " أجازوا إمامة المرأة منهم : إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم ، وزعموا أن غزاله أم شبيب كانت الإمام بعد شبيب إلى أن قتلت ، واستدلوا على ذلك بأن شبيبا لما دخل الكوفة أقام أمة على منبر الكوفة حتى خطبت فيهم ، وتذكر المصادر أيضا : أن شبيبا عندما أتى الكوفة ليلاً ومعه ألف من الخوارج ، ومعه أمه غزالة ، وامرأته جهيزة في مائتين من النساء الخوارج ، اعتقلن الرماح وتقلدن السيوف وقتلوا حراس المسجد والمعتكفين به ، وتم تنصيب أمه غزاله على المنبر حتى خطبت . وقال أحد الشعراء في ذلك :

أقامت غزاله سوق الضرار ... لأهل العراقين حولا قميطا
سحت للعراقين في جيشها ... فلاقى العراقان منها أطيطا [٥]

١ـ أبن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ٣ (المجلد الأول) ص٢٦٢ ، جـ ١ ـ ص٢١٥ .
٢ المصدر السابق ـ ص٢١٥ .
٣ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢٥٩ .
٤ـ هم أتباع شبيب بم يزيد الشيباني المكنى بأبي الصحاري ، قتل في نهر دحله بالعراق سنة ٧٧ هـ ، المسعودي ـ شذرات الذهب ـ جـ١ ـ صـ٨٣ كذلك المقريزي الخطط ـ جـ ١ .
٥ البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ ص١١١ ، ص١١٢ .

وهكذا نجد أن سهام النقد توجه إلى نظرية الخوارج في الخلافة(الإمامة) إذ أغفلوا كثيراً من تلك الجوانب الجوهرية التي تتعلق بوظيفة الإمام ـ ووجوبه ، وعلاقته بالناس كما أنهم خالفوا شريعة الإسلام في جواز تنصيب إمامين أو أكثر ، بالإضافة إلى تنصيب المرأة إماماً لهم ، بل وتناقضهم مع مبدأهم في وجوب الإمامة لغير القرشي ، ولغير العرب ، وجعلوها حقاً للموالي ومن تتوافر فيه صفة الإسلام ـ بالاختيار أو بالوراثة .

وقد راجت كتب المؤرخين بمثل هذه المتناقضات في مذاهب الخوارج السياسية ، تفيد أنهم أدخلوا بعض التعديلات على الشرط الأول ، فشرطوا الإسلام والعدل بدلاً من الحرية والعروبة ، ولا سيما وقد أنضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين غير العرب ، لذلك جعلوا الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار أو الأرقاء على السواء .[1]

يضاف إلى ما سبق أنه قد أنضم إلى الخوارج أولئك العرب الخلص من رجال الصحراء ، من القبائل العربية ذات الشأن والخطر مثل قبيلة تميم ، وأبطال القادسية ، ورؤساء الجند ، كذلك من سماهم الشهرستانيَ بأهل الصيام والصلاة [2] ، بالإضافة إلى جماعة القراء من جند عليّ وغيرهم ممن رأوا إخفاق الحكمين في حكمهما ، وخيبة أملهم في حقن دماء المسلمين أو إحلال الوئام والصلاح بينهم [3].

وصفوة القول أن نظرية الخوارج الأساسية في الخلافة تكاد تكون مشتركة بين أصناف الخوارج ، إلا أنهم أجروا عليها بعض التطورات وبصفة خاصة في عصورهم المتأخرة وحتى العصر الحديث ، عند الإباضية والصُفرية ، إذ أجاز هؤلاء الذي انتشرت مقالاتهم ، وعقائدهم ونفوذهم بشمال إفريقيا والمغرب العربي أجازوا أن تكون الإمامة وولاية الخلافة بالوراثة عن طريق

١ دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ١ ـ ص٢٩٧ .
٢ـ راجع الشهرستاني – الملل والنحل ـ جـ١ – صـ١١٥ .
٣ـ دكتور – حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام السياسي – جـ١ – صـ٢٩٧ .

الأب للابن ، أو للأخ ، وأخذ البيعة على هذا الأساس ، وكذلك جواز الجمع بين إمامين أو أميرين في زمان أو مكان [١] واحد [٢]

ومن الجدير بالذكر- أنه رغم رد الإمام علي عليهم بالحجة والمنطق ، وبالدليل العقلي والنقلي فيما ذهبوا إليه من القدح في سيرة عليّ وقبوله التحكيم فإن كثيراً من الكتاب والمحللين السياسيين في الفكر الإسلامي ، ردوا على ما أثارة الخوارج من شبهات حول مبدأ الحكم والتحكيم وقولهم لا حكم إلا لله .

فالملطي يذهب في الرد على أهل الأهواء " فيتسائل ، من أين قلتم لا حكم إلا لله ؟ وقد حكم الله الناس في كتابة في غير موضع ، إذ قال عز وجل في جـزاء الصيد ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ سورة المائدة (٩٥) وقال تعالى ﴿وإن امـرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما﴾ سورة النساء آية (١٢٨) .

وقال تعالي في آية أخرى ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهلـه وحكما من أهلها ﴾ سورة النساء آية (٣٥) . وقال تعالى ﴿ وما اختلفتم فيه مـن شيء فحكمة إلى الله ﴾ سورة الشورى آية (١٠) . وأيضا قوله تعالى ﴿فردوه إلـى الله وإلـى الرسـول ﴾ سورة النساء (٥٩) ، وقال تعالى ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ سورة النساء آية (٨٣) .

فهذه الآيات الكثيرة التي جعل فيها القرآن أحكاماً كثيرة ترجع إلى وجوه الناس لينظروا فيها ، وفيما لم ينزل بيانه من عند الله . [٣]

ويرى الملطي [٤] كذلك : كيف أحلوا إهراق دم المسلمين ، مع أنه لا يحل دم المؤمن إلا لأسباب ثلاثة هي : زنا بعد إحصان ، أو ارتداد بعد إيمان ،

١ ـ راجع دائرة المعارف الإسلامية ـ جـ١ ، ٦ مادتي (الإباضية ، والصُفرية)
٢ ـ اجاز الخوارج من الحمزية إمامين في عصر واحد ما لم تجتمع الكلمة ـ الشهرستاني ـ صـ١٣٠ .
٣ دكتور ـ مصطفى حلمي ـ نظام الخلافة في الإسلام ـ ص١٦٥ ـ ص١٦٦ .
٤ ـ الملطي : هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت عام ٣٧٧ هـ) .

أو قتل النفس عمداً بغير الحق - فجهلهم إذن هو الذي أدى إلى إطلاق الحكم على أهل القبلة بالقتل [١]

والخوارج كما عهدناهم كانت أفكارهم في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة ، وكان لتعصبهم السياسي أثر كبير في وجهة نظرهم الدينية ، كانوا أشداء في الدين غير متسامحين ، لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلاً ، اشتدوا في معاملة المخالفين لهم حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل ولا الشيخ الفاني ، وعلى الرغم من ظهورهم بمظهر العبادة والتقوى والزهد ، وكونهم كما يرى الشهرستاني أهل صيام وصلاة ، إلا أنهم لم يتهاونوا في ارتكاب أشد الأعمال قسوة ، وقد ساقهم إلى ذلك كله فيما أعتقد مبدأهم السياسي الذي عقدوا عليه حزبهم وأحزابهم المختلفة وهو " لا حكم إلا لله " ، بمعنى لا حكم ، ولا حكومة ولا حاجة إلى إمام ، الأمر الذي دفع الإمام عليّ رضي الله عنه بالقول لهم " كلمة حق يراد بها باطل " نعم لا حكم إلا لله ولكنهم يقولون لا إمرة إلا لله ، وأنه لابد للناس من أمير ، برّ أو فاجر " [٢] وهذا دفع الملطي[٣] أيضا أن يعطي بعض الردود لشبهاتهم حول تكفير كل من عثمان وعلي رضي الله عنهما فيذهب : إلى أن الخوارج جميعهم بين تكفير عثمان وعلي يستندون إلى حجة واحدة وهي " الحكم بغير ما حكم الله " ويقولون :

" أن علياً حكم الحكمين وخلع نفسه عن إمرة المؤمنين وحكم في دين الله فكفر ، وعثمان ولى رقاب المؤمنين ولاة جور فحكم بغير ما حكم الله فكفر ".

ولنستقي من الآيات السابقة الرد على هؤلاء ، وتفنيد مزاعمهم ، فمن ناحية أن الله تعالى قد جعل في كثير من الدين الحكم إلى الأفراد لتطبيق ما جاء بالقرآن الكريم .

١- الملطي – التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع – صـ٥١ وما بعدها – تحقيق الشيخ محمد بن زاهر الكوثري – ط ١٩٤٩م.

٢ - أبن أبي الحديد - نهج البلاغة - جـ ١ - صـ٢١٥ ، كذلك دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - جـ١ - صـ ٢٦٨ .

٣- نظرنا : الملطي – التنبيه في الرد على أهل البدع – صـ٥٣،صـ٥٤، كذلك دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة في الإسلام - -١٦٧ وما بعدها.

كذلك فإن ولايتي عثمان وعلي حق على المسلمين ، بإجماع أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار والبدريين بالمدينة على عثمان رضي الله عنه ، وبعد حدوث الفتنة بايع من كان بالمدينة من كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار علياً للخلافة ، وذلك من حضر منهم البيعة له بدار الهجرة بالمدينة يعتبرون أهل حل وعقد ، وصدقت بيعته بدليل أن الخوارج أنفسهم صدقوه وقاتلوا معه أصحاب الجمل الناكثين لعهودهم له ، وأهل صفين معاوية وأهل الشام .

كذلك فإن الخوارج أهرقوا دم المسلمين يعتبر حق ، لأدلة واهية في مسألة سياسية مصلحيه يمكن التفاهم بين المسلمين بشأنها ألا وهي الإمامة أو الخلافة وقد صدقة منهم أحاديث الرسول ﷺ أنهم الفئة المارقة.

٤- لا حكم إلا لله - مبدأ الحاكمية : -

لا حكم إلا لله ، كلمة أطلقها زعماء الخوارج منذ اللحظة الأولى لافتراقهم على إمامهم علي بن أبي طالب - بعد ظهور نتيجة التحكيم ، وقد أقام الخوارج على هذه الكلمة نظامهم الحزبي والسياسي بأكمله ، إذ أرادوا إطلاق الخلافة ، فلا يمكن تقييدها بشرط القرشية ، أو العروبة ، أو كما يرى بعض المستشرقين " أن هؤلاء الخوارج يمثلون بهذا المبدأ الديمقراطيون لكنهم يمثلون ديمقراطية متطرفة بمبادئهم التي حددوها ، فأعتقدوا أن الخلافة حق لكل عربي حر ثم أدخلوا تعديلات أخرى ، إذ شرطوا وكما ذكرنا من قبل - الإسلام ، والعدل بدلاً من العروبة والحرية - وربما يرجع السبب في هذا التطور- انضمام كثير من المسلمين من غير العرب لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء .

وقد غالى الخوارج كثيراً في هذا المبدأ ، وخاصة حين ربطوا بين مبادئهم السياسية وبين عقائدهم الدينية ، إذ غالوا في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار أو المشركين ، من عبدة الأوثان ، واستحلوا دمائهم ، وأموالهم وسبي نساءهم وقتل أطفالهم ، بل اعتبروا أن مخلفيهم في مبدأ

حاكمـية الله ـ أعـداء لهـم ، وديارهم ديار كفار وحكامهم خارجون من حكم الله ومن ثم فهم كفره مشركون..

وهكذا نجد أن مبدأهم الذي أجمعوا عليه ، وافترقوا بسببه عن الجماعة ساقهم إلى التشدد ، والعنف ، فحاربوا في سبيله ، وفقدوا الأهل والأقرباء والمال والمتاع ، وقاسوا الأمريين من خلافهم مع بعضهم البعض ، أو مع خصومهم ، وظهر ما يسمى في عرف النظم السياسية الثيوقراطية ما يسمى " بالحاكمية " ، وربما ترجع هذه التسمية إلى ما اشترطه الخوارج في نظامهم الحزبي السياسي من ارتباط بين مبدأ الحكم لله وبين طريقة تطبيق الأصول الإسلامية والعمل بها ، أو بمعنى أخر طريقتهم في الربط بين الإيمان والعمل [(١)] فنظرية الخلافة عند الخوارج مرتبطة بنظريتهم في الإيمان ، وهذا وذاك مرهون بالعمل ، ومن ثم فإن العمل جزء من الإيمان ، ومن لم يعمل فليس بمؤمن ، وبالتالي فهو كافر أو مشرك ، أما أن يكون كافر كفر نعمه كما يرى بعضهم من النجدات أو كافر كفر ملـه كما يرى البعض الأخر من المحكمة الأولى والأزارقة ، وهم إن كانوا ـ أي الخوارج- لا يرون حاجة إلى إمام بناءً على هذا المبدأ ، فإن الأمة بحاجة إلى من ينفذ أوامر الدين ، وكما ذكرنا فيما سبق ، اعتراض الإمام عليّ رضي الله عنه على هذا المبدأ بهذا المفهوم ، إذ لابد للأمة من أمير بر أو فاجر ، يعمل في أمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع الفيء وتأمن به السبل .. الخ وحجتهم فيما يذهب أبن خلدون (٨٠٨) هـ ، أنه إذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله ، لم نحتج إلى إمام ولا يجب نصبة وهذا مخالف للإجماع [(٢)]

وقد انسحبت فكرة الحاكمية عند الخوارج على العصور المتأخرة أو الحديثة ، وتناولها الكتاب والمثقفون بالبحث والدراسة ، لما لذلك من صلة بنظرية الحاكم والحاكمية في العصور الحديثة ، والتي وجدت رواجاً بين طوائف وجماعات من الأصوليين المحدثين ، فقد سمعنا عن جماعات الجهاد ،

---

١ ـ للمزيد راجع : دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني ـ جـ٢ صـ٣ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦ م

٢ أبن خلدون ـ المقدمة ـ صـ ١٩٢ .

والجماعات الإسلامية ، وجماعة التكفير والهجرة ، أولئك الذين يكفرون الراعي والرعية ، أو الحاكم والمحكومين ، لاعتقاد هؤلاء أنهم لا يحكمون بما أنزل الله ، أو لأن هؤلاء الحكام لا يطبقون نظام الإسلام السياسي كما يفهمونه على نحو ما عرف عند الخوارج وفرقهم.

وقد وقع هؤلاء وأولئك إلى الكثير من الأخطاء الفكرية والسياسية والدينية ، ووجه بعض المثقفين المحدثين النقد لهذه الفكرة لمفهومها الحديث .

فقد خرج تصور أنصارها لنظام الواقع على أنه حكم إلهي ، فالحاكميه لله بصرف النظر عن طبيعة هذا الواقع ، وعن مكوناته ، وارتبط التغيير المنشود في أذهان المثقفين بالدعوة إلى الحكم الثيوقراطي وهو ما ناهضت الإنسانية في التراث الغربي من أجل التخلص منه إلى الحكم الديمقراطي ، وهذا هو التفسير الواقعي لحاكمية الله بفعل الشورى ، وبدا أن الغاية هو الدفاع عن الله وليس التغيير الاجتماعي وغيره ، وبدت الدعوة دينية متطاوله على السياسة ، وغير قادرة على ممارسة قضايا التغير الاجتماعي التي تحتاج إلى علم دون دين ، وإلى واقعية إيمانية مسبقة .[1]

كانت ثورات الخوارج قائمة على مبادئ سياسية يعضدها أصولهم الدينية ، ولم يعجزوا عن الإتيان بالنصوص القرآنية التي تؤيد نظرتهم في الإمامة أو الإمارة على مبدأ الحكم لله – الحاكمية- قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولـئك هم الكافرون** ﴾ **سورة المائدة (٤٤)** ، والحكم لله ، ولا حكم لغيره ، ومن يبايع أو يختار من بينهم للإمامة هو الشخص الذي يتبع في أقواله وأفعاله ما أمر به الله تعالى نصاً وحرفاً أو تأويلاً على هذا المبدأ فقط ، والذي يخرج عن هذه الفكرة ، يجب عزله أن لم يحكم عليه بالقتل ، ومن ثم فإن خلفاء بني أميه ، وبني العباس لا يملكون الشرعية النصية لمعنى ودلالة مبدأ الحاكمية- وأن الحكم لله ولأن الخوارج شاعت بينهم فكرة الثورة على الحاكم الجائر فلم يتمثلوا مبدأ التقية ، فلم يكن لديهم ما يخفونه من معتقدات ، فجهروا بأفكارهم ومبادئهم العقائدية المشبعة بنظرياتهم السياسية .

---

١ - دكتور : حسن حنفي - التراث والتجديد - صـ ٣٧ - صـ ٣٨ - ط الأنجلو المصرية القاهرة - ١٩٨٧ م .

ثانيا : أصولهم العقائدية وآدابهم : -

أقام الخوارج أصولهم العقائدية الدينية ، وآدابهم ونظمهم الاجتماعية بناءً على أصولهم ومعتقدهم السياسي والحزبي ، والفكرة التي كانت تحركهم وانضووا تحتها جميعاً : مسألة التكفير والإيمان ، وحدودها ومعناها ، ما حدث بشأن التحكيم ، والحكمين ، والإمام ، ومتى يجب إقراره ، أو الخروج عليه وعزله أو قتاله .. فجاءت عقائدهم الدينية ممتزجة بفكرهم السياسي وغلب عليهم طابع الجفاء والتشدد إلى أبعد الحدود، طبقاً لطبيعتهم البدوية الصحراوية ، ولا ننتظر أن نجد عند هؤلاء مناظرات وجدال حول المسائل الكلامية أو القضايا الأصولية ، كما هو عند أصحاب الفرق والمذاهب الدينية الأخرى كالمعتزلة ، أو الشيعة أو الأشعرية وأهل السنة والجماعة ، فلم تنطبع أساليبهم الفكرية أو العقائدية بالطابع الفلسفي ، أو الأدبي الاجتماعي بما يتسم من جماليات فكرية أو بديعية .

فقد كان أكثر الخوارج في أول الأمر عربا سكنوا البصرة والكوفة ، وكانت تغلب على أكثرهم البداوة كما أن أغلب الموالي الذين انضموا إليهم كانت يجمعهم بغضهم للأمويين ، واعتقادهم بعدم شرعيتهم للإمامة ، أو صلاحيتهم ووجوب الخروج عليهم ، ومن أجل ذلك لم يكن ينتظر منهم أن يبحثوا في صفات الله وأسمائه ، هل هي عين الذات أو غيرها ، وأن الله تعالى يرى بالأبصار أو لا يرى يوم القيامة ، كما ذهب المعتزلة وأهل السنة من الأشعرية في مناقشة هذه المسائل ، لأنها نظرات فلسفيه أبعد ما تكون عن طبيعة البداوة ، ولا ينتظر منهم أيضا أن يقدسوا أئمتهم كما تفعل الشيعة [١]لأنهم إنما كانوا ينظرون إلى إمامهم كما ينظر العرب الأولون إلى شيخ القبيلة [٢]

يضاف إلى كثرة الخلافات بينهم حول كثير من المسائل العقائدية ، الصغائر منها قبل الكبائر ، فقد يختلفون مع إمامهم حول مسألة عقائدية بسيطة

---

١ - أنظر : كتابنا - دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة الباطنية (تحليل ونقد) - ط ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ .

٢ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ٣ - صـ ٢٢٣ .

الأمر الذي يدفعهم إلى نبذه ، واختيار أخر مكانه أو قتاله ، وأغلب هذه المسائل الخلافية تعلق ـ بالتكفير أو الإيمان ، بشأن الموقف حول أطفال المشركين ، أو المسلمين قبل البلوغ ، وحول النساء واستحلالهم ، وحول القَعدة عن القتال ، هل هم كافرون أم مؤمنون ؟ وقد يختلفون في المعاصي التي يكفر الإنسان بارتكابها.

ومما لا شك أن خلافاتهم من البساطة والسذاجة لدرجة أنها لفتت أنظار بعض المؤرخين وكتاب المقالات . . ومن ذلك " أن عبد الجبار خطب إلى ثعلبة أبنته ، وكلاهما من الخوارج ، فسأله ثعلبة أن يمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسل الخاطب إلى أم البنت مع امرأة يقال لها أم سعيد ، يسأل هل بلغت أبنتهم أم لا ؟ لأنه لا يرى أن الابن أو البنت يسلم حتى يصل إلى سن البلوغ ، وقال إن كانت قد بلغت وأقرت الإسلام يدفع لها مهراً كبيراً ، فلما أبلغتها أم سعيد ذلك ، قالت الأم : ابنتي مسلمة بلغت ، أم لم تبلغ ، فاختلفوا في ذلك وتدخل عبد الكريم بن عجرد وهو زعيم الخوارج من العجاردة في الأمر فزادهم خلافاً ، وبريء بعضهم من بعض على ذلك [(١)]

كذلك نلاحظ أنهم قد تبادلوا بعض القضايا الكلامية مثل القدر ، والجبر ، والفعل الإلهى ، وأفعال العباد ، وإثبات الاستطاعة قبل الفعل ، ومسألة الرؤية وكلام الله أو خلق القرآن ، والقدر خيره أو شره إلى ما هنالك من مسائل أخرى ، لكنهم لم يضعوها في قوالب متكاملة أو في صيغ وأنساق فلسفية أو جدلية محددة اللهم إلا في بعض الأمور البسيطة والتي تأثروا فيها بأنظار المعتزلة ، أو رجعوا بها إليهم ، ولذلك فإن دورنا هنا هو الإلمام بقدر المستطاع بهذه بالمسائل العقائدية وصياغتها في قوالب وأنساق محددة ، وذلك من بين المفردات والمصطلحات الرائجة في أصولهم بالإضافة إلى تجميع هذه المفردات الأصولية من بطون الكتب والمقالات لدى أصحاب الفرق ومؤرخو المذاهب إذ لم يضع على حد علمنا أحد من الخوارج أو زعمائهم كتباً أو مقالات متخصصة تناقش أصولا أو قضايا عقائدية متكاملة ، ربما رجع السبب في ذلك وكما أشرنا فيما سبق إلى أن الخوارج وزعمائهم لم يكن لديهم الوقت الكافي لمناقشة وتنقيح

---

١ ـ الأشعري ـ مقالات الإسلاميين ـ صـ ١١٢ ، صـ ١١٣ .

أفكارهم الدينية لكثرة حروبهم وخلافاتهم المتكررة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يهتم أحد من زعمائهم بوضع كتب متخصصة في هذا المجال ، اللهم إلا بعض الأفكار الأصولية الفكرية السياسية والدينية المتداولة على قرائهم وحفاظهم بالسماع والتناقل من جيل لآخر ومن فرع إلى فرع آخر .

ونظراً لأهمية البحث في أصولهم الدينية العقائدية ، نحاول أن نصيغ هذه الأصول في قوالب وأنساق محددة ، ثم نتناول أدبهم الاجتماعي لما لذلك من صلة قوية في نظرنا بمسائلهم العقائدية والسياسية .

١- الكتاب والسنة : -

ألتزم الخوارج بحرفية الكتاب والسنة النبوية ، ولم يتعمقوا في تأويل النصوص بما يوحي أنهم كانوا على درجة ما من التفلسف ، أو الاجتهاد والقياس ، ولو أنهم ظلوا في العصر العباسي على قوتهم لكانوا يعدون من أهل الظاهر الذين لا يقولون بقياس ، بل يرون أتباع ظواهر النصوص دون تأويل ، وقد ربط هؤلاء بين صدق الإيمان والإقرار بسلامة إسلام المسلم وبين معرفة ما جاء بالكتاب والسنة النبوية نصاً وحرفاً ، فالبيهسية من الخوارج قالوا : أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ، ومعرفة رسله ، ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ ، والولاية لأولياء الله تعالى والبراءة من أعداء الله تعالى ، فمن جملة ما ورد به الشرع وحكم به ، ما حرم الله تعالى ، وجاء به الوعيد ، فلا يسعه إلا بمعرفته بعينه وتفسيره والاحتراز عنه ، ومنه ما ينبغي أن يعرف باسمه ، ولا يضره ألا يعرفه بتفسيره حتى يبتلى به ، وعليه أن يقف عند ما لا يعلم ، ولا يأتي بشيء إلا بعلم ، وقد برئ أبو بيهس زعيم الخوارج : عن الواقفية لقولهم : أنا نقف فيمن واقع الحرام وهو لا يعلم أحلالاً واقع أم حراماً ، وقال كان من حقه أن يعلم ذلك .[١]

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ ١٢٦ .

والرجل يكون مسلماً إذا شهد الشهادتين ، وتبرأ ، وتولى ، وآمن بما جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم فيسأل ما أفترض الله تعالى عليه ، ولا يضره أن لا يعلم حتى يبتلى فيسأل .. (١)

وربما كان المغزى الحقيقي وراء فكرتهم : لا حكم إلا لله ، يعني التمسك بما جاء به كتاب الله تعالى من نصوص وتعاليم وإقرار للعدل والمساواة بين كافة الناس من المسلمين والعرب ، الأحرار والعبيد والموالي - وفي السنة الشريفة إشارات وأحاديث عن النبي ﷺ تفيد المساواة بين الناس : من قبيل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، الناس سواسية كأسنان المشط ، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى ، أسمعوا وأطيعوا لو أمّر عليكم عبداً حبشياً .. وهكذا فلا حاجة عندهم إلى إمام ، وإنما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ...وهكذا

وقد تواترت في معظم كتب المؤرخين وعلماء الفرق .. مواقف صدرت عن هؤلاء الخوارج تدل على مدى تمسكهم بحرفية النصوص دون ما اجتهاد أو تأويل ولذلك يروى عنهم قولهم " أن رجلاً لو أكل من مال يتيم فلسين (أو قرشين) وجبت له النار ، لقوله تعالى ﴿ أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ سورة النساء (١٠).

وقالوا ، لو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار ، لأن الله لم ينص على ذلك ، واستحلوا كذلك دماء أطفال المشركين ، ولم يستحلوا أكل ثمرة بغير ثمنها ، ومن هؤلاء الخوارج أيضاً ، من كان يرى قتل المسلم المخالف ، ولا يقتل الذمي (٢)

كذلك ما يروَى عن أحد الخوارج ، أنه حلف على جاريته أن يبيعها لأحد الأعراب من المخالفين لمذاهبهم ، فقال له ميمون من العجاردة ، أتبيعها للكفار المخالفين ، فرد عليه بقوله له ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ سورة البقرة أية (٢٧٥) (٣)

---

١ - المصدر السابق - صـ ١٢٧ .
٢ - ابن الجوزي - تلبيس إبليس - صـ ٩٥ .
٣ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ٣ - صـ ٣٣٤ .

ويروي المبرد في كتابة " الكامل " [1]: أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة وقع مع بعض أصحابه في يد الخوارج ، فقالوا لـه : ما شأنك ؟ فقال واصل للخوارج : نحن قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله ، ويعرفوا حدوده ، فقالوا : قد أجرناكم ، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ، وجعل يقول لهم : قد قبلت أنا ومن معي، فأمضوا مصاحبين فإنكم إخواننا ، ثم قال : ليس ذلك لكم ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ سورة التوبة (٦) فأبلغونا مأمننا ! فنظر الخوارج بعضهم إلى بعض وقالوا ذلك لكم ، فساروا معهم حتى بلغوهم المأمن . [2]

ومن السخافات ، والبدع التي صدرت عن هؤلاء الخوارج ، وحرفيتهم بالنصوص أنهم يرون : أن عبد الرحمن بن ملجم بعدما قتل الإمام عليّ رضي الله عنه ظل يقرأ القرآن ، ويروي أنه تقرب بعمله هذا إلى الله تعالى .

ومن خلال هذه الأمثلة البسيطة يتضح لنا مدى ما كان يمثله الخوارج من شدة التمسك بحرفية النصوص بالكتاب والسنة ، دون تأويل أو اجتهاد أو قياس أو تفلسف وقد انطبعت هذه الطريقة على معظم عقائدهم وأصولهم ، فأصطبغت بصبغة الجفاء والتشدد .. اللهم إلا إذا كانت قد تسربت إلى أفكارهم بعض الجدل لتأثرهم بأنظار المعتزلة كما سنرى .

٢- الإيمان والكفر :-

يتردد لفظي الإيمان والكفر عند الخوارج كثيراً ، وقد يتفقون فيما بينهم ، وقد تحدث بعض الخلافات ولنأخذ تعريفاتهما عند البيهسية .

الإيمان : هو أن يعلم كل حق وباطل ، وأن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل ، ويحكي عن بيهسي الخارجي أنه قال : الإيمان هو الإقرار والعلم ، وليس هو أحد الأمرين دون الأخر [3]

١- الإسفرايني – التبصير في الدين – صـ٣٥.
٢ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ٣ - صـ٣٣٤ ، صـ٣٣٥ .
٣ الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ١٢٦ .

وعامة " البيهسية" منهم يقولون : أن العلم والإقرار والعمل كله إيمان وذهب قوم منهم إلى أنه لا يحرم سوى ما ورد في قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه ﴾ سورة الأنعام آية (٤٥) . وصنف منهم يقول : أن من شهد من المسلمين شهادة أخذ بتفسيرها وكيفيتها ، وقالوا أيضاً : أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد الشهادتين وتبرا وتولى ، وآمن بما جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم فيسأل ما افترض الله عليه ، ولا يضره أن لا يعلم حتى يبتلي به فيسال ، وإن واقع حراماً يعلم تحريمه فقد كفر.[1]

إذن فحدود الإيمان عند الخوارج - الإقرار والعلم والعمل ، كما أن العمل عندهم جزء من الإيمان ، فمن لم يعمل بما علم فقد كفر ، ومن لم يعلم فعليه أن يعلم حتى يبتلى ، أو يسأل حتى يعمل ، فإن واقع حراماً يعلم تحريمه فقد كفر ، لأنه عمل عملاً وهو يعلم تحريمه .

ونلاحظ كذلك أن الخوارج يذكرون كلمة الكفر بجانب الإيمان ، أو أن مسألة التكفير تلاحق مسألة الإيمان في عقائدهم .

ومن المعروف أن هؤلاء يعتبرون أن كل من خالفهم في عقيدتهم ومبادئهم فهو كافر ، بالإضافة إلى أن كل مرتكب لكبيرة فهو كافر في رأيهم قياساً على فهمهم الخاطئ لقوله تعالى ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ سورة المائدة آية (٥) ، وقوله تعالى ﴿ وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ سورة التغابن (٢) فلم يجعل الله بين الكفر والإيمان منزلة ثالثة في عقائدهم .

ويذهبون أيضاً إلى أن من كفر وحبط عمله فهو مشرك ، والإيمان رأس الأعمال ، وأول الفرائض في عمل ، ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه ، ومن حبط عمله فهو بلا إيمان ، والذي لا إيمان له مشرك كافر " [2]

ولأن العمل جزء من الإيمان ، فإن العمل بأوامر الدين جزء من الإيمان وليس الإيمان هو الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد عندهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً

---

١ المصدر السابق - ص١٢٦ ، ص١٢٧ .
٢ دكتور : عامر النجار - الإباضية ومدى صلتها بالخوارج - ص٥٣ . كذلك - الملطي - الرد والتنبيه - ص ٥٠ ، ص٥٩ .

رسول الله ، ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو عندهم كافر ، ومن ارتكب معصية خرج من دائرة الإسلام إلى الكفر ، إلا إذا تاب مستندين في ذلك إلـى فهمـهم الخـاطئ لـقولـه تعـالـى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ سورة المائدة آية (٤٤).

إذن فحدود الإيمـان أو الكفر فـي عقـائد الخـوارج محكـوم بأصـولهم فـي معتقدهم الديني ووجهة نظرهم في الاستدلال على ذلك من النصوص ، بالإضافة إلى معتقدهم السياسي في الإمامة أيضاً.

وللاستدلال على ذلك - من واقع نصوصهم وأفكارهم الاعتقادية ما توارد عنهم في معظم كتب المؤرخين وكتاب المذاهب والطبقات .

ولنتتبع حدود الكفر والتكفير في عقائدهم نجدهم يجمعون على اختلاف فرقهم منذ بداية خروجهم على الإمام عليّ وحروبهم معه في واقعة النهروان ، على تكفيره لقبوله التحكيم فيما شجر بينه وبين معاوية بحجة أنه كان على الحق في ولاية الخلافة لمبايعته بالمدينة بالإضافة إلى محو صفته كأمير للمؤمنين بصك التحكيم . وقد تأولوا على هذا الرأي عندهم قولـه تعـالى ﴿ ومن الناس من يعجـبك قولـه في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ سورة البقرة آية (٢٠٤) ، وصوبوا عبد الرحمن بن ملجم حين قتل علياً وقالوا : أن الله تعالى أنزل في شأنـه قولـه ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ سورة البقرة آية (٢٠٧) .

وعلى هذه البدعة ، زادوا عليه تكفير عثمان رضـي الله عنه وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس ، وسائر المسلمين معهم وتخليدهم فـي النار . [1]

كذلك تكفير أهل (القَعدة) عن القتال معهم وإن كانوا موافقين لعقائدهم وتكفير من لم يهاجر إليهم ، أو يكون على ملتهم ومقالاتهم ، وتكفير مرتكب

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص١٢٠ ، ص١٢١ . كذلك الأسفرايني ، التبصير في الدين - ص٣٤ .

الكبيرة كفر ملة عند بعضهم وخاصة الأزارقة ، أو كفر نعمة عند البعض الآخر ، ويخلد في النار مع سائر الكفار .

وذهب بعض الإباضية من " الحفصية " أنه ليس بين الكفر والإيمان إلا معرفة الله تعالى ، فمن عرفه فهو مؤمن ، وإن كان كافراً بالرسول والجنة والنار ، وقد استحلوا بعض المحرمات ، وقالوا أن صاحبها كافر ولكنه بريء من الشرك ، يضاف إلى ذلك تكفير بعضهم بعضاً لمجرد خلافات في الرأي أو الموقف ، وكما أشرنا فيما سبق ، وذهبت فرقة " العونية " من البيهسية إلى القول : أن الإمام إذا كفر كفرت الرعية ، الغائب منهم والشاهد ، كذلك يكفرون من ترك الصلاة أو واقع حراماً وهو يعلمه ، كما أن أطفال الكفار كفار أيضاً .

٣ ـ التقية والقَعَدة :

أختلف الخوارج حول " التقية " و " القعدية " عن القتال ، وخاصة بين الأزارقة والنجدات منهم ، ذهبت الأزارقة إلى أن التقية غير جائزة في قول ولا عمل ، بينما ذهبت النجدات إلى أن التقية جائزة في القول والعمل كله ، كذلك بالنسبة للقعدة ، فالأزارقة كفروا القعدة عن القتال ، بينما أجاز النجدات القعدة لعدم قدرتهم ، أو لأعذار لديهم من ذلك ، وفي مراسلات بين كل من نافع الأزرق ، وصاحبه نجدة يحتج كل منهما على صحة موقفه وعقيدته في هذا الشأن بنصوص من القرآن الكريم .

بعث نافع برسالة قال فيها " التقية لا تحل ، والقعود عن القتال كفر ، وأحتج بقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ﴾ سورة النساء الآية(٧٧) ، وقوله تعالى ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ سورة المائدة الآية (٥٤) .

وخالفه نجدة في ذلك فقال " التقية جائزة بقوله تعالى﴿إلا أن تتقوا منهم تقاه﴾ سورة آل عمران (٢٣) ، وقوله تعالى﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ سورة غافر آية (٢٨) ، وقال : أن القعود جائز ، والجهاد إذا أمكنه أفضل لقوله تعالى﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ سورة النساء آية (٩٥)

وقد احتج نافع الأزرق على نجدة في هذا بقولة " هذا في أصحاب النبي ﷺ حين كانوا مقهورين ، وأما في غيرهم مع الإمكان ، فالقعود كفر ، لقوله تعالى ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ سورة التوبة آية (٩٠) . (١)

٤ - ما بين صفتي الشرك والكفر :

جميع الخوارج يتفقون على إطلاق هذين اللفظين أو هاتين الصفتين على من يخالفونهم في عقائدهم ، كذلك فيمن يخرج بعضهم على البعض كذلك صفة التبرؤ . وقد تختلف من فرقة لأخرى في بعض المفردات أو الصيغ والحدود .

فالأزارقة منهم يعتقدون أن القعدة عن القتال كفار ، والذين قعدوا عن الهجرة إليهم مشركون ، وإن كانوا على رأيهم .

وما دام مخالفوهم من الناس الآخرين كفاراً ويستحل قتالهم وأموالهم ، فكذلك يستباح قتل نساء مخالفيهم ، وقتل أطفالهم ، وزعموا أن ذلك لأنهم مشركون (٢) بل وأن من ينضم إليهم أو يهاجر إلى ديارهم ، يعقدون له امتحان ، بأن يدفعوا له رجل يخالف مذاهبهم فإن قتله أصبح رجلاً منهم وإن لم يفعل قالوا : هذا منافق مشرك وقتلوه (٣)

ومن أشنع ضلالات هؤلاء قولهم : أن من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ، وأن من سرق أو زنى أو شرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم إذا كان من موافقيهم .

وفرقة الصفرية منهم على ثلاث عقائد هي : أن صاحب كل ذنب مشرك أو أن اسم الكفر واقع على صاحب ذنب ليس فيه حد ، كذلك فإن ذنب الكفر يقع على صاحب الذنب إذا حده الوالي على ذنبه . (٤)

ولكن لفرقة الإباضية رأي آخر في حدود الشرك والإيمان أو الكفر ، فخالفوا سابقيهم فقالوا : أن كفار هذه الأمة - يعنون بذلك أن مخالفيهم من هذه

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص١٢٤ ، ص١٢٥ .
٢ - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٨٣ .
٣ - المصدر السابق - ص٨٣ .
٤ - المصدر السابق - ص٩١ .

الأمة - براء من الشرك والإيمان ، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار فأجازوا شهادتهم ، وحرموا دماءهم في السر ، واستحلوها في العلانية، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وقال الحفصية منهم : أن الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله عز وجل ، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله عز وجل .[١]

ومن قولهم أيضاً : أن النفاق براءة من الشرك والإيمان جميعاً ، وأن المشرك ليس بمشرك زاعمين أن المنافقين في عهد النبي ﷺ كانوا موحدين ، وكانوا أصحاب كبائر فكفروا ، وإن لم يدخلوا في حد الشرك .[٢]

وقد كفر البيهسية الواقفة عن أن الحكم ما لم يوافق معهم أحد غيرهم ، كذلك فإن السُكر كفر إذا كان معه غيره من ترك الصلاة أو الفرائض ، وقد انفرد الصفرية منهم برأي آخر فيما يتعلق " بالشرك والكفر والإيمان " فقالوا : نحن مؤمنون عند أنفسنا ، ولا ندري لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله تعالى ، والشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان ، وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بإنكار النعمة ، وكفر بإنكار الربوبية ، والبراءة براءتان ، براءة من أهل الحدود سنة ، وبراءة من الجحود فريضة .[٣]

٥ - أقوالهم في الحدود والدين والشرائع :

من ضلالات وبدع الخوارج تجوزاتهم فيما يتعلق بالحدود والشرائع والدين ، عن سائر عقائد الأمة الإسلامية ، وخالفوا في أقوالهم وفكرهم المذاهب العقائدية الإسلامية ، لم يرتضوا لا مذهب أهل السنة ، ولا السلف ، ولا الشيعة ولا حتى المرجئة ، فمعظم المذاهب المخالفة لمقالاتهم كفار ، وأما أصحاب الكبائر فكذلك ، فمرتكب المعصية كبيرة أو صغيرة كافر لا محالة ، يخلد في النار وتستباح أمواله وأطفاله ونساؤه ، كذلك قالوا ، بإسقاط حد الرجم عن الزاني ، إذ ليس في القرآن ذكره ، وقالوا بإسقاط حد القذف عن قذف المحصنين

---

١ - المصدر السابق - صـ١٠٣ ، ص١٠٤ ، ص١٠٥ .
٢ - نفس المصدر صـ١٠٦ . كذلك الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ ، صـ١٣٥ .
٣ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص١٣٧ .

من الرجال ، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء ، وقالوا أن مرتكب الكبيرة كافر كفر ملة ، يخرج عن الإسلام ، ويخلد في النار أيضاً .

وقالوا : بقطع يد السارق في القليل أو الكثير ، ومن ضلالاتهم أيضاً إسقاط حد الخمر ، إلى آخر ما هناك من ضلالاتهم التي أكفرهم عليها أهل الأمة من السنة والسلف . ومن ذلك ما نجدهم قد أبطلوا كثيراً من الشرائع والحدود والعبادات إلا ما وافقهم على مذاهبهم . [1]

أما الدين عندهم أمران : أحدهما : معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين ، والإقرار بما جاء من عند الله جملة ، فهذا واجب معرفته على كل مكلف ، وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى يقام عليهم الحجة في الحلال والحرام ، ومن استحل باجتهاده شيئاً محرماً فهو معذور ، ومن خالف العذاب على المجتهد المخطئ قبل قيام الحجة عليه فهو كافر . [2]

يضاف إلى ذلك قولهم أو بعضهم : ليس على الناس المشي إلى الصلاة ولا الركوب والمسير للحج ، ولا شيء من الأسباب التي يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الموجبة بأعيانها دون أسبابها الموصلة إليها . وقالوا باستتابة مخالفيهم في تنزيل أو تأويل ، فإن تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله ، والإباضية منهم خالفوا الأزارقة في شان السارق أو الزاني ، فقالوا يقام عليهما الحدود ثم يستتابا وإلا قتلا . [3]

٦ - قولهم في صفات الله ، ومعرفة رسله :

قالوا : أن الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله عز وجل ، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله عز وجل ، وأن بين الإيمان بالله والشرك خصلة واحدة هي معرفة الله تعالى ، فمن عرفه ثم كفر بمن سواه من رسول أو كتاب ، أو جنة أو نار وارتكب الكبائر فهو كافر وليس بمشرك ، كما أنه لا يسلم أحد حتى يقر

---

١ - المصدر السابق - صـ١٢١ - وما بعدها - البغدادي - الفرق بين الفرق - صـ٨٩ .
٢ - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٨٩ ، كذلك الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - ص١٢٣ .
٣ - المصدر السابق - ص١٠٧ .

بمعرفة الله تعالى ، ومعرفة رسله ، ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ ، والولاية لأولياء الله تعالى ، والبراءة من أعداء الله تعالى ، فمن جملة ما ورد به الشرع وحكم به ما حرم الله ، وجاء به الوعيد ، فلا يسعه إلا معرفته بعينه [١]

وقال زياد بن عبد الرحمن الشيباني من الخوارج ـ الشيبانية : أن الله تعالى لم يعلم حتى خلق لنفسه علماً ، وأن الأشياء إنما تصير معلومة له عند حدوثها ووجودها .

وقالت بعض فرق الحازمية من الخوارج وهم " المعلومية " : من لم يعرف الله تعالى بجميع صفاته وأسمائه فهو جاهل ، حتى يصير عالماً بجميع ذلك فيصير مؤمناً .

وقد نسب الحازمية صفتان لله تعالى فقالوا : الولاية والعداوة ، فإنهما من صفات الله تعالى ، وأن الله إنما يتولى العبد على ما هو صائر إليه من الإيمان ، وإن كان في أكثر عمره كافراً ويرى منه ما يصير إليه من الكفر في آخر عمره ، وإن كان في أكثر عمره مؤمناً ، وأن الله تعالى لم يزل محباً لأوليائه ومبغضاً لأعدائه ، وهذا القول موافق لقول أهل السنة ، في الموافاة ، غير أن أهل السنة ألزموا الحازمية منهم على قولهم هذا بالموافاة أن يكون عليّ وطلحة وعثمان ، من أهل الجنة لأنهم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ سورة الفتح آية(١٨) ، وقال أهل السنة رداً على شبهات الخوارج هنا : إذا كان الرضا من الله تعالى عن العبد إنما يكون عن علم أنه يموت على الإيمان وجب أن يكون المبايعون تحت الشجرة على هذه الصفة ، وكان عليّ وطلحة والزبير منهم ، وكان عثمان يومئذ أسيراً فبايع له النبي ﷺ وجعل يده بدلاً عن يده ، وصح على ذلك بطلان قول من أكفر هؤلاء الأربعة " [٢]

ومما لا شك أن الخوارج مسلمون ، وموحدون . فهم أهل صلاة وصوم كما وصفهم الشهرستاني من قبل ، إلا أنهم غالوا واشتطوا في عقائدهم وتشددوا

١ ـ المصدر السابق ـ ص١٠٤ ، الشهرستاني ـ الملل والنحل ، جـ ١ ـ ص١٣٦ ، ص١٢٥ ، ص١٢٦ .
٢ ـ البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ صـ ٩٤ ، صـ ٩٥ ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ صـ ١٣٣ .

، الأمر الذي أخرجهم عن دائرة جمهور المسلمين ، ولذلك نجدهم يقولون بوحدانية الله عز وجل في كل نص يرد عنهم ، ومن بذلك :

ما ذهب إليه الإباضية فقالوا : لا يخلق الله تعالى شيئاً إلا دليلا على وحدانيته ، ولا بد أن يدل به واحداً " إلا أنهم خرجوا ببعض الآراء الغالية : منها قولهم : يجوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل ، ويكلف العباد بما يوحى إليه ، ولا يجب عليه إظهار المعجزة ، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلا أن يخلق دليلا ، ويظهر معجزة [١] وأعتقد أنهم بذلك جنحوا نحو مخالفة مذاهب المعتزلة – الذين أوجبوا على الله تعالى ما فيه الصلاح والأصلح لعباده.

وقد ظهر بعض الغلو عند بعض فروع الخوارج في القول بالتشبيه والتجسيم في حق الله تعالى : فقد ذهب بعض الثعالبة منهم : إلى القول بتشبيه الله تعالى لخلقه ، لكن البعض الآخر تبرّؤا من هذا القول متفقين في نفي التشبيه عن الله تعالى مع أهل السنة [٢] .

والواضح مما سبق ، أن فرق الخوارج على اختلاف مشاربهم ومآربهم ليست لديهم أنساق منتظمة ، ولا قوالب فكرية كلامية تحدد أصولهم العقائدية في الصفات الإلهية ، والوجود الإلهي وتنزيهه تعالى وصلته بالوجود والعالم والنبوات والرسالات ، وغير ذلك من أنساق علم الكلام ، اللهم إلا بعض المفردات والنتف التي تتردد بين جنبات آرائهم وبطون كتب المؤرخين وكتاب المقالات فقط ومن ثمة فهؤلاء لا يشكلون فرقة أو فرقاً كلامية أو أصولية ولا يمكن تصنيفهم في هذا المجال شأنهم شأن المعتزلة والأشعرية أو الماتريدية أو أهل السنة الأوائل من الأصوليين المتكلمين ، ولكن نستطيع أن نقول أن هؤلاء الخوارج يشكلون فرقاً مذهبية سياسية ، قاموا بثورات متتالية وشكلوا قوة سياسية جبارة ، تقاتل وتحارب وتبذل الدم في مواجهة خلفاء بني أمية وبني العباس في شتى البلاد العربية والإسلامية بدافع الإخلاص لعقائدهم وأصولهم السياسية.

---

١ - المصدر السابق – صـ١٣٥ .
٢ - البغدادي – الفرق بين الفرق – صـ١٠٢ .

وقد يتضح لنا ذلك كذلك عندما نلتقط عنهم بعض المفردات التي تتعلق بالأفعال ، والقدر والاستطاعة ، والمشيئة ، فهذه المسائل تدور معظمها حول تأييد مبادئهم السياسية .

٧- قولهم في القدر والاستطاعة والمشيئة:

اختلفت فرق الخوارج فيما بينها حول هذه الأصول العقائدية ، فخرجت بعضها بآراء تخالف رأي البعض الآخر ، وقد تخالف آراء أهل السنة أو توافق في بعضها ، وتتفق في البعض الآخر مع مذاهب المعتزلة والقدرية ، فالميمونية من العجاردة قالوا : بإثبات القدر خيره وشره من العبد ، وإثبات الفعل للعبد خلقاً وإبداعاً ، وإثبات الاستطاعة مع الفعل ، وقالوا أن الله تعالى يريد الخير دون الشر ، وليس له مشيئة في معاصي العباد " [١] ، وهم بذلك يخالفون مذاهب أهل السنة والجماعة، وكذلك مذاهب الجبرية ويجنحون نحو مذاهب المعتزلة والقدرية .

أما فرقة الخلفية : أصحاب خلف الخارجي فقالوا بما يخالف مذاهب السابقين : إذ أضافوا القدر خيره وشره إلى الله تعالى ، وسلكوا في ذلك مسلك أهل السنة ، وقد وافقهم على هذا الاعتقاد جماعة من الشعيبية أصحاب شعيب بن محمد الخارجي ، فقال : إن الله تعالى خالق أعمال العباد ، والعبد مكتسب لها قدرة وإرادة مسؤول عنها خيراً وشراً ، ومجازى عليها ثواباً وعقاباً ، ولا يكون شيء في الوجود إلا بمشيئة الله تعالى [٢] ، كذلك ذهبت الحازمية منهم قالوا بقول شعيب : في أن الله تعالى خالق أعمال العباد ، ولا يكون في سلطانه إلا ما يشاء ، وقالوا الموافاه وهو أن الله تعالى إنما يتولى العباد على ما علم أنهم صائرون إليه في آخر أمرهم من الإيمان ويتبرأ منهم على ما علم أنهم صائرون إليه في آخر أمرهم من الكفر ، والله تعالى ما يزال محباً لأوليائه مبغضاً لأعدائه [٣].

١- الشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ ١٢٩.
٢- المصدر السابق – صـ١٣٠ ، صـ١٣١ – كذلك الأشعري – مقالات الإسلاميين – جـ١ – صـ١٦٥ ، الاستفراييني – التبصير في الدين – صـ٣٢ .
٣- الشهرستاني – الملل والنحل – جـ١ – صـ١٣١ .

وقد خلط بعض فرق الخوارج بين قول المعتزلة والقدرية ، وقول أهل السنة ، فقد ذهبت فرقة " المعلومية منهم " إلى القول : إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى ، لكنهم قالوا في الاستطاعة والمشيئة بقول أهل السنة في أن الاستطاعة مع الفعل ، وأنه لا يكون إلا ما شاء الله تعالى [١].

أما الحارثية من الإباضية فقالوا : بالقدر على مذهب المعتزلة ، وفي الاستطاعة قبل الفعل ، وفي إثبات طاعة لا يراد بها الله تعالى ، وقد كفرهم سائر الإباضية في ذلك ، لأن جمهورهم على قول أهل السنة في أن الله تعالى خالق أعمال العباد ، وفي أن الاستطاعة مع الفعل كما قال أبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ) وهو من رؤس المعتزلة ، وكذلك أتباعه من القدرية .

ولكن يبدو أن مذهب جمهور الإباضية منهم ، وهو التطور الأخير والحديث لمذاهب ومعتقدات الخوارج في شمال إفريقيا والمغرب العربي - هو المذهب الأقرب إلى مذاهب أهل السنة والجماعة من غيرهم .. وهم مما لا شك وكما سوف نرى في الفصل القادم ينزعون ويحاولون أو يدعون بالانتساب لمذهب أهل السنة من غيرهم من الخوارج ، ويكرهون أن يوصفوا بالخوارج أو ينتسبون إلى مذاهبهم [٢] أما عن مذاهبهم واعتقادهم في القدر والاستطاعة والفعل والمشيئة فيتضح من خلال ما حكاه الكعبي عنهم باختصار : فقال : قالوا : إن الاستطاعة عُرض من الأغراض وهي قبل الفعل وبها يحصل الفعل ، وأفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، إحداثاً وإبداعاً ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً، ولا يسمون أميرهم أمير المؤمنين ، ولا أنفسهم مهاجرين ، وقالوا : العالم يفني كله إذ فنى أهل التكاليف ، وقالوا : أن مرتكب الكبيرة كفر كفر نعمة لا كفر الملة ، وتوقفوا في أطفال المشركين ، وأجازوا تعذيبهم وأجازوا دخولهم الجنة تفضلا [٣]

---

١ البغدادي – الفرق بين الفرق - صـ٩٧ .

٢ - المصدر السابق – صـ١٠٥ ، كذلك الشهرستاني – الممل والنحل – صـ١٣٦ . للمزيد راجع : دائرة المعارف الإسلامية - جـ١ (مادة الإباضية) . كذلك دكتور - عامر النجار - الإباضية وصلتها بالخوارج .

٣ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ١٣٤ ، صـ١٣٥ .

وتذكر بعض فرق الخوارج والشيبانية أيضاً ، قولهم بالجبر ، ووافقوا مذهب جهم بن صفوان (١٢٨هـ) في مذهبه في الجبر، ونفي القدرة الحادثة .[١]

هكذا نلاحظ مدى الاضطراب الذي يسود عقائد الخوارج بين القول بالقدر والاستطاعة - والجبر .

٨ - أدب الخوارج وثقافتهم : -

تكونت فرق الخوارج وفروعها وزعمائها من أجناس عربية بدوية في أول أمرهم ثم دخلت عليهم أجناس أقرب من الموالي ، وبعض البلدان والأمصار التي فتحها المسلمون ، منذ فتوحاتهم في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب ، لذلك كانت تغلب على سيرتهم وسلوكياتهم وتفكيرهم الطابع البدوي والعربي مع شيء من البساطة والبلاغة في التعبير ومقارعة الحجة بالأخرى ، كان أكثرهم من قبائل بني تميم ، وقيس وتغلب وبكر وبعض الموالي الذين يشتركون معهم في كراهية بني أمية ، وقد شاع بينهم الخلاف المستمر الممتزج بالشدة والحسم ، لذا فلاحظ كثرة تفرقهم شيعاً وأحزاباً وفروعاً ، يقاتل بعضهم بعضاً لمجرد خلاف البسيط في رأي أو موقف أو فتوى ، يضاف إلى ذلك ضيق الأفق في الفكر والنظر المحدود ، فلم يفسحوا مجالاً للجدل ، وتبادل الرأي والفكر والتأويل أو الفلسفة كما كان عند الشيعة ، وأهل السنة والرأي والمتكلمين ، وهم أي الخوارج على اختلاف طوائفهم شجعان إلى أقصى حدود الشجاعة ، صرحاء في أقوالهم واعمالهم يجودون بأنفسهم في القتال إخلاصاً لعقيدتهم ، يستهزؤن بخصومهم لتمثلهم لمبدأ التقية كالشيعة مثلاً ، كانوا كذلك أبعد ما يكون عن التطور الفكري والعلمي والاجتماعي والسياسي ، تغلب عليهم البساطة في كل شيء ، في المأكل ، والملبس ، ووسائل الحرب والقتال . إيمانهم إيمان القلب قبل أن يكن إيمان العقل ، والعلم ، يجمعهم التشدد في العبادات ، والانهماك فيها ، إذ يصفهم الشهرستاني : أنهم أهل صوم وصلاة ، ويصفهم المبرد في كتابة الكامل ، أنهم يبرؤن من

---

١ - نفس المصدر - ص١٣٣ .

الكذب ومن ذى المعصية الظاهرة ، وقد صرح أحد الموالي أن"عروة بن حدير " أحد زعماء الخوارج : ما كان يأتيه بطعام في نهار قط ، ولم يأته بفراش بليل "[١] ويصفهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه " أن للخوارج جباهاً قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الإبل ، عليهم قمص مرحضه وهم مشمرون " [٢]

وإن كانوا قد بحثوا في قضايا سياسية أو كلامية وأصولية ، إلا أن طريقتهم يغلب عليها طابع البساطة ، أو التأثر ببعض الأنظار الكلامية القدرية أو المعتزلية ، وتخلو بالتالي من الطابع الجدلي الفلسفي ، بالإضافة إلى التزامهم بحرفية النصوص بالكتاب والسنة .

هذه الصفات والطابع الذي صار عليه فكر الخوارج وسلوكياتهم والذي يحمل الشدة في الدين ، والعبادات ، والإخلاص للعقيدة ، والشجاعة النادرة ، والعربية الخالصة بما فيها من بداوة وبساطة جعلت أدب الخوارج وثقافاتهم ، لها مميزات خاصة عن غيرهم .

إذ يمتاز أدبهم بالقوة شعراً ونثراً ، وتخير اللفظ ، وقوة في السبك ، وفصاحة في الأسلوب ، وقوة في الحجة ، وبسط الرأي - تكلم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مع رجل من الخوارج ، فازداد إعجاباً بأسلوبه وفصاحته فقال " لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وإني أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة ، وقر في قلبي الحق " . وقد اشتهر منهم عدد كبير من الشعراء ، والبلغاء منهم : قطري بن الفجاءة (٧٧ هـ) ، وعمران بن حطان والطرماح ، ومن علماء اللغة أيضاً : أبو عبيد معمر بن المثنى فقد كان من أوسع أهل البصرة علماً باللغة ، والأدب ، والنحو ، وأخبار العرب [٣] .

ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من نساء الخوارج اشتهرن بالأدب والشعر والفصاحة ذكرهن أكثر المؤرخين في كتاباتهم نذكر منهن : سيدة يقال

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ١١٨.
٢ - راجع ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - جـ ٢ - صـ ١٣٢ وما بعدها .
٣ أحمد أمين - فجر الإسلام - ص١٦٤ ، ص١٦٥ .

لها " أم حكيم" ، إذ كانت تحمل على الناس وتقاتل وترتجز شعراً أو نثراً ، [1] كذلك امرأة وأم شبيب الشيباني الخارجي يقال لهما : غزالة وجهيزة [2].

وقد أشادت بسيرتهم وقوة تمسكهم في العبادات والدين بعض المقالات إذ قال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (ت٩٩ هـ) ، لبعض الخوارج ، وإني علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها " ، كذلك يروي أن عليا رضي الله عنه في أخر أيامه قال عنهم " لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه " يقصد بذلك معاوية إذ كان لا يطلب حقاً وإنما كان يطلب باطلاً ويحامي عنه ، وقد أدركه . [3]

كان الخوارج إلى جانب ما سبق ذكره ، يتمتعون بديمقراطية خالصة وحقيقية ، لا يرون الأمير إلا كأحدهم ، ولا العظيم إلا خادمهم ، كانت رؤيتهم السياسية في سيرة الخليفة أو الأمير واضحة إذ يجب أن يعدل الخليفة والأمراء في الرعية ، وإلا يقاتلوهم حتى يعزلوا أو يقتلوا . والتمسك بنصوص الكتاب والسنة ، دون انحراف أو تأويل قيد شعره ، وأن لا يسلكوا مسلك التقية في القول والفعل والعمل ، ووراء ذلك كله نفوسهم البدوية ، يغلب عليها كل الاستعداد للقول وفصاحة اللسان " فكانت تتوافر فيهم قدرة على البيان،وسرعة في البديهة ،وأداء للمعنى بأوجز عبارة ،وأقوى لفظ " [4]

ومع كل هذا فقد اجتمعت لهؤلاء الخوارج العاطفة القوية ، والأدوات الصالحة للتعبير .الأمر الذي جعل أدبهم وثقافتهم لهما طابع خاص ولون خاص ومميز غير لون وأدب المعتزلة ، أو الشيعة مثلاً ، فأدب المعتزلة أدب فلسفي فيه عنصر المعاني أغلب وأقوى ، وأدب الشيعة : أدب باك وحزين على فقدان الحق ، أو أدب يغلب عليه لون الغضب لأن الخلافة لم توضع في موضعها الصحيح في علي وأبنائه من بعده ، أما أدب الخوارج : فهو أدب القوة ،

---

١ راجع - أبو الفرج الأصفهاني - كتاب الأغاني - ج٤ .
٢ راجع - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص١١١ ، ١١٢ .
٣ أحمد أمين - فجر الإسلام - صـ ٢٦٣
٤ أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - صـ ٣٤١ .

والاستماتة في طلب الحق ، أدب التضحية بالنفس والمال والابن والولد ، أدب الخوارج أدب الرجل البدوي ، البسيط ، الذي تتخلله القوة ، والشجاعة والإباء والكرامة ، بدون فلسفة أو اشتقاق للمعاني ، أدب الخوارج يغلب عليه الغضب ، والثورة أحياناً لا من أجل شخص ما ، ولكن من أجل العقيدة الإسلامية ، وأصولهم أو مبادئهم السياسية ، وعقائدهم في الدين والسياسة ، كانوا يبكون ، ويرثون ويزرفون الدموع ، لشحذ الهمة ، وطلب الثأر لا يعرفون هزلاً ، ولا يعرفون خمراً ، ولا مجوناً ، يعرفون الجهاد والقتال ، والتربية القاسية التي تخرج الرجال لحمل الأمانة ، لا يحرصون في أدبهم وثقافتهم على الحياة ، بقدر حرصهم على الموت في سبيل نصرة عقائدهم وأصولهم وسياستهم ، ودينهم ، وطاعة ربهم ، لا يعرفون في أدبهم الكذب ولا النفاق قال عنهم المبرد في الكامل " الخوارج في جميع أصنافهم تبرئوا من الكذب أو الكاذب ، ومن ذي المعصية االظاهرة " [1]

وقد قال بعض شعرائهم وهو عمران بن حطان الخارجي :

لقد زاد الحياة إلي بغضاً   وحباً للخروج أبو بلال [2]
أحاذر أن أموت على فراشي   وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
فمن يك همه الدنيا فإني   لها والله رب البيت قالي

وكان الخوارج في غزلهم يمزجون بين الشجاعة والغزل ، ويوفقون بين الحب للحياة والحب للموت ، وكان أدب الخوارج نابعاً من ثقافتهم الدينية والاجتماعية ، وعبر عن ظل حياتهم الاجتماعية ، حياة يغلب عليها الطابع البدوي الصحراوي ، ثقافتهم ثقافة عربية خالصة ، ولم يكن أدبهم كتباً تؤلف ، ولا مقالات تكتب بل شعر أو نثر أو خطب ، كذلك لم يترك معظم الخوارج كتباً مصنفة في علم الأصول أو الفروع إلا اليسير ، وقد ضاع معظمها ولم يبق منها إلا الأقل القليل ، وتناثرت معظم أقوالهم وأصولهم وعقائدهم السياسية في بطون كتب المؤرخين وكتاب المذاهب والطبقات ، ولولا ذلك لضاع تراث هؤلاء ولم

---

١ المبرد - الكامل - جـ ٢ - صـ ١٠٦ .

٢ أبو بلال : أحد زعماء الخوارج وهو مرواس بن أدية ، نظرنا أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - صـ ٣٤٤ .

نعرف عنهم الكثير ، وإن كانوا قد أصبحوا لهم دويلات في العصور المتأخرة في شمال إفريقيا وبلاد المغرب العربي الأقصى ، فإن ذلك يرجع إلى تطورهم ، وتجمعهم المبكر في هذه المناطق .

٩- مناظرات الخوارج في رد شبهاتهم :

وردت مناظرات بين زعيمين من زعماء الخوارج هما : نافع الأزرق قتل سنة (٦٠ هـ) ونجدة بن عامر سنة (٦٩ هـ) زعيمي الخوارج الأزارقة والنجدات ، في بعض المصادر رأينا صياغتها بكاملها هنا ، بما يفيد في رد شبهاتهم ، فيما غالوا من أصولهم السياسية والعقائدية ، وقد وردت في كتابين متبادلين بينهما..

الكتاب الأول : بعث به نجدة بن عامر قتل سنة (٦٩ هـ) ، زعيم النجدات إلى نافع الأزرق يقول فيه :

" أما بعد فإن عهدي بك وأنت لليتيم أب ، وللضعيف أخ ، لا تأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك ،

أما تذكر قولك : لولا أني أعلم أن الإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ، فلما شريت نفسك في طاعة ربك ، ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق نصه ، وركبت أمره ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد اثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ، فاستحالك واستهواك واستغواك وأغواك فغويت ، فأكفرت الذين عزرهم الله في كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصدق ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ التوبة (٩١)

ثم سماهم أحسن الأسماء فقال ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ سورة التوبة (٩١)ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى الرسول ﷺ عن قتلهم ، وعن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي ، فنهى الرسول ﷺ عن قتل النساء والصبيان ، وفي رواية : اقتلوا المشركين واستحيوا شرخهم " والشرخ

الصغار الذين لم يدركوا ، وقال الله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ سورة الأنعام آية (١٦٤) ، وقال في القعدة خيراً وفضل من جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله تعالى ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ سورة النساء (٩٥) .

ورأيت أن لا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله ، وانظر لنفسك واتق يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً - فإن الله بالمرصاد ، وحكمه العدل وقوله الفصل ، والسلام .

الكتاب الثاني: كتبه نافع الأزرق - يرد فيه على نجدة بن عامر ، يقول فيه :
" أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظني فيه ، وتذكرني ، وتنصح لي وتزجرني وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسأل الله أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعبت على ما دنت به من إكفار القعدة ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة ، فسأفسر لك لم ذلك ، أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا بمكة محصورين مقهورين لا يجدون إلى الهروب سبيلاً ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين قرأوا القرآن ، وقد عرفت ما قال الله فيمن كان مثلهم إذ قالوا ﴿ كنا مستضعفين في الأرض ﴾ فقيل لهم ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ سورة النساء (٩٧) وقال ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ وقال ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾ فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله ، وقال ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ فانظر إلى أسمائهم وصفاتهم .

وأما أمر الأطفال ، فإن نبي الله نوحاً عليه السلام ، كان أعلم يا نجدة مني ومنك ، فقال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ سورة نوح (٢٦) فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يلدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ، ولا نقوله في قومنا .

وأما استحلال الأمانات فيمن خالفنا ، فإن الله عز وجل ، أحل لنا أموالهم ، كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طلق ، وأموالهم فيء للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر إلا بالتوبة " [١]

وفي معرض رد بعض شبهات الخوارج ، وأخطائهم نذكر ، أن قول الأزارقة أن عبد الرحمن بن ملجم كان على حق ، في قتله للأمام عليّ رضي الله عنه ، وأنه نزل في شأنه قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ سورة البقرة (٢٠٧) هذا مردود عليه بما يروي عن أبن عباس وأنس بن مالك وجماعة ، من أن هذه الآية نزلت في " صهيب بن سنان الرومي " حينما أراد الهجرة من مكة ، وتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته وأنبل ما في كنانته من سهام ، ثم قال يا معشر قريش ، إن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي قالوا له : نعم ورجعوا ، ولما وصل إلى الرسول عليه السلام قال " ربح البيع صهيب " . فنزلت في حقه هذه الآية .

كذلك للرد عليهم فيما يتعلق بإنكارهم لسورة يوسف من القرآن ، أن هذا القول منهم خروج على كتاب الله تعالى ، وكفر به ، لأن من ينكر بعض القرآن كالذي ينكره كله .

كذلك في رد شبهاتهم حول : البراءة من الأطفال حتى يدعوا إلى الإسلام هذا القول يناقض قولهم إن أطفال المشركين في النار مع آبائهم لأن على قولهم هذا يكون أطفال المشركين مشركين كآبائهم ، ومع هذا لم يحكموا على أطفال المسلمين بالإسلام تبعاً لآبائهم . [٢]

---

١ ـ ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ١ ـ صـ ٣٨٢ ـ كذلك ـ المبرد ـ كتاب الكامل ـ جـ ٢ ـ صـ ١٣٥ صـ ١٣٦ . كذلك نظرنا في ذلك : طه عبد الروف سعد ـ المرشد الأمين ـ ملحق بكتاب (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ـ للرازي) ـ صـ ٦٧ ، صـ ٦٨ .

٢ ـ دكتور عبد الروف سعد ـ المرشد الأمين ـ (بكتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي) ـ صـ٦٩ ، صـ٧٠

الفصل السادس

الخوارج في المغرب العربي
وشمال إفريقيا

"الفصل السادس "

" الخوارج في المغرب العربي "
" وشمال إفريقيا "

أولاً : مدخل تمهيدي :

عرضنا فيما سبق لفرق الخوارج المتعددة وفروعهم الكثيرة ، وأصولهم العقائدية والسياسية ، وما كان لأفكارهم ونظمهم من خطر في تاريخ الإسلام السياسي والعقائدي ، والخوارج بما لا شك شغلوا الحياة السياسية الفكرية والدينية الإسلامية . وتناولتهم أقلام الكتاب المؤرخين والباحثين بالدراسة والتحليل ، فقد أمتد خطر هؤلاء إلى مساحات متفرقة من تاريخ الإسلام بالإضافة إلى الأقطار والأقاليم المختلفة ، شرقاً ، وشمالاً ، وجنوباً . وكذلك انتشرت مذاهبهم ببلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا بصفة عامة .. وربما ظهروا في بلاد المغرب العربي بصورة أكثر اعتدالاً في عقائدهم السياسية والدينية ، وأضفوا على مبادئهم تطوراً كبيراً كما سنرى ، ولكن كيف كان هذا التواجد للخوارج ، وكيف انتشرت مبادئهم ومذاهبهم بين قبائل وشعوب البربر بإفريقيا والمغرب ؟

مما لا شك أن المصادر التاريخية في هذا المجال مليئة بالأفكار والثورات التي تولدت عنها معارك حربية كبيرة ، ونحن بطبيعة الحال هنا نركز على الاتجاهات والأفكار العقائدية المذهبية ، مع توضيح بعض الملابسات والعوامل التي ساعدت على ذلك ، وأدت إلى توطيد أركان مذاهب الخوارج بشمال إفريقيا ، والمغرب العربي .

مما لا شك أن الخوارج رفضوا جميعاً خلافة معاوية والأمويين ، وأصبحوا مصدر قلق دائم لهم ، وقاموا بعدة ثورات وحروب متلاحقة ، وقد

استطاع الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥ هـ - ٧١٤ م) - أن يضعف شوكتهم ولم تقم لهم قائمة تذكر فيما بعد ، وفي العصر العباسي قلت فعاليتهم ، إلا من رجل منهم إلى شمال إفريقيا ، من الصفرية ، والإباضية ، فعادوا إلى السياسة مرة أخرى . (١)

وتفيد المصادر التاريخية ، أنه إزاء ضغط الدولة على الخوارج في مركز الخلافة ، وخاصة بعد عنف الحجاج وشدته ضدهم بالعراق ، أضطر هؤلاء إلى الالتجاء إلى أطراف الدولة البعيدة شرقاً في خراسان ، وشمالاً في أرض الجزيرة ، وجنوباً على سواحل الخليج الفارسي ، وكذلك في المغرب العربي .

ولقد وجد البربر في المذهب الخارجي الذي يدعوا إلى المساواة التامة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم ، مع الدعوة إلى الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول ، رابطة معنوية تؤلف بينهم ضد العرب ، الذين أساؤا السيرة فيهم ، كما وجدوا في هذا المذهب الخارجي شرعية للخروج على الخلافة ، غير أنهم شككوا في صحة تصرفاتهم من الناحية الدينية ، و خاصة بعد أن جعلوا الأساس السياسي أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . (٢)

أما عن التوقيت الدقيق لدخول الخوارج إلى بلاد المغرب ، فهو غير معروف بدقة ، وإن كان أبن خلدون يربط بين دخول المذهب الخارجي وبين مقتل يزيد بن أبي أسلم ســـــنة (١٠٢ هـ ، ٧٢٠ م)، أما ابن الأثير فينسب ذلك إلى دخول أهل العراق إلى المغرب أيام هشام بن عبد الملك . (٣)

بل وربما أنضم بعضهم إلى الجيش العربي الإفريقي ، كما فعل أهل المدينة والحجاز بعد تنكيل الشاميين بهم بعد وقعة الحرة سنة (٦٣ هـ) ، وبعد مقتل ابن الزبير (٧٣ هـ) فقد كان الخوارج يتحالفون في بعض الأوقات مع أبن الزبير ضد الأمويين ، وتشير بعض المصادر إلى أن أول إشارة إلى الخوارج في المغرب ترتبط بغزو الأندلس ، إذ تذكر النصوص أن طريف بن ملوك الذي

١- دكتور إبراهيم مدكور - في الفلسفة الإسلامية - جـ٢ ، صـ١١٠
٢- دكتور سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ ٢٥٣ " دار المعارف بدون تاريخ
٣ - راجع أبن الأثير - الكامل في التاريخ - جـ٣ - أحداث ٢٦ - ط دار المعارف القاهرة ١٢٨٥ هـ

قاد أول سرية إسلامية إلى أرض الجزيرة الخضراء سنة (٩١ هـ ، ٧١٠ م) والتي سميت به جزيرة طريف ، كان مع الخوارج في ثورة ميسرة ، والظاهر أن تسامح الخليفة الأموي (عمر بن عبد العزيز ت عام(٩٩ هـ) ومحاولته مصالحة الخوارج ، كان هدفه نوعاً من الهدوء هيا لهم استعادة قواهم بعض الشيء ، كما جعلهم يعدلون أيضا عن آراء المتعصبين منهم مثل الأزارقة ، وهكذا ظهر الخوارج في المغرب في شكل الصفرية . ومما لا شك أن مبادئ المذهب الآتية من العراق كانت تنتشر في صمت وسرية ، والظاهر أن الدعاة لم ينشروها تحت أسم مذهب معين بل أذاعوها باسم الإصلاح والدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة ، مما يسميه أبن خلدون إلباس الحق بالباطل ، وفي سنة (١٢٢ هـ ، ٧٤٠ م) ، كان المذهب الخارجي قد أستهوى عدداً من الأنصار لا يسمح بمعارضة الحكومة فقط ، بل وبالثورة والانتصار على القوات العربية في المغرب وشمال إفريقيا . [1]

لكن كيف كانت ثورة الخوارج ، وما هي المبادئ التي قامت عليها ؟

بل وكيف أتاحت هذه الثورة لظهور فرقتي الصفرية والإباضية ؟

ربما كانت البدايات الأولى لهذه الثورة عن طريق قائدها وهو ميسرة المدغري الذي ينتسب إلى قبيلة مدغرة من القبائل البترية ، وكان يلقب بالفقير نسبة إلى فقره وزهده ، فقد كان يشتغل سقاءً يبيع الماء في سوق القيروان عاصمة إفريقية وهي مركز الإشعاع الديني والثقافي في ذلك العصر ، ومحط العلماء والفقهاء من أهل الدين وكان من بينهم أجلة التابعين من أهل الزهد والورع والتقوى ، وكان من بينهم من يدعو إلى العدالة والمساواة بين المسلمين. وكان لمثل هذه الدعاوى صداً في فكر ومذاهب الخوارج أو غيرهم وكما يذكر المؤرخون أن ميسرة ـ كان يدعو إلى تحقيق المساواة في الأعطيات بين العرب والبربر في الجيش الإفريقي ، يضاف إلى ذلك أن ميسرة ذهب إلى دمشق ، وأقام ببلاد المشرق فترة عندما ذهب لعرض شكواه على الخليفة الأموي . الأمر الذي أدى إلى زيادة تعرفه على مبادئ الخوارج التي كانت منتشرة ببلاد

١ـ دكتور سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ صـ٢٥٤ ـ صـ٢٥٥ .

المشرق العربي وبصفة خاصة مبادئ الخوارج من " الصفرية " نسبة إلى مؤسسها زياد بن الأصفر - كما عرضنا لفرقتهم في الفصل السابق - وهذه الفرقة أشبه بفرقة الوسط ، وتمثل مرحلة التطور لمبادئ الخوارج من التطرف المذموم الذي تمثله فرقة الأزارقة " من قبل إلى الاعتدال الذي تمثله فرقة الإباضية فيما بعد ، وعلى مبادئ الصفرية الوسط قامت ثورة ميسرة [١] بل وبداية انتشار مبادئهم بشمال إفريقيا جنباً إلى جنب مع مبادئ وتعاليم الإباضية ببلاد المغرب العربي .

عاد ميسرة من بلاد الشام والمشرق العربي ، بعد أن خاب رجاؤه وأنصاره معه من لقاء أو إنصاف الخليفة الأموي لهم ، وقرروا السير على منهاج الخوارج في بلاد المشرق ، فخرجوا من المعارضة الصامتة إلى الثورة المسلحة ، ابتداء من عام (١٢٢ هـ ، ٧٤٠ م) ، حيث ذهب إلى مواطن قبيلة مدغرة ، وأعلن ميسرة هذا نفسه إماماً وبايعه الناس . وسرعان ما انضمت إلى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسة ، وبرغوطة ، وكانت دعوة الخوارج منتشرة في هذه القبيلة الأخيرة بفضل دعوة طريف بن ملوك رئيسها .. وهكذا [٢]

وعلى ذلك فإن المبادئ التي قامت عليها ثورة ميسرة وأنصاره ممن التحقوا بمذاهب الصفرية ، هي تلك التي يدين بها خوارج المشرق والتي تتمثل في شكلها السياسي القائم على الطابع الديني ، إذ رفعوا شعار المساواة بين جميع المسلمين دون أية تفرقة عنصرية ، مهما اختلفت أجناسهم والرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول في عهد الشيخين أبي بكر وعمر .

وفي حقيقة الأمر فإن ثورة خوارج الصفرية بناءً على هذه المبادئ كان لها أثرها الكبير في انتصارات البربر الرائعة ضد جيوش الخلافة ، وكان ذلك نزيراً بإشعال نيران الثورات الأخرى في كل بلاد المغرب من طرابلس إلى

١- المصدر السابق - ص٢٥٦ ،

٢- للمزيد من الدراسة راجع المصدر السابق م[illegible] ما بعدها .

الأندلس ، كما يعني انتصار وانتشار مذاهب الخوارج بشكل دائم له أثاره الدائمة في البلاد .

أما عن الإباضية ، وثوراتهم وانتشار مذاهبهم في المغرب وشمال إفريقيا فإن المصادر التاريخية تفيدنا في ذلك ، بأن أهم الثورات البربرية الخارجية ، كانت في إقليم طرابلس ، وعن سبب هذه الثورات فقد كان مقتل أحد زعماء الإباضية هناك وهو عبد الله بن مسعود النجيبي على يد إلياس بن حبيب ، ولعل هذه هي أول إشارة لظهور المذهب الإباضي في المغرب ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج ، القريب من مذهب أهل السنة ، والذي يعتبر في المغرب خامس المذاهب الأربعة . وكما ذكرنا في الفصل السابق - أن صاحب هذا المذهب هو عبد الله بن أباض التميمي ، أحد زعماء الخوارج ، ومؤسس هذا المذهب .

ومن الجدير بالذكر أن كتب الإباضية تنسب فضل إدخال المذهب الإباضي إلى المغرب ، إلى " سلمة أبن سعيد " في أوائل القرن الثاني الهجري ، وكيف أنه اجتهد في نشره وتفانى في إذاعته إلى درجة أنه كان يقول " وددت أن يظهر هذا الأمر - يعني مذهب الإباضية - يوماً وأحداً ، فما أبالي أن تضرب عنقي " [١] وقد نجح سلمه بن سعيد هذا ، في اكتساب أتباع مخلصين ، مثل عبد الرحمن بن رستم وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح ، الذين اعتنقوا المذهب ورفعوا رايته عالية بالمغرب من الناحيتين السياسية والمذهبية جميعاً وقد انتشر المذهب في ربوع طرابلس وما جاورها من مدن وبلدان وحدثت حروب وقتال شديد بين الإباضية وغيرهم مما لا داعي للخوض فيه لأنه يخرج عن نطاق بحثنا . [٢]

ولكن ما يهمنا هنا : أن المذهب الإباضي يمثل في الحقيقة أخر تطورات الفكر الخارجي ، فبعد تعصب الأزارقة الذين كفروا - وكما رأينا فيما سبق - غيرهم من المسلمين ، وأباحوا دماءهم ، خفف الآخرون من الخوارج من

١ - راجع الشماخي : سير علماء ومشيخ جبل نفوسة - صـ ١٢٣ ط حجر بالقاهرة بدون تاريخ .
٢ - للمزيد من الدراسة - دكتور سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي صـ٢٨٩ - وما بعدها

قسوتهم وقسوة مبادئهم التي لقيت نفوراً من جمهرة المسلمين ، كما تعرضت لرد فعل عنيف من جانب الدولة .

فظهرت الصفرية ، أتباع زياد بن الأصفر ، ولم يرم هؤلاء غيرهم من المسلمين بالشرك ، بل وقفوا وكما أشرنا من قبل موقفاً وسطاً بين التساهل والتشدد المقبول ، كما أنهم قبلوا مبدأ التقية ، ورغم أن الصفرية لم يروا دار مخلفيهم دار حرب ، فإنه لم تكن لهم شعبية كبيرة أيضا ، لذلك وصفوا بالقسوة ، وباستحلال سبي المسلمين ، وترتب على ذلك أزداد اعتدال الخوارج من الإباضية منذ أواخر القرن الأول الهجري أيام عبد الملك بن مروان فلقيت قبولاً من الناس ، وذاعت وانتشرت في المغرب والمشرق على السواء .[١]

ويحق لنا من هذا المقام أن نعرض بعض وجهات النظر لدى بعض الباحثين الجزائريين بجامعة قسنطينة فيما يتعلق بمذاهب الخوارج وثوراتهم ببلاد المغرب العربي وشمال أفريقيا معللاً أسبابها وأهدافها فيذهب " إلى أن ثورات الخوارج في المغرب العربي (١٢٢ هـ) تتطلب مزيداً من البحث بخصوص أسبابها وأحداثها وأهدافها ونتائجها المحققة وغير المحققة ، كذلك فإن ثورات الخوارج متشابكة أحداثها متداخلة عناصرها ، غامضة أهدافها ، ومما يدل على ذلك تعدد تسميات هذه الثورات مثل " ثورة البربر ، ثورات البربر ، ثورة الخوارج ، ثورات الخوارج ، الثورة المغربية ، ثورات المغاربة ، ثورة ميسره ، ثورة زناته ، ثورة البترية ، الثورة الاجتماعية .. وهكذا فإن هذه التسميات كافيه أن تمدنا بزوايا متعددة لنظر الباحثين لهذه الثورات ، أما أن تكون زوايا قومية ، أو دينية مذهبية أو إقليميه ، أو اقتصادية وفردية ، لقد ظل المغرب بين مد وجزر ، حتى كاد يستقل عن الخلافة العباسية في بغداد بعد قيام دويلات مستقلة مثل الدولة المدرارية الصفرية منذ عام ١٤٠هـ والدولة الرستمية الإباضية عام ١٦٠ هـ ، والدولة الإدريسية العلوية عام ١٧٢.هـ ، والدولة

---

١ - المصدر السابق - صـ٢٨٧ ، صـ ٢٨٨ - كذلك عن أصول هذه المذاهب راجع الفصل السابق - عن فرق الخوارج وأصولهم ومصادرها المختلفة .

الأغلبية عام ١٨٤ هـ ، هذه فكره موجزه عن ثوارت الخوارج في المغرب تبين ظروف الزمان والمكان التي قامت فيها.

ثم يشير الباحث إلى أن مصادر التأريخ العلمي للخوارج الصفرية تكاد تكون قد فقدت بأكملها إذ لم يبق من كتب الصفرية كتاب لأنها أحرقت في الصراع الشيعي العبيدي [1] من جهة والخارجي المدراري والرستمي من جهة أخرى منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، على أن بعض المصادر الإباضية عن الخوارج - ظلت محتفظة بكيانها فابن سلام اللواتي الإباضي في القرن الثالث الهجري وضع كتاباً عن شرائع الدين وتأريخه من وجهة نظر إباضية ، وهو العنوان الذي صدر به عن دار اقرأ عام ١٩٨٥ م ، وأبو زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني ت عام (٤٧١ هـ) كتب كتابا - سير الأئمة وأخبارهم - يقدمان لنا ثورات الخوارج والبربر الإباضية والصفري مبرزين فضائل البربر بكثير من الروايات والأحاديث التي تنسب إلى الرسول محمد ﷺ أو أحد الصحابة ، وينتهي الباحث الجزائري إلى الرأي " أن البربر الخوارج فعلاً ثاروا ضد الوجود العربي ، وإن ارتد بعضهم عن الإسلام ، كما أن ثورتهم بربرية خارجية ضمت القبائل أو السواد الأعظم من المغاربة ، وأعلنوا تمردهم على الخلافة وعلى الولاة الجوره ، وإنما ثاروا ليقولوا : " لا حكم إلا لله " ، أي أن الفكر الخارجي المتشدد في الدين أحتوى هؤلاء فعمق إيمانهم ، بحيث رأوا أن حملة الإسلام إليهم دعاة وولاة وخلفاء قد انحرفوا عن سواء السبيل ، ووجب عليهم الخروج ضدهم ، لأنهم مغتصبون للحكم ، ولا يحكمون بما أنزل الله . وهذه مبادئ الخوارج الأساسية التي اعتنقها هؤلاء ، وأخلصوا لها ، وعملوا بالنفس والنفيس على إحياء الخلافة العادلة ، خلافة الراشدين ، والقضاء على

---

١ - المقصود بالشيعة العبيديين : وهم الفاطميون فيما بعد والذين جاؤا إلى مصر وفتحوها من الأخشيديين . وينسبون للشيعة الأسماعيلية

المغتصبين من بني أمية ، وبني العباس على حد سواء[1] وقد ظلت هذه الثورات البربرية الخارجية ، الصُفرية ، الإباضية وفرقهم تتطور حتى العصر الحديث .

هذا تقييم لمذاهب واتجاهات وثورات خوارج المغرب العربي ، وشمال أفريقيا ، من الناحية التطورية التاريخية ، لكن ما هي عناصر الخوارج وفرقهم وتطورهم عقائدياً وسياسياً ، سوف نحصر ذلك في فرقتين رئيسيتين : هما : الإباضية ، والصُفرية .

ثانياً : تطور مذاهب الخوارج بالمغرب العربي :

تمهيد :

كان من الممكن أن تنجح الحركات الخارجية في المغرب ، وتحقق حلمها في إقامة الحكومة الجمهورية المثالية التي تستمد سلطاتها حقيقة من الشعب ، الذي يتساوى جميع الأفراد في كل الحقوق والواجبات ، والذي يمكن لأي فرد فيه أن يصل إلى مركز الإمامة ، أو رئاسة الجماعة دون أية تفرقة عنصرية طالما يتمتع بالأهلية ، لولا انقسام الخوارج على أنفسهم فرقاً متنازعة ، متناحرة فيما بينها ، وتلك هي آفة الخوارج كما كانوا في المشرق . كما كان الخوارج بالمغرب بحاجة إلى قيادة حكيمة قوية رشيدة تستطيع توحيدهم ، ولم شملهم ، وتجبير شروخهم إذا انقسموا في المغرب إلى فرق متناحرة كما كانوا في المشرق كما أشرنا فيما سبق ، فانحصروا في فرقتين كبيرتين هما : الصفرية ، وأول ظهورهم كان في المغرب الأقصى ، ثم الإباضية ، وكان ظهورهم بعد ذلك بقليل في طرابلس ، وهم أيضاً انقسموا إلى فروع أخرى كما سنرى .

وكما ذكرنا ، فإن الإباضية كانوا حركة اعتدال في مذاهب الخوارج الأمر الذي قربهم من أهل السنة ، وساعدهم ذلك بصفة خاصة ، لما كان يسود

١- دكتور - بحاز إبراهيم - (معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة بالجزائر) ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي من سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠م - في المصادر العربية - (ملحق بمجلة جامعة قسنطينة) علوم إنسانية - صـ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢، ٥٥، ٦٦ ، ط دار نوميدا عام ١٩٩٠م.

مذاهب الصفرية بالمغرب من عنف ، وشدة ومخالفات كبيرة في العقائد والمذاهب يباعدهم عن مذاهب جمهرة المسلمين بالقيروان .

تجمع الإباضية من قبائل هوارة ، وزناتة بغربي طرابلس ، وأمروا على أنفسهم أبي الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافري وهو واحد من ضمن خمسة من كبار أئمة الإباضية حملة العلم الذي ينسب إليهم نشر المذاهب بالمغرب . (١)

وتذكر المصادر أن هناك أربعة من كبار أئمتهم وعلمائهم بالإضافة إلى أبي الخطاب وهم : عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم الدراني ، وإسماعيل بن ضرار ، الندامسي وداود القبلي النفزاوي ، إذ كان قد حرضهم سلمة بن سعد أول من دعى للمذهب الإباضي بالمغرب ، على الذهاب إلى البصرة وانضم إليهم أبو الخطاب بن عبد الأعلى ، ومكث هؤلاء الخمسة عدة سنين بالبصرة يدرسون أصول مذهب الخوارج على فقيه المذهب في وقته أبو عبيدة سلم بن أبي كريمة التميمي مولى بني تميم ، ثم عادوا إلى إفريقيا وأمروا عليهم أبا الخطاب إماماً لهم ، وعلى الخوارج بها (٢)

وقد تقدم أبو الخطاب بالإباضية ، وحارب زعيم الصفرية بالقيروان ابن أبي الجعد وقتله عام ١٤١ هجرية واستولى عليها وولى عليها صاحبه عبد الرحمن بن رستم ، الذي سوف يؤسس فيما بعد إمارة الإباضية المشهورة في تاهرت (٣) لكن الخلافات والعصبيات دبت بين الخوارج الإباضية بطرابلس والقيروان ، الأمر الذي سهل على ابن الأشعث والي الخليفة العباسي هزيمتهم وقتل أبا الخطاب وأنصاره ، ثم آلت زعامة الإباضية من بعده لرجل يدعى : أبي حاتم يعقوب بن حبيب بن مدين ، ثم توالت ثورات هؤلاء على يد رجال آخرين منهم عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي الإباضي والمسور بن هانى

١ ـ دكتور ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ صـ ٣٠٨ ، صـ ٣٠٩ .
٢ ـ للمزيد من التفاصيل راجع ، الشماخي ـ السير ـ صـ ١٢٣ ، المصدر السابق ـ صـ ٣٠٩ .
٣ ـ دكتور ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ صـ ٣١٠ وما بعدها .

الزناتي ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري .. وهكذا [١] صارت الحروب بين الخوارج الإباضية وأمراء وجند الخليفة سجلا بين هزائم وانتصارات إلى أن انقسم المغرب إلى ثلاث دول: دولة الرستميين ودولة العلويين الأدارسة في المغرب الأقصى ، ، ودولة الأغالبة السنية في إفريقية والمغرب الأدنى .[٢]

وبعد هذه العجالة في العرض التاريخي ، فإن ما يهمنا أن نصل إلى تاريخ وطريقة التطور العقائدي والسياسي في مذاهب الإباضية الرستمية ، فلنتتبع هذا التطور في ظل الدولة الإباضية الرستمية بقيادة عبد الرحمن بن رستم .

١- عبد الرحمن بن رستم وتطور مذهب الإباضية: (١٦٨ هـ / ٨٤ - ٧٨٥ م)

عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي ، يرتفع المؤرخون بنسبة إلى ملوك الفرس القدماء ، قدم والده إلى مكة للحج وبصحبته زوجته وابنه عبد الرحمن ، وبعدما توفى والده بمكة ، تزوجت أمه من رجل من أهل القيروان ، وأخذها وحمل ابنها عبد الرحمن إلى بلده ، ولذلك فقد تربى عبد الرحمن بن رستم في القيروان ، وأخذ العلم عن فقهائها ، ومال إلى تعاليم الخوارج ، ووقع تحت تأثير سلمة بن سعيد الذي كان يدعو لمذهب الإباضية ، وتذكر المصادر أيضاً ، أنه رحل إلى البصرة ببلاد المشرق حيث درس على أئمة المذهب هناك ومنهم أبو عبيدة مسلم بن كريمة التميمي ، مع إخوانه من المغاربة ، وبذلك أصبح واحداً من خمسة هم ، حملة العلم [٣]

وعندما عاد عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب اشترك في ثورة طرابلس مع الإباضية تحت قيادة أبي الخطاب ، بعد أن بايعوه بالإمامة عليهم ،

---

١ - للمزيد من التفاصيل التاريخية في حروب وثورات الإباضية بالمغرب انظر : المصدر السابق - صـ ٣٢٠ ، صـ ٣٣٦ ، صـ ٣٣٧ .
٢ - المصدر السابق - صـ ٣٦٠ .
٣ - لقد أشرنا إلى ذلك في الصفحات السابقة . كذلك للمزيد من الدراسة : انظر دائرة المعارف الإسلامية - جـ١ - صـ ٤٦٤ ، صـ ٤٦٥ - مادة " أبو الخطاب الحميري" .

واتخذت قبائل البربر الإباضية : هوارة ، ونفوسة وغيرها شعاراً لها : " لا حكم إلا لله ولا طاعة إلا طاعة أبي الخطاب " وغزت بقيادة الإمام الجديد جميع بلاد طرابلس ، وأصبحت طرابلس مقراً لإمامتهم ، وفي عام ١٤١ هجرية استولى جيش أبي الخطاب على القيروان من حوزة الخوارج الصفرية ، وولي عليها عبد الرحمن بن رستم ، الذي أصبح فيما بعد مؤسس الإمامة الإباضية " بتاهرت" وكان ثمرة فتوحات أبي الخطاب إقامة دولة إباضية تشمل إفريقيا جميعاً : طرابلس وبلاد تونس والجزء الشرقي من الجزائر ، وقد قتل أبو الخطاب (١٤٤ هـ) ، بعد معارك دامية مع جند الخلافة العباسيين ، إلا أن ما يهمنا هنا هو عبد الرحمن بن رستم وولاية القيروان ونشر مذهب الإباضية بالمغرب وتطوره .

وتفيد المصادر أنه بعد ولاية عبد الرحمن بن رستم إمامة الإباضية وولاية القيروان على أثر مقتل أبي الخطاب ، فإنه فر من القيروان إلى بلده تاهرت ، وكان عليه لكي يستقر هو وأتباعه الذين جاءوا من بلاد إفريقية وطرابلس في المغرب الأوسط ، أنه لابد لهم من تنظيم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الإباضي بين قبائل المنطقة ، والنداء لهذه القبائل لتأييد عبد الرحمن بن رستم ، وقد تطلب تنفيذ أو تحقيق هذا المطلب حوالي خمسة عشر عاماً ، وقد سهل هذا الأمر مجيء كثير من الإباضية في أقاليم المغرب الشرقية وطرابلس من قبائل هوارة ، وزواغة ، ومطماطة ، إلى عبد الرحمن بن رستم حيث أقاموا بين بني جلدتهم في المغرب الأوسط أو منطقة تاهرت [1]

وعلى ذلك فقد نجحت دعاية عبد الرحمن بن رستم وأتباعه في جذب القبائل والأفراد للمذهب الإباضي ودعوته ، بالإضافة إلى بعض خوارج الصفرية ، كذلك كما تفيد المصادر انضمت إليه جماعة تسمى " الواصلية" والذين يعتبروا من الإباضية ، رغم أن المعروف عن الواصلية أنهم من " المعتزلة " [2]

١- دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي صـ ٣٧٥ .
٢- المصدر السابق - صـ ٣٧٩ .

ويبدو أنه قد حدث نوع من التحالف والتوافق بين الفرقتين ، نتيجة لأخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر ، وهو موقف " المنزلة بين المنزلتين " المشهور والمبدأ الذي يميز فرقة المعتزلة عن سائر الفرق الإسلامية والكلامية .

ولهذا السبب فقد اعتبر المؤرخون معتزلة المغرب من الإباضية وقد اعترف الجميع بإمامة عبد الرحمن بن رستم بعد أن بويع بالإمامة عام ١٦٠ هـ ، وعلى رأسهم أبو حاتم [١] الذي خلف أبا الخطاب في طرابلس بعد مقتله على يد جند الخلافة كما أشرنا فيما سبق ، والذي اعتبر الإباضية إمامة أبي حاتم - إمامة دفاع ، ولم يكن إمام ظهور كأبي الخطاب ، لذلك كان يظهر لعبد الرحمن بن رستم الإمام الحقيقي الظاهر الزكاة وما زاد عنده من أموالها " [٢]

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الأمور تعتبر تطوراً واضحاً في مذهب الخوارج الإباضية وعقائدهم الدينية والسياسية ، سواء بالنسبة للموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر ، أو بالنسبة للإمامة الظاهرة أو الخفية الدفاعية .

تطورت أفكار الخوارج الإباضية وعقائدهم المذهبية والسياسية في ظل إمامة عبد الرحمن بن رستم عام ١٦٨ هجرية ، وابنه عبد الوهاب . إذ تشير المصادر التاريخية الإباضية إلى ذلك بشيء من التحليل ، وهو أن زعماء القبائل اجتمعوا لاختيار الإمام الذي يصلح لقيادة الإباضية بعد أبي الخطاب ، فاتفق رأيهم على اختيار عبد الرحمن بن رستم ، لعدة أسباب هي : فضله ، وكونه من حملة العلم ، وكونه عامل أبي الخطاب على إفريقية ، وأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل.[٣]

١- أبو حاتم يعقوب بن لبيد الملزوذي النجيسي ، إمام إباضي بالمغرب ، يصوره مؤرخو العرب من السنيين في صورة قائد العصاة البربر فحسب ، وقد لقبه إباضية طرابلس بالإمام ، وخرج لقتال أعدائه وقتل عام ١٥٥ هجرية . نظرنا : دائرة المعارف الإسلامية - جـ ١ - صـ ٤٤٥ ، صـ ٤٤٦ .

٢- دكتور : سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٧٩ ، كذلك : الشماخي - السير - ١٣٨ وما بعدها .

٣- راجع الشماخي - السير - صـ ١٣٩ ، صـ ١٤٠ ، وما بعدها .

والواضح أن هذه الرواية توضح لنا المبادئ الأساسية لاختيار إمام الإباضية وهي مبادئ ذوات طبيعة أخلاقية (الفضل) ، وعلمية (توافر شرط العلم) كذلك سياسية وهي المبايعة بعد توليه الولاية من قبل الإمام السابق . لما يتوافر فيه شروط الإمامة وعدم وجود ما يمنع عزله حين يقصر عن تطبيق مبدأ العدالة والمساواة .

وإذا تناولنا هذه المبادئ الأربعة ، في ضوء تحليلات فقهاء الفكر السياسي الإسلامي ، نجد أنها لا تكاد تختلف كثيراً ، عما كان متبعاً في اختيار الخليفة منذ الرعيل الأول لصدر الإسلام .

فالمبدآن الأوليان من مبادئ الإباضية المطلوب توافرها في اختيار الإمام أو الخليفة هي كما اتفق علي ذلك الفقهاء .

" فالفضل في النص السابق هو ما يوازي " العدالة " التي تعني الكمال الأخلاقي من حيث سلامة الاعتقاد ،وسلامة الجوارح ونزاهة التصرفات الشخصية" [١]

أما كونه من حملة (العلم) فهذا شرط أساسي بالنسبة لمن يتولى الإمامة ، كذلك ضروري بالنسبة لطبقة أهل الاختيار للإمام أو الخليفة ، والعلم بالنسبة للإمام هو الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة وسعادتها في الآخرة .[٢]

أما الشرط الثالث (كونه عامل أبي الخطاب على إفريقية) فيمثل فكرة التعيين ، أو الوصية التي تحولت إلى مبدأ الوراثة ، وهذا يعني تحول الإباضية عن مبدأ الاختيار .

وعند أهل السنة قبل مبدأ التعيين أو الوصية على أنه حقيقة تاريخية ، فقد أشار النبي ﷺ لأبي بكر بإمامة المسلمين في الصلاة ، كإشارة لاختيار المسلمين لإمامته وخلافته بعد الرسول عليه السلام ، كذلك أشار أبو بكر إلى عمر للولاية من بعده وتحقيق مبدأ الاختيار من قبل المسلمين ، وحدد عمر رضي الله عنه الخلافة في ستة نفر من المهاجرين ، ثم أتى معاوية وجعل العهد لابنه يزيد،

---

١ - دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٨٤ ، كذلك الماوردي - الأحكام السلطانية - صـ ٤ (الإمامة) - ط القاهرة عام ١٩٠٩ م .

٢ - ابن خلدون - المقدمة - صـ ١٩١ وما بعدها .

وبعد الأمويين طبق العباسيون أيضاً مبدأ الوراثة ، حدث كل ذلك مع الاحتفاظ بالشكليات من حيث تطبيق مبدأ الاختيار الممثل في البيعة ، وإن انتهى الأمر عند أهل السنة باشتراط صفة القرشية في المرشح للخلافة . [(١)]

ولكن الخوارج لا يوافقون على مبدأي التعيين والوراثة ، حيث أنهم طالبوا بتطبيق مبدأ الشورى والانتخاب ، كذلك أن لا تقتصر صفة المرشحين على طائفة أو قبيلة من القبائل أو الطوائف ، بل يكون الترشيح للولاية أو الإمامة (الخلافة) ، مفتوحاً أمام الجميع ، دون أية تفرقة عنصرية أو عصبية لدرجة أن الخوارج جميعاً أجازوا إمامة العبد الأسود طالما أنه يتمتع بالأهلية لهذا المنصب [(٢)]

والأصل السياسي عند الخوارج - كما نعلم - هو تطبيق مبدأ الجمهورية التي تكون السلطة العليا فيه للشعب جميعاً دون تمييز .

أما المبدأ الرابع : (وهو أنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل) .

وهذا ينافي شرط العصبية التي تقوم عليها الدولة كما أشار ابن خلدون كذلك.[٣]

ومما لا شك أن دفع مبدأ العصبية ، أو استناد الإمام إلى قبيلة يهدف إلى دفع ما يمكن أن تتعرض له الجماعة الإباضية من الاستبداد ، كما يطمح إلى تكوين الإمامة أو الحكومة المثالية الذي يكون العدل هو عصبيتها .

وهذا الأمر يمثل مرحلة من مراحل تطور الأفكار عند الخوارج والإباضية بعد أن ذهب بعض الخوارج إلى رفض الإمامة وعدم حاجة الجماعة إلى إمام إذا تحقق العدل بين أفرادها ..[٤] من قبل ، وقد اتفق في الرأي مع وجهة النظر لدى بعض الباحثين المحدثين والمعاصرين من أن أصحاب هذه الأفكار كانوا نظريين أكثر مما يجب ، فعندما أقام الإباضية إمامتهم في " تاهرت "[(٥)] لم

١- للمزيد في ذلك راجع - الماوردي - الأحكام السلطانية - صـ ٦، ٧ - عقد الإمامة ، كذلك ابن خلدون - المقدمة - صـ ١٩٠ ، صـ ١٩١ ، [فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب] .

٢ - ابن خلدون - المقدمة - صـ ١٩١ ، صـ ١٩٢ .

٣- المصدر السابق - (فصل أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك) - صـ ١٣٨ .

٤- دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٨٥ .

٥- تاهرت - مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني ثم البيزنطي ، وقد جاء ذكرها في الفتوح الأولى للإسلام بالمغرب العربي عام ٦٢ هجرية / ٦٨١ م ، في حملة عقبة بن نافع التي استشهد فيها ، وقد فر إليها عبد الرحمن بن رستم بعد هزيمته بالقيروان أمام جند الخلافة = =

يستطيعوا تطبيق نظرية الانتخاب الجمهوري في اختيار الإمام ، فأصبحت " إمامتهم وراثية " في بني رستم ، مثلهم في ذلك مثل الأمويين والعباسيين من قبلهم ببلاد المشرق وفي الأندلس ، وهذا يعني أنهم لم يتمكنوا من التخلص من تأثير مبدأ الوراثة الذي أصبح تاريخياً تقليدياً عند أهل السنة ، أو أنهم لم يستطيعوا التخلص كذلك من أفكارهم الأولى عندما كانوا شيعة لعلي ، يطالبون أن تكون الإمامة وراثية في آل البيت الشريف[1] ، وإذا كان ذلك كذلك ، فانني أضيف فكرة أخرى وهي أن الإباضية ربما تأثروا بالمد الشيعي العبيدي الإسماعيلي ببلاد المغرب ، فقد شهدت الساحة المغربية انتشاراً واسعاً للدعوة الشيعية العبيدية ، وتكونت لهم دولة إسماعيلية تتوارث الخلافة والإمامة في الأعقاب ، وقد تجاورت وتعايشت هاتان الدعوتان الشيعية والعبيدية ، والخارجية الإباضية ، وكانت تقوم بينهما نزاعات ومناوشات سجالاً ، وإن كان لكل دعوة منهما استقلاليتها المذهبية العقائدية ، والسياسية ، غير أن الجانب السياسي ربما أحدث تأثيراً بين الاتجاهين في خضم الصراعات المتلاحقة بين الفرق على الولاية والسلطة والإمامة .

وبطبيعة الحال فإن جماعة الإباضية انقسموا إلى مؤيدين ومعارضين في هذه المسألة (الوراثية) ، عندما خلف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والده في الإمامة عام (١٦٨ هـ / ٧٨٤ - ٧٨٥ م) ، فقد أنكر البعض أن يرث عبد الوهاب والده في الرئاسة ، وقد أطلق عليهم فرقة (النكارية) ، بينما تمسكت غالبية الإباضية بصحة وراثة وإمامة عبد الوهاب لوالده عبد الرحمن ، على أساس اختيار الأفضل ، وربما كان ذلك صحيحاً ، ولكننا سنصبح أمام أسرة من الأئمة الأفاضل تورث الحكم لأبنائها الأفاضل دون غيرهم من الناس

العباسية ، وهي إقليم بالمغرب الأوسط وأقام بها عبد الرحمن منذ ١٦١ هجرية - راجع دائرة المعارف الإسلامية - مادة (تاهرت)

١ - دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - ص ٣٨٦ .

وربما كان ذلك شبيهاً ـ كما ذكرنا آنفا ـ بما عرف عند الشيعة رغم أنه لا ينبني على مبدأ الوصية .[١]

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين أجمعوا على أنه رغم توافر الشروط الأربعة السابق ذكرها لإمامة عبد الرحمن بن رستم ، فإنهم يؤكدون كذلك عدالته التي كانت سبباً في الاعتراف به ليس كإمام للإباضية في تاهرت بالمغرب فقط ، بل كذلك للإباضية بالمشرق .[٢]

ومما يلفت النظر فيما حدث من تطور على مذهب الإباضية ، نزعة الزهد والتواضع والعدل التي امتاز بها إمام الإباضية ، الأمر الذي جذب لهذا المذهب أعداداً غفيرة من الجماعات لم تقتصر على المغرب فقط بل وكما يذكر المؤرخون من مصر وإفريقية أيضاً .

ولنذكر مثالاً تطبيقياً لما طرأ على فكر الخوارج الإباضية وسلوكيات أئمتهم من تطور ، فسبقت شهرتهم بلاد المشرق ومركز المذاهب في البصرة ، فعندما وصلت أخبار عبد الرحمن بن رستم وعدله إلى مدينة البصرة جمع أهلها أحمالاً من المال وسيروها إلى المغرب مع بعض الرسل وطلبوا منهم أن ينظروا في أمره ، فإن كان حاله على ما بلغهم أعطوه المال ، وعندما وصل الرسل إلى " مدينة تاهرت " وجدوا الإمام عبد الرحمن بن رستم فوق دار يطينها ، والعبيد يناولونه الطين .. وهكذا لم يختلف الإمام الشعبي في حقيقته عن تلك الصورة التي صورتها أخباره لهم في المشرق ، فاجتمع رأيهم على أنهم رضوا عنه ، فدفعوا لــه المال ، فنادى على الناس للصلاة الجامعة ، وشاورهم في المال ، فأشاروا عليه أن يفرقه في ذوى الحاجات ففعل بمحضر الرسل ، فأشاد الرسل بإمامته وعدله ، والذي تحقق ظهوره بالمغرب ، حتى أرسل البصريون إليه مالاً كثيراً ثانياً ، لكن هذا الإمام طلب رد المال إليهم مرة أخرى قائلاً " أن أهل بلاده

---

١ - المصدر السابق ـ صـ ٣٨٦ ، كذلك راجع : الشماخي ـ السير ـ صـ ١٤٠ .
٢ - راجع ـ الشماخي ـ كتاب السير ـ صـ ١٤٠ ، صـ ١٤١ ، صـ ١٥٨ .

يتمتعون بالعدل ، وأصحاب المال في حاجة إلى أن يدفعوا به عن أنفسهم الظلم " [1]

ومما لا شك أن هذا النص يشير إلى طموح الإباضية في أن ينتشر المذهب ببلاد المشرق كما حدث ببلاد المغرب ، بالإضافة إلى تحريض أهل المشرق على التخلص مما هم فيه من ظلم ولاة الخلافة العباسيين ، ولذلك عندما عرف إباضية المشرق بعدله وإمامته اعتبروه إمامهم أيضاً وراسلوه بكتبهم ووصاياهم .

٢ـ طريقة الإباضية الرستمية في اختيار الإمام :

لعل من مظاهر التطور الفكري السياسي عند إباضية الخوارج ، ما نلاحظه من طريقتهم في اختيار الإمام ، وذلك بمحاولتهم الرجوع بها إلى طريقة السلف الأول ، عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، مع وجود فارق جوهري بين الاتجاهين ، وربما هذا ما سوف يقنع بعض الباحثين المحدثين والمعاصرين إلى اعتبار هذه الجماعة ينتسبون لأهل السنة ، وكراهيتهم انتسابهم أو إطلاق عليهم لقب الخوارج .

وقد يبدو لنا ذلك بوضوح ، منذ ولاية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم واختياره للإمامة بعد عبد الرحمن والده ، إذ تذكر المصادر : " أنه عندما مرض عبد الرحمن بن رستم مرضه الذي مات فيه عام ١٦٨ هجرية / ٧٨٤ - ٧٨٥ م ، فإنه جعل الأمر شورى في سبعة من كبار أصحابه وثامنهم ابنه عبد الوهاب ، [2] وكما انتهى أمر السبعة الذين رشحهم عمر بن الخطاب إلى الاختيار والمفاضلة بين اثنين : هما عليّ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، ثم انتهاء الأمر باختيار عثمان رضي الله عنه للإمامة أو الخلافة ، فإنه قد انتهى

١ـ نظرنا : الشماخي ـ السير ـ صـ ١٤١ ، صـ ١٥٨ ، كذلك دكتور سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ صـ ٣٨٧ .

٢ـ ذكرهم الشماخي في السير ـ صـ ١٤٥ ، وهم " مسعود الأندلسي ، ويزيد بن فندين ، أبو قدامة اليفرني ، عمران بن مروان الأندلسي ، أبو الموفق سعدوس بن عطية ، شكر بن صالح الكتامي ، مصعب بن سرماس ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم " .

الأمر في الثمانية هنا إلى المفاضلة بين اثنين هما : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن رستم ، وكادت كفة مسعود ترجح ، لكنه اختفى زهداً في الولاية أو الإمامة فتمت الإمامة لعبد الوهاب ، والظاهر أنه إلى جانب ما اتصف به عبد الوهاب من العلم والشجاعة والتقوى واللين ، فإنه كان للعصبية دورها في اختياره ، إذ مال إليه الزعيم أبو قدامة اليغرني [١] لأن أم عبد الوهاب كانت يغرنية مثله ، [٢]

لكن من الملاحظ : أن الفارق الجوهري في الترشيح واختيار الولاية هنا وبين ما أقره عمر بن الخطاب ، هو أن سيدنا عمر رضي الله عنه عندما استقر رأيه على السبعة المرشحين لخلافته وكان من بينهم ابنه عبد الله بن عمر ، أوصى عمر رضي الله عنه ألا يكون له في الأمر ولاية بل يؤخذ رأيه في الشورى ، أو قد ترجح كفة الثلاثة في جانبه فقط .

٣- البدايات لظهور الفرقة والانشقاق بين الإباضية :

يبدو أن الطريقة التي أستنها عبد الرحمن بن رستم في اختيار ابنه للإمامة من بعده عن طريق التوريث المغلف بما يشبه طريقة الترشيح طبقاً لما ذهب إليه السلف الأول من الناحية الشكلية على الأقل ، لم تكن ترضي جماعة أخرى من زعماء الإباضية ، وبصفة خاصة من الزعماء الذين كانت تضمهم دائرة الترشيح وعلى رأسهم " يزيد بن فندين " ، فقد نازعوا عبد الوهاب بن رستم بعدما تمت له الإمامة ، في أن يكون له السلطان المطلق ، وطالبوه بأن لا يقطع أمراً دون مشورة وكان رد عبد الوهاب أنه " لا شرط للإمامة إلا الحكم بالكتاب والسنة وآثار الصالحين قبله " ولم يقف الاختلاف الفقهي الدستوري عند المطالبة بعدم الاستبداد بالأمور ، بل أنه اتسع عندما شكك المعارضون في صحة استمرار عبد الوهاب في الإمامة ، بحجة عدم جواز إمامة العالم إذا وجد من هو أعلم منه . [٣]

---

١ - دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٨٨ .
٢ - راجع الشماخي - السير - صـ ١٤٥ .
٣ - المصدر السابق - صـ ١٤٦ ، كذلك سعد زغلول - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٨٩ .

ويبدو أن هذه المبادئ الجديدة التي وضعها خصوم عبد الوهاب ، بدايات أولى لظهور الفرقة والفرق بين الإباضية .

ويرجح بعض المؤرخين الباحثين أن من أسباب اتساع الهوة والخلاف بين الإمام عبد الوهاب بن رستم وبين يزيد بن فندين من خصومه وجماعته أن سياسة عبد الوهاب كانت تقوم على مبدأ " تقديم الراغبين عن الأمور وتأخير الراغبين فيها " [١] وعلى الرغم من أن علماء المذهب الإباضي ببلاد المشرق ، بالإضافة إلى مذاهب أهل السنة ، والمعتدلين من الشيعة الزيدية أخذوا بمبدأ " ولاية المفضول مع وجود الأفضل " في خلافة أو الإمامة[٢] فإن أنصار أبن فندين أظهروا الإنكار على إمامة أو استمرار إمامة عبد الوهاب بن رستم ، وارتحلوا إلى الجبال والبلاد والقرى المجاورة ، ولذلك أطلق عليهم أسم " النكار أو النكارية ، كما سماهم خصومهم النكاث لنكثهم بيعة الإمام عبد الوهاب " [٣]

وهكذا انقسمت الجماعة الإباضية إلى : نكارية ، وهم أصحاب يزيد بن فندين ، والذين يعرفون أيضا بأنهم واصلية أو معتزلية وإلى وهبية : وهم أنصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ولم يكتف هؤلاء النكارية بالخروج على الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن فقط ، بل حاولوا اغتياله . [٤]

ولكن حدث تطور أخر ـ حيث خرج جماعة من النكارية برئاسة شعيب أبن يزيد بن فندين بعد مقتله ، وأظهروا البراءة من عبد الوهاب بن رستم وقالوا عنه " قتل المسلمين " ، بالإضافة إلى ادعائهم إهدار دمه ، لذلك تطلب الأمر من عبد الوهاب محاربة هؤلاء بالكلام والتفسير كما حاربهم في جبل نفوسة بالسيف ، لذلك طلب من خوارج نفوسة مجموعة من العلماء بالكلام والتفسير للرد على هؤلاء من النكارية أو ما يسمون بالواصلية المعتزلة [٥]

---

١ ـ لمصدر السابق ـ صـ٣٨٩ ، كذلك الشماخي ـ السير ـ صـ١٥٤ ،
٢ ـ دكتور محمد محمود أبو قحف ـ مذهب التأويل عند الشيعة الباطنية ، صـ٤٠٥ (فصل التشيع المعتدل ـ الشيعة الزيدية) صـ٤١٤ ط القاهرة سنة ٢٠٠٢ م .
٣ ـ دكتور ـ سعد زغلول ـ تاريخ المغرب ـ صـ ٣٨٩ ، صـ٣٩٠ ،
٤ ـ الشماخي ـ السير ـ صـ١٥٠ وما بعدها .
٥ ـ المصدر السابق ـ صـ١٥٤ .

يضاف إلى الانشقاق الأول عن طريق النكارية ، انشقاق أخر عن طريق فرقة تسمى (بالخلفية) ، إذ أن أهل جبل نفوسه - بالأقاليم الداخلية لطرابلس - طلبوا من الإمام عبد الوهاب رستم أن يولي عليهم: " أبا عبد الأعلى السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى " فوافق عبد الوهاب على ذلك الطلب ، وبعد ما توفى السمح بن أبي الخطاب ، فقد ولى إباضية إقليم طرابلس أبنه " خلف بن السمح " عليهم دون موافقة الإمام عبد الوهاب ، فبعث إليهم يبين لهم خطأهم في تولية " خلف " من غير رضاه أو موافقته ، لكنهم تمسكوا بخلف وطلبوا منه أن يسمح لهم بما فعلوا ، رغم عدم رضا عبد الوهاب على ذلك ، فإن هذه الجماعة أعلنوا إمامة خلف بن السمح عليهم ، وعللوا ذلك أن ولاية طرابلس بعيدة عن حوزة تاهرت أو منقطعة عنها ، وقد استخلف الأمام عبد الوهاب ابنه في الإمامة من بعد وفاته عام (١٨٨ هـ ٨٠٤ م)، إذ أوصى أن تكون الإمامة له ، لذا اجتمع رؤساء جماعة الإباضية بتاهرت واختاروا " أفلح بن عبد الوهاب رستم " إماماً عليهم ، لصلاح أحواله وكثرة علمه ، وكذلك شجاعته .

وهم بذلك يعتبروا أقرب إلى أقوال مشرعي أهل السنة الذين يشترطون في اختيار الإمام " العلم وقت السلم ، والشجاعة وقت الحرب " (١) وتذكر المصادر أن الإباضية في امتحان الإمام كانوا يختبرونه في بعض المواقف التي تظهر شجاعته أو علمه وتواضعه ، منها ما يذكر " أن أفلح الإمام هذا ، كان يحمل لهم المصباح يستضيئون به وهم يأكلون الطعام ليلاً وعندما كانوا يعطونه لقمه ليأكلها كان يأخذها بكلتا يديه بعد أن يضع المصباح بن ركبتيه مثل الملوك ، وهكذا كذلك نظروا إليه مع والده عبد الوهاب وهو يقاتل خصومه فأحسن القتال ، فعلموا شجاعته وهيبته وعلمه وفضله .. الخ (٢)

هذا وقد ظلت الإمامة الإباضية في تسلسل بني عبد الوهاب بن رستم ، رغم ما ظهرت من خلافات وفرقة بين جماعتهم وقيام منازعات وحروب وقتال فيما بينهم ، إذ بالرغم من محاولة أفلح بن عبد الوهاب رستم وواليه أبو عبيده -

---

١ - راجع الماوردي - الأحكام السلطانية (فصل عن الإمامة)

٢ - دكتور - سعد زغلول - تاريخ المغرب العربي - صـ٣٩٢ صـ٣٩٣ ، كذلك راجع - الشماخي - كتاب - السير صـ١٩٢ وما بعدها .

القضاء على خلف وفرقته من النكارية . فإن هذه الفرقة ظلت حية بين الفرق الإباضية الأخرى ، في طرابلس وجبل نفوسه من وهبية أصحاب الإمام عبد الوهاب ، ومستاوه : أتباع عبد الله بن يزيد الإباضي ، وحسنية أتباع أحمد بن الحسين الإباضي .

يضاف إلى ذلك أنه بعد وفاة أفلح بن عبد الوهاب رستم عام (٢٣٨ هـ - ٨٥٢أو ٨٥٣ م) ، ولى ابنه أبو بكر ، وتولى بعد وفاة أبي بكر أخوه أبو اليقظان الإمامة المسمى " محمد بن أفلح " حسب وصيته ، لعلمه وورعه ، وكما هي القاعدة في بيت الرستميين ، بيت العلم [١]

وبعد وفاة الإمام أبي اليقظان محمد بن الأفلح هذا ، عام (٢٨١ هـ) تولى الإمامة من بعده ابنه الإمام أبي حاتم يوسف ، وقد نازعة في الإمامة عمه يعقوب بن أفلح . وصارت حروب بينه وبين أبناء عمومته ، ثم قتله بنو أخيه عام (٢٩٤هـ) ، وبدأت نهاية دولة الإباضية بتاهرت على أيدي الشيعة العبيدية أو الفاطمية أولئك الذين ظهروا بدولتهم منذ عام (٢٩٦ / ٢٩٧)هـ . [٢]

٤- بني واسول وتطور خوارج الصفرية : -

مما لا شك أن نتائج الأحداث ، وتشابك المواقع والمواقف وما يكتنف ذلك كله من خلافات واختلافات بالنسبة لفرق الخوارج الإباضية والصفرية ، قد يشكل لنا الكثير من الصعوبات في مجال البحث ، واستخلاص النتائج والأفكار الأصولية المذهبية أو العقائدية والسياسية لديهم ، ولكننا نحاول بالجهد الجهيد تتبع ذلك بغض النظر قليلا عن هذا التشابك ، أن التشابه ، أو الخلاف في الأحداث التاريخية والمواقع الحربية والعسكرية فيما بينهم ، علماً بأننا ننبه إلى فكرة ذات قيمة كبيرة في مجال بحثنا وبالنسبة للباحثين الآخرين أيضا ، وهي : ضرورة غوص الباحثين والمفكرين فضلاً عن المؤرخين للمذاهب في أعماق

١ راجع المصدر السابق - صـ٣٩٤ ، كذلك الشماخي - السير - صـ٢٢٣ وما بعدها
٢ المصدر السابق - صـ٣٩٥ ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف مذهب التأويل عند الشيعة (تحليل ونقد) - أنظر (تطور مذاهب الشيعة من المشرق إلى المغرب) صـ٧٧ ، صـ٩٧ وما بعدها .

هذه الأحداث والمواقف حيث أنها تحمل في طياتها كثيراً من الحقائق الفكرية والأصولية المذهبية ، والتي بناءً عليها يتم بناء المذاهب أو المواقف التي تخرج من خلالها إما تكوين فرق جديدة باتجاهات جيدة أيضا ، فضلاً عن شيوع نزعة الفرقة والاختلاف بين هذه المذاهب .

وعلى ذلك ، ونحن بهذا الصدد من البحث نحاول أن نلتزم الموضوعية في البحث مع عدم إغفال ذلك وحتى لا تخرج عن النطاق المنهجي لبحثنا في هذا الموضوع .

فالمعروف أن مدينة (سجلماسة) [1] لم تكن قديمة بل محدثة مثلها مثل مدينة (تاهرت) وأن بنائها كانوا من الصفرية من قبيلة مكناسة ، ولقد كانت قبيلة مكناسة من أهم قبائل البربر التي أيدت ثورة " ميسرة " في إقليم طنجه ، وكما ذكرنا فيما سبق ، وينسب أحد المؤرخين ويدعى أبن عزاري بناء المدينة إلى أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي ، والذي كان ينتجع هذا المكان ، وفي الحقيقة أن أبن واسول هذا هو مؤسس الأسرة التي ستسود سجلماسة إلى قيام الدولة الفاطمية ، لما كان لديه من قدرة شخصية ومالية لتجميع طوائف وجماعات البربر في تلك النواحي [2]

ويبدوا أن مستوى التقارب بين خوارج الصفرية والإباضية كان قائماً في تلك الأماكن وعلى مستوى كبير ، من حيث الفكر المذهبي والأصول السياسية أيضا ، وبصفة خاصة بعدما أحدث عبد الرحمن بن رستم الإمام الإباضي وأبناءه من بعدة انتشارا واسعاً وانتصارات لمذهبهم وبعض الاستقلال عن الخلافة . وأصبح لهم نفوذاً وفتاوى كثيرة يجلبونها من بلاد المشرق في شتى الأمور .

---

١ - سجلماسة : مدينة تقع في شمال وادي درعة ، على طرف الصحراء جنوبا من أخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التي تؤدي إلى غانا من بلاد السودان ، وكان يسكن في تلك البقعة قبائل الملثمين الصنهاجية ، وقد تعرف سجلماسة أيضا باسم تافللت ، راجع دائرة المعارف - مادة (سجلماسة)

٢ - دكتور - سعد زغلول - تاريخ المغرب العربي - صـ٤٠٠

وعلى ذلك نلاحظ أن جماعة الصفرية اجتمعوا إلى رجل سوداني الأصل من الموالي أسمه " عيسى بن يزيد الأسود " وبعد أن تداولوا في أمرهم ، قدموه على أنفسهم بالإمامة عليهم عام(١٤٠هـ) ، والمفهوم بطبيعة الحال ، أن جماعة الصفرية هؤلاء من فلول أصحاب ميسره ، وباختيارهم رجل من السودان للإمامة عليهم هنا يبين اتجاه الجماعة الصفرية إلى تطبيق " مبدأ اللا عنصرية " " واللا عصبية " ، للإمام ، وهو الشرط الذي أشرنا إليه عند عبد الرحمن بن رستم ، وذلك حتى يمكن التخلص من الإمام إذا ما حاد عن " العدل " ، وقد تشير بعض المصادر إلى انتماء عيسى بن يزيد الأسود هذا " إمام الصفرية " . لمذهب الإباضية ، وأن مقالة عبد الرحمن بن رستم أمام الإباضية والتي كانت له الزعامة على خوارج المغرب - أبدى مقالة أودت به إلى النهاية [1]

وهذا يشير كما ذكرنا لوجود علاقة وثيقة بني أباضية تاهرت بالمغرب وصفرية الخوارج بسجلماسه ، إذ يشير أبن خلدون(٨٠٨ هـ) في مقالة " إلى أن أبن واسول ، كان أباضياً صفرياً " [2]

ونلخص مما سبق إلى أن خوارج الصفرية ، تجمعوا بسجلماسة تحت إمامة أبي عيسى بن يزيد الأسود ، إلى أن أنتهى أمره ثم تلاه في إمامة الصفرية سمغون بن واسول (١٥٥ - ١٦٨ هـ) - ثم أوصى لابنه إلياس بن أبي القاسم سمغون بن واسول (١٦٨ هـ - ١٧٤ هـ) ، ثم صارت الإمامة من بعد لأخيه اليسع بن أبي القاسم والذي طالت إمارته أو إمامته من عام (١٧٤ هـ - ٢٠٨هـ) ، وقد اتسمت إمارته بالجد والجبروت في سبيل تقوية الإمارة الصفرية ، مما كان له الفضل في نشر دعاوى وأصول المذهب بين جماعات البربر المحيطة.[3]

---

١ المصدر السابق - صـ٤٠٠ ، صـ٤٠١

٢ أبن خلدون - ديوان العبر - جـ٦ - صـ١٣٠ ط القاهرة ، كذلك المصدر السابق - صـ٤٠١

٣ دكتور - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب صـ٤٠٣ ، وما بعدها .

٥ ـ تحليل ونقد :

ومما سبق من استعراض لجوانب التطور الفكري والمذهبي والسياسي لدى فرق خوارج المغرب العربي من الإباضية والصفرية ـ يتضح لنا : أن هذا التطور ربما كان يخضع في كثير من الأحوال لما يطرأ على البيئة السياسية والاجتماعية والجغرافية من تحولات وتطورات مختلفة بالإضافة إلى أمور أخرى تتعلق بالعلاقة بين الأصول المذهبية الدينية ،والمواقف الفكرية السياسية.

وهذا ما فسرناه من قبل ونضيف إليه من تفسيرات أخرى وهو مدى التقارب بين مذاهب الإباضية والصفرية ، في العقائد الدينية والأصول أو الأفكار السياسية ، وكذلك التقارب والالتفاف حول الأئمة العلويين في دولة " الأدارسة " وتمسك الخوارج بالشعار والشكل فقط دون الموضوع فيما يتعلق بأخذهم بمبدأ الوراثة العلوى والذي ساد الخلافة الأموية والعباسية ، ثم الفاطميين من بعد بغض النظر عن مبدأ الوصية الشيعية ، دون أن يعيروا اهتماما أكيداً ، أو تمسكاً بحرفية مبادئهم في الشورى وحق الانتخاب الجمهوري ، في الولاية والإمامة .

يضاف إلي ذلك من تحليلات ، بالنسبة لإمامة الصفرية ، نجدهم تخلصوا من الإمام السوداني الأصل ، أبو عيسى يزيد الأسود ، إذ لم تكن لـه عصبية تؤيده وتسنده ، لذا تولى بنوا واسول الإمامة وظل ت تتوارث فيهم ، وهكذا .

وهنا يمكن ـ وكما يذهب بعـ،ض الباحثين المؤرخين [1] أن نقول أن الجماعات الخارجية لم تكن لتستطيع الخروج على الأصول التي أصبحت تقليدية تاريخية في اختيار الخليفة وهو الإمام عندهم ، كذلك قد نستغرب عندما يمكننا التفكير أيضا في أن شيعة عليّ رضي الله عنه بالأمس ، وأصبحوا خوارج اليوم ـ لم يمكنهم التخلص من مبادئهم الأولى التي تجعل الإمامة تركة من نصيب العلويين من آل البيت ، إذا لما سنحت الفرصة لتقديم

١ راجع المصدر السابق ـ صـ٤٠٧ ، صـ٤٠٨

أحد العلويين ، سارعت قبائل المغرب الأقصى من خوارج وغيرهم في الألتفاف حوله ، وتطبيق مبدأ الوراثة في أبنائه .

لكن ينبغي أن ننبه هنا إلى أنه رغم أن " إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب " ـ كان علوياً إلا أنه لم يكن علويا حسينياً ـ شيعياً بالمعنى المعروف عند الأمامية ـ إثنا عشرية ، أو إسماعيلية ـ بل كان حسينياً ـ من الشيعة المعتدلة قريبة في مذاهبها من أهل السنة ، ولهذا فهي في نظر الكتاب أو المؤرخين الدولة الهاشمية ـ وجدير بالنظر أن دولة الأدارسة والتي ألتف حولها الخوارج بالمغرب الأقصى ، لم تقم على مبادئ سياسية أو دينية أصولية معينة ، بل قامت على أكتاف رجل يمثل هيبة الأسرة العلوية العظيمة ، كما يمثل مناقب أهل البيت النبوي الشريف .

ثالثاً : فرق الإباضية بإفريقيا وآرائهم الكلامية :

تمهيد :

عرضنا فيما سبق لفرقتي الإباضية والصفرية ، وتوطيد أركانهما بالمغرب الأقصى وشمال إفريقيا ، وجوانب التطور الفكري والمذهبي والسياسي في عقائدهم ، وبصفة خاصة على يد عبد الرحمن بن رستم وأسرته من بعده والتي استمرت ما يقرب من مائة وثلاثين عاماً حتى أن قضي عليها بواسطة العبيدين من الشيعة الإسماعيلية سنة ٢٩٥ هـ ولكن من الملاحظ أن فرقة الإباضية ، بصفة خاصة نالت كثيراً من الاهتمام من جانب الباحثين ، وقد أمتدحها المحدثون والمعاصرون وسيرة زعمائها الكبار وعلى رأسهم عبد الرحمن ، وولده عبد الوهاب بن رستم .. وهكذا ، وربما لفت نظر الباحثين أيضا مدى التطور المعتدل والذي طرأ على مذاهبهم ، بما يخالف نظراتهم أو من سبقهم وعاصرهم من الخوارج الآخرين ، بل إن البعض يعتبر الإباضية من

أهل السنة أو أقرب لأهل السنة ، من سائر الخوارج واعتبارهم يمثلون المذهب الخامس من المذاهب الإسلامية يضاف للمذاهب الأربعة عند أهل السنة الذي يؤخذ به بالمغرب وشمال إفريقيا .

١ - عقائد الإباضية في فكر الباحثين والمعاصرين : -

من الطبيعي أن يعارض الإباضية بشدة في اتهام أهل السنة لهم بالمروق وهم يزعمون أنهم هم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة بل يقولون إن فرقهم وحدها هي الفرق الناجية . من بين الفرق الثلاث والسبعين التي أنقسم المسلمون إليها " (١)

يلتقط بعض المؤرخين الباحثين المحدثين المعاصرين ، نصاً من ابن عبد الحكم يشير إلى أول ظهور لمذهب الخوارج الإباضية بالمغرب ويعلق عليه بقوله " ونص ابن عبد الحكم يعتبر أول إشارة إلى ظهور المذهب الإباضي في المغرب ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج ، القريب من مذاهب أهل السنة ، والذي يعتبر في المغرب خامس المذاهب الأربعة ، ثم يرى أيضاً : أن المذهب الإباضي يمثل في الحقيقة آخر تطورات الفكر الخارجي ، بعد تعصب الأزارقة . " (٢)

كذلك يذهب البعض الآخر من الباحثين المعاصرين إلى التعبير عن ذلك " بأن الخوارج وهم أول حزب سياسي تكون في تاريخ الإسلام ، وبعد أن أصبح موضع نقد وهجوم من الفرق جميعاً ، فلم يبق إلا الصورة المعتدلة ممثله في " الإباضية " ، التي استطاعت أن تنجو من الاندثار لاعتدالها ومسايرتها لأصول المعتقدات عند المسلين " (٣)

---

١ - ورد هذا التعليق في أكثر من مصدر منها : دائرة المعارف الإسلامية - جـ١ - صـ١٢٩ ، كذلك أحمد أمين - ظهر الإسلام - جـ٤ - صـ٢٣٦ ، دكتور / سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي . صـ٢٨٦ ، صـ٢٨٧ .

٢ - دكتور / سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ٢٨٧ ، كذلك راجعنا : أبن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المصري) - فتوح مصر والمغرب والأندلس - صـ ٢٢٤ ، ط ليدن ١٩٢٠ م

٣ - دكتور : مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام - صـ١٨١

بل وربما ذهب فريق آخر من الباحثين المصريين ، والعرب إلى أن " الإباضية تعد من أقرب الفرق إلى الجماعة الإسلامية ، لاعتدال مذهبهم ، وتسامحهم مع مخالفيهم ، ويغضبون ممن يعتبرهم فرقة من الخوارج ، ويعلل هؤلاء سبب التصاق تهمة الإباضية بالخوارج إلى سياسة الدولة الأموية في التشنيع عليهم ، حتى ينفروا الناس منهم ، إذ وجدوا من الإباضية صلابة في مواجهة الأمويين ، فأثبت المؤرخون والكتاب بعض هذه الاتهامات الملفقة للإباضية دون تمحيص ، أو بحث عن الحقيقة [1]

ويوضح الباحثون بعض هذه الاتهامات وتصحيحها ، فيذهبون إلى أن أبرز اتهام للإباضية أنهم خوارج: إنكارهم التحكم ، بالإضافة إلى رفض مبدأ القرشية في إمامة المسلمين ، وإن كان هذا كذلك بالنسبه للإباضية ، إلا أن هناك أمور أخرى لا يصح اتهام الإباضية برفضها أو بطلانها . لأن في ذلك تجني ، أو افتراء عليهم في عقائدهم . ومن ذلك ما ذهب هؤلاء إليه .. إذ رأوا أن البعض ينسبون للإباضية بحق أو بباطل أنهم ينكرون " الإجماع ، وينكرون الرجم ، وينكرون عذاب القبر "

ويرى كتاب الإباضية وعلماؤهم : أن الإباضية لا ينكرون الإجماع بل يرونه الأصل الثالث من أصل التشريع ، ولا ينكرون الرجم ، وإنما يقولون أنه ثبت بالسنة القولية والعملية ، وليس بقرآن منسوخ ويثبتون عذاب القبر وسؤال الملكين ، استنادا إلى أحاديث كثيرة تثبت الموضوع [2]

بينما يذهب الدكتور عوض خلفات ـ أحد علماء الإباضية ـ أنهم : حرموا قتل الموحدين ، واستحلال دمائهم ، وحرموا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفو الخوارج كالأزارقة والنجدات ، أما ما ينسب إليهم من نقائص فهو إما عن جهل أو تعصب ، كذلك يذهب عالم إباضي أخر وهو أبو يعقوب يوسف

---

١ ـ دكتور ـ عامر النجار الإباضية ـ ومدى صلتها بالخوارج ـ صـ٨٥ وما بعدها كذلك بدر الدين هلال حمود اليحمودي الإباضي .. الأدلة المرضية في دحض ما نسب إلى الإباضية ـ صـ٣٢ مطابع النهضة بمسقط سنة ١٩٨٨ م .

٢ ـ علي بن يحي معمر الإباضي ـ الإباضية ـ صـ٢٤ ، المطبعة العربية بجردابة بالجزائر ١٩٨٥ ، كذلك دكتور عامر النجار ـ الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ـ صـ٨٥

إبراهيم الورجلاني (ت عام ٥٧) هـ أن زلة الخوارج نافع الأزارق - وذويه الذين يتأولون القرآن على غير مراده الحقيقي " [١]

ومن الجدير بالذكر أن الإباضية كانوا أشداء على الخوارج . فكيف نعتبرهم منهم إلا في مسألتين هي ، عدم قبول التحكيم ، ومبدأ القرشية في إمامة المسلمين ، والمعروف أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أقر بنفسه بأن التحكيم كان خدعة . ويوضح الشيخ أبو اسحاق إبراهيم أطفيش الإباضي [٢] عدة حقائق عن الإباضية منها :

إن الربيع بن حبيب الفراهيدي - المحدث الحجة الإباضي كان يبرأ من الخوارج كذلك قتال الإمام الجلندي بن مسعود العماني الإباضي لشيبان الخارجي وهو من الصفرية الخوارج ، كما أن القائد الشهير المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني ، كان يقاتل الخوارج - الأزارقة - وكاد يقضي عليهم لانحرافهم عن مذهب أهل السنة والإباضية ، وقد ثبت تاريخياً أن أسرة المهلب كانوا إباضية .

يضاف إلى ذلك : أن الإباضية لم يقتلوا أحداً من أهل التوحيد قط ولم تقع حرب منهم ضد المسلمين ، اللهم إلا إذا كانت للدفاع عن أنفسهم كما كان الإباضية يجيزون المناكحة بينهم وبين سائر الموحدين ، عكس الخوارج الذين لا يجيزون ذلك لأنهم يرون سواهم مشركين ، كذلك فإن الإباضية خدموا الإسلام علما وعملاً ، فأشتغلوا بالتدوين ، للحديث الشريف ، فجابر بن يزيد أول من دون الحديث وأقوال الصحابة في ديوانه الذي وصفة أنه وقر بعير ، كذلك فإنهم يختلفون عن سائر الخوارج فيما يتعلق بحكم مرتكب الكبيرة ، فهو عندهم كافر كفر نعمة لا كفر مله أو كفر شرك ، ويقترب من قول الفقهاء الأربعة بأن الكبائر فسق .[٣] وقد سبق أن ذكرنا رسالة عبد الله بن إباض تبرأ من الأزارقة ، ونافع

١- للمزيد راجع المصدر السابق - صـ ٨٦

٢- تذكر المصادر أنه أحد أعلام الإباضية في العصر الحديث وقد توفى عام ١٩٦٥ م ، راجع المصدر السابق - صـ٨٧ .

٣- المصدر السابق - صـ٨٨ ، ٨٩ ، وما بعد ، كذلك نظرنا سالم بن حمود الشيباني - أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج - صـ٩٨ ، ط وزارة التراث القومي والثقافة عمان ، ١٩٧٩ م .

الأزرق لأنه في نظره كفر وخرج يكفره عن إسلامه ، فتبرأ المسلمون من الأزارقة ومن صار في عقائدهم وقد ثبت اعتدال عقائد الإباضية ، واقترابهم من أهل السنة مع وجود فوارق جوهرية ، تتعلق كما ذكرنا بالأمور السياسية وبعض المفاهيم العقائدية والشرعية ، في الولاية ، أو الإمامة ، بالإضافة إلى بعض المفاهيم العقائدية التي يتبعون فيها مذاهب القدرية والمعتزلة ، وكذلك الشرعية التي تتعلق بفقه الإباضية لمذهب مستقل عن المذاهب الأربعة بطبيعة الحال

وقد سبق أن عرضنا لفرقة الإباضية ـ ضمن فرق الخوارج ، وفروعها التي انبثقت عنها كما أوردها وصاغها أصحاب المقالات ، وكتاب الفرق والمذاهب وكان فيها فروع مثل جماعة " الحارثية " ، وجماعة " الحفصيه " كذلك طوائف " اليزيديه " التي ينكرها الإباضية إنكاراً تاماً ، والأشعري يورد جماعة أخرى تنسب إليهم وهي : تسمى فرقة : طاعة لا يراد الله بها .. وهكذا [1]

هذه الفرق والجماعات والطوائف ـ التي تنسب إلى فرقة الإباضية كما أوردها أصحاب المقالات والمذاهب ، لا تعبر في حقيقة الأمر عن الأصول المذهبية المتطورة سياسية أو دينية أو شرعية بالنسبة لفرق الإباضية في شمال إفريقيا أو المغرب الأقصى ، بل ظهرت فروع أخرى ، أشقت عن فرقة الإباضية الأصيلة واقصد بها " الإباضية الرستمية " ـ واختلفت معها في بعض الاتجاهات والمبادئ السياسية أو الدينية الشرعية ، لكنها تعبر عن مرحلة التطور الأخير لفرقة الخوارج الإباضية في شمال إفريقيا والمغرب ، أو حتى أثرها ببلاد المشرق العربي والإسلامي ، سواء في عمان ، أو زنجبار أو غير ذلك .

---

١ ـ عرضنا ذلك في الفصل السابق بالتفصيل ، كذلك من أصحاب المقالات والمذاهب الأشعري - مقالات الإسلاميين جـ١ ، الشهر ستاني ـ الملل والنحل ـ جـ١ ، التغدادي ـ الفرق بين الفرق ، الأسفرايني ـ التبصير في الدين .. أبن جزم .. الفصل في الملل والنحل ، جـ١ .

٢ ـ فرقة النكارية :

هذه الفرقة من أولى الفرق الإباضية التي انشقت عن الإباضية الرستمية وقد أشرنا لذلك بالتفصيل فيما سبق : ولكن ما يهمنا هنا هو أن من أسباب هذا الانشقاق ـ هو اختلاف جماعة الرستمية الإباضية على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن رستم : وكان على زعامتهم اليزيد بن فندين الذي كان أحد السبعة المرشحين للإمامة ، والذي وجد في نفسه أنه أحق بالزعامة من عبد الوهاب ، لذلك نجده وضع شرطاً لمبايعة الإمامة لعبد الوهاب وهو : شرط أن لا يقضي أمراً دون مشورة من هيئه مخصوصة من الناس ، لكن عبد الوهاب رستم وصحابته ومنهم مسعود الأندلسي ، والذي كان مرشحاً أيضاً للإمامة ضمن السبعة ، قالوا : نحن لا نعلم في الإمامة شرطاً ، غير أن يحكم فينا بكتاب الله وسيرة السلف الصالح .

هذا ، وقد انشق أبن فندين وبعض أصحابه على إمامة عبد الوهاب لذلك سموا : بالنكار ، أو النكارية ، وأحيانا يطلق عليهم اسم النكاث ، وبدون الدخول في تفاصيل أخرى ، نقول : أن من أهم الآراء الكلامية التي اجتمعوا عليها .. مسألة الإمامة وشرط ولايتها ، وهذا يشير إلى بعض الأمور الذاتية أو الشخصية عند هؤلاء النكارية ، إلا أن القاضي الفقيه الإباضي "الربيع بن حبيب " صاحب كتاب الجامع الصحيح أفتى " بأن الإمامة لعبد الوهاب صحيحة ، والشرط باطل ، وأنه يجوز توليه رجل من المسلمين إذا كان فيهم من هو أفقه منه [1]

ـ ومن الآراء التي قالوا بها أيضا في الإمامة : " أنه لا تصح إمامة المفضول مع وجود الأفضل أو (الفاضل).

كذلك: أنه تصح الإمامة بشروط إذا شرطها الناس عند البيعة وتسقط لمخالفة الإمام هذه الشروط .

وقد أضاف بعض زعماء النكارية أصولاً دينية أو شرعية أخرى فيها كثير من الغلو في العقيده . وتخالف أصول الإسلام ، بل وتتعارض مع أصول

---

١ ـ أشرنا لذلك في الصفحات السابقة ـ كذلك لمزيد من التفصيل دكتور : عامر النجار ـ الإباضية ـ صـ ٩٦ ، صـ٩٧

الإباضية الرستمية . ومن هؤلاء الزعماء : عبد الله بن يزيد القزازي ، وأبو يزيد بن مخلد بن كيراد اليعزني ، والذي أدعى الخروج على الدولة العبيدية .

ومن ذلك قولهم : الإمامة غير مفترضة ، صلاة الجمعة غير جائزة وراء الأئمة الجورة ، عطايا الملوك لا يحل أخذها ، لا تجوز ولاية المفضول ، ومن جملة آرائهم التي خالفوا فيها أئمة الإباضية الأوائل الرستمين : أنهم الحدوا في الأسماء وقالوا : إن أسماء الله مخلوقة ، ولا يجوز الانتقال من الولاية إلى الوقوف ، وقالوا : أن ولاية الله وعداوته تتقلب بالأحوال ، وقالوا : أن حجة الله تقوم بالسماع وقد سمع الناس . وقالوا : أن الله لم يأمر بالنوافل ، وقالوا : يلزمنا العمل بالفرائض ولا يلزمنا العلم بها ولا من معرفتها شيء . وقالوا : قد ضاق على الناس خلاف الحق وقالوا : الحرام المجهول حلال ، وقالوا : بجواز شرب الخمر على التقية ، وقالوا : لا تقوم الحجة فيما يسع حتى يجتمع المسلمون بأسرهم . وقالوا : لا كفر إلا فيما تقطع عليه اليد ، وهو ربع دينار ومن أخذ دونه فليس عليه شيء . وقالوا : اللطمة والنظرة بشهوة والقبلة ودخول الحمام بغير إزار ، صغائر غير كبائر [1]

والواضح أن هذه الآراء عند جماعة النكارية تخالف تعاليم الإسلام عند أهل السنة والأئمة الأربعة والمحدثين ، بالإضافة إلى مخالفتهم لتعاليم وأصول الإباضية الأصلية الرستمية المعتدلة كما أشرنا .

إذ أن أئمة الإباضية المعتدلين قالوا : إن الإمامة فرض كفاية على الأمة المسلمة ، كذلك كانوا يرون أن صلاة الجمعة واجبة وراء الأئمة الجورة ما أقاموها ووجدت شروطها أو حسنت ، وقالوا كذلك: بجواز أخذ العطايا من الملوك ما دامت حلالاً ، ولم تؤد إلى حرام . [2]

---

١ - المصدر السابق - صـ٩٨ ، صـ٩٩ - كذلك دكتور سعد زغلول - تاريخ المغرب العربي - صـ ٣٨٨ ، صـ٣٨٩

٢ - راجع المصدر السابق - صـ٩٩ ، كذلك : على بن يحي معمر الإباضية - بين الفرق الإسلامية - صـ٣٠٢ ، صـ٣٠٣

٣ - النفاثية : -

مؤسس هذه الفرقة رجل يقال له فرحان نصر النفوس ، المعروف بنفاث وهو من قرية نفاثة ، قريبة من جبل نفوسة بليبيا .[١] وقد شعر هذا الرجل بخيبة الأمل حينما وجد نفسه لم يشغل أي منصب سياسي بالدولة الرستمية الإباضية ، فثار على تولية أفلح بن عبد الوهاب بن رستم لإمامة الإباضية بالمغرب ، فأخذ يطعن في إمامته في مجلسه ، وكان يرى أنه أحق بالخلافة أو الإمامة منه ببلاد المغرب وأخذ ينفث نفاث انتقاداته ضد الإمام ، لكنه شعر بالخطر ففر إلى بغداد ثم عاد آخراً ولزم الراحة وعدم الشغب على الإمام الإباضي في عصره ، ومن أهم آراء فرقة النفاثة الكلامية الآتي :

قالوا : أن الله هو الدهر ، كذلك أنكروا الخطبة في الصلاة يوم الجمعة وقال نفاث أنها بدعة .

يضاف إلى ذلك من ضلالاتهم : أن أبن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ للأب . وقولهم : بإنكار ورفض أن الإمام يستخدم عماله لجمع الحقوق الشرعية ومطلب بيت مال المسلمين من الرعايا ، وقولهم أيضا : أن الإمام إذا لم يمنع رعيته من جور الجورة وظلمهم لا يحل له أن يأخذ الحقوق التي جعل الله عليهم لضعفه عنهم .[٢]

والواضح أن هذه المعتقدات عند الفرقة النفاثية باطلة ، خارجة عن مذاهب أهل السنة والجماعة والأئمة كذلك تخالف في ظواهرها وبواطنها تعاليم ومعتقدات الإباضية الرستمية المعتدلة ، وقد اندثرت هذه الأفكار مع اندثار أصحابها وزعمائها .

٤ - فرقة الخلفية : -

عرضنا لهذه الفرقة ، من حيث ظهورها وزعمائها من قبل ، وقد أشرنا إلى أن زعيمها هو خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى المعافر وقد كان

١ - المصدر السابق - صـ١٠١ ، كذلك دكتور سعد زغلول - تاريخ المغرب صـ٣٩٠
٢ - المصدر السابق - صـ١٠٢

جده إماما على جبل نفوسة وما يليها بضواحي طرابلس ، وقابس بليبيا وتونس ، وقد تم تعيين خلف إماما على إباضية هذه النواحي بعد وفاة والده السمح بن أبي الخطاب ، حيث أختاره أصحابه إماماً عليهم دون استشارة واستئذان الأمام الإباضي عبد الوهاب بن رستم ، غضب عبد الوهاب لذلك وأمر بعزله لكن خلف رفض أن يذعن لذلك .

وقال : إن الجبل الذي بحوزته (نفوسة) حوزة مستقلة لها إمام مستقل عن حوزة تاهرت التي لها إمامها المستقل أيضا ، وقد رفض أن يذعن كذلك لإمامة أفلح بن عبد الوهاب رستم الذي تولى إمامة الإباضية بالمغرب بعد والده مباشرة وباختيار ومشورة من أصحابه ، لكن ظلت حروب بين خلف وجماعته الذين انشقوا عن أفلح وجماعته ، حتى أنتهي أمرهم [1]

وكان لهذه الفرقة المنشقة عن الإباضية بعض الآراء المتطرفة منها عدم الاعتراف بإمامة أفلح بن عبد الوهاب رستم ، حيث أدعى الفصل بين الحوزتين ، وكذلك بين الإمامتين .. فلكل إمامة حوزتها وقد ضلوا بذلك ضلالاً بعيداً حيث خرجوا على إجماع ما سارت عليه الأمة . يضاف إلى ذلك " أنه قتل بعض أصحابه غلطاً " لمجرد اختلافهم حول رأى أو فكرة أو موقف معه - وهذا هو شأن الخوارج بصفة عامة [2]

٥ - الحسينية والعمرية : -

يذكر المؤرخون وأصحاب المذاهب أن هاتين الفرقتين - يعبران عن فرقة واحدة ، وتسمى بالحسينية نسبة لرجل يقال له أبو زياد أحمد بن الحسين الطرابلسي - ظهر خلال القرن الثالث الهجري ، ولا نعرف عنه ولا عن آرائه شيئا ، وقد امتزجت هذه الفرقة مع فرقة ثانية تسمى بالعمرية : نسبة إلى رجل يسمى عيسى بن عمير ويبدو أنهما فرقة واحدة ، مع اختلاف أئمتها ، وقد قال بعضهم بمقالات تقترب من مقالات الإباضية ، ولهم آراء أخرى تختلف مع

---

١ - دكتور سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - صـ٣٩١ ، صـ٣٩٢

٢ - المصدر السابق - صـ٣٩٣ - كذلك راجع كتاب على بن يحيى معمر - الإباضية بين الفرق الإسلامية - صـ٣١٤ ، صـ٣١٥ .

مقالات الإباضية ، وقد تقترب من آراء المعتزلة وقد زودنا بعض كتاب ومؤرخين الإباضية ببعض الآراء الكلامية عند هذه الفرقة ومن ذلك:

قولهم : لا يشرك من أنكر سوى الله تعالى ، المتأولون المخطئون مشركون في هذه الأمة ، والحب والبغض والعداوة والرضى والسخط .. إلخ هي أفعال الله وليست بصفات له .

وقالوا : الحرام المجهول معاقب عليه ، وأباحوا الزنا وأخذ الأموال لمن أكره على ذلك يتقي بها ، كذلك فرقوا بين الأسماء والأحكام ، فسموا اليهود منافقين ، وسموا المتأولين مشركين ، وأجازوا السبي منهم ، وأحلوا النكاح منهم ، وهم عندهم مشركون فيما زعموا .

وقالوا في الرسالات والنبوات : لا يجوز أن يبعث الله رسولاً إلا بعلامة يعرف بها ، ويتميز عن غيره ولا يكون له حجة إلا بها .

وقالوا : خوف الرسل ، خوف إجلال لا خوف عقاب كما أن العقلاء يتفاضلون في التكليف والاستطاعة ولا يتفاضلون في العقل .

والواضح أن آراء هذه الفرقة يخرج بها عن دائرة الإسلام ، وعن فكر الإباضية الصحيح المعتدل الذي يقترب من آراء أهل السنة ، ولذلك يقول الشيخ أبو ذكريا الوارجلاني " أنها طائفة تنتحل الإباضية وهي ليست منهم " [1]

٦- السكاكية :

هذه الفرقة تنتسب لرجل يدعى عبد الله السكاك من منطقة يقال لها " لواتة قنطرار " ، كان يعمل بصياغة الذهب ، وكان كثير المال نادى ببعض الآراء التي تخرجه عن الإسلام ومذهب الإباضية ، وكانوا مخالفين لآراء المعتدلين قال أبو يعقوب بن يوسف بن نفاث : " أدركت جماعة من الشيوخ بمنطقة قسطيلية يصلون على جميع موتى أهل القبلة كلهم من المخالفين

---

١ – نظرنا: دكتور عامر النجار - الإباضية وصلتها بالخوارج - صـ ١٠٣ ، صـ ١٠٤ . كذلك علي يحي معمر - الإباضية بين الفرق الإسلامية - صـ ٣١٥ .

وغيرهم ، إلا أصحاب السكاك فإن من مات منهم جعلوا في رجليه مرابط وجروه بها على موضع يوارونه فيه ".

ومن أقوال السكاكية المخالفة لمذاهب أهل السنة والمعتدلين من الإباضية قال عبد الله السكاك : أن صلاة الجماعة بدعة وأنكر السنة والإجماع والقياس ، وزعم أن الدين كله مستخرج من القرآن الكريم .(١)

ومما لا شك أن إنكار هؤلاء للسنة هو إنكار للوحي الإلهي والسنة هي الركن الثاني للأصول الإسلامية والشريعة ، كذلك إنكارهم لصلاة الجماعة فيه زيف وخروج عن تعاليم الإسلام وشعائره .. كذلك من ضلالات هذه الفرقة اعتبارهم الأذان بدعة وقولهم أنه لا يجوز الصلاة إلا بما عرف تفسيره من القرآن . كذلك قالوا : إن طعام الروس بالحيوانات نجس لما يبول عليه من الدواب كما أن البقول والخضراوات نجس أيضاً لأنه يتغذى أو يوضع بالسماد .

ومثل هذه الآراء غريبة عن الإسلام وفيها ضلال وشرك وكفر بالله تعالى ورسله وسنته الشريفة ، فقد طعن الإباضية في عقائد السكاكية واتهموهم بالشرك والنفاق ، ثم تنتهي بدعة هؤلاء السكاكية بموت زعيمهم عبد الله السكاك اللواتي .

٧ـ فرقة الفرثية :

هذه الفرقة تنتسب إلى الإباضية ، وهم جماعة أتباع رجل إباضي من ورجلان ـ بجنوب الجزائر يدعى " أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح " وكان كثير الاطلاع على الآراء الخارجية والفرق الأخرى . وقد جاء بالعديد من الأفكار والآراء الغريبة التي لا تتفق مع اجتهادات مذاهب أهل السنة والمعتدلين من الإباضية الرستمية .

ومن مقالات هذه الفرقة قولهم .. بتحريم دم العروق ولو بعد غسل المذبح ، كذلك دم الجوف ، وقولهم : أن الفرث نجس ، وما طبخ فيه من طعام ، وقالوا : بتحريم أكل الجنين من الشاة المذبوحة وأن لا نعطي الزكاة إلا لقرابة المزكي .

---

١ ـ المصدر السابق صـ ١٠٥ ، صـ ١٠٦ ، صـ ١٠٧ .

وهذه الآراء في رأي بعض الباحثين المعاصرين في الفرق والمذاهب الإباضية مجرد اجتهادات فرعية ، تخالف ما عليه جمهور إباضية المغرب ، وجمهور المسلمين .[1]

هذه هي أهم الفرق الإباضية ، أو التي تنتسب لفرقة الإباضية في عصورها المتأخرة وحتى العصر الحديث ، ومدى انتشارها بالمغرب وفي الجزائر وليبيا وطرابلس ، ومقاطعة جربا ونفوسة .

١ - المصدر السابق - صـ ١٠٨ .

الفصل السابع

الخوارج بين الفرق الإسلامية والجماعات الأصولية في العصر الحديث

" الفصل السابع "

" الخوارج بين الفرق الإسلامية "
" والجماعات الأصولية في العصر الحديث "

تمهيد :

رأينا في الفصول السابقة ، كيف أن الخوارج منذ نشأتهم وظهورهم كجماعات تشكل فرقاً مختلفة ومتباينة فيما بينها ، وبين بعضها ، وفيما بينها وبين غيرها من فرق المسلمين ، أول جماعة سياسية حزبية في تاريخ الإسلام السياسي تستند في أصولها السياسية إلى عناصر ومبادئ عقائدية دينية ، في مسألة الخلافة والإمامة ، التي تقوم على حرية اختيار الإمام دون التقيد بمبدأ القرشية أو العربية . بشرط أن تتوفر في الإمام صفتي الإسلام والعدل بدلاً من الحرية والعروبة ، وقد حدث هذا التطور على مبادئهم السياسية مستندين إلى بعض الأحاديث " اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبداً حبشياً ذا ذبيبة " ، أو غير ذلك ، كذلك ما طرأ من تطور على المذاهب الخارجية ، بعد أن توطدت أركانها في شكل دويلات بالمغرب الأقصى وشمال إفريقيا بجواز إقرار إمامين في زمن واحد أو للانفصال بين الحوزتين ، بالإضافة إلى جواز التوريث للإمام بالنسبة للأبناء أو الإخوة ..

كذلك رأينا كيف اختلفت فرق الخوارج بالمغرب وشمال إفريقيا مع إخوانهم من خوارج المشرق . بفعل الاختلاف في القضايا الدينية أو الاجتهادات الشرعية وبصفة خاصة فيما يتعلق بمواقفهم المتباينة بشأن الإيمان ، وحدوده ، والتكفير والشرك وجواز ذلك وعلى من تطلق هذه الصفات ، وقول بعضهم بأن الكفر كفران ، والشرك شركان ، فهناك كفر نعمة يختلف عن كفر الملة ..

لقد كان لحركات الخوارج خطرها في الإسلام ، أمتد أثر ذلك حتى العصر الحديث ، ونود في هذا الجزء أن نوضح مدى العلاقة النقدية بين مذاهب

الخوارج والفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى ، ولعل في ذلك رد لشبهات الخوارج ، في المعتقدات الإسلامية .

أولاً : أهل السنة والخوارج :-

منذ البداية نستطيع أن نقول ، أن موقف الإمام علي رضي الله عنه من أساليب الخوارج ، ونقده وتحليله لمزاعمهم في الخروج عليه مستنداً في ذلك للنصوص الإلهية والأحاديث النبوية المروية ، يمثل موقف أهل السنة والسلف أيضاً .

فقد أعلن زعماء الخوارج منذ بدايتهم : تكفير الحكمين ، ومن رضي بالتحكيم من المعسكرين عليّ ، ومعاوية ، وقالوا " لا حكم إلا لله " فرد عليهم الإمام علي رضي الله عنه بقوله " كلمة حق أريد بها باطل " وعندئذ طلبهم الإمام علي للمناظرة ، أو المقارعة بالحجة ، ومن ذلك : زعموا (أي الخوارج) : أنهم نقموا عليهم (عليّ) خصالاً عدة منها " إنه محا اسمه من إمرة المؤمنين يوم كتب إلى معاوية ولم يضربهم (أي الخوارج) بالسيف حين نكوصهم عنه يوم صفين ، وكان واجبه أن يفعل ذلك ليرجعوا إلى الله ، وحكم الحكمين ، فتناول الإمام عليّ هذا بالتفنيد والرد فقال لهم :

أما نزع اسمه من إمرة المؤمنين ، فكان لرسول الله ﷺ أسوة حسنة ، أنه قبل أن يتخلى عن كلمة محمد رسول الله ، إلى كلمة محمد بن عبد الله ، لأن المشركين في صلح الحديبية لم يقبلوا إلا هذا ، وحجتهم في رفضهم أنهم لو آمنوا أنه رسول الله ما حاربوه ، وقبل النبي ﷺ إذ قال :

" إن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي وأمري " .

أما عن امتناع الإمام علي عن قتلهم يوم صفين فرد عليهم بقوله :

أنه امتنع عن قتلهم أو محاربتهم لكثرة عددهم ولقلة أعوانه وامتثالاً لقوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ سورة البقرة (١٩٥) أما عن تحكيمه الرجال أيضاً قلة من آيات الله أسانيد ، فإن الله حكم في أرنب يباع بربع درهم

بقوله تعالى ﴿ يحكم به ذو العدل منكم ﴾ سورة المائدة (٩٥) فلو استرشد الحكمين بما جاء بكتاب الله لما وسعه الخروج عن حكمهما .[١]

وقد جاء في كتب أصحاب المقالات والفرق ما يعبر عن وجهة نظر أهل السنة والجماعة في الرد على شبهات الخوارج في هذه المسائل ومن ذلك قولهم للخوارج " من أين قلتم - لا حكم إلا لله ؟ وقد حكم الله الناس في كتابه في غير موضع ، ففضلاً عما سبق قال تعالى ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما ﴾ سورة النساء آية (١٢٨) ، وقوله تعالى ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ سورة النساء آية (٣٥) ، وقال تعالى ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ سورة الشورى آية (١٠) ، وقوله تعالى ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ سورة النساء آية (٨٣) ، فهذه الآيات التي جعل فيها القرآن أحكاماً كثيرة إلى وجوه الناس فيما لم ينزل بيانه من عند الله .[٢]

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عليّ رضي الله عنه رد عليهم في هذه المسألة بالحجة الدامغة ، فقال لهم لما سمع قولهم : لا حكم إلا لله ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر " [٣]

وقد يتفق أهل السنة أو الجماعة مع بعض المذاهب الأخرى في الرد على شبهات الخوارج بقولهم : إن الله قد جعل في كثير من الدين الحكم إلى الأفراد لتطبيق ما جاء في القرآن الكريم ، كذلك فإن ولاية عثمان رضي الله عنه ، وعليّ كرم الله وجهه حق ، بإجماع لا اختلاف فيه .

---

١ - دكتور مصطفى حلمي ، نظام الخلافة في الإسلام - ص١٦٥ .
٢ - الملطي - التنبيه في الرد على أهل الأهواء والبدع - ص٥٣ ، كذلك المصدر السابق ص١٦٦ .
٣ - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - جـ ١ - ص٢٦٢ .

كذلك ذهب أهل السنة وغيرهم إلى أن الخوارج أهرقوا دماء المسلمين ، وكفروا السلف و الخلف ، واستحلوا ما حرم الله عليهم ، كل هذه الأفعال تشهد بأنهم قد خرجوا عن الدين ، وقد يصدق عليهم حديث النبي ﷺ في مروقهم من الدين كما يمرق السهم من الرمية .. وهكذا [١]

إن الخلاف الذي قام بين الخوارج وأهل السنة والجماعة أو الشيعة كذلك كان خلافاً خطيراً حقاً ، وكان ذا طابع سياسي ، حيث أننا رأينا أن محوره الرئيسي كانت مسألة الإمامة أو الخلافة ، التي أصبحت محط آمال كل فريق ، لكن مسألة الإمامة نشأ عنها موضوع آخر أثار جدلاً دينياً وفلسفياً ، كان له أكبر الأثر في تعميق الخلاف بين الفرق المتنازعة ، لأنه كان يتصل بموضوع خطير هو تعريف الإيمان ، إذ كان من الطبيعي في هذا الجو المشحون أن يرمي كل فريق أصحاب الفريق الآخر بالكفر ، وأخذت بعض الأسئلة تتردد على الألسن : ما هو الإيمان ؟ ، ومتى يظل المؤمن مؤمناً ؟ وما هو الكفر ؟ وهل الإيمان هو مجرد تصديق بالقول ، وإقرار باللسان ، بأن الله واحد ، وبأن محمداً رسوله ؟ وإذا كان هذا هو الإيمان فالجميع سواء في إيمانهم ولا سبيل امام أحد الفريقين إلى أن يتهم الفريق الآخر بالكفر أو بالتقصير في إيمانه ، وقد اتجه تفكير معظم المسلمين إلى إدخال عنصر جديد في دائرة الإيمان ، ألا وهو : العمل [٢]

إذ ليس يكفي المؤمن أن يكون مؤمناً بمجرد أن يصدق بالقول واللسان بل لابد من أن يكون لديه عملاً صالحاً ، ولما كان كل فريق ينظر إلى عمل الفريق الآخر نظرة مغايرة ، إذ قد تبدو عمل هذه الفرق كبائر في نظر الفريق الآخر . ولعل أهم هذه الاتهامات قد توجه إلى أعمال مثل القتل ، والسرقة واستباحة الحرمات مثلاً .

---

١ ـ المصدر السابق ـ ص٥٤ وما بعدها . كذلك دكتور مصطفى حلمي ـ نظام الخلافة ـ ص ١٦٧ . كذلك ابن الجوزي ـ تلبيس إبليس ـ ص٩٦ .

٢ ـ دكتور ـ يحيى هويدي ـ علم الكلام والفلسفة الإسلامية ـ ص٩٥ ط دار النهضة المصرية ـ ١٩٧٣ م .

لذى يرى بعض الباحثين أيضاً ، قد اتفق كل من الشيعة والخوارج على إدخال عنصر العمل في الإيمان ليتسنى لأصحاب كل منهما أن يرمي الآخر بالكفر ، أو أن يحكم على أعمالهم بالخلود في النار .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كيف حكم الخوارج على خصومهم من المتشيعين لعليّ رضي الله عنه وأهل السنة والجماعة بالكفر ، وكيف أن الأمر قد بلغ حداً أصبحوا معه يكتفون بأن يطلقوا عليهم اسم " الموحدين " ويستكثرون أن يدخلوهم معهم في دائرة الإسلام والمسلمين . [١]

إذن فمسألة الإيمان والكفر وعلاقته بالعمل من المسائل التي كان لها دورها في الخلاف بين الخوارج وأهل السنة ، وقد اعتمد الخوارج على تأويل بعض الآيات القرآنية في تدعيم وجهة نظرهم ، بينما نجد أهل السنة يتناولون بالنقد والتفنيد للرد على شبهاتهم .

فمن شبهات الخوارج عموماً ، أنهم يعتمدون على بعض الآيات القرآنية مثال ذلك قوله تعالى ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ سورة المائدة آية (٥) ، وقوله تعالى ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ سورة الرحمن آية (٣٠) ، و قوله تعالى ﴿ وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ سورة التغابن آية (٢) .

ولهذا فلم يجعل الله منزلة ثالثة تقع وسطاً بين الكفر والإيمان ، ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ ومن حبط عمله فهو مشرك ، والإيمان رأس الأعمال ، وأول الفرائض هو العمل ، ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه ، ومن حبط عمله فهو بلا إيمان والذي لا إيمان له مشرك كافر [٢].

هذا هو تحليل الخوارج لمراد الإيمان والعمل وما يتبعهما من الشرك والكفر لكن علماء السنة ويشاركهم متكلمي المعتزلة فيردون هذه الشبهات والتأويلات الغالية لمعاني الآيات القرآنية ..

---

١ - المصدر السابق - ص٩٦ .

٢ - راجع الملطي - التنبيه في الرد على أهل الزيغ والبدع ص٥٢ - كذلك دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام - ص١٦٧ ، ص١٦٨ .

فيذهب الملطي في دفع هذه التفسيرات ، برأي يميل فيه إلى رأي المعتزلة ، فيعتبر الخوارج قد أخطأوا القياس في هذه المسالة .

فيقرع الحجة بالحجة ويبين ما أشار إليه القرآن الكريم إلى منزلة ثالثة بين الكفر والإيمان وهي " الفسق " على سبيل المثال ، وهي المنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة .

فيقول : أن الخوارج أخطأوا في القياس لأن الله تعالى قال ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ سورة النور آية (٤) . فوضع الفاسق في منزلة بين الإيمان والكفر ، فلم يقرن الله عز وجل ، الفسق بالكفر ، بل نعى على فسقهم فحسب ، كما لم يقل أنهم بالرغم من فسقهم مؤمنون كما رأت المرجئة .

ومن الأخطاء التي وقع فيها الخوارج كذلك ، عدم التفرقة بين الكبائر والصغائر من الأفعال ، بينما فرق الله تعالى في قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلاً كريما ﴾ سورة النساء آية (٣١) .

فالخوارج إذن إذا حاولوا إيجاد حجة في تكفير الأمة لم يجدوا وإن جعلوا الذنوب كلها كبائر لم يجدوا إلى الحجة سبيلاً من عقل ولا سمع " [١]

وفي تحليل آخر لإمام من أئمة أهل السنة والجماعة - يتناول أبو المعين النسفي (ت عام ٥٠٨ هـ) بعض آراء الخوارج بالنقد والتفنيد موضحاً مدى ما وقعوا فيه من أخطاء .

إذ يورد قولهم في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ﴾ سورة النساء آية (١٤) وخلود العاصي في النار يرجع إلى خروجه عن الإيمان .

ويرد النسفي على ذلك بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ سورة التحريم آية (٨) فالتوبة النصوح لا تكون إلا من الكبيرة كذلك

---

١ - المصدر السابق - ص٥٣ .

فإن النبي ﷺ قال في حديث " صلوا خلف كل بر وفاجر " فلو خرج المؤمن من الإيمان لما أمر النبي ﷺ بالصلاة خلفه .[1]

ويتناول إمام الحرمين الجويني (٤١٩ - ٤٧٨ هـ) مذاهب الخوارج في الإيمان والأعمال بالتحليل والنقد ، مبيناً صلة مذاهبهم في بعض النواحي بمذاهب المعتزلة ، ومخالفتهم لمذاهب أهل السنة والجماعة .

فيقول " ذهبت الخوارج إلى أن الإيمان هو الطاعة ، ومال إلى ذلك كثير من المعتزلة ، واختلفت مذاهبهم في تسمية النوافل إيماناً ، والمَرضي عندنا (يقصد أهل السنة) : أن حقيقة الإيمان التصديق بالله تعالى ، فالمؤمن بالله من صدقه ، ثم التصديق على التحقيق كلام النفس ولكن لا يثبت إلا مع العلم ، وكلام النفس يثبت على حسب الاعتقاد ، وعلى ذلك فإن مذهب أهل الحق وصف الفاسق بكونه مؤمناً ، والدليل على هذه التسمية من حيث اللغة أنه مصدق على التحقيق . وآية ذلك في الشرع أن الأحكام الشرعية المقيدة بخطاب المؤمنين تتوجه على الفسقة توجهها على الأتقياء إجماعاً ، والفاسق يجري مجرى المؤمن في أحكامه ، فيسهم له في المغنم ، ويصرف إليه سهم المصالح ، ويذب عنه ويدفن في مقابر المسلمين ، ويصلى عليه ، وكل ذلك يقطع بكونه منهم .[2]

وكما عرضنا فإن الخوارج وبعض المعتزلة ، يربطون بين الإيمان والعمل ، فمن حبط عمله ، ضاع إيمانه ، بل يذهبون به إلى حد الشرك والكفر والخلود في النار والجويني يوضح ذلك فيقول " ذهبت الخوارج إلى أن من قارف ذنباً واحداً ، ولم يوفق للتوبة حبط عمله ومات مستوجباً للخلود في العذاب الأليم ، وصاروا إلى أنه يتصف بكونه كافراً ، إذا إجترم ذنباً واحداً . وصارت الإباضية منهم إلى أنه يتصف بالكفر المأخوذ من كفران النعم ، ولا يتصف بالكفر الذي هو الشرك والأزارقة منهم قالوا أن العاصي كافر بالله تعالى كفر

---

١ - دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة في الإسلام - ص١٦٩ ، كذلك يراجع أبو المعين النسفي - بحر الكلام في علم التوحيد - ص٤٧ ، ص٤٨ - ط ١٩١٥ م .

٢ - إمام الحرمين أبو المعالي الجويني - كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد - ص٣٩٧ ، ص٣٩٨ - تحقيق دكتور محمد يوسف موسى - ط مكتبة الخانجي بمصر ١٩٥٠ .

شرك ، والمعتزلة ربما وافقوا الخوارج في المصير إلى استحقاق الخلود ، لكنهم فارقوا الخوارج من وجهين : أحدهما : لم يصفوا مرتكب الكبيرة بالكفر ، ولم يصفوه الإيمان ، وزعموا أنه على منزله بين المنزلتين . ووسموه فيها بكونه فاسقاً . والثاني : أن المعتزلة فارقوا الخوارج في قول المعتزلة باستحقاق الخلود في العذاب يختص بالكبائر . وإن كان جملة الذنوب كبائر عند الخوارج والمعتزلة.[١]

ويوضح الجويني مذهب أهل السنة في هذه المسألة وهو ما يتعلق الوعيد والطاعات بما يفيد رد شبهات الخوارج وبعض من وافقهم على مذهبهم من المعتزلة فيذهب " إلى أن من أصلكم أن الوعيد على التأبيد يستحق بزلة واحدة ويحبط لأجلها ثواب الطاعة ، وذلك فاسد في أصولكم ، وفي العقول مستحيل، فإن مرجع العقول ومداركها في أمثلة الشاهد أن من خدم غيره وبلغ جهده دائماً في رعاية حقه مائة سنة ، ثم بدرت منه بادرة واحدة ، فليس يحسن إحباط جميع حسناته بسيئة واحدة ، وإن كان الثواب والعقاب متنافيين ، فليس الثواب بأن يحط ويحبط بأولى من العقاب ، والشرع يدل على درء السيئات بالحسنات ، فإحباط العقاب أحق ، وقد قال الله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ سورة هود ك اية١١٤.[٢]

علماً بأنه يجب أن نفرق هنا بين كبيرة الكبائر وهي الشرك بالله تعالي والردة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - وهذا في عرف أهل الحق كفر وشرك بالله تعالى لا يغفره تعالى لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ سورة النساء (٤٨) .

ويذهب أبن حزم ، في تحليل وتفنيد شبهات الخوارج في كثير من المسائل نذكر منها مسألة تكفيرهم لعلي ي تحكيم الحكمين ن يقول " أن علياً لم يحكم قط رجلاً في دين الله وحاشاه من ذلك ، وإنما قد حكم كلام الله عز وجل ، بعد أن اتفق الفريقان على الدعوة إلى حكم القرآن وقد قال الله تعالى

---

١ - المصدر السابق - ص٣٨٥ ، ص٣٨٦ .
٢ - المصدر السابق - ص٣٨٦ - ص٣٨٧ .

﴿فـإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخـــر﴾ سورة النساء (٥٩) ولمـا كـان مـن المستحيل أن يتـناظر الفـريقان بكـامل أفرادهما . فقد تـم اختيار الحكمين (أبـو موسـى الأشـعري وعمرو بن العاص) وعلـى ذلك فإن تكفير الخوارج لعليّ علـى ذلك يرجع إلـى أنهم كانوا أعرابا لم يتفقهوا في القرآن والسنن الثابتة عن الرسول الكريم ، ولـم يتبصروا بما خفي عنهم من دقائق الفقه ، لذلك صار يكفر بعضهم بعضاً لصغائر الأمور.[1]

وفـي معرض نقد أهل السنة لخروج الخوارج علـى بيعة الإمـام علـي رضـي الله عنه يذهب ابن حزم إلـى أن علياً قد بويع بواسطة المسلمين على أثر مقتل عثمان ، وحتى إذا كـان بايعه واحد من المسلمين فصاعداً فإنه يصبح بذلك إماماً يجب طاعته ، فإنـه الإمام بحقه وما ظهر منه قط إلى أن مات رضي الله عنه شيء يوجب نقض بيعته ، ولم يظهر منه قط إلا العدل والبر والجد والتقوى ، وقد تركوه هؤلاء الخوارج ليبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي ، الذي لا سابقة لـه ولا صحبة ولا فقه ولا شهد الله له بخير قط ، علمـاً بـأن الله تعالى ذكر في أصـــحاب النبــــي ﷺ خـــيراً ورضـــــاً ، فقـــــال تعـــــالى ﴿لقـــد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ سورة الفتح آية (١٨) ، وقد كان علي رضي الله عنه وعثمان وغيرهما من شهد الله لهم بذلك [2]

ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر أن علماء وأئمة أهل السنة ومن تابعهم من علمـاء وفقهاء الشيعة علـى مذهب الأشعري ، يؤكدون جميعاً على ضرورة التزام الحيطة والحذر في حق صحابة الرسول ﷺ وذكرهم دائماً بالخير وعدم الخوض في حقهم بسوء كما فعل الخوارج من قبل ، فقد ذهب ابن أبي الحديد فقال " أن بعض فقهاء الشيعة ممن كان يشتغل بطرف من علم الكلام على رأي الأشعري قالوا : الواجب الكف والإمساك عن الصحابة ، وعما شجر بينهم . وقد

١- ابن حزم – الفصل في الملل والأهواء والنحل – جـ٤- صـ ١٥٦- ط ١٣٢٠هـ ، ١٩٠٥م ، كذلك راجع دكتور مصطفى حلمي – نظام الخلافة – صـ ١٧٠.

٢ - للمزيد المصدر السابق - ص١٥٧ - كذلك دكتور مصطفى حلمي - نظام الخلافة - ص ١٧١ .

قال أبو المعالي الجويني : أن رسول الله ﷺ نهي عن ذلك ، وقال " إياكم وما شجر بين صحابتي " ، وذكر كذلك حديثاً النبي عليه السلام قال " أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد ورد في القرآن الثناء على الصحابة وعلى التابعين ، وقد روي عن الحسن البصري قال " عند ذكر أصحاب الجمل ، تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلا تلطخ بها ألسنتنا " ، (١)

ويعلل الجويني ذلك بأن تلك الأحوال قد غابت عنا وبعدت أخبارها على حقائقها ، فلا يليق بنا أن نخوض فيها ، ولو كان واحد من هؤلاء قد أخطأ لوجب أن يحفظ رسول الله ﷺ فيه ، بل ومن المروءة أن يحفظ الرسول عليه السلام في عائشة زوجته ، وفي الزبير ابن عمته ، وطلحة الذي وقاه بيده ، ثم ما الذي ألزمنا أو أوجب علينا أن نلعن أحداً من المسلمين ، أو نبرأ منه ؟ وأي ثواب في اللعنة أو البراءة ؟ ، إن الله تعالى لا يقل يوم القيامة للمكلف لم لم تلعن ؟ بل قد يقول : لم لعنت ؟ وهكذا (٢)

وجدير بالذكر أن بعض الخوارج وافقوا أهل السنة في عقائدهم الأصوليه ، بينما فارقوهم آخرون ، فالبيهسية من الخوارج يوافقون أهل السنة في قولهم " أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ، ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ ، والولاية لأولياء الله تعالى ، والبراءة من أعداء الله تعالى ، فمن جملة ما ورد به الشرع وحكم به ما حرم الله وجاء الوعيد ، فلا يسعه إلا معرفته بعينه وتفسيره والاحتراز عنه ، وعليه أن يقف عندما لا يعلم ولا يأتي بشيء إلا يعلم ، وأن الإيمان هو العلم والإقرار والعمل ، وقد خلفوا أهل السنة في موافقتهم لقول القدرية في القدر ، إذ قالوا : إن الله تعالى فوض إلى العباد ، فليس لله في أعمال العباد مشيئة (٣) وقد وافق بعض الخوارج من الإباضية والخلفية المتأخرين مذاهب أهل السنة في بعض العقائد وإن اختلفوا في أمور أخرى ، من ذلك ، فالخلفية منهم وافقوا أهل السنة في القول بأن القدر خيره

---

١ ـ ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ جـ ٢٠ ص١١ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الحلبي ـ ١٩٦٤ م
٢ ـ المصدر السابق ـ جـ ٢٠ ـ ص١١ .
٣ ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص١٢٦ ، ص١٢٧ .

وشره يضاف إلى الله تعالى ، وقال شعيب من الخوارج : إن الله خالق أعمال العباد والعبد مكتسب لها قدرة وإرادة ، مسئول عنها خيراً وشراً، مجازى عليها ثواباً أو عقاباً ، ولا يكون في الجود شيء إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته ، وهو على بدع الخوارج في الإمامة والوعيد ، وخالف الشيبانية أهل السنة ووافقوا الجبرية في قولهم بالجبر [١] ، كذلك قالت فرقة المعلومية والمجهوليه منهم " من لم يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته فهو جاهل ، حتى يصير عالماً به ، فيكون مؤمناً ، وقالوا بالاستطاعة مع الفعل [٢] والفعل مخلوق للعبد ، [٣] وقد خالف هؤلاء سائر أهل السنة والجماعة وغيرهم من الشيعة في سائر عقائدهم الأخرى

أما فرقة الإباضية - فهم يعتبرون أنفسهم أهل علم وصلاة وقرآن وينظر لمذهبهم في الفقه أو الأصول أنه يمثل خامس المذاهب الإسلامية بالمغرب وشمال إفريقيا ، كما عرضنا ، وكذلك يكرهون أن يصفهم أحد بالخوارج ، لذا وجدنا عندهم بعض الاتجاهات العقائدية قريب من مذاهب وعقائد أهل السنة ، فمن ذلك :

قولهم : أن الاستطاعة عرض من الأعراض ، وهي قبل الفعل ، بها يحصل الفعل ، وأفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، إحداثاً وإبداعاً ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولا يسمون أميرهم أمير المؤمنين ، ولا أنفسهم مهاجرين ، وقالوا أن مرتكب الكبيرة ليس مشركاً ، بل يكفر كفر نعمه ، وقالوا : لا يخلق الله تعالى شيئاً إلا دليلاً على وحدانيته ، ولابد أن يدل على أنه تعالى الواحد .[٤]

هذا وقد يخلفون سائر أهل السنة وجمهور المسلمين في مسائل أخرى عرضنا لها فيما سبق .

---

١ - المصدر السابق - ص١٢٢ ، ص١٢٣ .
٢- البغدادي - الفرق بين الفرق - ص٩٧ .
٣ - الشهرستاني صـ١٣٥ ، للمزيد راجع دكتور - عامر النجار - الإباضية وصلتها بالخوارج ، أماكن متفرقة .
٤ - نفس المرجع السابق.

ثانياً : المعتزلة والخوارج :

المعتزلة : أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية والعدلية ، وهم طبقات أو ست فرق [١] نذكر منهم طبقة الواصلية - وهم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال - يعتبر مؤسس فرقة المعتزلة ورئسها الأول وكان تلميذاً للحسن البصري (١١٠) هـ يقرأ عليه العلوم والأخبار ، [٢] قال بأصل المنزلة بين المنزلتين في حق مرتكب الكبيرة ، وأصل ذلك أنه دخل رجل على الحسن البصري فقال ، يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة (وهم وعيدية الخوارج) وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل عندهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهو مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك الاعتقاد ؟

فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل اسطوانة المسجد إلى أسطوانة أخرى يقرر ذلك ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة . [٣]

إذن نلاحظ أن البدايات الأولى لظهور مذهب المعتزلة ، كانت بسبب مسالة (تكفير مرتكبي الكبائر التي أثارها الخوارج) فقد عاصر واصل (٨٠ - ١٣١) هـ فرق الخوارج ومنهم الأزارقة والنجدات وكان أيام عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك وعلى ذلك فقد خالفهم في شأن مرتكب الكبيرة ، فوضع المسألة بين منزلتي الكفر والإيمان وهو ما يسمى " فاسقاً " ووجه تقريره ذلك أنه قال : إن الإيمان عبارة عن خصال الخير إذا اجتمعت سمي

---

١ - الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) - مفاتيح العلوم - ص ٢٤ - تحقيق فان فلوتن - تقديم د محمد حسن عبد العزيز - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة - ط حديثة ٢٠٠٤ .

٢ - المبرد - الكامل - جـ ٣ - ص ٩٢ - وما بعدها .

٣ - راجع الشهرستاني - الملل والنحل جـ ١ - ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

المرء مؤمناً ، وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير وما استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلقاً ، لأن الشهادة وسائر الأعمال الخيرة موجودة فيه لا وجه لإنكارها ، لكنه إذا خرج من الدنيا بغير توبة فهو من أهل النار خالد فيها ، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار . (١)

ووافقه على رأيه هذا ، صاحبه عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ) بل وربما وافقه كذلك في موقفهما من أصحاب الجمل ، فقد خالف واصل وعمرو بن عبيد سائر أهل السنة والجماعة والشيعة وكذلك الخوارج في رأيهما بشأن الفريقين المتقاتلين من أصحاب الجمل وصفين ، وذهبا على موقف يتسق مع رأيهما بشأن مرتكب الكبيرة ، وهي منزلة الفسق .

إذ بينما يكفر الخوارج عثمان وعلي بعد سنينهما الأول في الإمامة ، إذ نجد رؤوس المعتزلة من الواصلية والعبيدية يذهبون إلى القول في الفريقين : أصحاب الجمل وأصحاب صفين : أن أحدهما مخطئ لا يعينه. كذلك قولهم في عثمان وقاتليه وخاذليه ، إن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا محالة لكن لا يعينه كذلك لا تقبل شهادتهما ، كما لا تقبل شهادة المتلاعنين (٢)

وإذا كان الواصلية وبعض المعتزلة قد اختلفوا حول أن الله تعالى لا يغفر لمرتكبي الكبائر من غير توبة ، بينما البعض الآخر منهم كالصالحي ، والخالدي ومحمد بن شبيب البصري وهم من شيوخ المعتزلة ، واقفية في وعيد مرتكبي الكبائر ، وقد أجازوا من الله تعالى مغفرة ذنوبهم من غير توبة ! فإن الإباضية وبعض الخوارج قالوا بمثل هذه المقالات (٣)

وقد ذهب البغدادي (عبد القاهر عام ٤٢٩ هـ) - ١٠٣٧ م - إلى أن واصلاً بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وافقا الخوارج في تأبيد عقاب صاحب

---

١ - المصدر السابق - ص٤٨ .
٢ - المصدر السابق - ص٤٩
٣ - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص١١٦ ، كذلك ما سبق من ذلك الفصل .

الكبيرة في النار ، مع قولهما بأنه موحد ، وليس بمشرك ولا كافر ، ولهذا قيل للمعتزلة أنهم مخانيث الخوارج ، لأن الخوارج لما رأوا لأهل الكبائر الخلود في النار سموهم كفرة وحاربوهم ، والمعتزلة رأت لهم الخلود في النار ، ولكن لم تجسر على أن تسميهم كفرة ، ولا جسرت على قتال فرقة منهم فضلاً عن قتال الجمهور من مخالفيهم ، لذلك فقد نسب البعض كإسحاق بن سويد العدوي ، واصلا وعمرو بن عبيد إلى الخوارج ، لاتفاقهم على تأبيد عقاب أصحاب الذنوب ولذلك قال في بعض قصائده :

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب [١]
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب [٢]

ومما لا شك أن الخوارج يلتقون مع المعتزلة في عدة أمور أصولية أخرى ، فكما استعرضنا أصول الخوارج وفرقهم فيما سبق - يتضح لنا ذلك ..

فالخوارج يوجبون مثلهم الخروج عن الإمام الجائر ، ويقولون بالوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتأويل المتشابهات ، وبالحسن والقبح العقليين [٣] ويقولون في التوحيد قولهم ، ولا يرون إمكان رؤية الباري في الآخرة ، ويذهبون إلى أن القرآن مخلوق،و لا يختلفون عنهم إلا في صفة الإرادة التي عدها الإباضية أزلية لا حادثة [٤] ويقف فريق من الخوارج أيضا موقف المعتزلة ، فيمنع الظلم على الله ، ويؤكد حرية الفرد وقدرته على خلق أعماله ، ويرى أنه مزود باستطاعة سابقة على العقل ، وعلى عكس هذا يذهب جمهور الإباضية إلى أن الله خالق أفعال العباد جميعها ، وليس لهم إلا مجرد اكتسابها ، وهم بهذا يلتقون مع أهل السنة ومتكلمي الأشعرية [٥] وعلى

---

١ - ابن باب : هو عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤)هـ صاحب واصل بن عطاء من المعتزلة ويسمى (عمرو بن عبيد بن باب مولى بني تميم ، وكان جده من سبي كابل) .
٢ - نظرنا : البغدادي - الفرق بين الفرق - ص١١٩ ، ص١٢٠ .
٣ - ابن الجوزي البغدادي - تلبيس إبليس - ص٩٦ .
٤ - الأشعري - مقالات الإسلاميين - جـ ١ - ص١٢٤ .
٥ - المصدر السابق - ص١٢٥ .

ذلك فإن الخوارج ليست لهم آراء كثيرة مجمع عليها ، ونرجح أن أوائلهم تأثروا بالمعتزلة ، ومال المتأخرون إلى الأشعرية [١]

كذلك يلتقي المعتزلة والخوارج في مسألة الإيمان ، فعند المعتزلة : الإيمان اسم مدح ، وهو عبارة عن خصال الخير التي إذا اجتمعت في شخص سمي بها مؤمناً ، ومن ارتكب كبيرة فهو في الحال يسمى فاسقاً لا مؤمناً ولا كافراً ، وإن لم يتب ومات عليها فهو مخلد في النار " [٢] وعلى ذلك فإن كان مذهب المعتزلة لا يؤيد فكرة أو عقيدة الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة أو الحكم عليه بالشرك وكفر الملة ، فإنهم يربطون الإيمان بالعمل ، وبذلك فالإيمان يزيد بالطاعات ويقل بالمعاصي ، والخوارج ترى هذا أيضاً فإن الإيمان والعمل شيء واحد ومن ثم فإنهم يربطون بين الإيمان والعمل وإن الإيمان ليس مجرد الإقرار أو العلم والشهادة فقط [٣]

وإذا كان الخوارج منذ تكوينهم اتخذت حركاتهم الطابع السياسي ـ كأول حزب سياسي وعسكري له مبادئ وأصول يقوم عليها ، ويهدف أصحابه لتطبيق ذلك ، وقد نجحت بعض حركات فرق الخوارج بالمغرب وشمال إفريقيا لتأثيث دول أو دويلات استمرت على فترات زمانية متتابعة في مقابل الخلافة الأموية والعباسية ، فإن المعتزلة منذ نشأتها كفرقة أو طائفة لها فروعها وطبقاتها ـ كانت تشكل طائفة دينية لا دخل لها بالسياسة على عكس الخوارج والشيعة ، إلا أنها لم تلبث فرق المعتزلة أن خاض شيوخها وزعماءها غمار الفكر السياسي ، فتكلموا في الأمور والمسائل السياسية التي تتعلق بالإمامة ، وشروطها ، وأحكامها ، والبيعة وشروطها كذلك ، بما يشعرنا باقترابهم في بعض مبادئهم من فكر الخوارج .

يقول المسعودي " يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وإن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة ، تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل

---

١ ـ دكتور إبراهيم مدكور ـ الفلسفة الإسلامية (منهج التطبيقية) جـ ٢ ـ ص ١١٠ .
٢ ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص ٨١ .
٣ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٦ .

ملة الإسلام ، وأهل كل عصر أن يفعلوا ذلك ، والذين ذهبوا إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هم المعتزلة بأثرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن جني ، ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم ، إلا النجدات من الخوارج فزعموا أن الإمامة غير واجبة نصبها ـ وربما شاركهم كذلك فرقة الأزارقة أيضاً ـ إلا أن بعضهم قالوا : إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام ، وقد ذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها : منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حين فوض الأمر إلى الشورى " لو أن سالماً " حي لما داخلني فيه الظنون ، فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت " سالم مولى أبي حزيفة " فقد صح في حديث عن النبي ﷺ قال " اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع " وقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ سورة الحجرات آية (١٣) (١)

وربما انحاز بعض المعتزلة بطريقة أو أخرى لرأي الخوارج في الطعن في إمامة علي رضي الله عنه ، فقد ذهب الهشامية (أصحاب هشام بن عمر القوطي ـ ت سنة ٢٢٦ هجرية) ، إلى بدعة القول : إن الإمامة لا تنعقد في أيام الفتنة واختلاف الناس ، وإنما يجوز عقدها في حال الاتفاق والسلامة ، وإلى هذا الرأي ذهب كذلك أبو بكر الأصم من رؤوس المعتزلة أيضاً (٢)

و من الجدير بالذكر ـ أن بعض المعتزلة كما انهم وافقوا الخوارج في معظم اصولهم فإن بعض هؤلاءأ للأسف أيضاً وافقوا الشيعة والروافض منهم في الطعن في كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وزعم أبو الهذيل العلاف (١٣٥ ـ ٢٢٦) هجرية وهو شيخ معتزلة البصرة ، " بأن الإمامة بالنص ، والتعيين ظاهراً ومكشوفاً ، ويزعم أن النبي ﷺ قد نص على

---

١ ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ جـ ٢ ـ ص١٩٠ ، ص١٩١ . كذلك دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ١ ـ ص٤٣١ ، ص٤٣٢ .
٢ ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص٧٢ .

عليّ رضي الله عنه للإمامة في مواضع كثيرة ، إلا أن عمر بن الخطاب كتم ذلك وكما يزعم [١] .

وعلى ذلك نجد أن الخلاف بين فرق الخوارج وفروعها المتعددة سواء من بلاد المشرق ، أو ما ذهب من شراذمهم وقطنوا بلاد المغرب وشمال إفريقيا شأنهم في ذلك شأن فرق وطبقات المعتزلة كذلك سواء المتقدمين منهم أو المتأخرين ، فالخلاف دائم بينهم كأسلافهم .

ويحاول بعض الباحثين المؤرخين ـ تعليل فكرة الاقتراب والتوافق بين مذهبي المعتزلة والخوارج ، وكيف أن الخوارج ومع تطور الأيام والزمن والأحداث كانوا يلجأون إلى فكر المعتزلة وجدلهم الكلامي والأصولي . للانتصار لمبادئهم من ناحية ، ولإجازة الثورة على حكام وخلفاء بني أمية والعباسيين ، وبصفة خاصة في تلك البلاد التي نجحوا في الثورة ومحاولتهم الانسلاخ عن دولة الخلافة وتكوين دول ودويلات ببلاد المغرب وشمال إفريقية .

لذلك يذهب بعض المؤرخين إلى أن المعتزلة تتفق مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش ، وفي غيرها من الناس ، وفي القول بعدم ضرورة نصب الإمام للمسلمين ، كما يفهم ذلك من قول الخوارج لا حكم إلا لله ، ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادئ الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية ، وإثارة الفتن ، والاضطرابات ، ولاسيما في إفريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادئ التي كانت تتفق في كثير من المسائل ، وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ، مع ميول الخوارج [٢]

وقد سبق أن ورد في كتاب المؤرخين (طوائف الواصلية ـ المعتزلة) ـ وبصفة خاصة بالمغرب العربي وشمال إفريقية ، إذ يذكرهم المؤرخون " ربما كان المقصود بالمعتزلة تلك الطوائف من الخوارج التي يطلق عليها الواصلية ، وينص عليهم أنهم إباضية ، إذ الحقيقة انه يوجد نوع من القرابة والتوافق بين

---

١ ـ المصدر السابق ـ ص٥٧ .

٢ ـ المسعودي ت مروج الذهب ـ جـ ٢ ـ ص١٩١ ، دكتور حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ٢ ـ ص٦ .

أفكار المعتزلة وأفكار الخوارج ، فيما يتعلق بالتوحيد والوعد والوعيد والرد على آراء الأشعري في عدم خلق القرآن ، وكذلك في الوعد والوعيد - عند الإباضية . [١]

وربما كان من الأسباب الرئيسية لانتشار مذاهب الخوارج وأصولهم في المغرب العربي وشمال إفريقية - يرجع إلى التزاوج والتوافق بين الخوارج من اباضية وصفريه وبين فكر المعتزلة وأصولهم الدينية والسياسية ، ويشير معظم المؤرخين، " فقد نجحت الدعاية التي قام بها عبد الرحمن بن رستم (١٦) هـ ، وأتباعه بالمغرب الأوسط ، وانضمت إليه القبائل التي استجابت للدعوة الإباضية ، كما أنضم إليه كثير من الخوارج الصفرية و جماعة الواصلية من الإباضية وهم من المعتزلةس ، وذلك لأن الفرقتين تحالفتا نتيجة لأخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر (موقف المنزلة بين المنزلين) ، ولهذا أعتبر معتزلة المغرب من الإباضية ، وأعترف الجميع بإمامته " [٢]

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى كيف أن أمام الإباضية عبد الوهاب بن رستم - بعث إلى أحد رجاله لكي يبعث إليه بالعلماء والمتفقهين من متكلمي المعتزلة الواصلية - لتفسير وشرح الأحكام والأفكار السياسية ، وللرد على الخارجين عليه من الصفرية وخوارج المنشقين عليه من الإباضية بطرابلس وجبل نفوسه ، وجربي .

ولذلك نرى إلى أي مدى لعب الجدل الكلامي الأعتزالي دوراً هاماً ورئيسياً في فكر الخوارج الإباضية والصفريه ، وكان لذلك أثر كبير في تثبيت أركان الإمامة الإباضية بالمغرب العربي وشمال إفريقيا .

ولعل البحث القيم الذي أدلى به المستشرق الأيطالي " كارلو الفونسو تلليـنو - (١٨٧٢ - ١٩٣٨) م - حولي الصلة بين مذهب المعتزلة والخوارج وبصفة خاصة جماعة " الإباضية " المقيمين في إفريقيا وشمالها - ليدل دلالة قاطعة على صدق ما ذهبنا إليه .

---

١ - دكتور سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - ص٤١٥
٢ - المصدر الساق - ص٣٧٩ .

فقد أوضح بإيجاز شديد تلك الصلة القوية المتواصلة بين مذهب المعتزلة الواصلية وبين مذهب الإباضية الخوارج شمال إفريقيا ومن ذلك بتحليل ما ورد في كتاب " العقيدة الإباضية " لعمرو أبن جميع - وكما جاء كذلك في كتاب السير للشماخي طبعة القاهرة سنة ١٣٠١ هـ، وهذا يضعنا أمام أقوال ذات طابع معتزلي واضح ، وهو قولهم : القرآن مخلوق ، وأنه ليس ومن الممكن رؤية الله في الآخرة ، وتأويلهم بعض مسائل الحياة الآخرة تأويلاً مجازياً (كالميزان والصراط) . وقولهم كل تشبيه ظاهر ، وبصفة خاصة مسألة استواء الله على العرش ، يجب تأويله تأويلاً مجازياً ، ولعلنا نلاحظ كذلك أن كلا المذهبين على اتفاق تام فيما بينهما وبين البعض ، وعلى خلاف أهل السنة فيما يتعلق بقولهم : أن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إذا تابوا قبل الموت ، وأن عذاب النار أبدي حتى لمرتكب الكبيرة أو الذنب من المسلمين . وهذا إذا مات دون أن يتوب لا تنفع له شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء [١]

لكن من ناحية أخرى ، فإن هذه الشفاعة مقبولة عند بعض المؤلفين ولكنها من أجل المذنب التائب فحسب ، وفي هذه الحالة ليست تبديلاً لما قضي به الله ، وإنما زيادة لهم في الثواب وتشريف في المنازل [٢]

وفي كتاب أصول الديانات للشيخ عامر بن علي الشماخي ، وهو عمدة كتب الإباضية في جبل نفوسه يقول المؤلف " ندين بأن الله صادق في وعده ووعيده " وهذا ما تقول به المعتزلة " بأن الله صادق في وعده ووعيده الواردين في القرآن "

ويفصل ذلك عبد العزيز إبراهيم المصعبي :ت عام (١٣٢٣ هـ = ١٨٠٨ م) فيقول " باعتقادنا وقولنا أن الله تعالى يفعل في أهل الشرك والعصيان يوم القيامة ما أخبر في الدنيا بالقرآن بفعله فيهم فيه ، ويكون ما قضى به ذلك

---

١ - كارل الفونسو نللينو - بحوث في المعتزلة : (جـ) الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين في إفريقيا الشمالية - (بحث منشور ضمن كتاب التراث ايوناني في الحضارة الإسلامية - ص ٢٠٤ ، ص٢٠٥ ، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي - ط دار القلم ببيروت - ١٩٨٠ م .

٢ - المصدر السابق - الهامش - ص٢٠٥ .

الوعيد من أنواع العذاب حقاً . وبأنه لا يخلفه ، كما لا يخلف وعده للمؤمنين بالخيرات وبدوام أصحاب النار والهوان فيهما ، وعدم خروجهم منهما بوجه ما لنحو قوله تعالى ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة . (٨١) والخلاصة .. قولهم : أن الله لا يخلف وعده ، ولا يدع وعيده يذهب سدى ، ومن الواضح أن هذا يشير إلى مسألة أبدية العذاب في النار [١] ومن الجدير بالذكر أن عقائد الخوارج الإباضية في الأصول العقائدية ، لا تختلف عن قول المعتزلة ومقالاتهم أيضاً ، فصفات الله ليست زائدة على ذات الله ، ولكنها عين ذاته بمعنى أن الثمرات المترتبة على تلك الصفات عند الأشاعرة ، يكفي عندنا في وجودها الذات المقدسة ، ولا حاجة إلى دعوى معان زائدة عليها ، قائمة بها ، توجد بها تلك الثمرات ، فوجود ذاته تعالى كاف في انكشاف جميع المعلومات لله تعالى ، ولا حاجة إلى دعوى صفة أزليه ، قائمة به ، تنكشف بها المعلومات ، مسماة بالعلم ، كما يقول الأشعري وأصحابه [٢] وكاف في التأثير في جميع المقدرات ، ولا حاجة إلى دعوى صفة أزليه قائمة بذاته تعالى ، يتأتى بها إيجاد كل ممكن على وفق الإرادة ، مسماة بالقدرة كما يقولون وينتهي مؤلف الإباضية إلى القول : فهي عندنا وعند المعتزلة صفات اعتبارية ، وجود لها خارجاً عن الأذهان . [٣]

ويشير المستشرق الإيطالي نللينو إلى مسألتين يختلف فيهما الخوارج الإباضية أو غيرهم مع مذهب المعتزلة ، وهما : المسألة التي تتعلق بالحكم في شأن " مرتكب الكبيرة " والتائبين ، يتعلق بالفعل الإنساني ، والقدرة مع الاستطاعة ....الخ .

وأن كنا سبق أن أشرنا إلى هاتين المسألتين بين الخوارج وأهل السنة والجماعة وبين المعتزلة والقدرية أيضاً : فإننا نجمل الفكرة هنا ، في القول : أن الخوارج يختلفون مع مذهب أهل السنة والجماعة الذين يعتبرون مرتكب الكبيرة

---

١ - المصدر السابق - ص٢٠٥ ، كذلك الشماخي - كتاب السير - ص٥٥٩ ، ص٥٦١ .
٢ - راجع كتاب الإمام الجويني - الإرشاد إلى قواطع الأدلة . أماكن متفرقة .
٣ - كارل ألفونسو نللينو . بحوث في المعتزلة - الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية - (ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ص٢٠٦ .

مؤمناً وليس بكافر أو مشرك كما تذهب الخوارج إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً وما لم تكن كبيرة الكبائر وهي الشرك بالله تعالى ، وكذلك يختلفون مع المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين - وهو أن مرتكب الكبيرة فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، لذلك قال الخوارج " ندين بأن لا منزلة بين المنزلتين : منزلة الإيمان ومنزلة الكفر " [١] أما المسألة الثانية وهي مسألة : القدر وحرية العبد في أفعاله ، فالمعتزلة يقطعون بحرية العبد ، بينما يقول الإباضية في شمال إفريقية بالحرية المحدودة في صورة " الكسب " أو الاكتساب كما يقول الأشاعرة [٢] ويؤكدون المبدأ القائل : " بأن الله خالق أفعال العباد ومحدثها ومدبرها " - وأضافوا لذلك القول بأن للعباد في الأفعال اختيار وكسب ، وهو قول خوارج المغرب أيضاً

ومن الجدير بالذكر أن إباضية " جبل نفوسه " يرجعون ببعض عقائدهم في القدر إلى كبار الصحابة ، مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنه (٦٨) هـ ، لذلك يشير بعض علماء إباضية الجبل رحمهم الله تعالى بقولهم " أن الله جبل وطبع عبادة على فعل ما علم حصوله منهم قبل أن يخلقهم ، كما قال أبن عباس رضي الله عنه ، فهم منقادون لفعل ما علم الله صدوره منهم ، وهذا هو الحق الذي عليه مشايخ الجبل كما مر ، والذي عليه أهل المغرب من أصحابنا رحمهم الله تعالى هو هذا أيضاً ، إلا أنهم أثبتوا للعباد الاختيار ، ونفوا عنهم الجبر والأولى أن يقال " ولم يجبلوا عليها " بدل القول " ولم يضطروا إليها" [٣]

ثالثاً : الخوارج بين المرجئة والشيعة : -

رأينا فيما سبق مدى الخلاف بين مذاهب الخوارج الأصولية والسياسية وبين أهل السنة والجماعة ومدى التوافق والتقارب في كثير من الأمور والمبادئ العقائدية والسياسية بينهم وبين مذاهب المعتزلة أو القدرية ، وبصفة خاصة

---

١ المصدر السابق - ص٢٠٧ .

٢ راجع الأشعرى - الإبانة عن أصول الديانة .

٣ كارل الفونسو تللينو - بحوث في المعتزلة المصدر السابق - ص٢٠٨ .

إباضية خوارج المغرب وشمال إفريقية ، بالإضافة إلى بعض الاختلافات بين المعتزلة ، وخوارج المغرب من الإباضية فيما يتعلق بأفعال العباد ، والقدر أو الاستطاعة مع الفعل ، بما يقرب الإباضية من مذاهب أهل السنة ، وهكذا .

لكننا هنا نجد اختلافاً شاسعاً بين مذاهب الخوارج على اختلاف فروعهم وبين مذهبي المرجئة والشيعة على اختلاف فروعهم أيضا.

١- المرجئة : -

طائفة من أهل الكلام ، والاسم يرجع إلى الإرجاء بمعنى التأخير ، أو إلى إعطاء الرجاء ، والأصل : أنهم كانوا يرجئون الحكم على صاحب الكبيرة إلى الله يوم الدين خلافاً للمعتزلة وأهل السنة ، كما كانوا يقولون : بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، هذا بصفة عامة ما يعرف أو ما يفهم عن فرقة المرجئة في تاريخ الفكر الإسلامي ، لكن إذا تتبعنا دلالة المرجئة وتعريفاتها ومبادئها وأصولها وفروعها في كتب المؤرخين وكتاب الفرق والمذاهب ، فإننا نستطيع وضع النقط على الحروف فيما يتعلق بالمقارنة والتحليل بينهم وبين الخوارج

يذهب الشهرستاني ت (٥٤٨) هـ ، في تفصيل يذهب المرجئة ، إلى أن: الأرجاء على معنيين : أحدهما : يعني التأخير كما في قوله تعالى ﴿ قالوا ارجه وأخاه ﴾ سورة الأعراف آيه (١١١) ، أي أمهله وأخره .

والثاني : إعطاء الرجاء

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول ، فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد .

وبالمعنى الثاني : فظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل الإرجاء : هو بمعنى ، تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضي عليه بحكم ما في الدنيا ، من كونه من أهل الجنة ، أو من أهل النار ، فعلى هذا : المرجئة ، والوعيدية فرقتان متقابلتان [1]

ويشير مؤرخو المذاهب إلى أنواع وأصناف المرجئة ، فمنهم مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة ، فقد وافق فريق من هؤلاء المرجئة قول ـــ القدرية ، وفريق أخر وافق قول الجهمية في القول بالجبر ، فجمعوا بين الجبر والإرجاء ، وأنفرد فريق منهم بال ٠ إرجاء المحض لا يقولون بالجبر ولا بالقدر . ومع أن الإرجاء في اللغة هو التأخير ، لذا سموا بالمرجئة لأنهم " يؤخرون العمل من الإيمان " على معنى قولهم : " لا تضر معصية مع الإيمان ، كما لا تنفع الطاعة مع الكفر " وهذه في عرف أهل السنة بدعة شنيعة لا يجب التساهل بشأنها ، وهؤلاء المرجئة تفترق على خمس فرق . [2]

الفرقة الأولى منهم : اليونسية : وهم أتباع يونس بن عون النميري : مذهبه يقول : إن الإيمان في القلب وفي اللسان ، وحقيقته المعرفة بالله سبحانه والمحبة له، والخضوع له ، والتصديق لكتبه ورسله ، وقال ومعرفتها في الجملة إيمان ، فكأن كل خصلة من خصال الإيمان ليس بإيمان ولا بعض إيمان ، وجملتها إيمان ، ويضيف الشهرستاني قوله : من تمكن في قلبه الخضوع لله ومحبته له على خلوص ، ويقين ، لم يخالفه في معصية ، وإن صدرت منه معصية فلا تضره بيقينه وإخلاصه ، والمؤمن إنما يدخل الجنة بإخلاصه ، ومحبته ، لا بعمله وطاعته [3]

أما الفرقة الثانية منهم :الغسانية : أتباع غسان المرجئ الكوفي : كان يقول : الإيمان إقرار بالله ومحبة لله تعالى ، وتعظيم له والإيمان عنده : يقبل الزيادة ولا

١- الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص١٣٩ .
٢- الأسفرايني - التبصير في الدين - ص٥٩ ، ص٦٠ ، كذلك راجع الهامش .
٣- المصدر السابق - ص٦٠ ، كذلك الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - ص١٤٠ .

يقبل النقصان على خلاف ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان (١٥٠ هـ) حيث قال لا يزيد ولا ينقص [١]

أما الفرقة الثالثة فهم : التومنية: أصحاب أبو معاذ التومني ، قالوا ، الإيمان ما وقاك عن الكفر وقالوا : الإيمان خصال كثيرة كل من ترك خصلة منها كفر ، والفاسق على الإطلاق من ترك جميع خصال الإيمان وأنكرها كلها ، وهذه الخصال كما نعرف ، معرفة الله تعالى ، ورسله ودينه ومحبته ورضاه ، وغير ذلك كما أشرنا ، والواضح أن المرجئة هنا لا يعتبرون بخصال العمل فهناك فصل تام بين مفهوم الإيمان ، والعمل ، ولا صلة بينهما على الإطلاق .

الفرقة الرابعة : الثوبانية: وهم أصحاب أبي ثوبان المرجئ كان يقول : الإيمان إقرار ومعرفة بالله وبرسله وبكل شيء يقدر وجوده في العقل .

الفرقة الخامسة منهم المريسية : أصحاب بشر المريسي ت (٢١٩هـ) ، ولعل مرجئة بغداد من أتباعه ، وكان يتكلم في الفقه على مذهب أبي يوسف القاضي لكنه خالفه بقوله بخلق القرآن ، وكان يقول : الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان جميعاً ، وكما قال أبن الراوندي الكفر هو الإجحاد والإنكار ، وزعما أن السجود للصنم ليس بكفر في نفسه ولكنه علامة على الكفر [٢]

ويشير الشهرستاني إلى فرقة أخرى

سادسة ، وهي الصالحية ، أصحاب صالح بن عمر الصالحي ، والصالحي ، ومحمد بن شبيب ، وأبو شمر وغيلان . كلهم جمعوا بين القدر والإرجاء . [٣]

وبصفة عامة ، وكما عرضنا لأقوال ومذاهب فرق المرجئة ، فإنهم جميعاً يجمعون على أن الإيمان هو الإقرار والتصديق ، ومعرفة الله تعالى

---

١ - المصدر السابق - ص ٦٠ ، وسوف نوضح رأي أبو حنيفة في الصفحات التالية حين نتعرض للاختلاف بين المرجئة والخوارج وأهل السنة في حقيقة الإيمان .
٢ - المصدر السابق - ص ٦١ ، كذلك الشهر ستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص ١٤٤ وما بعد
٣- للمزيد - راجع - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - ص ١٤٥ .

ورسله ومحبة الله تعالى ورضاه ، ومن جحد خصلة من هذه الخصال فإنه يكفر ويخرج من الإيمان ، وعلى ذلك لم ينكروا العمل ، وأن الإيمان يزيد أو ينقص بالعمل مثلاً، لذلك فإن المرجئة يفصلون بين الإيمان والعمل ، ولا يربطون بين كون المؤمن صاحب عمل وطاعات ، يزيد بها الإيمان أو ينقص بدونها وهم بذلك يخالفون أهل السنة والجماعة حيث يقرر أهل السنة أن الإيمان إقرار وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح [1] كذلك يخالفون الخوارج حيث ربط الخوارج وكما عرضنا - بين الإيمان والعمل ، وكذلك في مسألة مرتكب الكبيرة ، فهو كافر إما كفر نعمة - الإباضية منهم- أو كفر ملة وبالتالي يقع في الشرك كما هو عند الأزارقة والنجدات من الخوارج .

وعقائد المرجئة وأصولهم بصفة عامة تدور حول المبادئ الآتية :

الإيمان : هو المعرفة بالله تعالى على الإطلاق ، كما أن للعالم صانعاً .

والكفر : هو الجهل به على الإطلاق ، ومعرفة الله تعالى هي المحبة والخضوع له ، ويصح ذلك مع حجة الرسول ، ويصح في العقل أن يؤمن بالله ولا يؤمن برسوله، والصلاة عندهم ليست عبادة لله تعالى ، وأنه لا عبادة لله تعالى إلا الإيمان به ، وهو معرفته ، وهو خصلة واحدة لا يزيد ولا ينقص ، كذلك الكفر خصلة واحدة لا يزيد ولا ينقص.

كذلك الإيمان هو : المعرفة بالله تعالى والإقرار به وأنه واحد ليس كمثله شيء ما لم تقم حجة الأنبياء عليهم السلام ، فإذا قامت الحجة فالإقرار بهم وتصديقهم من الإيمان والمعرفة ، والإقرار بما جاءوا به من عند الله تعالى غير داخل في الإيمان الأصلي ، وشرط في خصال الإيمان معرفة العدل والقدر خيره وشره من العبد ، من غير أن يضاف للباري تعالى منه شيء . وزعم بعض المرجئة (وهم الغيلانية من القدرية) أن المعرفة التي تعني الإقرار والتصديق على نوعان فطرية : وهي علم الإنسان بأنه للعالم صانعا ولنفسه خالقاً . وهذه المعرفة لا تسمى إيماناً .

---

١ - راجع : مقالات أهل السنة والجماعة - الأشعري - الإبانة عن أصول الديانة - تحقيق دكتورة فوقية حسين محمود ط ١٩٨١ م

وإنمـا الإيمـان :هـو المعـرفة الثانـية : المكتسـبة ـ التـي تعنـي المحـبة ، والإقرار والخضوع لما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعلى .. إلخ . [١]

وربمـا شـارك بعض الخوارج في مقالات المرجئة كما ذكرنا فيما سبق بشأن الإيمـان . فبعض " البيهسية " من الخوارج تقرر مضمون عامة ما ذهبت إليه فرق المرجئة بشأن الإيمان : باعتباره الإقرار والتصديق والمعرفة والمحبة والطاعة لله تعالى ومـا جاء بـه الرسول عليه السلام .. وهكذا ربمـا هؤلاء من يشار إليهم باسم مرجئة الخوارج [٢]

ومذهب المرجئة كما وضحناه يخالف تماماً مذاهب أهل السنة والجماعة فـي مسـألة الإيمـان ، كذلـك مذهـب الإمـام الأعظـم أبـو حنـيفة الـنعمان (١٥٠) هجرية ، والذي نسبه بعض أصحاب الفرق وكتاب المذاهب إلى مذهب المرجئة ، أو قـال بمبادئهم غير أن هؤلاء لـم يحط أحد منهم بكامل مذهب أبي حنيفة ، إذ أن الإمـام الأعظـم يؤكـد علـى أن الإيمـان إقـرار وتصـديق ، والتصـديق شـرط الإيمـان ، وبـه العمـل ، وإن كـان لا يـزيـد ولا ينقص لأن الإيمـان كـل واحـد ، لا يخرج العبد المؤمن من حيز الإيمـان وكونـه مؤمـناً وموحداً بـالله تعـالى ومقراً برسوله ﷺ وما جاء به من قول وعمل وفرائض .. إلخ لمجرد وقوعه في معصية من المعاصـي ، فوقوع المؤمن في معصية ما لم تكن كبيرة الكبائر وهي الشرك بـالله تعـالى لا يخرج من دائرة الإيمان ، لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ سورة النساء (٤٨) .

وعلـى ذلـك فـإن العاصـي مؤمـن يـنال جزاءً علـى معصـيته فـي الآخرة ، وهذا هو مذهب أهلَ السنة والفقهاء أيضاً [٣] كذلك يؤكد العلماء أن علماء أصول الدين مع مذهب أبي حنيفة رضـي الله عنه [٤]

---

١ ـ راجع الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص١٤٥ ، ص١٤٦ .
٢ ـ المصدر السابق ـ ص١٢٥ ، ص ١٢٦ ـ كذلك راجع البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ أماكن أخرى .
٣ ـ راجع دكتور على سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ جـ ١ ، ص١٢١ ـ (فصل أبي حنيفة) .
٤ ـ الأسفراييني ـ التبصير في الدين ـ ص ٦٠ (تعليق بالهامش) .

كذلك يخالف المرجئة مذهب الخوارج في توسعتهم لمفهوم الإيمان : إذ قالوا أن الإمام إذا أخطأ لم تزل إمامته ، وتجب طاعته ، وتجوز الصلاة ورائه ، كذلك لم يجز المرجئة الثورة على الإمام أو عزله أو قتله . كما ذهب الخوارج . (١)

كذلك وكما اختلف المرجئة مع الخوارج والمعتزلة في مسالة الإيمان لأن هاتين الفرقتين اشترطتا في الإيمان الإتيان بالطاعات واجتناب المعاصي وأن الأعمال جزء من الإيمان ، وأن مرتكب الكبيرة عند الخوارج كافر كفر نعمة عند بعضهم من الإباضية أو كفر ملة وشرك عند الأزارقة والنجدات وغيرهم ، أو في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان بمعنى أنه فاسق فإنهم خالفوا الخوارج في كون مرتكب الكبيرة مخلد في النار . ومن شاركهم من المعتزلة فإن المرجئة - اتساقا مع مذهبهم في الإرجاء - ومعنى الإيمان ، يقولون أن مرتكب الكبيرة - لا يخلد في النار - إذ لا يخلد في النار إلا الكافر .

ويؤول المرجئة بعض الآيات القرآنية بناءاً على هذا المعنى ، تلك الآيات التي اتخذها الخوارج والمعتزلة دليلاً على مذهبهم في تكفير مرتكب الكبيرة وتخليدها في النار فقال المرجئة في تأويل قوله تعالى ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ﴾ سورة النساء الآية (١٤) وقوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها ﴾ سورة النساء (٩٣) فقالوا أي (المرجئة) : في الآية الأولى : أن من يعص الله ورسوله ويكون مؤمناً لم يتعد حدود الله تعالى كلها ، بل تعدى بعض حدوده ، وإنما يتعدى الحدود كلها الكافر وقالوا في تأويل الآية الثانية: بأن من قتل مؤمناً لأنه مؤمن ولا يكون القاتل بهذا الوضع إلا كافراً .. إلخ (٢)

ومما يختلف فيه المرجئة مع الخوارج أو المعتزلة كذلك فيما يتعلق بمسألة " الوعد والوعيد " فالخوارج والمعتزلة قالوا : أن الله عز وجل لا يخلف وعده ولا يتخلف وعيده لعباده ، أما المرجئة فقالوا بما يخالف ذلك إذ قالوا : أن

١- أحمد أمين - ظهر الإسلام - جـ٤ - صـ٢٣٥ .
٢ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٣١٨ ، ص٣١٩ .

وعد الله لا يتخلف ، ووعيده قد يتخلف . لأن الصواب فضل الله به لأن الخلف في الوعد نقص ، والعقاب عدل ، وله أن يتصرف فيه كما يشاء ولا يعد الخلف في الوعيد نقصاً . [1]

وكما خالف المرجئة الخوارج في المسائل الأصولية أو العقائدية ، فإنهم خالفوهم في الأمور السياسية التي تتعلق بالخلافة والولاية وإمامة المسلمين .

إذ بينما ذهب الخوارج إلى تكفير الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم وأنصارهم ، والحكمين ، ومن رضي بالتحكيم أو وافق عليه ، فإن المرجئة يذهبون إلى رفض هذا المنطق عند الخوارج - وقالوا : " بأن كل من آمن بالله ووحدانيته تعالى لا يمكن الحكم عليه بالكفر ، ذلك موكول إلى الله تعالى وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التي اقترفها ، والمبادئ السياسية التي يدين بها ، فهم يرجئون الحكم على إخوانهم في الدين على الله وحده الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . [2]

وفيما يتعلق بالإمامة : فإن الثوبانية من المرجئة - يوافقون فيها الخوارج والمعتزلة ، وبعض أهل السنة فقالوا : أن الإمامة تصلح في غير قريش وأن كل من كان قائماً بالكتاب والسنة فهو مستحق لها " [3]

ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين والمؤرخين الذين تناولوا فرق المرجئة بالدراسة والتحليل في عقائدهم وأصوله السياسية ، ونحن أيضاً قد نلتمس بعض التبريرات والتعليلات لمذاهبهم في الفصل بين الإيمان والعمل ، وفي محاولتهم التأكيد على صدق إيمان المؤمن عند الإقرار والتصديق دون أن ينتقص من إيمانه شيء لارتكابه معصية من المعاصي ، وذلك لما كانت تموج به دائرة الفكر الإسلامي والعقائد المذهبية الإسلامية من تكفير بين الفرق والمذاهب الإسلامية . إذ أصبح الشيعة يكفرون الخوارج - لتكفيرهم عثمان

---

١ - المصدر السابق - ص٣١٩ - ص٣٢٠ .
٢ - دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي - جـ ٢ - ص٤ " مكتبة النهضة المصرية - ١٩٨٦ م .
٣ - الرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - ص١٠٨ ، كذلك طه سعد ، المرشد الأمين - (ضمن الكتاب ص١٠٨) بالهامش .

وعلي وأهل صفين . ولعدم إقرارهم لمبدأ الوصية والتعيين بالنسبة للإمام علي ، وتكفيرهم مرتكب المعصية حتى ولو صغرت ، وكذلك كفر الخوارج الشيعة وتكفير أهل السنة والجماعة لهؤلاء وألئك .. وهكذا ، وكما يقول الدكتور طه حسين (ت عام ١٩٧٤ م) ، في كتابه مرآة الإسلام : أصبح المسلمون يكفر بعضهم بعضاً حتى لم يعد يأمن خارجي لرجل من الشيعة ، أو الجماعة ، ولم يأمن رجل من الشيعة أو الجماعة لخارجي ثم لم يأمن رجل من الشيعة لرجل من الجماعة ، ولم يأمن رجل من الجماعة لرجل من الشيعة .. وهكذا .[١]

ويضاف إلى ذلك أن المرجئة لم تنقصهم الحيلة في التماس مبررات من النصوص القرآنية لما يذهبون إليه .. وتأويلاتهم لهذه النصوص طبقاً لعقيدتهم في الإيمان .. مثل قوله تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ سورة الزمر آية (٥٣) . وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ سورة النساء الآية (٤٨) .

وذلك في مقابل استدلالات الخوارج بنصوص على صدق مذاهبهم في التكفير لصاحب المعصية أو الكبيرة ، " بقصة إبليس " إذ كان عارفاً بالله مطيعاً لــه غير أنــه ارتكب كبيرة وهو الامتناع عن السجود لآدم عليه السلام ، فاستوجب اللعن والتكفير والتخليد في النار .[٢]

وفي قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة (٣٤) وفي مقابل ذلك أصر المرجئة على قولهم : الإيمان قول وعقد وإن عري عن العمل ، فلا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة[٣]

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن مذهب المرجئة يميل إلى التسامح الأمر الذي كان لــه أثر كبير من الناحية السياسية في العالم الإسلامي . فقد تخلوا عن

---

١ - يحيى هويدي - علم الكلام والفلسفة الإسلامية - ص٩٤ .
٢ - الشهرستاني - نهاية الإقدام في علم الكلام - ص٤٧١ - تحقيق ألفريد جيوم - ط حديثة بدون تاريخ .
٣- المصدر السابق - ص٤٧١ .

نزعة التشدد التي كانت تسود بين الخوارج والشيعة والمعتزلة في الأصول الاعتقادية والسياسية . فاتسعت لديهم دائرة الإيمان والمؤمنين ، ولم يقتصر الإيمان على النظرة الضيقة التي سادت عند غيرهم من المذاهب .

فكل من آمن بالله ورسله فهو مؤمن وإن ارتكب كبيرة ، كما أن مبدأهم في جواز عفو الله عن العصاة أوجد احتمالاً بأن مرتكب الكبيرة يدخل الجنة من غير عقاب ، وبهذا وذلك اتسعت دائرة المؤمنين ، ودخل فيها كل مصدق ، بل ومن المحتمل أن لا يعذب ، على عكس الخوارج والمعتزلة فمن لم يأت بفروض الأعمال ليس بمؤمن ، بل لا يكاد يعد مؤمناً من لم يكن معتزلياً أو خارجياً ، فالخوارج ومن شايعهم من المعتزلة لا يعتدون بغيرهم من المؤمنين أو المسلمين ، فكأن غيرهم كفاراً ، وكأن الجنة التي عرضها السماوات والأرض لم تخلق إلا لهم فقط ، أما غيرهم فهم من أصحاب النار ويخلدون في العذاب .

أما المرجئة - وقد تأثرت بهم بعض طوائف أهل الشيعة أيضاً - يعتبرون كل الطوائف المخالفة لمذاهبهم من الخوارج ، والشيعة والمعتزلة ، مؤمنين ، وأن كل من تأول وأخطأ مؤمناً ، وليس كافراً كما قال الخوارج من قبل ، إلا إذا أجمعت عليه الأمة ، وأقر الجميع بكفره ، وعند المرجئة أيضاً ، أنه ليس لأحد أن يخلد في النار من المؤمنين بل إما أن يغفر الله أو يعذب عذاباً قليلاً . ومن ثم يدخل الجنة .

وعلى ذلك فإن مبادئ المرجئة هذه من الناحية السياسية ، تجعلهم فئة محايدة ، لا ضد الدولة ، ولا معها ، وبيان ذلك أن المرجئة عندما استعرضوا الأمور السياسية علىَ مبادئهم رأوا أن المتقاتلين الأولين : كالذين ناصروا عثمان رضي الله عنه والذين خرجوا عليه وقتلوه ، والذين قاتلوا مع علي كرم الله وجهه والذين قاتلوا مع معاوية بن أبي سفيان .. كلهم مصدق بالله ورسوله ، وكلهم متأول ، فكلهم مؤمن ، وإن أخطأ بعدهم فعفو الله قد يشملهم إذن فالمرجئة لا يكفرون أحداً من هؤلاء وأولئك من المتقاتلين ولا يكفرون عمرو بن العاص ولا معاوية بن أبي سفيان ولا غيرهما ، كما كان يفعل الخوارج وبعض المعتزلة . كذلك لا يكفرون عثمان ولا قتلته ، ولا يكفرون أصحاب الجمل ولا يكفرون

علي رضي الله عنه ولا المتقاتلين ولا طائفة من طوائف المسلمين والمتحاربين لأن غاية خطأهم إن أخطاؤا أنهم ارتكبوا كبيرة ، والكبيرة لا تخرج من الإيمان .

إلا أنهم وقفوا في الحكم على أي الفريقين هو المخطأ لأن كل فريق متأول وكل فريق له حججه ، وأن الأمر يتعلق بالنيات أكثر مما يتعلق بالأعمال والله هو الذي يطلع على نيات العباد وضمائرهم ، فلنكل أمرهم جميعاً إلى الله تعالى ، ولا نسب أحداً ، ولا نقطع بأنه سيدخل النار حتماً (١)

وقد استتبع هذا أنهم أرجئوا الحكم في بني أمية أيضاً ، فلم يحكموا عليهم بالكفر كما فعلت الخوارج والشيعة وبعض المعتزلة ، ويعتبر هذا مهادنة منهم للحكام ، فحكام - خلفاء - بني أمية في رأي المرجئة خلفاء شرعيون ما دام قد انعقدت لهم البيعة ، ولهذا وجب طاعتهم ، حتى وإن نسب إلى أحد منهم الفسق . وعلى ذلك استطاع المرجئة أن يضمنوا رضاء خلفاء بني أمية عليهم ، أو عدم التعرض لهم بأذى ، فقد آثر المرجئة الابتعاد عن الفتن والخصومات السياسية ، فلم يكونوا مع علي عليه السلام ولا ضده ، ولم يكونوا مع خصومه ولا ضدهم ، وقد عاشوا أغلب أيامهم في شبه عزلة عن الاضطرابات السياسية والفتن العقائدية ، وليس غريباً بعد ذلك أن نجد بعض المعتزلة من المرجئة (٢).

ومما سبق يتضح لنا كيف أن مسألة " الإمامة " قد ألقت بظلالها على تاريخ الحياة السياسية الإسلامية الأمر الذي استتبع البحث في مسألة الإيمان ، والصلة بين الإيمان والعمل من حيث الحكم بالكفر والإيمان . على صاحب الكبيرة - أو مرتكبي المعصية ، وما استتبع ذلك من خلافات مريرة بين الخوارج والمرجئة وبعض المعتزلة والشيعة ، وأهل السنة والجماعة .

ومما يلفت النظر حقاً أن المرجئة بهذه المبادئ الأصولية لعبوا دوراً مهماً في توطيد الحياة السياسية في تاريخ الإسلام السياسي . فمع مهادنتهم للحكام والولاة من خلفاء بني أمية والعباسيين . لم يتسببوا في اضطرابات أو ثورات سياسية ضد هؤلاء الحكام على مر العصور ، لأغراض سياسية اللهم إلا إذا

١- أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٣٢٤ ، ص٣٢٥ .

٢- دكتور يحيى هويدي - علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، ص٩٧ .

كانت بعض الاعتراضات التي كانت تبدو من زعمائهم لأغراض شخصية أو بهدف الإصلاح الاجتماعي ـ وقد لا تستغرب نتيجة لذلك أن حكام وخلفاء بني أمية أو العباسيين كانوا يستعملون بعض هؤلاء المرجئة في الوظائف العامة للدولة وكذلك الوظائف الإدارية ، ولم تكن ثمة خصومة سياسية بينهم وبين الخلفاء والحكام إلى في أضيق الحدود أو ما يتعلق بالاختلاف في الرأي وبعض المواقف وهذا بخلاف ما كان يحدث من الخوارج والشيعة والمعتزلة على السواء .

وفي ذلك يشير المؤرخون كالطبري ، وصاحب تاريخ بغداد وكذلك بعض الباحثين المؤرخين المحدثين .

ففي مجال الإصلاح الاجتماعي والديني مثلاً كانت مسألة المسائل في ذلك الحين هو موقف " حديثي العهد بالإسلام " فقد قام المرجئة بدور هام في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف ـ وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على " الإمامة " . فذهب المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم ، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وعلى هذا كانوا لا يتحرجون عن معارضة أية حكومة تقر مثل تلك المظالم ، لذلك لا نندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعنف في بلاد ما وراء النهر أن نرى هؤلاء المرجئة يحرمون سفك الدماء البريئة ويجهرون بأن جميع المسلمين أخوة في الدين ، وصفوة القول هو أن المرجئة كانوا ينشدون العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب وهو المبدأ الذي يقره الإسلام [١]

وقد كان ذلك بلا ريب هو شعور الجمهور الأعظم من أتباع " الحارث بن سريج " ـ عام (١٢٨ هجرية) والذي قام على رأس المرجئة بثورة معارضة ضد الأمويين في بلاد ما وراء النهر ، لاشتطاط الأمويين في جمع الضرائب من الأهالي وكان يزعم أنه المهدي الذي يريد تخليص المضطهدين

١ ـ دكتور ـ حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ٢ ـ ص٤ ، ص٥ .

من ظلم الحكام والأخذ بناصر المظلومين ، وقد كان الحارث بن سريج يدعو إلى الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية ، [1] وهو بهذا يذكرنا بمنهج الإسلام العظيم ، الذي اتبعه الأولون في تنصيب الخليفة وهو ما نادى به أيضاً أهل السنة الأولون بالإضافة إلى الخوارج والمعتزلة .

وعلى الرغم من بعض هذه الأمور - إلا أن منهج المرجئة كانوا يميلون بصفة عامة إلى المسالمة والموادعة كما افترضنا فيما سبق ، ولم يذكر أن المؤمنين أو بني العباس عذبوا أحداً من هؤلاء بسبب عقيدة الإرجاء في العقائد أو السياسة . ولكن قد تكون لأسباب شخصية إذ أن قتل الحارث بن سريج عام (١٢٨هـ) ، ليس بسبب معارضته لاضطهاد الحكام للأهالي بل لأسباب شخصية وقبلية ، كذلك فإن تعذيب أبي جعفر المنصور العباسي للإمام أبي حنيفة النعمان لم يكن إلا لأن أبي حنيفة قد أظهر ميلاً إلى تفضيل محمد بن عبد الله بن الحسن النفس الذكية " - لكونه من آل البيت الشريف ، ومن عترة النبي ﷺ .. وهكذا . [2]

على الرغم من هذا الخلاف الشديد بين مذهب المرجئة - ومذاهب الخوارج ومن شاركهم من المعتزلة فيما يتعلق بالإمامة ، وحكم مرتكب الكبيرة ، والصلة بين الإيمان والعمل فإن ثمة نقد شديد يوجه إلى عقائدهم أو مذاهبهم مما يستوجب علينا في هذا المقام الإشارة إليه .

فقد كان من الجائر أن يقابل كلام المرجئة وشرحهم لرأيهم في الإيمان بشيء من التسامح إلا أن كثيراً من المتكلمين ، والأصوليين من أهل السنة والسلف شعروا بالخطر الذي قد ينطوي عليه كلامهم في الإيمان ، وهو " التقليل من شأن الأعمال والإتيان بالطاعات " ، فرأوا أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحده ، أو مع الإقرار باللسان يجعل أعمال الطاعات في المنزلة الثانية ، حتى أن بعضهم فسر تسميتهم المرجئة بأنهم أرجأوا العمل ، أي أخروا منزلة الإيمان وفي هذا خطر على العقيدة ، وبصفة خاصة لدى العامة من الناس ، فقد يفهموا

١- المصدر السابق - ص٥ .
٢- أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٣٢٥ .

أن الأعمال ليست جزء من الإيمان وبالتالي يتحللون منها أو يهملوا الفرائض ، لذلك حاربوا مذاهبهم وعدوهم من الفرق المنحرفة .

فقد غالى المرجئة بلا شك في إخراج العمل من دائرة الإيمان لدرجة أن زعم بعضهم أنه ما دام الإيمان هو الأساس فالصلاة مثلاً غير واجبة ، ولا تزيد ولا تنقص من إيمان المؤمن . وزعم آخرون منهم أن الإيمان لجمع المسلمين سواء ، فإيمان السلف الصالح يوضع على قدم المساواة مع إيمان الفاجر أو مرتكب معصية أو كبيرة مثلاً ، إلى غير ذلك من الأقوال الغريبة على مذهب أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين . [1]

لكن يجب قبل أن نترك هذه المسألة الهامة أن نفرق بين مذهب هؤلاء الغلاة من المرجئة وبين مذهب مرجئة أهل السنة والحديث والفقهاء من أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ت عام (١٥٠) هـ فقد قاوم الإمام أبو حنيفة آراء ومذهب الخوارج وغلاة المعتزلة ، وغيرهم من المرجئة أيضا ، وقرر أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله وبرسله وبما جاء من عند الله تعالى ورسله في الجملة دون تفصيل ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتفاضل الناس فيه وقد ذكر ذلك البغدادي عن أبي حنيفة معللاً هذا الرأي من جانب الإمام الأعظم بقوله " فقد نادى أبو حنيفة بهذا الرأي في الإيمان ليحمي المجتمع الإسلامي من عقيدة الخوارج . [2]

٢- الشيعة :

الشيعة : هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، إما جلياً ، وإما خفياً ، واعتقدوا أن الإمامة لا

١- راجع في ذلك - الأشعري - مقالات الإسلاميين جـ - ص ١٣٨ ، ص ١٤١ وما بعدها - كذلك دكتور يحيي هويدي - علم الكلام والفلسفة الإسلامية - ص٧٩ ، ص٩٨ . - كذلك أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ٣ - ص٣٢٠ .

٢- للمزيد في ذلك - البغدادي - الفرق بين الفرق - ص١٣٨ كذلك الأشعري - مقالات الإسلاميين - جـ ٢ - ص١٤١ ، أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٣٢٠ ، ص٣٢١ وما بعدها . كذلك دكتور : النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١ - ص١٢١ .

تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقيه من عنده ، وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله .

ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولي والتبري قولاً ، وفعلاً وعقداً ، إلا في حالة التقية . وقد يخالفهم بعض الزيدية في ذلك [1]

وفرق الشيعة كثيرة ومتشعبة كالخوارج . يتفقون في أصول جوهرية ويختلفون في بعض المسائل والفروع بين زيدية ، وكيسانية ، وغلاه ، وإمامية ومن أكبر فرق الشيعة وأكثرهم ثباتاً في التاريخ الفكري والسياسي والأصولي الإسلامي: الإمامية ، والإثني عشرية ، والإسماعيلية .

وبالطبع لسنا هنا بصدد البحث في تاريخ الشيعة وفرقهم ، وأصولها المذهبية والتشريعية والسياسية ، لكننا بصدد البحث في الأصول الجوهرية التي تجتمع عليها فرق الشيعة عبر العصور المختلفة وتحليلها ومقارنتها بالأصول الجوهرية التي تجتمع عليها فرق الخوارج عبر العصور المختلفة حتى العصر الحديث أيضاً .

والواضح أن الأصول التي تجتمع عليها الشيعة تخالف تماماً أصول الخوارج عقائدياً وسياسياً ، وإن كان يجمعهم جميعاً الدين الإسلامي ، فهم مسلمون بلا شك خوارج وشيعة ، ومرجئة ، كرامية ، ومعتزلة ، قدرية جهمية .. وهكذا .

فالخوارج كانوا شيعة علي وأنصاره ، قبل مسالة التحكيم وخروجهم عليه وقتالهم في النهروان ، وهم كما ذكرنا ، أول حزب سياسي في الإسلام ، وقبل ظهور مذهب الشيعة وأصولهم العقائدية والسياسية ، فالشيعة لم تتكون سياسياً وعقائدياً ، ولم تتبلور أفكارهم فلسفياً قبل مقتل الإمام الحسين بن عليّ بن

١- الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ١ - ص١٤٦ ، ص١٤٧ ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - الباب الأول .

أبـي طالـب ، شـهيد كـربلاء عـام (٦١) هــ إذ تشـير المصـادر إلـى " أن الشـيعة تكونـت حقـا بعـد مقـتل الحسـين عليـه السـلام ، فـرقة دينـية تـتدبر الأمـر ، يقـول المسـعودي ت (٣٤٦) هــ وفـي سـنة خمسـة وسـتين تحركـت الشـيعة بالكوفـة ، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه .. وراوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرح إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم سليمان بن صـرد الخزاعـي ، ووصـلوا إلـى موضـع بالعـراق يطلبون بدم الحسين رضـي الله عنه ويعملـون بمـا أمـر الله به، قوله تعالى ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ﴾ سورة البقرة آية (٥٤) ، وقتلوا جميعاً ، غير أن الكلمة التي غلبت عليهم هي " التوابون " .

ظهرت الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي وهي الشيعة التـي تتعصب علـى محمد بن الحنفية بن علي بن أبـي طالـب ، وقد اجتمعت عليه الشيعة بالكوفـة ، وفي الكوفة بعد مقتل المختار بن أبي عبيد أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينـية كلامـية ، تضـع أصـول التشـيع ولكـن لـم تصـل الشـيعة إلـى وضـع مذهبها النهائي إلا في عهد إمامة الإمام جعفر الصادق ت عام (١٤٦) هجرية [١]

إذن فنشأة الشيعة كحزب سياسي كانت متأخرة عن حزب الخوارج الذي تأسس وتكونت فروعه فـي عهد الإمام علـيّ رضـي الله عنه ، وذلك ابتداءً من حركة (التوابين) ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الأصول التي قامت على أسسها الشيعة تخالف أسس الخوارج .

فـأول خـلاف حدث بين المسلمين ، بعد وفاة النبي ﷺ ، كان حول مسألة " الخلافـة " لمن تكون بعده ؟ واجتمع المهاجرون والأنصـار بالسقيفة وتجادلوا ، وخاطـب كل منهم الآخر إلـى أن تمت البيعة بالخلافة لأبي بكر الصديق رضـي الله عنه ، وكـان لعمر بن الخطـاب أثر كبير في رأب ما قد يحدث بين المسلمين من صـدع إذ أسـرع فبايع أبا بكر وتابعه سائر المهاجرين والأنصار الحاضرون ، وقد تخلف عن هذه البيعة علـيّ بن أبـي طالـب والعباس عم الرسول الكريم

١- المسعودي - مروج الذهب - جـ ٢ - ص ١١٠ ، كذلك دكتور علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ ٢ - ٢١ ، ص ٢٢ ، كذلك انظر كتابنا - دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - الباب الأول - ط القاهرة ٢٠٠٤ م .

وبعض أهل بيته والصحابة نظراً لانشغالهم بتجهيز دفن الرسول ﷺ . كما ذكرنا بالفصل الأول ، وقد بايع الإمام علي رضي الله عنه وسائر الصحابة لأبي بكر بالخلافة فيما بعد . وهكذا

وقد اتخذ الشيعة على اختلاف فرقهم وفروعهم من هذا الموقف على أحقية أمارة عليّ رضي الله عنه بالخلافة بعد النبي ﷺ ، وادعوا الوصاية له وأتوا بالكثير من الأحاديث والروايات والمواقف لإثبات النص على خلافة علي دون سائر الصحابة ، بل التوارث بالخلافة في ذريته دائماً .

وعلى ذلك فإن الخلاف بين الشيعة والخوارج بالإضافة لأهل السنة وبعض الفرق الأخرى كالمعتزلة ، هو مسألة الخلافة . أو الإمامة ووجوبها في بيت النبي ﷺ .

فالشيعة يرون أن " الخلافة " يجب أن تكون في بيت النبي ﷺ وقرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ، ثم لأولاده من بعده بالوراثة ، وقال الشيعة ايضاً : أن الأئمة معصومون ، وأن الصفات الإلهية فيهم ، وقد استدلوا على هذا المذهب ، بأن علياً أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن علياً قام بأعمال كثيرة رفعت من شأن الدين لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ونسبوا أحاديثاً في حق علي وآل البيت تشير إلى إيثارهم بالخلافة أو الإمامة مثال ذلك قول النبي ﷺ " أنا مدينة العلم وعلي بابها " وقول الرسول ﷺ " اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ... إلخ " كذلك يستدلون بقصة المباهلة - عندما جاء وفد نصارى نجران لمجادلة النبي عليه السلام فقال لهم بكلام الله ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ سورة آل عمران آية (٦١) .

ويدعي الشيعة أن الآية نزلت في حق آل بيت الرسول الكريم ومنهم علي ، وفاطمة وأبناءها .. وهكذا [1]

---

١ - للمزيد من التفاصيل - دكتور علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ ٢ - (الشيعة) - أماكن متفرقة - كذلك كتابنا : محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - ص ١٥٠ .

وبناءً على كثير من الدعاوى الشيعية ، وبصفة خاصة الوصية والتعيين أو التنصيص ، فإن هؤلاء الشيعة يدعون اغتصاب الشيخين أبي بكر وعمر ، وعثمان للخلافة من عليّ [1] ، وظهرت فرق الروافض من الزيدية وغلاتهم يلعنون كبار الصحابة ، ويشككون في إمامتهم .. وبدون أن ندخل في تفصيلات تاريخية [2] ، فإننا نركز هنا على القضايا والمسائل المختلفة بين الشيعة والخوارج .

فالمسألة الأولى : تتعلق " بالخلافة " - الإمامة - فالشيعة يقرون : أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي إغفالها ، ولا تفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وأن علياً رضي الله عنه هو الذي أوصى النبي ﷺ بتعيينه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم . لا يعرفها أهل السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرهم موضوع أو مطعون فيه أو بعيد عن تأويلاتهم ، [3] وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي ، فالجلي مثل قوله عليه السلام " من كنت مولاه فعليّ مولاه " قالوا : ولم تطرد هذه الولاية إلا في عليّ ، ومنها قوله عليه السلام " أقضاكم عليّ " ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجب طاعتهم يقول الله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ سورة النساء (٥٩)

ومن الخفي عند الشيعة : بعث النبي ﷺ عليّ ليقرأ سورة براءة في الموسم حين نزلت ، فإن الرسول ﷺ بعث بها أولاً أبا بكر ، ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك ، فبعث علياً ليكون القارئ المبلغ وقالوا : وهذا

---

١ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - ص٢٠٥ وما بعدها .
٢ - دكتور : النشار - نشأة الفكر الفلسفي - جـ ٢ (الشيعة) ص٩ ، دكتور محمد محمود أبو قحف (الباب الأول والثاني) .
٣ - ابن خلدون - المقدمة - ص١٩٦ ، ص١٩٧ .

دليل على تقديم علي على غيره : فهذا وغيره عند الشيعة أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره . (١)

وبناءاً على ما سبق يتضح أن الشيعة لا يقرون بإمامة أو خلافة الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر وكذلك عثمان رضي الله عنه ، لما يعتقدون بمبادئ ، الوصية ، والنص والتنصيص ، ووجوب العصمة للإمام عليّ ومن بعده من أئمة آل البيت ، بالإضافة إلى اعتبار الإمامة أمر واجب عقلاً وشرعاً لا يجوز لنبي إغفالها قبل وفاته ، كما أن النبوة واجبة في الفطرة عقلاً وسمعاً . (٢)

وأما الخوارج على اختلاف فروعهم وتطورهم قديماً وفي العصور المتأخرة والحديثة يقرون بصحة خلافة وإمامة الشيخين الكبيرين أبي بكر وعمر وكذلك يقرون بصحة إمامة وخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في الست سنوات الأولى من خلافته وقبل ولايته لأقاربه والثورة عليه وكذلك يقرر الخوارج صحة إمامة وخلافة علي رضي الله عنه قبل قبوله مبدأ التحكيم أو قبوله شروطه في كتاب التحكيم بينه وبين معاوية ، بل أن الخوارج قد كانوا أصحابه وشيعته وأنصاره قبل الخروج عليه ، يناصرونه ويقاتلون معه ضد الناكثين لعهده وبيعته من أصحاب موقعة الجمل ، طلحة والزبير وغيرهم ، يضاف على ذلك إقرار الخوارج بصدق البيعة للإمام علي بالخلافة من قبل أهل الحل والعقد من الحاضرين من المهاجرين والأنصار بالمدينة وهي دار الخلافة من قبل . ولم يظهر أحد من الخوارج الاعتراض على خلافة السابقين على إمامة علي ، كما فعل الشيعة ومن ناحية أخري .. فإن الخوارج من النجدات وجماعة من القدرية مثل أبي بكر الأصم وهشام القوطي ، قالوا أن الإمامة غير واجبة في الشرع وجوباً لو امتنعت الأمة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب بل هي مبنية على معاملات الناس ، فإن تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكليفه استغنوا عن الإمام ومتابعته ، فإن كل واحد من

---

١ ـ المصدر السابق ـ ص١٩٧ ـ كذلك دكتور النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي ـ جـ ٢ ـ ص٩ وما بعدها ـ كذلك الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ١ ـ ص٢١٨ ، ص٢٢١ .
٢ ـ الشهرستاني ـ نهاية الإقدام في علم الكلام ـ ص٤٨٤ .

المجتهدين مثل صاحبه في الدين والإسلام والعلم والاجتهاد ، والناس كاسنان المشط ، فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله .[١]

ومما لا شك أن منهج الخوارج يختلف عن منهج الشيعة في مسألة تعيين الإمام أو النص والوصاية عليه . إذ بينما نجد الشيعة يقاتلون علي تأكيد هذه النظرية فإن الخوارج يمثلون وجهة النظر الديمقراطية أو الجمهورية .

فالخوارج مع تسليمهم لأهل السنة في صحة خلافة وإمامة الأوائل بناءً على حق الاختيار وحرية البيعة لمن تراه الأمة فيه صلاح للإمامة ، فإنهم يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ووضعوا بعض التعديلات على ذلك .. إذ اشترطوا مبدئي الإسلام والعدل بدلاً من مبدئي العروبة والحرية ولاسيما حينما انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب حيث جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء [٢] وخالفوا مبادئ الشيعة في حصر الخلافة في آل بيت النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه وذريته من بعده ، كذلك خالفوا مبدأ أهل السنة الأوائل في شرط " القرشية " .

المسألة الثانية : تتعلق بالإمامة من حيث الوجوب والطاعة والاعتقاد وما يتعلق بذلك من حكم ـ فبينما يعتقد الشيعة على اختلاف مذاهبهم وفرقهم وفروعهم على وجوب الإمامة عقلاً وشرعاً نصاً ووصية ، وأنها ركن من أركان الدين لا يصح الإيمان والإسلام بدونها ، كما أن من لم يعتقد الإمامة وعصمة الأئمة فهو ضال ويخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر . إذ نجد الخوارج على خلاف بين من هذا ، فالإمامة عند بعضهم غير واجبة ، ما دام الناس لا يجتمعون على ضلاله ، كذلك أوجبوا الخروج على الإمام الجائر إما بالثورة عليه وعزله ، أو أن يعزل نفسه ، أو يُقتل ، كذلك فإن الإمام الجائر ليس معصوم من الكفر ، ومن رضي به كذلك يشاركه في الكفر ومن يرضى بالإقامة في جواره أو بأرضه ومملكته فهو كافر مثله .

---

١ ـ المصدر السابق ص٤٨١ .
٢ ـ دكتور ـ حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ جـ ٢ ـ ص٣ .

يضـاف إلـى ذلـك أن الخـوارج ربمـا اقتربوا مـن الشيعة ونظـام الخلافـة الإسـلامية الأمويـة والعباسية ، في مبدأ الوراثـة . عندما حدث تطـور كبير في عقـائد الخـوارج ومذاهـبهم السياسـية فـي عصـورهم المـتأخرة عـند الأباضـية والصـفرية بالمغرب العربي وشمال أفريقـية ـ بطـرابلس وجبـل نـفوسة وجـربي بليبيا . [١]

أمـا المسـألة الثالـثة ـ تـتعلق بالإيمـان ، وصـلته بـالعمل ، أو الطاعـات فالشيعة يختلفون عن أهل السنة والخوارج في بعض الأمور ويتفقون في أمور أخرى .

فالشيعة يأخذون بمذاهب المعتزلة وبخاصة الإثنى عشرية والزيدية منهم دون الغلاه ، يربطون بين الإيمان والعمل والطاعات . إلا أنهم يؤكدون على أن المؤمـن هـو الـذي يعـتقد فـي الإمـام المعصـوم ، ويوالـيه ويـتجه إلـيه ويؤولـون الشرائع علـى ذلك ، كما أن الإيمان ينقص إذا خرج المؤمن عن معرفة الإمام أو طاعته .

وقد اقترب بعض الخوارج الأباضية أو الصفرية من رأى الزيدية في وجـوب تنصـيب أو ولايـة المفضـول مـع وجـود الأفضـل . فـي بعـض المواقـف واختلفوا عنهم في مواقف أخرى ـ إذ رأى بعضهم عدم ولاية المفضول إذا كان الأفضل قائماً [٢]

والخـوارج لا يكفرون من يوالـي ويؤمـن بصـدق وصـحة خلافـة وإمامـة الخلفـاء الأوائل أبـو بكر وعمر والسنين الأولـى من خلافة عثمان وعليّ ، بينما نجد غلاة الشيعة يكفرون ويخطئون من يذهب هذا المذهب ويشتطون في اتهام أبـي بكر وعمر فـي جحد الوصية لعليّ ، بل قد يكفرونهما " لأنهما منعا الخلافة مستحقها "[٣]

كذلك يعتقد الشيعة أو غلاتهم في ألوهية عليّ والأئمـة من بعده ، وأنهم ظـل الله فـي الأرض وأن الطاعـة واجـبة وعصـمتهم واجـبة وأنهـم المختصـون

---

١ ـ راجع ـ الفصل السابق ـ (الخوارج في شمال أفريقيا والمغرب العربي) .
٢ ـ المصدر السابق كذلك دكتور سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي.
٣ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢٦٨ .

بالتأويل ، الباطن للنصوص ، أو أنهم فوق البشرية لما فيهم من نزعة لاهوتية نورانية فوق البشرية [١] ، وهذا التصور الفلكولوري الأسطوري الذي عشعش في أوساط الشيعة مع غنوصيات وأمشاج شرقية وفلسفية يونانية تنتزع نزعات أفلاطونية وفيثاغورية يونانية ، لا نجدها عند الخوارج على الإطلاق . فالإمام والخليفة بشر ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، يخطئ أو يصيب ، يجوز عزله أو الخروج والثورة عليه أو قتله ، فلم يكن الخوارج أهل جدل أو فلسفة ، لم تتغلغل في أفئدتهم عناصر عنوصية أو حرانية أو صابئة ، ولم يعرفوا فلسفة اليونان وغنوصيات فلاسفتهم من أفلاطون ، أو فيثاغورية ، أو رواقية أو أسكندرانية بل كان منهجهم وتصوراتهم واقعية ، يسود أدبهم وشعرهم وتصورهم الصدق ، والصراحة ، والحض على الفضائل والتزمت في تطبيق الأصول والعقائد الدينية بحرفيتها دون تأويل أو مجاز يخل بمضامينها اللهم إلا إذا كان ذلك يخدم أموراً خاصة بهم .

إذن : فإن الاعتراف بالإمام والطاعة له جزء من الإيمان عند الشيعة كما ذكرنا لا يجوز الخروج عليه كما هو عند الخوارج وأهل السنة وليس هو نائب صاحب الشريعة في حفظ الدين وتنفيذ تعاليم الشريعة بل هو المعلم الأكبر وارث علم النبي ﷺ ، فوق الناس ، المنوط بعلم الباطن ، في مقابل علم الظاهر لصاحب الشريعة .. وهكذا [٢].

وهناك مسألة أخرى ، هي أن الشيعة يعتقدون في مبدأ (المهدية) وهو الاعتقاد في الإمام المهدي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً ، ويقتل الكفرة ويقيم دعائم الإسلام وينصر المظلومين وأحاطوا عقائدهم هذه بهالة من الأساطير والغنوصيات بالإضافة إلى تأويل النصوص والآثار والأحاديث على هذا المعنى والاعتقاد ، وقد شاع ذلك بين أوساط الإثنى عشرية والشيعة الحنفية أو الكيسانية ، فالإمام الثاني عشر (محمد المهدي) أختفى في سرداب العراق وسنه خمس سنوات عام (٢٦٠)هـ

---

١ - للمزيد - المصدر السابق - ص٢٧١ .

٢ - المصدر السابق - ص٢٧١ ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة (الباب الثاني) .

وينتظرون خروجه بين لحظه وأخرى ، يضاف إلى ذلك أن الإمام الشيعي يجمع بين يديه السلطتين الروحية والزمنية - فهي إذن حكومته " ثيوقراطية " وقد تطورت هذه المفاهيم عبر العصور والأجيال حتى شاهدنا في تاريخ الإسلام الديني والسياسي قيام دول ودويلات شيعية كان لها خطرها وجللها كدولة العبيدين بالمغرب (٢٩٧)هـ والدولة الفاطمية بمصر (٣٥٨) هـ والدولة الصُليحية والدعوة الطيبية باليمن والإثنى عشرية بإيران وأطراف العراق .. وهكذا .

وقد ظهرت لديهم نظريات ساعدت على نشر أصول دعواتهم الشيعية كنظرية الإمام المستقر (الإمام الروحي الحقيقي) في دور الستر أو الإمام المستودع (لدى أحد الدعاه) لاستتار الإمام الحقيقي للقيام بأصول الدعوة ونشر المذهب بالبلاد المختلفة شرقاً أو غرباً .. وهكذا.

أما الخوارج : فالإمام عندهم هو خليفة صاحب الشريعة يحفظ الدين ويقيم العدل ، ويحمي المظلومين ، والإمام رجل الدولة الظاهر لا الخفي الذي توافرت فيه شروط الإمامة من فضائل الخير والقيم وعلوم الدين ، ورجاحة العقل وصلابة الرأي والقوة في الحق وسلامة الحواس أو الأعضاء إن أمكن ، وحسن التدبير - والأخذ بالبيعة واستشارة أهل الحل والعقد كما كان عند أوائل أهل السنة .

والمثال على ذلك طريقة عبد الرحمن بن رستم الإباضي في اختبار ثمانية من كبار زعماء الخوارج لاختيار الإمام من بعده بعد ترشيحه لابنه عبد الوهاب واجتماعهم على اختياره للولاية والإمامة بعد أبيه .

يضاف إلى ذلك أن طريقة الخوارج في الخروج على الإمام الجائر يختلف عن طريقة الشيعة فهذا المبدأ مرفوض بينهم لتوارث الإمامة الروحية عندهم ولعصمة الأئمة بناءً على هذا المبدأ ، وعلى ذلك لم يكثر الخلاف بين بعضهم والبعض الآخر في الفرقة الواحدة على الأقل ، كالإثني عشرية ، أو الإسماعيلية ، أو الزيدية .. وهكذا .

أما الخوارج فكانوا يختلفون فيما بينهم لأتفه الأسباب أو لمجرد الاختلاف في رأي بسيط ، أو موقف ما . وربما كانت النزعة الدينية ، وشدة

التمسك بحرفية النصوص لدى الخوارج عاملاً مساعداً لكثرة الفرقة والخلاف بين فروعهم ، وخروجهم على بعضهم وقتالهم وثوراتهم المستمرة . ومن ناحية أخرى تغلبت بعض التوجهات السياسية على بعض زعماء الخوارج ربما لأطماع دينية أو حزبية سياسية مثال ذلك : ما ذكره المؤرخون " أن المختار بن أبي عبيد الثقفي ، كان خارجياً ثم صار زبيرياً ، ثم صار شيعياً أو كيسانياً وقال بإمامة محمد بن الحنفيه بن علي بن أبي طالب .. [1] كذلك فإن زعيم ثورة الزنج علي بن محمد وهو من أهالي الطالقان ، والذي قاد الثورة ضد الخلافة العباسية في المستنقعات الممتدة بين - البصرة وواسط بالعراق : لم يجهر بعقيدته الشيعية ، لكنه أدعى بعقائد الخوارج ، إذ تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج لأنه يلائم ميول الثائرين الديمقراطية .. [2]

وثمة مبدأ أخر يضاف إلى ما سبق فيما بين الشيعة والخوارج - وهو مبدأ " التقية " – المداراه - كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، فمن كان على مذهب أو عقيدة ثم لم يستطع أن يظهر ذلك - يتظاهر بغيره ، وقد أختلف فيها الشيعة والخوارج وأهل السنة ، فأكثر الشيعة على هذا المبدأ ويأخذون به وبصفة خاصة الإمامية ، وهو ما كانوا يستخدمونه ذلك في دور الستر قبل دور الظهور . للحفاظ على الأئمة الروحانيين الحقيقيين المستودعين ، أو المستقرين ، وقد حمل الشيعة بيعة الإمام على رضي الله عنه لأبي بكر وعمر وعثمان على التقية ، وقد كان أكثر الشيعة عبر العصور يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سراً ضد الخلافة الأموية أو العباسية ، وينسب الشيعة ذلك للإمام جعفر الصادق (١٤٨) هـ

أما الخوارج : فأكثرهم يرفض هذا المبدأ ولم يعملوا به ، وقالوا : إن التقية لا تجوز ، ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين بل منهم من كان يرى أنه

---

١ - الشهرستاني - الملل والنحل - جـ١ - صـ ١٤٧ ، صـ ١٤٨ - كذلك ذكره المبرد - في كتابه الكامل جـ٣ صـ ١٠٨ ، يقول (كان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجياً ، ثم صار زبيرياً ثم صار رافضياً في ظاهرة) .

٢ - دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي - جـ٣ - صـ ٢١٠ .

لا يصح قطع الصلاة إذا جاء سارق ليسرق المتاع وهو يصلي [١] ولكن بعض فرق الخوارج عمل بهذا المبدأ مثل الخوارج من النجدات .. رداً على مذهب نافع الأزرق الخارجي فقد قال نافع الأزرق من الخوارج : التقية لا تحل ، والقعود عن القتال كفر وأحتج لذلك بقوله تعالى ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ سورة المائدة (٥٤) .

وخالفه نجدة من الخوارج فقال : التقية جائزة ـ وأحتج بقوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ سورة آل عمران (٢٨) .

وقال القعود جائز ، والجهاد إذا أمكن أفضل قال تعالى ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ سورة النساء (٩٥) [٢]

أما أهل السنة فتوسطوا في هذا الأمر وقالوا : إن من خاف على نفسه أو ماله أو عقيدته ، وجب أن يهاجر من بلده فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه . [٣]

وعلى ذلك فإنه إذا كان الخوارج والشيعة التقوا على مبادئ وتعاليم تقول أن خلفاء بني أمية ، وبني العباس ، مغتصبون ، ظالمون . فإنهم اشتركوا في مناهضتهم أو الخروج والثورة على خلافتهم ، لكن الخوارج كانوا ظاهرين في حروبهم ، غلبت عليهم الطبيعة البدوية في صراحتهم لأن أكثرهم لم يقل ولم يعمل بمبدأ التقية ، أما الشيعة فكانوا يحاربون جهراً أحياناً ، فإذا لم يستطيعوا لجأوا إلى التقية والكتمان في السر ، لذلك كان الشيعة أقدر الفرق الإسلامية على العمل في الخفاء الذي يستلزم الخداع واللجوء إلى التأويل الرمزي [٤] ونتيجة لذلك اصطبغت عقائدهم بالتصوير الرمزي والتأويل الفلسفي المشبع بالآثار الغنوصبة وأمشاج من حرانية وتعاليم الصابئة والأفلاطونية والفيثاغورية مما

---

١ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ صـ٢٧٤ ، كذلك دكتور النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي ـ جـ٢ أماكن متفرقة .

٢ـ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ حـ ١ ـ صـ ١٢٥ .

٣ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ صـ٢٧٤.

٤ ـ المصدر السابق ـ صـ٢٧٥ ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف : مذهب التأويل عند الشيعة الباطنية (تحليل ونقد) .

تشع بـه مصنفاتهم منذ أواسط القـرن الرابـع الهجـري - نقصـد رسـائل إخـوان الصفاء .

كذلك أصـطبغ أدبهـم وفكرهم بشـيء من الغمـوض ، والحـزن العمـيق والـنواح والـبكاء ، وذكـر المصـائب والآلام ، وهـذا وكمـا ذكـرنا فـي الفصـول السابقة يخالف مذاهب وفكر الخوارج وأدبهم الـذي كان يغلب علـيه - الصـدق ، والصراحة والإيجاز ، ودقة التعبير عن المواقف والقضايا .

ومـن الجديـر بالذكـر ، أن مذاهـب الخـوارج، وشـدة عقـيدتهم الديـنـية ، والـتزامهم الشـديد بحرفية النصـوص ، وإن كانـت لـدى الخـوارج علـى اخـتلاف مذاهبهم مـيولاً حزبية سياسية ، ومواقف متشددة ، تصل إلى التكفير للخصوم ، لم يسمح بدخول عناصر غريبة عن الدين والإسلام ، فقد بلغ تشدد الخوارج في عقائدهم ، لم يسمحوا لأحد بالدخول في عقائدهم دون اختبار أو امتحان - لذلك قد لا نجد عناصـر غنوصـية أجنبـية مـن يهوديـة أو نصـرانية مسـيحية أو حرانـية وصـابئة تفرخ أو تعشـعش فـي عقائدهم ، فضلاً عن المزيج الغنوص الفلسفي فلم نجد للعناصر أو المذاهب الغنوصية الفلسفية أو الدينية مجالاً في عقائد الخوارج علـى مـر العصـور حـتى العصـر الحديـث رغـم مـا حـدث مـن تطـورات فكـرية وعقائدية وسياسية طرأت على مذاهبهم وأفكارهم ، فقد ظل هؤلاء الخوارج عبر العصـور محافظين علـى نقـاء العقيدة الإسـلامية إلـى حد كبير ، الأمر الذي دفع ببعض الباحثين المحدثين والمعاصرين [١] إلـى اعتـبار أكثر فرقهم اعتدالاً هم أقـرب إلـى مذاهـب أهـل السـنة والجماعـة والسـلف مـن غـيرهم مـن الشـيعة ، فالإباضية وجماعات الصـفرية مـثلاً تعد عند بعض الباحثين [٢] من أهل السنة والجماعة .

أما مذاهب الشيعة- علـى اختلاف فرقهم غلاة وأمامية وكيسانية فيما عدا مذاهـب الـزيدية - فقد كانـت مأوى لشتى تيارات الفكر الفلسفي اليوناني بالإضافة

---

١ - دكتور محمود رزق ماضي - قواعد العقائد في الفكر الإباضي - ط دار الأرقم للطباعة بالزقازيق١٩٩٣ م

٢ - المصدر السابق - كذلك دكتور - عامر النجار - الإباضية ومدى صلتها بالخوارج - .

إلـى مذاهـب فلاسـفة الإسـكندرية مـن هرامسـة ويهوديـة وأمشـاج مـن الحرانـية والصابئة والمسيحية أيضا.

بـل قد تسرب إلـى التشيع عناصـر يهوديـة ومسيحية كثيرة ، وظهرت مبادئ اليهودية والزرادشتية واضحة ، وغنوصيات الفرس وغلاة الصوفية . وقل من أراد الحقد والطعن في الإسلام وتشويه معالمه وعقائده .

لكن ذلك لا يمنع من الإقرار بأن مذاهب التشيع المعتدل لدى الأمامية الإثنا عشرية والزيدية كان لها دور كبير في انتشار الدعوة الإسلامية الصحيحة بالإضافة إلى محاولات زعماء الشيعة المعتدلين رأب الصدع بين مذاهب أهل السنة والسلف ومذاهب التشيع ، وبصفة خاصة في العصر الحديث أمثال الإمام موسى الصدر ، ومحمد الحسين آل كاشف الغطاء ومحمد الحسين العاملي ، وغيرهم من أئمة التشيع المعتدل ، بالإضافة إلي أن أهل السنة يوالون ويجلون أئمة آل البيت الشريف إبتداء من الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه وحتى الأئمة المتأخرين..... [1]

وثمة لقاء آخر بين الخوارج والشيعة ، في أخذهما ببعض عقائد متكلمة المعتزلة إذ أن كثير من الشيعة خاصة الإثني عشرية والزيدية على عقائد المعتزلة . إذ كان منهم شيعة المعتزلة ، في وقت واحد ، وذلك في مثل تأويل بعض الآيات القرآنية ، كذلك قولهم بعدم رؤية الله تعالي في الدنيا والآخرة ، اعتماداً علي قوله تعالي : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ سورة الأنعام آية (١٠٣) وقد يخالف الشيعة المعتزلة في مسائل أخرى كقولهم بشفاعة الأنبياء والأئمة، [2]

بينما يتفق الخوارج في مثل هذه العقائد مع الشيعة والمعتزلة ، وكما ذكرنا في عقائدهم : أن الخوارج تقرر عدم رؤية الله في الآخرة كذلك يتفق الخوارج مع المعتزلة في شأن الشفاعة ، ويخالفون قول الشيعة ، إذ أن الخوارج لا يرون شفاعة لأهل الكبائر . ولأن أهل الكبائر والمعاصي ليسوا في منزلة بين

---

١ - كتبنا في هذا المجال بالتفصيل في رسالتنا للدكتوراه - مذهب التأويل لدى الشيعة (الباب الثالث) التشيع المعتدل، أنظر طبعة ٢٠٠٤م

٢- أحمد أمين – ظهر الإسلام – جـ٤- صـ١١٨، ط مكتبة النهضة المصرية – ١٩٨٢م.

المنزلتين فهم كفروا بمعاصيهم ويرى الإباضية منهم أن مرتكبي الكبائر كفروا كفر نعمة لا كفر ملة ، ويختلفون في ذلك مع غلاة الخوارج الأوائل من الأزارقة والنجدات . وذهب بعض الباحثين بتوضيح هذه المسألة استناداً لمصادر الإباضية إذ أن الشفاعة عندهم ليست لأهل الكبائر ، وإنما هي للمتقين من المكلفين ، والتقي هو الذي اجتنب المحرمات وأدى الواجبات ، فلا شفاعة لغيره من الأشقياء - لقوله تعالى ﴿ ولايشفعــون إلا لمن ارتضى ﴾ سورة الأنبياء (٢٨) ، وقوله تعالى ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ سورة غافر (١٨) . [1]

ومما سبق يتضح أن الشيعة والخوارج على طرفي نقيض كبير في كثير من المواقف العقائدية والفكرية كوجوب الإمامة والعصمة والمهدية والتقية والرجعة والبداء ، وغيرها وهي مبادئ وكلمات كثيرة الدوران في مذهب الشيعة وإن اقترب الخوارج من فكر الشيعة في بعض الأمور كالتقية أو التوريث أو حتى بعض الأصول العقائدية التي تأثروا بها من متكلمي المعتزلة ، فإنها ليست على قدر كبير من التوافق أو التطابق ، ويبدو أن قول الشيعة عن عصمة الأئمة كان سبباً قوياً في بحث المتكلمين عن عصمة الأنبياء ، إذ ذهب قوم من المرجئة وابن الطيب الباقلاني من الأشعرية وأتباعهم إلى أن الرسل غير معصومين إلا من الكذب في التبليغ ، فإنهم لا يجوز عليهم الكذب مطلقاً كذلك ذهب آخرون من المتكلمين أن الرسل عليهم السلام لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلاً ، وإن جاز عليهم بعض الصغائر ، وذهب جمهور أهل الإسلام من السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة ن إلى أنه لا يجوز أن يقع من نبي أية معصية البتة عن عمد لا صغيرة ولا كبيرة ، يقول الإمام ابن حزم " أنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد ، ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله والتقرب منه ، فيوافق خلاف مراد الله ، إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل ينبههم على ذلك ، ويظهر ذلك لعباده ،ويبين لهم " [2]

١- دكتور محمود رزق ماضي - قواعد العقائد في الفكر الإباضي - ص٣٥ ، ص٣٦ ، ص٣٧ .
٢- ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل - جـ ٤ - صـ ٢٠ وما بعدها . كذلك أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - صـ ٢٢٨ ، صـ ٢٢٩ .

يضاف إلى ذلك أن النزعة الديمقراطية في فكر الخوارج الحزبي والسياسي ، كانت ظاهرة واضحة تدعمها النصوص والآثار العربية البدوية التي نشأوا عليها ، فلم يخفونها في الدعوة للاختيار الحر للإمام والبيعة له بإجماع أهل الحل والعقد - أو الجمهور من الناس ، ولم يظهروا ثورتهم وحنقهم على الولاة والحكام من بني أمية أو العباسيين ، وبصوت خافت في خفر أو تورية ، بل كانوا ظاهرين ، ثائرين، مقاتلين شجعان إلى أقصى درجات الشجاعة ، فلم يبخل أحد منهم بالنفس والمال والولد في سبيل نصرة مبادئهم . وهذه النزعة التي تبدت لدى الخوارج في اختيار الإمام إذا توافرت فيه شروط الإسلام والحرية ، أو الإسلام والعدل ، كانت متأصلة عند العرب ، فالعرب أمة ديمقراطية تنظر إلى الخليفة نظرهم إلى أحدهم ، لا يمتاز عنهم كثيراً ، بل من هؤلاء العرب من كان يغالي في الديمقراطية أيام النبي ﷺ . فكان القرآن الكريم يحد من هذا الغلو الديمقراطي .. ويقول الله تعالى لهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ سورة الحجرات آية (٢) ، وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ﴾ سورة الأحزاب (٥٣) ووفد على النبي ﷺ وفد من بني تميم وقت الظهيرة وكان النبي عليه السلام راقداً ، فجعلوا ينادونه : يا محمد أخرج لنا ، فاستيقظ الرسول الكريم فخرج لهم .. فنزلت الآية الكريمة قوله تعالى ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ سورة الحجرات آية (٤) . ولكن هذه الديمقراطية ، والحرية في التعبير والاختيار وفرض الديمقراطية نفتقدها عند الشيعة على اختلاف مذاهبهم وفرقهم ، إمامية وزيدية . ففرض وجوب الإمامة - وعصمة الإمام - لا يجيزان على الشيعي - المعارضة للإمام أو الثورة عليه ، أو الخروج عن طاعته ، لأن ذلك ركن من أركان الدين في مذاهبهم ومن أبطله فقد كفر وخرج عن الملة الإسلامية .

لذلك بينما نجد الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة ، كفر نعمة أو كفر إشراك كما هو عند الأزارقة والنجدات ، وأنه لا منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، كما يقول متكلمي المعتزلة . وكذلك فإنهم يقولون بخلوده في العذاب والنار مثله مثل الكفار والمشركين ، فإن الشيعة يكفرون من لم يدخل في

عقائدهم ، ومن لم يؤمن بالإمامة ، أو عصمة الإمام فمقياس الفضيلة والإيمان والكفر هو الإيمان بإمامة علي رضي الله عنه لذلك يعلق بعض الباحثين على ذلك .. بأنه قد دخل على المسلمين من جراء العصمة والمبالغة في الشفاعة ، ضرر كبير ، وإن لم يقتصر هذا الضرر على الشيعة وحدهم ، إذ تسربت تعاليمهم إلى غيرهم من الأمصار الإسلامية الأخرى [1] فالجمهور وأهل السنة بصفة عامة يميلون إلى محبة الشيعة لمحبتهم لآل البيت الشريف ، فأئمة الشيعة الأوائل من آل علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما محل تقديس من جانبهم ، كذلك فإن النزعة الروحية الشيعية لها آثارها وخطرها في قلوب المسلمين وجمهور الإسلام ، وانسحب ذلك أيضاً على تقديس الكثيرين لأضرحتهم وكذلك الأولياء الصالحين ، كذلك كان لتعاليم الشيعة الروحية أثر كبير في نفوس أقطاب الصوفية وأتباعهم ، فلا تكاد تخلو حلقة من حلقات الذكر الصوفي إلا وتكون هناك إشارات وأدعية وأوراد ممتزجة بكلام وآثار أئمة الشيعة من آل البيت النبوي الشريف .

وفي مصر ، القاهرة أو العراق بالكوفة ، والنجف ، والكاظمية - والأعياد المقدسة أو السنية لآل البيت ، ولا يخلو يوم أو مناسبة من المناسبات الدينية دون زيارة هذه الأماكن المقدسة عند جمهور المسلمين سنة أو شيعة على السواء ، فيكثر المسلمون والجمهور من الأدعية والصلوات ، ثم التمسح بهذه الأعتاب ، وتكثر النذور عند أضرحة الأولياء الصالحين ، بل يكثر هؤلاء الأولياء من الدعوة للانتساب لآل البيت الشريف نسباً أو صلة روحية على الأقل.

ففي دراساتي الميدانية عن مذاهب الصوفية والطرق الصوفية في مصر والعالم العربي والإسلامي ، اكتشفت أنه لا تخلو نسبة من نسب الأولياء والأقطاب الصوفيين من الرجوع إلى أجدادهم من الأئمة من آل البيت الشريف ، والذين هم أئمة الشيعة بالطبع . [2]

---

١ - المصدر السابق - صـ ٢٣٥

٢ - للمزيد راجع كتابنا : دكتور محمد محمود أبو قحف - التصوف الإسلامي (خصائصه ومذاهبه مع دراسة ميدانية للطرق الصوفية) - ط المكتبة القومية بطنطا - ١٩٩٣ م .

وبطبيعة الحال ، لا نجد مثل هذا التقديس المغلف بالتصوير الفلكلوري والأسطوري لأئمة الشيعة ، عند الخوارج ، للاختلاف الواضح بين منهجي الفرقتين " الخوارج والشيعة " .

ومما يلفت النظر أيضاً ، فيما بين الخوارج والشيعة من تباين وتناقض: نظرتي " الظاهر والباطن " فالشيعة ومن تابعهم من الصوفية ، يذكرون بأن لكل شئ ظاهر وباطن ، والقرآن لـه ظاهر وباطن ، وطبقوا هذا المفهوم في عقائدهم وفكرهم السياسي ، وتأولوا على هذا المفهوم آيات القرآن الكريم ، والآثار والأحاديث النبوية ، طبقاً لمذاهبهم العقائدية والسياسية، وعلم الباطن ، مخصوص بالأئمة فهم علماء بالباطن وعلى جمهور الشيعة اعتقاد ذلك أما الظاهر فهو خاصة بالفقهاء والجمهور ويختص بسور الشريعة ، ولا يمكن للشيعي أن يكتفي بعلم الظواهر فقط بل يجب أن يؤمن بالباطن ومدلولاته التي يقررها الأئمة المعصومون ، حتى يكتمل دينه ، وتسلم عقيدته .

أما الخوارج ، فلا يعترفون ، إلا بالظاهر ، الواضح ، الحرفي دون تأويل رمزي ، أو فلسفي غنوصي . إذ أن الخوارج ، وكما ذكرنا ، يفرضون فكرهم وعقائدهم بوضوح دون خفر أو تورية أو" تقية " إذ لا تجوز التقية بحال من الأحوال حتى لو عرضت النفس والمال والعرض للأخطار " فالرجل الخارجي يعلن الخروج على الإمام في صراحة ولو كان وحده ، ولو كان في نفر قليل ، لا يداري ولا يماري ، أما الشيعي ، فإنه يداري ويماري ويتستر ويتكتم حتى تأتيه الفرصة" [1] .

ومما لا شك أنه كما كان يحكم فكر الخوارج ومعتقداتهم ضيق الأفق ، والتمسك بحرفية النصوص ، وعدم إدراك سير التطرف الفكري إلا ببطء شديد ، كذلك كان لدى الشيعة ضيق في النظر والأفق أدى إلى اتخاذهم مقياس الفضيلة والرذيلة ، والإيمان والكفر ، الإيمان بإمامة علي رضي الله عنه فهو المؤمن وهو الفاضل ، وهو الذي يستحق الثواب ومن كفر بإمامته فهو الكافر

---

١ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - جـ ٣ - صـ ٢٤٩ . كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف - مذهب التأويل عند الشيعة - ط ٢٠٠٤ . كذلك دكتور النشار - نشأة الفكر الفلسفي - جـ ٣ .

وهو الشرير ، وهو المعذب في النار ، فكأن الإيمان بإمامة علي يساوي الإيمان بالله . بل يزيد على ذلك أن من آمن بالله وحده من غير إيمان بإمامة علي لم ينفعه إيمانه وإذا جحد استحقاق علي للإمامة فهو الكفر الذي لا بعده كفر. [1]

ولا أستطيع أن أصف ما صار عليه حال المسلمين من تناثر وصراع وقتل ، وقتال على مر العصور في شتى بقاع العالم الإسلامي والعربي ، بسبب الفرقة والاختلاف بين الشيعة والخوارج وبينهما وبين أهل السنة وجمهرة المسلمين الأمر الذي أدى إلى طمع الأعداء في بلادهم ، وضياع مقدرات الأمة الإسلامية والعربية ، فصارت البلاد لقمة سائغة للصليبيين الأوربيين ، والتتار المفسدين ، فحطموا الخلافة الإسلامية وانتشرت الفوضى ، بسبب النظريات الباطلة وضيق الأفق الذي يحكم عقائد وتوجيهات هذه الفرق ، مما أدى إلى ضياع مقدراتنا على مر العصور ، وما نحن فيه الآن إلا أثر من هذه الآثار القديمة ، فلنكن أمة واحدة ، لا سنة ، ولا شيعة ، ولا خوارج ، ولا معتزلة ، ولا غير ذلك ، وليحكمنا رأي واحد ، ولنجمع جميعاً على أربعة أصول هي : الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد بالرأي أو القياس .

رابعا: الخوارج والجماعات الأصولية في العصر الحديث :

رأينا في الفصول السابقة ، كيف نشأ الخوارج ، وظهروا كفرق لها فروع متعددة منتشرة في جميع الأقطار العربية والإسلامية ، وامتدت آثارهم وتأثيراتهم على الساحة السياسية والأصولية العقائدية في تاريخ الإسلام حتى العصور المتأخرة ، وقد كان للخوارج كما نظرنا ، خطرهم الداهم ، والقائم في ظهور الخلافات العربية والإسلامية ، وبما أقاموه من نظم سياسية وأفكار عقائدية حاولوا استمداد السند القوي لها من النصوص القرآنية ، وتأويلها على طريقتهم المذهبية في مبدأ " أن لا حكم إلا لله " فظهر بذلك ما يسمى بمبدأ " الحاكمية " ـ وتكفير الحكام والأمراء والخلفاء من بني أمية ، وبني العباس ، الخارجين على هذا المبدأ ، بل تكفير من لم يهاجر إليهم في دارهم ، وتكفير

---

١ ـ المصدر السابق ـ أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ جـ ٣ ـ صـ ٢٥٠ .

الرعية أيضاً إذا ما ارتضوا بقائهم في ظل حاكم جائر ، أو ظالم ، لم يحكم بما أنزل الله ، وما جاءت به الشريعة الإلهية واستدلوا على هذه المبادئ بنصوص قرآنية قوله تعالى ﴿ ومــن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ سورة المائدة (٤٤) . وقوله تعالى ﴿ ومــن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ سورة المائدة آية (٤٧) وقوله تعالى ﴿ ومــن لــم يحكــم بمــا أنــزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ سورة المائدة آية (٤٥) .

وهكذا ، بالإضافة إلى كثير من المبادئ الأخرى - ذكرناها سلفاً في عقائدهم ، لا نريد تكرارها هنا - إلا حين مناسبة .

وإذا تأملنا هذه المبادئ والأصول عند الخوارج ، نجدها تتردد بين بعض المذاهب والجماعات الأصولية في العصور المتأخرة وفي العصر الحديث مما يستدعي منا عمل بعض المقارنات والتحليلات لما ورد في فكر هذه الجماعات الأصولية الحديثة ، بما قد يتوافر لدينا من بعض المصادر والدراسات التحليلية من جانب بعض الباحثين المعاصرين ، فلهذه الجماعات الأصولية خطرها ، عقائدياً وسياسياً ومصادرها كثيرة وإن كانت قليلة أيضاً لما قد يتعذر على الباحثين بسهولة الحصول عليها .

نقول : إذا تتبعنا بعض ما ورد في فكر الجماعات الأصولية الحديثة وبعض الزعماء والمفكرين ، نجد كثيراً من مصطلحات الخوارج وعقائدهم المذهبية ، بالإضافة لبعض التحليلات والتأويلات الموجهة تتردد في مؤلفاتهم وفكرهم كما ذكرنا ، ومن ذلك مبدأ " الحاكمية "

ويعلل بعض الباحثين المعاصرين ، رواج هذه الفكرة لدى هذه الجماعات أو الذين يريدون التغيير بواسطة القديم " إذ يرى البعض أن التغيير إنما يحدث بالتكالب على قيم التراث القديم ، والرغبة في تحقيقها ككل ، واعتبار الواقع عالماً " جاهلاً " إما بتقبل هذه القيم ككل أو برفضها ككل ، فإذا قبلها فهو المجتمع المؤمن ، وإن لم يقبلها فهو المجتمع الكافر الذي يجب الخروج عليه ، وغالباً ما تصطدم هذه المحاولات بالسلطة فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " وعلى ذلك فإن سيادة النظرية الإلهية على الفكر النظري ، يؤدي إلى

خروج تصور أنصارها لنظام الواقع على أنه حكم إلهي ، " فالحاكمية " لله تعالى ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الواقع ، وعن مكوناته ، وارتبط التغيير في أذهان المثقفين بالدعوة إلى الحكم الثيوقراطي ، وهو ما ناهضة الإنسانية في التراث الغربي من أجل التخلص منه إلى الحكم الديمقراطي ، وهو التفسير العقلي الواقعي " لحاكمية الله بفعل الشورى " . وبدا أن الغاية هو الدفاع عن الله ، وليس التغير الاجتماعي ، وبدت الدعوة دينية متطاولة على السياسة ، وغير قادرة على ممارسة قضايا التغير الاجتماعي التي تحتاج إلى علم دون دين ، وإلى واقعية دون إيمانية مسبقة ، وكانت النتيجة أن أصبح العدل جزئ من التوحيد في فكرنا الديني المتأخر .. [1]

ولعل هذا النص يحمل في طياته نوعاً من التحليل والنقد لمبدأ الحاكمية ومحاولة أنصاره التأكيد عليه ، دون أن يدرك هؤلاء تغييرات الواقع الاجتماعي ومظاهر التطور الحديث المعاصر في شتى المجالات الإنسانية ، ومن ثم تأخر الفكر الإصلاحي الحديث عن مستوى التطور للواقع المعاصر ، وبدأ متخلفاً ويشير هذا النص أيضاً إلى أن مستوى التفكير الذي يقوم على مبادئ تراثية كهذا المبدأ " يؤدي إلى التأخر خطوات دون استثمار للأحياء الاعتزالي والتأكيد على استقلالية العقل والإرادة " [2]

وإذا تتبعنا هذا المصطلح " الحاكمية " ومدلوله العقائدي عند بعض الجماعات الأصولية في العصر الحديث ، نجد أن الأستاذ الشهد سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦) م يفسر مفهوم الحاكمية بما يذكرنا بما ذهبت إليه فرق الخوارج . من التأكيد على أهمية المبدأ ، وكيف أنه ينسحب من الاعتقاد القلبي إلى العقلي ، من الديني إلى السياسي ، ويوضح كيف أن الحاكمية هي الرجوع إلى الله عز وجل ، والأحتكام إلى شريعته . دون تأويل أو مجاز أو تصريف، فالخوارج عندما قالوا لا حكم إلا لله ، كانوا يقصدون بذلك تحكيم النص لا تحكيم العقل ، وأن لا أرادة ، ولا اختيار ، ولا تعيين إلا بوجوب النصوص الإلهية ،

---

١ - دكتور حسن حنفي - التراث والتجديد (موقفنا من التراث) - ص٣٧ ، ص٣٨ - ط الأنجلو المصرية - ١٩٨٧ م .

٢ - المصدر السابق - ص٣٨ .

الأمر الذي دفع الإمام عليّ رضي الله عنه أن يرد عليهم بقوله " نعم لا حكم إلا لله ، كلمة حق يراد بها باطل ، لأنهم زادوا على ذلك فقالوا " لا إمرة إلا لله " إذ أنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، يبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر " .(١)

وعلى ذلك يذهب سيد قطب في توضيح الحاكمية : في تفسيره لكلمة " لا إله إلا الله " : يعني لا حاكمية إلا لله : ولا شريعة إلا من الله لا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، وأن الجنسية التي يهديها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة " (٢)

وفي نص آخر يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ سورة يوسف آية (٤٠) ، إن الحكم لا يكون إلا لله فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ، إذا الحاكمية من خصائص الألوهية ، فمن ادعى الحق فقد نازع الله تعالى في خصائصه ، سواء ادعى هذا الحق ، فرد أو طبقة أو حزب ، أو هيئة أو أمة أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية " (٣)

وفي نص ثالث يوضح سيد قطب فكرته عن الحاكمية " بمعنى أن تكون شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شئون هذه الحياة ، تنسيقاً بين الجانب الإرادي في حياتهم وبين الوجود الكوني ، فالإسلام ما جاء إلا ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس ، فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده " (٤)

وإذا تأملنا مفهوم الحاكمية كما ورد في هذه النصوص ، نجد سيد قطب لم يفسح مجالاً واسعاً للإرادة الإنسانية ، وحرية التفكير والتأمل العقلي ، بما يتناسب مع الواقع العملي ، أو النظري ، فكل أمر من الأمور ، وشيء من

---

١ - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - ج٣ - ص٢٦٢ .
٢- دكتور محمود ماضي - سيد قطب بين الأصالة والمعاصرة - ص٣٠ ، ط دار الأرقم ١٩٩٨ - نقلاً عن سيد قطب - معالم في الطريق - ص٢٩ ، ط دار الشروق ١٩٨٧ م .
٣- المصدر السابق - ص٣٠ ، كذلك سيد قطب - في ظلال القرآن ج٢ صـ١٩٩٠ ، ط دار الشروق. ١٩٧٧ .
٤ - المصدر السابق - صـ ٣١ ، كذلك سيد قطب - معالم الطريق - صـ ٥٣ .

الأشياء في الكون ، بل كل سلطة تنظم حياة المجتمع والإنسان والواقع كله ينطوي في الحاكمية الإلهية لأنها السلطة الإلهية التي تحتوي الناس كما تحتوي وتنظم حياة الوجود والكون بأكمله ، نعم ، إن الإرادة الإلهية ، والأمر الإلهي نافذ في كل الوجود ، والله عز وجل خلق الوجود كله بما فيه من موجودات بكلمة كن ، وقد أحاط بكل شيء علما ، لا يستطيع إنسان مؤمن ذا عقيدة راسخة أن ينكر ذلك ، وهذا ما أشار إليه الإمام عليّ رضي الله عنه في رده على قول الخوارج لا حكم إلا لله ، ولكن الله عز وجل كفل للإنسان حرية الإرادة ، والاختيار ووضع النظم والقوانين بما يتلائم مع طبيعة التطور واختلاف الزمان ، والمكان ، في نطاق احترام القيم التي قررها الله عز وجل في القرآن الكريم والنصوص الإلهية والشرائع السماوية .

وربما تنبه سيد قطب إلى خطورة فكرة الحاكم المطلق ، الذي قد يدعي استمداد سلطته المطلقة من الله ، فهو لا يعترف بذلك ، ولا يعترف بالحاكم المستبد الذي يخرج عن نطاق الاختيار أو التقيد بشريعة الله تعالى ، لذلك ذكر في نص آخر " أن مملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ولا رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال فيما يعرف باسم الثيقراطية ، أو الحكم الإلهي المقدس ، ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة " (١)

ويقرر سيد قطب مبدأ الاجتهاد والشورى ، كما قررها الإسلام ونطقت به الشريعة الإسلامية . (٢)

ولما كان مفهوم الحاكمية عند سيد قطب يعني حاكمية الله تعالى بشرائعه السماوية وما أمر به ، وأن على الحاكم الالتزام بالشرائع والحكم بما أنزل الله ، فإن ذلك يرتبط بمفهوم آخر عند سيد قطب وهو " الجاهلية " والجاهلية عنده لا تعني ادعاء الألوهية لغير الله تعالى فقط ، بل ينسحب أيضاً على الذين يضفون

---

١ - المصدر السابق - صـ ٦٨ .
٢ - المصدر السابق - صـ ٣٦ ، صـ ٣٧ .

خصائص الألوهية لغير الله ، فيدينون بذلك بحاكمية لغير الله ، فيتلقون من هذه الحاكمية نظامهم وشرائعهم وقيمهم .. إلخ [١] وهو يقصد بهؤلاء الذين يسندون الحاكمية إلى البشر فيجعل بعضهم لبعض أرباباً ، فمثل ذلك يضع هذه المجتمعات وهؤلاء البشر في نطاق الجاهلية ، وهي عنده كفر .

ويبدو أن سيد قطب لم يرد تكفير البشر أو الأمة أو الناس ، ولكن يقصد بالجاهلية الحكام الذين لم يعملوا بالشرائع الإلهية ولم يحكموا بما أنزل الله تعالى ، بالتالي يسيرون إلى ناحية الجهل بحقيقة العقيدة ، وأنني أتفق مع رأي الباحثين في أن سيد قطب وإن جهّل النظام الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله تعالى ، فإنه لم يكفر الناس أو أفراد المجتمع . [٢]

فالحاكمية التي تقع في نطاق المجتمعات التي لا يأخذ حكامها بشرائع الله تعالى ، وبما أنزل الله تعالى - هم في نطاق الجاهلية ، والجاهلية كفر قد يكون هذا الكفر كفر نعمة ، وليس كفر ملة ، بما يذكرنا بعقائد الخوارج من النجدات والإباضية المتأخرين ، فيما ذكرنا سابقاً . فهذا الكفر يطلق عليه الكفر الأصغر عند بعض أئمة أهل السلف المتأخرين فالإمام أبن القيم في مدارج السالكين يشير إلى هذه الناحية .

إذ يقول " والقصد : أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر ، لأنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة " [٣]

وقد جاء في بعض الأحاديث عن النبي ﷺ " سباب المسلم فسق ، وقتاله كفر " [٤]

ويختلف فكرة سيد قطب عن أفكار الخوارج وعقائدهم فيما يتعلق بمبدأ - الولاية والهجرة ، فالخوارج سبق الإشارة إلى قولهم بتكفير من لم يعتنق الولاية أو المنكر لها ، كذلك تكفيرهم لمن لم يهاجر إليهم في ديارهم ، فقد رفض الإمام

١- المصدر السابق - صـ ١٠١ .
٢ - دكتور محمود ماضي - سيد قطب بين الأصالة والمعاصرة - صـ ٢٣ .
٣ - دكتور محمود ماضي - سيد قطب - صـ ٢١ كذلك أبن قيم الجوزية - مدارج السالكين ، جـ١ - ص٣٥٥ ط أنصار السنة المحمدية .
٤ - البخاري - باب الإيمان - صـ٣٦

الشـهيد هـذا المـبدأ وصـدق بمـا جـاء بـه القـرآن الكـريم وقـام بتفسـير معانيه ومدلولاته. [١]

وتكاد تجمع المصادر التي كتب أصحابها عن سيرة الأستاذ سيد قطب ومذهبه على أنه رحمه الله لم يكفر مسلماً ، لأنه أعلم المسلمين بقول رسول الله ﷺ " من قال لا إله إلا الله مؤمناً بها قلبه فلن يخلد في النار ، ونحن نعلم أن المخلدين في النار هم الكافرون ، الذين ينكرون وحدانية الله تعالى ، لكنه هاجم أنظمة الحكم التي يحكم أصحابه وفقاً لأهوائهم بدون الكتاب والسنة ، وبما أنزل الله تعالى وشرائعه .. الخ

وثمة عقيدة أخرى ، نريد توضيحها عند سيد قطب ، وهي تتعلق " بالإيمان " إذ نجد عقيدة الشيخ سيد قطب تقترب من عقيدة الخوارج والمعتزلة وكذلك الأشعرية وبعض أهل السنة .

فالإيمان عنده " تصديق القلب وقول اللسان وعمل بالأركان ، فالتصديق واليقين بقاعدتي الإسلام : لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، يبنى عليها التصديق بالملائكة والنبوات والآخرة ..

وهكذا ، فالواضح أن سيد قطب يرى أن الإيمان يرتبط بالعمل وأن الإسلام يعني الإيمان والعمل ، وهما لازمين للتصديق واليقين ، وهكذا أيضاً ، لكنه لم يصرح بكفر مرتكب معصية كما ذهبت الخوارج ، يضاف إلى ذلك أن جماعة الأخوان المسلمين كما صرح الإمام حسن البنا " لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما ، إلا أن يكون نطق بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية ، أو عمل عملاً لا يحتمل التأويل غير الكفر ... " [٢]

هذا نموذج من الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، التي تناول زعماؤها الحاكمية وضرورتها بالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية ، والتي تتعلق بالحاكم ونظم الحكم ، وعدم الرضا ، بل وجوب الخروج على الحكام

---

١ - للمزيد راجع - سيد قطب - في ظلال القرآن - جـ٤ - صـ ١٥٥٩

٢ - راجع - دكتور محمود ماضي - سيد قطب - صـ ١٤ .

الجائرين والمستبدين والذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى ، وما يتعلق بالإيمان وشروطه وغير ذلك بما يقترب من مقالات بعض الخوارج من الناحية الشكلية تارة والجوهرية تارة أخرى .

ويمكن أن نشير إلى نموذج آخر لهذه الحركات الأصولية المتأخرة والمعاصرة نجدها تلتقي مع بعض أفكار الخوارج - نقصد بهؤلاء جماعات التكفير والهجرة " وهذه [illegible] ، وقامت على مبادئ العنف وسفك الدماء بدعوى الخروج على الحاكم بالقوة وظهرت بمصر عام (١٩٧٦ - ١٩٧٧) م ، وقامت بأعمال قتل وتخريب وسفك دماء ، ومن ذلك قتل وزير الأوقاف الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله لمجرد أن أظهر نقداً لمناهجهم ودعا إلى مقاومة طرقهم لما ينطوي عليه دعواتهم من مخالفات للعقائد الإسلامية ، وخروج عن ملة الإسلام بأفعالهم واستحلالهم الثورة المسلحة والخروج بالقوة والقتل . فخرجوا عن الإسلام الصحيح ، وهذا ناتج من عقائدهم الإرهابية ، وأقوالهم في تكفير الحاكم والمحكومين بل وتكفير الأمة أيضاً .. بما يذكرنا بمذاهب الخوارج من الأزارقة والنجدات والمحكمة الأولى .

ولتوضيح ذلك يذهب الباحثون المعاصرون ، في تحليل عقائد جماعات التكفير والهجرة والتي تزعمها داع يسمى " شكري مصطفى " والذي ادعى النبوة والوحي ، بل وأنه مبعوث العناية الإلهية . يقولون :

وهذه الجماعة تكفر المجتمع القائم ، وتدعو إلى الهجرة بعيداً عنه وقد تحولت الأصولية عند هذه الجماعة إلى " نحلة " أو " فرقة " فأعضاؤها لا يتزوجون إلا من داخل الجماعة ، إذ لا يعترفون بوجود مسلمين إلا في جماعتهم ، ويعتبرون كل من عداهم من الكفار ، وهم يرفضون قبل كل شيء أن تكون لهم أي علاقة مع الدولة المصرية ، بل ويحظرون على أبنائهم دخول المدارس الحكومية ، أو الالتحاق بالخدمة العسكرية ، وهدفهم هو تدمير الدولة وتدبير

الخطط ووسائل العنف اللازمة لذلك بل لقد قاموا بالفعل ببعض الهجمات الإرهابية " [١]

وإذا تأملنا وحللنا عقائد جماعة التكفير والهجرة هذه نجدها تأخذ بنفس عقائد الخوارج كالأزارقة والنجدات والغلاة من العجارده فيما يتعلق بتكفير الحاكم أو الإمام، وعدم جواز الزواج من خارج فرقهم أي من طوائف أهل السنة أو غيرهم، واستحلال دماء مرتكبي الكبائر أو الصغائر علي السواء. والأخذ بحرفية النصوص، وتكفير الخارجين علي مذاهبهم أو من لم يهاجر إليهم علي اعتبار أن ديار غير الخوارج هي ديار الكفر لا تجوز الإقامة فها..إلخ[٢]

ولعل حركات المقاومة الدينية التي دخلت في سوريا في صراع شديد مع الحكومة. تدل علي وجود مثل هذه الظاهرة وارتباطها في عدد من البلاد الإسلامية بحركات مشابهه. [٣]

ويبدو أن الأصولية الإسلامية اتخذت شكلاً آخراً لتفسير كلمة " لا حكم إلا لله " في نطاق الاتجاهات الثورية الشيعية الحديثة التي تدعو إلي الديمقراطية في الحكم عند (علي شريعتي ١٩٣٢ - ١٩٧٧) م، والذي ساهمت أفكاره مساهمة كبيرة في التمهيد لقيام الثورة الإسلامية في إيران عام (١٩٧٨ - ١٩٧٩) م، حتى لو كانت الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي أعلنت بعد ذلك لم تتأثر بأفكاره تأثراً يذكر، وذلك حيث ذهب في تفسيره " لكلمة الأمانة " الوارد ذكرها في القرآن الكريم ﴿ إنا عرضنا الأمانة علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ سورة الأحزاب - الأية رقم (٧٢)

---

١ - فريتس شتيبات - الدور السياسي للإسلام (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً - دراسات عن الإسلام والمسلمين) صـ ١٤٢، ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي - ط مجلة عالم المعرفة - الكويت عدد إبريل ٢٠٠٤. كذلك راجع ملف جماعة التكفير والهجرة - روزاليوسف - القاهرة بتاريخ ١١/ ٧ / ١٩٧٧ م كذلك سبريس ويصا واصف: اضطرابات وقلاقل في مصر - المغرب - ط الشرق الحديث ١٩٧٧م. كذلك وايزابيلا كميرادا فيلتو.. التكفير والهجرة والشمولية الإسلامية في مصر - ط الشرق الحديثة صـ١٤٥ ط ١٩٧٨.

٢ - راجع الفصل الخاص (بفرق الخوارج وعقائدهم الأصولية والسياسية) من هذا الكتاب.

٣ - فريتس شتيبات - الدور السياسي للإسلام (ضمن كتاب الإسلام شريكاً...) ص ١٤٥

فالأمانة عند شريعتي هي : حرية الإرادة التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات . (١)

وذلك في نطاق تقرير ديمقراطية الحكم و اختيار الحاكم. ويرى شريعتي . أن كلمتي الناس ، والله في القرآن الكريم وفي الإسلام مترادفتان ، وأن إحداهما تقوم مقام الأخرى عندما يتعلق الأمر بقضايا المجتمع ، وعبارة " الحكم لله "معناها عنده أن الحكم للشعب كما أن عبارة " الملك لله " تعني أن الملكية للشعب ، لا للأفراد أي أنها للمجتمع في مجموعة ، فالمقصود بالبشر ليسوا هم الأفراد بل هو المجتمع العادل ، والمنظم وفقاً لمشيئة الله . وبهذا يصبح تعيين الإنسان نائبا عن الله هو أساس الاشتراكية الإسلامية. (٢)

وفي تصوري : أن هذا المفهوم ينطوي علي فكرة الإمام الحاكم عند الخوارج من بعض الجوانب . فهذا الإمام لا يتميز عن سائر مجموع الشعب أو الأفراد الذين أجمعوا علي اختياره في شيء، فقط يمثل المشيئة والإرادة التي أجمع عليها مجموعة الشعب لإمامته عليهم ، وهو بالفعل ينفذ المشيئة والإرادة الإلهية أو الحكم بما أنزل الله ، فهو النائب عن الله في الرعية والشعب ، وإذا لم يمتثل لذلك أو أخل بواجبات العدالة والمساواة ودفع المظالم أو غير ذلك يجب عزله والثورة علية .. وهكذا

وإن كنت لا أجزم ، ولا أقطع بأن فكر الخوارج يطابق تماماً ما ورد عند مفكري وزعماء الأصوليين ا[illegible] الثوريين الإيرانيين ، ولكن منطق التصورات في بعض المواقف قد يلتقي من جانب أو آخر وبالفعل فأنني قد أذهب إلي أن هناك ثمة تلاق في بعض الأفكار والتصورات الأصولية الحديثة مع فكر الخوارج ونظمهم السياسية والاجتماعية عند بعض الزعماء المحدثين والمعاصرين فالرئيس الليبى " معمر القذافى " قائد الثورة الليبية منذ عام ١٩٦٩ م ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م ، نشأ في مدينة " جربا " الليبية بالقرب من طرابلس وجبل نفوسة ، والمعروف أن هذه المدن كانت وما تزال

١- المصدر السابق - ص ١١٢.
٢ - المصدر السابق نفسه - ص ١١٣ .

معاقل الصفرية والإباضية من الخوارج في العصر الحديث ، ومما لا شك أن نظمهم وفكرهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، ما زال منتشراً في هذه البلدان ، وتأصلت هذه المبادئ والأصول الفكرية في نفوس الشعب أو القبائل القائمة هناك ، والمعروف أن الزعيم الليبي معمر القذافي ـ نشأ نشأة قبلية بدوية ، وهذه النشأة أتاحت للزعيم الليبي فرصة الالتحام بالجماهير والشعب ، والمعروف أن القبائل البدوية ، لا تنفصل في حياتها وظروف أبنائها عن زعمائهم ، ففرصة التلاحم والتلاقي بين الأفراد في ظل القبيلة لا حدود لها ، وهذا واضح من سلوكيات ، وطريقة اجتماعات ولقاءات الزعيم الليبي في " ظل الخيام " التي تنصب في الأراضي الفضاء الشاسعة ، وفي تصوري أن ذلك يشبه إلى حد كبير الحياة العربية الإسلامية الأولى ، وكذلك ترك أثره في تصور هذا الزعيم عن نظم الحكم ، وتمثل الديمقراطية ، ووسائل الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، الأمر الذي ترك أثره في كتابة " الأخضر " وما وضع فيه من تصور عن " النظرية الثالثة " بجوار نظريتي الرأسمالية والاشتراكية .

وبناءً على ذلك ، وجدنا من الكتاب والباحثين من يسرع إلى تصوير ما ذهب إليه الزعيم الليبي لوناً من الأصولية الإسلامية إن جاز قولهم [illegible] فيقولون : " وفي ليبيا نجد صورة جزرية [illegible] للأصوليين عند العقيد معمر القذافي ، إنه يذهب في مراجعته للمصادر الإسلامية الأولى إلى حد الاعتراف بالقرآن الكريم ، وإهمال كل ما عداه حتى السنة النبوية الشريفة ، وليس في وسع معمر القذافي من حيث المبدأ أن ينكر السنة كمعيار ومصدر أساسي للتشريع ولحياة المسلمين ، وإلا أعتبر ذلك نوعاً من الإلحاد ، ولكنه يرى أن المأثور السني لا يمكن الاطمئنان إليه أو اعتباره مصدراً أساسياً للتشريع ، وإن كان ذلك له ما يبرره ، فعلماء السنة يعرفون حق المعرفة أن هناك عدداً كبيراً من الأحاديث قد تكون مكذوبة عن كلام الرسول ﷺ ، وعن حياته ، وأعماله ، لكن علماء السنة وجدوا حلاً لهذه المشكلة ، إذ اعترفوا بأصالة عدد محدد من المجموعات التي تضم تلك الأخبار والأحاديث الصحيحة الإسناد واعتمدوا عليها ، وقد أدى تصور القذافي وتجاهله للسنة أن يعلن أن تفسير العلماء التقليديين

.

للسنة غير ملزم ، وبذلك أعطى لنفسه مجالاً واسعاً لتفسير القرآن الكريم تفسيراً خاصاً . [١]

وبناءً على إفتراضنا السابق فإن " القذافي " بدوره يعتبر أن الشعب هو خليفة الله في أرضه ، وأقام على هذه الفكرة تصوراً للديمقراطية بما يتفق مع الحياة القبلية البدوية التي يلتحم فيها جميع أفراد الشعب مع زعيمهم ، أو أميرهم أو القائم عليهم ، بما عقدوا له بيعة الاختيار ، لذلك " فهو يستنكر النظام النيابي بأعضائه ، وأحزابه ، وبرلمانه ويشيد بدلاً منه نظاماً للديمقراطية المباشرة ، يتكون من بناء معقد من المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية التي يحرص المشرفون عليها على أن يبقى المسئولون الكبار في الدولة خاضعين للإرادة الشعبية [٢] وقد بدا إلى جانب ذلك تغيير الأبنية الاقتصادية ، والاجتماعية تغيرات ذات صبغة اشتراكية ، فنظام الأجور والمرتبات يستبدل به نظام تعاوني مشترك ، وعلى الرغم من عدم المساس بالملكية الخاصة . فقد أمر بأن لا يملك أحد أكثر مما يحتاج إليه حاجة ضرورية ، ويضع هذا البرنامج الإصلاحي في مقابل الرأسمالية والاشتراكية كنظرية ثالثة [٣]

وعلى أي حال فإن كانت الأفكار التي وردت عند الزعيم الليبي معمر القذافي تحمل الصبغة الأصولية الإسلامية ، فإن ذلك ينطوي على ما عشعش في أفق هذا الزعيم من حياة بدوية قبلية ، مشبعة بالنظريات والأفكار المنتشرة في جربا وطرابلس وجبل نفوسة في حياة قبائل الصفرية والإباضية الذين يعبرون عن نظريات أصولي أهل السنة وبعض السلفيين في اعتبارهم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع . وأن الحكم لله وبما أنزل الله ، والتحام الشعب بالزعيم أو الأمير المختار بانتخابهم المباشر له .

١- المصدر السابق - صـ١٤١ كذلك : أرفية بلوشي - وتوفيق منستيري ، ليبيا وتطور المؤسسات السياسية (١٩٦٩ - ١٩٧٨) حوليات شمال إفريقيا العدد ١٦ / ١٩٧٧ ، صـ ٤٨٥ وما بعدها .

٢- للمزيد : معمر القذافي - الكتاب الأخضر - (الفصل الأول : حل مشكلة الديمقراطية) سلطة الشعب - ط المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - طرابلس بليبيا - الجماهيرية ط ١٩٩٠ م كذلك : شرح الكتاب الأخضر - ط طرابلس - ١٩٩٠ م

٣ - فريتس شتيبات - الدور السياسي للإسلام (ضمن كتاب الإسلام شريكا) صـ١٤١ ، صـ ١٤٢ .

وإن كان أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ - ١٩٧٩) م يعتقد هو الأخر أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه . فإنه يبرر بذلك رؤيته في إقامة شكل برلماني وانتخاب الحاكم انتخاباً شعبياً ، لكنه يخضع الوظيفة التشريعية للبرلمان بحدود الشرع الإلهي وتعاليمه بصورة أكثر صرامة مما يفعل المحدثون . كما يرفض التوسع في هذا الشرع عن طريق الإجماع . وقد أعطى المودودي الحاكم المنتخب من الناحية الفعلية سلطة مطلقة ، وأن قراراته يجب أن تطاع ، أما مسألة تخلي الحاكم أو مطالبته بضرورة التخلي عن منصبه ، إذا فقد ثقة الشعب ، فإنها تظل مسألة نظرية بحتة ، والمودودي بذلك يتفق في بعض الجوانب مع تصورات الجمهورية الإسلامية في إيران ، وإن اختلف مع الأصوليين والذي يعد واحد منهم - في الحد من سلطة رجال الدين ، وأعطى للحاكم سلطة يصعب التحكم فيها وتحديد حدودهما ، وإن أعطى لفقدان الثقة فيه أهمية لعزله [١]

وإن كانت هناك نقاط أصولية يلتقي فيها المودودي مع الأصوليين في الجمهورية الإسلامية ، فإنه يلتقي من بعض الجوانب مع فكر بعض الأصوليين من الخوارج ، من حيث اعتبار الإمام المختار من فقهائهم أو زعمائهم وما يتوافر فيه من خصائص العلم والشجاعة والفقه وهكذا لــه سلطة قوية ، على الجماعة كلها ، كذلك لم يعترفوا بمبدأ الإجماع أو القياس . [٢]

ومن الجدير بالذكر أنه قد تتابعت جماعة أصولية ، كانت أكثر تطرفاً من الجماعات الأصولية الأخرى ، تابعت جماعات التكفير والهجرة في تطرفها وسلوكها وتشددها في الاصول العقائدية تعمل على تكفير الأمة كلها فضلاً عن الحكام وغيرهم ممن لا يقع في دائرة تصوراتهم العقائدية المتشددة ، وتذكرنا كذلك بالخوارج الأزارقة والنجدات ، وذلك في السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي ، يرفعون شعار التكفير ، ويعلنون أن المخالفين لهم ملحدون ، وجميع الدول الراهنة في رأيهم " كافرة " ، لأنها لا تطبق شرع الله ، ولهم دعوه في نظرهم على جميع المؤمنين أن

١ - المصدر السابق - صـ١٤١ - كذلك راجع صـ١١٠ ، صـ١١١
٢ - راجع ما سبق عن فرق الخوارج وأصولهم العقائدية من هذا الكتاب

يوحدوا صفوفهم في جماعة نشطة ، ويقضون على الكفر عن طريق " الجهاد " أو الحرب المقدسة ، وقد قامت هذه الجماعة في سنة ١٩٨١ م ، باغتيال الرئيس أنور السادات ، والواقع أن هذا الاتجاه المتطرف ليس لـه أنصار كثيـرون ـ كما أن الآراء ووجهات النظر التي كانت تتبناها هذه الجماعة مرفوضة من جانب المسلمين ذوى التفكير الأصولي . ومع ذلك فإن جرأتهم وصراحتهم تضمنان لهم قدراً من الاهتمام والتأثير الذي يتخطى الدائرة المحدودة لأعضائهم العاملين[١]

والواضح أن مبادئ وسلوكيات هذه الجماعة ... وما كانت تنادى به من وجوب إعلان الحرب على مخالفيهم ، وتكفيرهم والقتل غيلة ، وما استحلوه من دماء بريئة ، لتكفي بأن تذكرنا وتؤكد جذورهم الخارجية ، فبعض فرق الخوارج ـ أجازت مثل ذلك ومارسته بالفعل ، واستحلت الدماء ، والقتل غيلة [٢] وهكذا نلاحظ من الناحية النظرية والعملية امتداد هذا الفكر الأصولي المتطرف حتى ظهرت عند هؤلاء المتأخرين ، ومما أحدثوه من اضطراب وإرهاب لا قبل للإسلام به من قبل ولا من بعد ، وهذا ما حرمة الإسلام ، والإسلام برئ من هؤلاء جميعاً .

على أن مسألة الكفر والإيمان والعمل ، قد نالت الكثير من المناقشات والتحليلات بين المفكرين والعلماء والأصوليين في العصر الحديث ، وقد تأرجحت أقوالهم وعقائدهم بين التشدد والتخفيف ، وعادة ما تبدأ هذه المناقشات بذكر وجهتي النظر المتطرفتين في تاريخ الفكر الإسلامي ـ عند فرقتي الخوارج والمعتزلة من جهة ، وعند فرقة المرجئة من جهة أخرى .

فوجهة النظر الأولى هي : الرأي القائل بأن الأعمال جزء من الإيمان بحيث أن كيف الأعمال التي يقوم بها وكمها يحددان درجة الإيمان التي وصل إليها ، فمرتكب الكبيرة لا ينظر إليه بأنه مؤمناً ، بل يعتبر مرتداً إلى الكفر ،

---

١ ـ فريتس شتيبات ـ عشر قضايا عن الأصولية الإسلامية _(بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكا ..) صـ٨٢ .

٢ ـ القتل غيلة : أجاز ذلك بعض فرق وزعماء الخوارج ، بينما قاوم هذا المبدأ البعض الأخر ـ راجع الفضل الخاص (بفرق الخوارج وأصولهم) من هذا الكتاب .

بحيث يحق عليه العذاب الأبدي في النار ، وهذا هو موقف الخوارج والمعتزلة.وكما سبق أن شرحناه بالتفصيل ، أما أصحاب الرأي المضاد يقولون أن الأعمال ليست جزء من الإيمان الذي يقوم على الإقرار باللسان والتصديق بالقلب ، وبذلك لا يكون الإيمان على درجات ، لأنه حالة مطلقة يشعر بها الإنسان ، أو لا يشعر بها ، وعلى ذلك فإن مرتكب الكبيرة يظل على إيمانه . وأصحاب هذا القول هم المرجئة ، والذين سبق أن ذكرنا قولهم " لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ".

ومن خلال تتبعنا ، وتحليلنا لمؤلفات وآراء المفكرين والعلماء المحدثين والمعاصرين ، تجدهم لا يذهبوان إلى هذه الدرجة من الغلو والتطرف عند هاتين الفرقتين . ولنعرض لذلك عدة أمثلة .

فالدكتور محمد نعيم ياسين وهو أحد الكتاب والعلماء المعاصرين بالأزهر يقف في هذه المسألة موقفاً معتدلا ، بوجه عام ، فنجده يقتبس في رسالته " الإيمان وأركانه وحقيقته ونواقضه " صبغة من الفقيه الحنفي أحمد بن محمد الطحاوي (٢٣٩ ـ ٣٢١) هـ يفرق فيها تفرقة بين الموقف السني والمواقف غير السنية ، يقول " أننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة ـ يعني الذين يؤمنون بالإسلام ، بسبب أثم أرتكبه ما لم يعلن أنه أمر مسموح به ونحن لا نذهب إلى أن المؤمن إذ أرتكب أثماً لا يدار بسببه ثم يضيف إلى ذلك " أن كل من يموت موحداً فسوف يدخل الجنة في كل الأحوال ويصدق هذا في حالتين : كل شخص برئ من الإثم كالصغير والمجنون وكل من تاب عن أثمه توبة نصوحاً ، أو أنعم الله عليه بفضله فلم يفوه بالإثم على الإطلاق سيدخل الجنة مباشرة .

والحالة الثانية : كل شخص أرتكب الكبيرة ومات بغير أن يتوب عنها فهو خاضع لمشيئة الله تعالى ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن أراد عاقبه كما يشاء ثم ادخله الجنة بعد ذلك . وهكذا لا يخلد في النار من مات على دين الإسلام مهما تكن المعاصي والكبائر التي أرتكبها في حياته الدنيا .

ولكن لا يدخل الجنة من مات وهو" كافر " مهما تكن الأعمال الصالحة التي قدمها" (١)

على أن الشيخ محمود شلتوت (١٩٦٤ م) شيخ الجامع الأزهر في كتابة " الإسلام عقيدة وشريعة " يشير إلى أنه لا يوجد في القرآن الكريم نص واضح عن خلود النار . فإذا كان من الواضح أن الكفار لن يغادروا جهنم ما بقيت نيرانها مشتعلة ، فليس من الواضح أن عقابها سيكون عقاباً أبدياً (٢)

أما الشيخ محمد الغزالي رحمة الله ، فإنه يؤكد على أهمية العمل والأعمال بالنسبة للإيمان تأكيداً شديداً ، ويهاجم الرأي القائل " بأن حسن الصلة بالله قد يجبر النقص في بقية الواجبات المفروضة ، وأن مجرد الإيمان يغني عن أداء هذه الفرائض ، إذ أن هناك صلة بين الخير الذي يفعله الإنسان في الدنيا وبين الثواب الذي ينتظره في الآخرة ، وكذلك بين الشر الذي يرتكبه والعقاب الذي سيلقاه في الآخرة ... (٣)

وعلة أزمة الدين في أيامنا هذه قطع الصلة الوثيقة بين العمل والجزاء مما أدى إلى ازدياد نزعة الإلحاد في الدين والعقيدة ، ويعترف الشيخ محمد الغزالي بأن " الإيمان لا يفترض التحرر من الإثم ، فقد يرتكب المؤمن الإثم دون أن يفقد الإيمان ، لكنه إذا تفاخر بإثمه وخطيئته ، واستهزأ بإهماله للفروض الواجبة عليه ، فإنه يتخلى في هذا الحالة عن الإسلام . ومن الواضح أن الشيخ محمد الغزالي يرفض مذهب الخوارج في أن مرتكب الكبيرة. يبطل إيمانه ، يقول : إن المسلمين سيساقون إلى النار بسبب أعمالهم السيئة ، ولكن رحمة الله يمكن أن تنقذهما منها . ومعنى هذا عنده . أن الإيمان بعد العقاب والشفاعة مع التسليم بحرية الله تعالى المطلقة في أمره . (٤)

---

١ - فريتس شتيبات - الإيمان يعطي الأمل في النجاة (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكا)- صـ ٩٥ ، صـ ٩٦ .
٢ - المصدر السابق - صـ ٩٦ .
٣ - نفس المصدر - صـ ٩٧ .
٤ - المصدر السابق - صـ٩٧ - كذلك نظرنا - محمد الغزالي - عقيدة المسلم - صـ ١٥٣ ، صـ ١٥٧ ، صـ١٦٠ ، صـ١٦١، صـ٢٩٤ ، ط ١٩٨٧ م

أمـا الأمـام حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) م وهو مؤسس حركة جماعة الأخوان المسلمين ، يشير في إحدى رسائله إلى أن العقيدة هي أساس العمل ، وفعل القلب أهم من فعل الجوارح ، وبلوغ الكمال في كليهما مطلوب بحكم الشرع ، حتى لو تفاوتت الرتب والدرجات " (١)

ومن الجدير بالذكر أن أحد علماء الدين السوريين ويدعى " عبد الرحمن الميداني " مدير التعليم الشرعي في وزارة الوقف السورية ، يشير في كتابه " العقيدة الإسلامية". أن الإنسان عندما يدين بالشكر لله عز وجل على نعمه التي أسبغها عليه يبلغ من العظم حداً كبيراً يكون عاجزاً عن ردة بما يعمله طول حياته . وأن الله تعالى إذا وعد الإنسان بأن يكافئه على إيمانه وأعماله الصالحة فإنه يفعل ذلك ، وفقاً لقانون المثوبة الذي وضعه الله تعالى بفضله ورحمته ومن جهة أخرى سيعاقب الإنسان على كفره وعصيانه ، وفقاً لقانون العدل الإلهي . مصداقاً لقوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ سورة الأنعام (١٦٠) وعلى ذلك فإن مرجع الثواب والجزاء إلى فضل الله تعالى ، أما العقاب فإلى العدل الإلهي ، ولما كان الفضل الإلهي واسع المغفرة ولا حدود له فإنه قد يمحو ما يقتضيه العدل الإلهي . (٢)

ويبدو أننا أمام إجماع تام على الأقل بشكل عام على وضع المؤمن والكافر والمواقف التي ينبغي أن تتخذها الجماعة الإسلامية منهما ،إنه يجب في المقام الأول عدم التسرع بتكفير أي إنسان ، بل يجب الحذر والحرص الشديدين تجاه الشخص المقصود . فلا يعلن أنه كافر حتى تتوافر فيه جميع المقتضيات الشرعية في الشهادة ، فقد تكون هناك أعذار تبرر سلوك الشخص أو أسباب كافيه تجعله يستحق عفو الله . كذلك كان الزعم بأن الله تعالى سيعاقب بالعذاب والنار خرقاً خطيراً لقوانين العدل والرحمة الإلهية (٣)

١ـ المصدر السابق ـ صـ٩٧ ، كذلك راجع مجموعة رسائل الأمام الشهيد حسن البنا صـ١١ ط بيروت ١٩٦٥ م .
٢ ـ فريتس شتيبات ـ الإيمان يعطي الأمل في المجاه (ضمن كتاب الإسلام شريكا)ـ صـ٩٨
٣ ـ نفس المصدر ـ صـ٩٩

كذلك يجب التفرقة بين معاملة الشخص المشتبه في كفره في هذه الدنيا ومعاملته في الآخرة ، ولا يجوز لأحد أن يدعي أنه مطلع على أسرار القلوب لأن هذا ، من حق الله تعالى ، ويترك لله عز وجل الحكم على الشخص في الدار الآخرة . ولكن لأن الأحكام التي تتعلق بهذا العالم هي شأن من شئون الناس ، فإن وجدوا من أعمال شخص معين أنه قال أو فعل شيئاً يبطل إيمانه ، فيجب ويحتم عليهم أن يطبقوا عليه قوانين الشرع ، لكي يمنعوه من ممارسة " بدعه" التي تستلزم تكفيره أو الحكم عليه بالكفر . (١)

وبقية نقطة أخرى تتعلق بمسألة الكفر والإيمان ، وهي حالة الشخص المرتد عن دينه الإسلام ، ففي عرف هؤلاء ، يذهب الدكتور نعيم ياسين أن الشخص الذي يشتبه في أنه مرتد عن الدين ، لابد من أن يطلب منه التوبة ، فإذا لم يفعل وجب قتله ، إلا أنه يجب في مجمل الآراء - أن يترك اتخاذ القرار في مسألة الحكم بإعدامه ليس إلى عامة الناس ، بل إلى ولي الأمر وهو إما أن يكون الأمام ، أو رئيس الدولة . (٢)

أما الدكتور محمد شامة - وهو أستاذ بجامعة الأزهر وأتم دراسته في المانيا - يصرح في بعض الأحاديث " أن الإنسان لا يقع في الكفر إذا أعطى نفسه حرية تفسير دلالة القرآن ، لأن النص وحده هو الذي يؤخذ به ويرجع إليه كشيء نهائي " (٣)

ويذهب الشيخ محمود شلتوت إلى رأي يقول فيه .. أن الشخص الذي تخلى عن الدين الإسلامي لا تجري عليه أحكام المسلمين في هذه الدنيا ، فلا يطالب بالعبادات ، ولا الفرائض ، ولا يحرم عليه ما حرم في الإسلام كشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير مثلا ، ولا يغسل ولا يصلي عليه ، ولا يرثه قريبه المسلم .. وهكذا لا يجري عليه ما يجري على المسلمين . فالإيمان إذن لا يشمل

---

١ - المصدر السابق - صـ ٩٩ .
٢ - راجع بالتفصيل - المصدر السابق - صـ ١٠٠ .
٣ - المصدر السابق - صـ ١٠٠

الفرد وحده ، أو علاقته بربه فقط بل يمتد كذلك إلى عضويته في جماعة المؤمنين . (١)

وربما يرتبط بهذه المسألة ، مسألة أخرى ، وهي حكم حال من هم غير المسلمين في مقابل المرتدين ، فثمة شبه إجماع على أنهم أيضا من الكفار ، وعلى الرغم من الحرص الشديد في مسألة التكفير ، فإن الدكتور ياسين يقرر أن اليهود والنصارى قد عرفوا بأنهم كفار ، وأن من الكفر إنكار ذلك ، كذلك ينتقد انتقاداً شديداً موالاة هؤلاء ، لأن هذه الموالاة قد تعني بالضرورة العداء للإسلام ، لذا ينبغي على الحكام المسلمين بوجه خاص أن لا يستعينوا بهؤلاء كمستشارين لهم ، ولا يشجعوا الجماعات الإسلامية على تقليدهم في أمور الحياة العامة ، ولا يتبنوا قوانينهم ومناهجهم ، وأن الخوف من القوى العظمى ليس مبرراً للانصياع لهم " (٢)

ويتجه الدكتور محمد شامه في هذه المناقشة إلى توضيح رأيه في هؤلاء من غير المسلمين فيرى أن النجاح المادي للكفار في هذه الدنيا لا يعني أن الله تعالى راض عن موقفهم من العقيدة الإسلامية ، لكنه يعترف بما لهم من أعمال فيها خير للبشرية ، يقول : أن بعضهم يعمل أعمالاً صالحة لخير البشرية ، ولما كان الإيمان هو الأمر الحاسم في النهاية فلن ينجيهم من النار ، لكن النار مثل الجنة فيها مراتب ودركات ، فالأخيار من الكفار سيوضعون فيها يقاسون من العذاب أقل مما يقاسيه الأشرار منهم " (٣)

وربما حاول كل من عبد الرحمن الميداني ، والشيخ محمود شلتوت ، التخفيف من شدةَ الاتهام أو التكفير بالنسبة لليهود والنصارى ، فيذهب "الميداني " : إلى أن الديانات السماوية كانت منذ البداية ديانة واحدة ، بحيث يمكن أن نطلق عليها جميعاً صفة الإسلام ، لكنها بفعل التغيير والإفساد اللذين أصابها أصبحت ديانات منفصلة ، ويتجنب أن يصف أصحابها بالكفار . (٤)

---

١ ـ المصدر السابق ـ صـ١٠١
٢ ـ نفس المصدر ـ صـ١٠١
٣ ـ نفس المصدر ـ صـ ١٠١
٤ ـ نفس المصدر ـ صـ ١٠١ .

بينما يذهب " شلتوت " ، إلى أن الشعوب النائية التي لم يبلغها عقيدة الإسلام ، أو بلغت إليهم بصورة سيئة منفرة ، أو لم يفهموا حججها وأدلتها على الرغم من الجهود التي بذلوها في دراستها هذه الشعوب النائية آمنة من عقاب الكفار في الآخرة ، ولا يطلق عليها اسم الكفار .(١)

ومما يلفت النظر حقاً ، أن الدكتور محمد عمارة ، وهو من أبرز المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، والذي ولد بإحدى القرى المصرية عام (١٩٣١) م وتخرج من كلية دار العلوم ، وهو يمثل الجانب التنويري الإسلامي المعاصر ، يوجه انتقادات شديدة لمثل هذه التيارات الأصولية . المتشددة والمتطرفة الحديثة أو المعاصرة . ويرى أن أمثال هؤلاء من الجماعات لا يصلحون لتمثيل وجهة نظر الإسلام وعقيدته الصحيحة ، ولا جانب الحوار البناء الذي يتقبل الآخر .

ويذهب الدكتور محمد عمارة إلى هذا ، وتفصيلاته في معرض تقسيمه للتيار الإسلامي إلى أربع مجموعات :

المجموعة الأولى : النصوصيون : يعرفهم بأنهم لا يرون أبعد من ظواهر النصوص وحرفيتها ، كما أنهم يتعاملون مع التراث بالقدسية التي يتعاملون بها مع الوحي الإلهي المنزل والسنة النبوية الثابتة وأنهم في رأيه يعيشون في الماضي أكثر مما يعيشون في العصر ويهملون نعمة العقل ويغضون من شأنه .

المجموعة الثانية : فصيل الغلو : وهم الذين علا صوتهم بحركة الصحوة الإسلامية ، ورفعوا شعارات من مثل " التكفير " والجاهلية ، وحكموا بها على الأمة الإسلامية أو على دولها ونظمها ومجتمعاتها ويفسر الدكتور عمارة اتجاه هذا الفصيل بأنه يمثل رد الفعل المغالي والغاضب على تيارات التغريب ، ويرى أنه عاجز عن تقديم البديل العملي للنموذج الغربي ، وعن صياغة المعالم الحقيقية لخلاص الأمة من المأزق الذي يأخذ بالخناق.

---

١ - نفس المصدر - صـ١٠١ - كذلك تعليقات وتحليلات بهامش الكتاب يذهب إلى نفس هذا الرأي أكثر تفصيلا - صـ١٦٦ ، صـ١٦٧

المجموعة الثالثة : الحركات الإسلامية الكبرى : وهي حركات اعتدال تقترب مواقفها من موقع الوسطية الإسلامية التي تمثل منهج الإسلام وحقيقته الجوهرية ، بقوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ سورة البقرة (١٤٣) ويعترف الدكتور عمارة بوجود مفكرين لامعين ومتميزين في بعض هذه الحركات وهم في طليعة علماء المسلمين المؤهلين لتمثيل الحوار الإسلامي وإن كان يحذر من بعض الاتجاهات لدى العلمانيين ، مما يؤدي إلى تسمم جو الحوار الإسلامي - خاصة وأن لديهم اتجاهات ثورية .

المجموعة الرابعة : فصيل الاجتهاد والتجديد لحضارة الإسلام ، وهذا الفصيل ينتمي إليه ، وهو أكثر فصائل الصحوة الإسلامية قدرة وصلاحية ليكون الممثل والداعي للحوار أو النقاش بين الإسلاميين والعلمانيين (١)

ويرى الدكتور عمارة أن هذه المجموعة أو الفصيلة الأخيرة هي التي تمثل الجانب الفكري الجاد والمعتدل في الإسلام ، والمعبر الحقيقي عن الأصول الحضارية الإسلامية .

وهكذا .. يتضح لنا من خلال هذا الموضوع والذي بحثنا من خلاله مكانة الخوارج وأصولهم وفكرهم العقائدي والسياسي بين تيارات التفكير الأصولي عند الإسلاميين الأصوليين عبر العصور المختلفة . وحتى العصر الحديث .

وقد لاحظنا أن بعض الأفكار الأصولية والسياسية عند فرق الخوارج لم تكن بعيدة عن فكر الأصوليين الإسلاميين المتأخرين والمعاصرين وبصفة خاصة عند جماعات " التكفير والهجرة ، والجهاد ، والثوريين الجمهوريين الإسلاميين ، ..

غير أننا نجزم بأنه قد ظهرت تباينات كثيرة بين فكر الخوارج وفكر كثير من الإسلاميين الأصوليين النصوصيين ، بالإضافة إلى فكر العلماء

---

١ - نظرنا : فريتس شتيبات - العلمانيون والإسلاميون (محاولة مصرية لتصنيفهم) - بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكا - صـ ٨٩ .

وشـيوخ الأزهـر الشـريف الذيـن يمـثلون الفكـر الإسـلامي والعقـيدة الإسـلامية الصـحيحة والمعتدلة ، التـي تكون مؤهلـة لقيام نمـوذج إسـلامي معـتدل وواضـح يوازي غيره من النماذج الإصلاحية الغربية ، وفكر هؤلاء المعتدلين يمثل حوار الحضـارات والأديـان التـي تقوم على أصول من : العدالة ، والمساواة ، والحرية الديمقراطـية والتسـامح ، والـذي يمقـت الـتحزب والعصـبية ، ودعـاوى الفـرقة والعنصـرية المقيـتة . فـي ظـل دعـوة الإسـلام : " كلكـم لآدم وآدم مـن تـراب " .
والحمد لله رب العالمين .

خـاتمة " نتـائج البـحث "

تناولنا من خلال هذا البحث بدراسة تحليلية ونقدية مقارنة مسألة من أهم المسائل الفكرية والسياسية والعقائدية ، شغلت العالم الإسلامي قديماً وفي العصر الحديث ، وهي قصة الخلافة ، ونشأة الخوارج وتطور مذاهبهم حتى العصر الحديث ، واستعرضنا ما شجر بين الفرق والمذاهب الإسلامية من خلافات مريرة حول الخلافة ، والولاية والإمامة ، وخصائصها ، وشروطها ، وأهميتها بالإضافة على ما تخلف عن هذه المسالة من ظهور فرقة الخوارج وما تفرع عنها من فروع كثيرة مختلفة فيما بينها وبين بعضها والبعض الآخر ، أو ما بين هؤلاء الخوارج على اختلافهم وما بين غيرهم من الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى ، وما تمخض عن هذه الخلافات من تدهور في الحياة السياسية والفكرية العربية الإسلامية ، لما نتج من خلافات وحروب مريرة ومستمرة عبر العصور بين الخوارج وبين الخلفاء والولاة أدت إلى ضياع مقدرات المسلمين وضعفهم .

وقد استطعنا أن نخرج من خلال هذه الدراسة التحليلية التركيبية بعدة نتائج هامة على النحو الآتي :

أولاً : لم يحدث خلاف بين المسلمين في عهد النبي ﷺ ، سياسي أو عقائدي قط ، فقد توفى الرسول الكريم بعد أن أتم الدين وأكمل العقيدة ، وحدد للمسلمين معالم الطريق وأوصاهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وهو عنهم راض ، وأعطى كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار إشارات واضحة لإمامة أبي بكر في الصلاة بالمسلمين ، الأمر الذي يسر على هؤلاء سرعة البيعة لأبي بكر بالخلافة بعد الرسول ﷺ ، فلما ارتج المسلمون لوفاة الرسول ﷺ - ومنهم عمر رضي الله عنه - سارع أبو بكر ، وهدأ من روعهم ، وخطب فيهم " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " فرأب صدع المسلمين ، الأمر الذي يسر عليهم ، وأعطاهم ثقة في ثبات أبي بكر ورباطة جأشه ، لبيعته في السقيفة ، بعد أن احتدم النقاش بين المهاجرين والأنصار ، حول الخلافة بعد الرسول الكريم ،

فألقى أبو بكر في حينها بحديث عن الرسول ﷺ " الإمارة في قريش " ثم قال للأنصار : منا الأمراء ، ومنكم الوزراء ، هكذا لم يتعد الخلاف مجرد النقاش الهادئ ، وتبادل الرأي ، فبسط عمر رضي الله عنه يده وبايع أبا بكر للخلافة ، وتابعه سائر المسلمين وهذه كما قال عمر : كانت محنة وقى الله المسلمين شرها " .

ثانياً : الخلافة - الإمامة - كما عرفت فيما بعد بين الفرق والمذاهب الإسلامية مسألة مصلحية ، تناط بمصلحة الأمة ، وهي مسألة واجبة شرعاً وعقلاً عند أهل السنة والجماعة ، ولها خصائصها وشروطها في الاختيار والبيعة من أهل الحل والعقد نيابة عن سائر المسلمين ، وهي فرض كفاية ، ولها دلالتها لغوياً واصطلاحياً ، فهي نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ حياة الأمة ، ونفاذ شريعة الله في الخلق ، وهي أيضاً خلافة السابقين السالفين ، أو نيابة عن الله في تمثل شرائعه وحفظ أوامره وحدوده في الخلق ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين المعنيين ، إلا أن الخلافة أو الإمامة اتخذت مدلولاً آخر في عرف بعض أصحاب الفرق والمذاهب من غير أهل السنة والسلف وبعض الزيدية ، وبصفة خاصة عند الشيعة ، فهي مسألة واجبة شرعاً ، بل هي ركن من أركان الدين عقيدة وشريعة ، يتوافر فيها أركان العصمة للإمام ، ومن ثم لا يمكن إغفالها أو تركها ، لأن ذلك يعني الخروج عن نطاق الشرع ، وهي بالوراثة والتسلسل في أعقاب الأئمة من أبناء الإمام عليّ رضي الله عنه ، أما الخوارج وبعض المعتزلة فاتخذت الخلافة أو الإمامة مدلولات أخرى يتفقون في بعضها مع أهل السنة كالاختيار والبيعة مع إغفال شرط القرشية أو العروبة ، ويختلفون معهم ومع الشيعة في عدم وجوبها ، وجواز الثورة والخروج على الخليفة أو الإمام أو عزله.. وهكذا .

ثالثاً : انتقلت الخلافة في هدوء وسكينة من أبي بكر إلى عمر رضي الله عنهما بتعيين أبي بكر لعمر بعد أن أخذ الرأي والمشورة عليه من كبار الصحابة المهاجرين والأنصار . بالمدينة الذين يمثلون فيما بعد أهل الحل والعقد لما

يشبه البرلمان في العصر الحديث ، ثم انتقلت من عمر رضي الله عنه إلى عثمان بن عفان بمجلس شورى جرى من خلاله أخذ الرأي والمفاضلة بين عثمان وعليّ من قبل عبد الرحمن بن عوف ، فصفق عبد الرحمن على يد عثمان لقوله " السلام عليك يا أمير المؤمنين بعد أن استقر الرأي على اختياره وبيعته ، ثم حدث ما جرى من أمر الفتنة الكبرى في عهد عثمان ، وثورة الثائرين عليه وخروجهم على إمامته وخلافته لاعتبارات اقتصادية أو اجتماعية ، وليست دينية ، وما كان من أمر دعاة الفتنة والتأليب على عثمان من جانب بعض الموالي والذين في قلوبهم مرض كعبد الله بن سبأ بن السوداء ... ثم قتل رحمه الله ، ولم يكن للإمام علي كرم الله وجهه شأن بهذا الموقف العصيب ، هنا طلت الفتنة بوجهها على المسلمين ، وبدأت الفرقة ثم الاختلاف فاجتمع المسلمون من المهاجرين والأنصار أو بعضهم ، فأصروا على بيعة علي بالخلافة ، فتقبلها وهو كاره لها ، وصحت البيعة للإمام عليّ ، إلا أن البعض لم يبايع وهم معاوية ومعه معسكر الشام وبني أمية ، انتظاراً لطلب الثأر لدم عثمان وادعائهم أنهم ولاة دمه ، فخاطبهم عليّ في رفق ومهادنة لكنهم لم يجتمعوا عليه ، بل وثار عليه ونكث بعهده جماعة أخرى منهم الزبير بن العوام ، وطلحة ، واستمالوا أم المؤمنين عائشة طمعاً في الخلافة من ناحية ، أو في أن يبقوا على ما هم عليه من ثراء وغنى ، فحاربوا علياً وحاربهم في موقعة الجمل وانتصر عليهم ، ثم صار إلى معسكر الشام ، وكاد أن ينتصر عليهم لولا أن أصحابه وهم رؤوس الخوارج فيما بعد أشاروا عليه بضرورة قبول مبدأ " التحكيم " عندما رفع معسكر الشام المصاحف على الرماح مطالبين " الرجوع إلى كتاب الله للحكم فيما هم فيه مختلفون "، وبعد قبول الإمام عليّ لمبدأ التحكيم ، وخروج الحكمين عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري ، عما في كتاب الله ، وما حدث من خدعة التحكيم ، ورفض عليّ لذلك ، بدأت ثورة رؤوس وزعماء الخوارج على عليّ فصاحوا " لا حكم إلا لله " -

ونـادوا بتكفير الحكمين ، وعلـي ، ومعاويـة ، ومـن هـنا بدايـة الظهـور للخوارج ، ونشأتهم كحزب سياسي في الإسلام .

رابعاً :إذا كانت كلمة الخوارج لها مدلول يشير إلى معنى " الخروج " على الإمام وشق عصى الطاعة عليه . فإنها ربما تنسحب على أولئك الذين ثاروا على عثمان رضي الله عنه وقتلوه غيلة وغدراً ، لكنها لم تتخذ المدلول السياسي الحزبي إلا عندما نطق رؤوسهم " لا حكم إلا لله " فانحازوا في طوائف منهم إلى حروراء معلنين خروجهم على عليّ ، ورفضهم لإمامته ، فحاربوه وقاتلهم وقتلهم ، وكانت حجتهم في مناظرتهم للإمام عليّ : أن علياً محا نفسه من إمامة أو إمارة المؤمنين لقبوله مبدأ التحكيم ن كذلك محو صفته أمير المؤمنين في أثناء كتابة صك التحكيم ، بالإضافة إلى احتجاجهم بأن علياً أباح أموال الناكثين في موقعة الجمل دون سبي النساء . هذه الاحتجاجات التي سولت للخوارج الخروج على عليّ فندها لهم الإمام علي قائلاً لهم : أنه لم يقبل التحكيم إلا نزولاً على موافقتهم ومشورتهم له وقد كانوا شيعته وخيرة أنصاره ، وأبطالاً لحجة الخصوم عليه بالاحتكام إلى كتاب الله تعالى ، أما محو صفته أو اسمه في صك التحكيم كأمير للمؤمنين ـ فقد كان اقتداءً بطريقة الرسول ﷺ : محمد بن عبد الله " في صيغة الصلح عام الحديبية مع سهيل بن عمرو ، وفيما يتعلق بإباحة الأموال دون النساء في موقعة الجمل فقد استنكف أن يحوز أحد أم المؤمنين عائشة في سهمه بالإضافة إلى أن النساء لم يكن لهن من الأمر شيئاً .

خامساً : بنشأة الخوارج وظهورهم على مسرح الحياة السياسية والفكرية والعقائدية اعتبروا أول حزب سياسي في تاريخ الإسلام السياسي ، تشكلت عقائد أصحابه ، وأفكارهم في صيغ وقوالب حزبية متنافسة ومتناحرة فيما بينها ، فلم يكن المسلمون قبل هذا الانشقاق شيعة أو سنة أو غير ذلك ، فاتجه هؤلاء لمبايعة رجل منهم " عبد الله بن وهب الراسبي " كإمام عليهم وأعلنوا تكفير عليّ والحكمين ، ومعاوية ، أصحاب صفين ، والجمل ،

ومن قبل هؤلاء عثمان رضي الله عنه ، ووضعوا لهم أصولا وقواعد سياسية وتأولوا عليها نصوصاً قرآنية وأحاديث نبوية . وتشكلت منهم بعد ذلك عدة طوائف وفروع مختلفة ومتناحرة ، وكان من أكبر فرقهم : المحكمة الأولى وفرقة الأزارقة ، والنجدات ، والعجاردة ، والبيهسية ، والإباضية ، والصفرية ، والحمزية ، والشيبانية ، والشبيبية .. إلخ .

وكان لكل فرقة أو طائفة من هؤلاء عقائدها وفكرها السياسي المختلف عن الأخرى ، وكثيراً ما كانت تقوم بينهم الحروب ويقتل بعضهم بعضاً ومن مبادئهم الأساسية عدم التقية ، التمسك الحرفي بالنصوص ، عدم الجدل أو التفلسف .

سادساً :اجتمع الخوارج على مبادئ أصولية وعامة كمقالاتهم في تكفير عثمان في سنواته الست التالية لإمامته . وتكفير علي بعد قبوله التحكيم ، بالإضافة إلى تكفير أصحاب الجمل وصفين ومعاوية والحكمين ومن لم ينضم إلى مذاهبهم .

يضاف إلى ذلك قولهم : بعدم وجوب الإمامة أو الخلافة في قريش أو العرب ، واستبدال ذلك بمبدأ الإسلام والعدل . بدلاً من العروبة والحرية ، كذلك يتفق الخوارج مع بعض المعتزلة في القول بالثورة والخروج على الإمام الجائر أو الظالم لنفسه أو لغيره ، وعزله ، كذلك عدم وجوب الإمامة ، ما دامت الإمة مجتمعة على خير أو مبدأ لا خلاف حوله ، كذلك القول بالبيعة عن طريق الاختيار لا التعيين أو النص مخالفين بذلك مبادئ الشيعة ، ومتفقين في بعض الجوانب مع أهل السنة في الشورى والاختيار.

ويختلف الخوارج فيما بينهم حول عدة مبادئ نذكر منها : القول في القدر ، والاستطاعة مع الغعل ، والقتل غيلة ، وتكفير الأطفال قبل البلوغ ، وقتل أطفال المشركين ، واستحلال الأموال وسبي النساء ، ومسائل الزواج والمواريث ، والهجرة والتقية ومبدأ تكفير مرتكب الكبيرة ، فهو مخلد في النار وكافر كفر ملة أو نعمة عند آخرين .

سابعاً: ظهرت فرق الخوارج الإباضية والصفرية ، ويتفقون مع سائر الخوارج في بعض الأمور الجوهرية كالإمامة وشروطها ، ووجوبها أو عدم وجوبها ، ومبدأ الإسلام والعدالة ، إلا أن الإباضية بصفة خاصة يختلفون اختلافاً جوهرياً وفرعياً في بعض المسائل الأخرى عن الخوارج أهمها : قولهم : بمبدأ التوريث في الإمامة ، وعدم القتل غيلة إلا بعد الاستتابة لمرتكب الكبيرة ، وقولهم أن مرتكب الكبيرة كافر وليس مشرك . وكفره كفر نعمة وليس كفر ملة ، ويقترب الإباضية من مذاهب أهل السنة والجماعة ، ويعتبروا أنفسهم وبصفة خاصة علماؤهم المحدثون أو المعاصرون من المذاهب الإسلامية التي يعمل بها ببلاد المغرب وشمال إفريقيا وهم بذلك يمثلون المذهب الخامس ضمن المذاهب الأربعة .

ويعبر الإباضية في تطورهم الحديث عن أصول أهل السنة في العقائد والمسائل الكلامية - كالأشعرية أو أهل السنة الآخرين .

ثامناً : ظهر تطور كبير في مذاهب الخوارج في العصور المتأخرة والحديثة حيث أجاز هؤلاء مبادئ أهل السنة ، بالإضافة إلى أن الإمامة تجوز فيها التوريث والاختيار عن طريق الشورى كما فعل عمر بن الخطاب من قبل ، كذلك أجاز الخوارج في تطورهم الحديث الإمامة في المفضول مع وجود الأفضل ، مثل الشيعة الزيدية ، وقال بعضهم لا تجب الإمامة في وجود الأفضل ، كما أجازوا وجود إمامين في وقت واحد بمكانين متجاورين ، حيث استن بعضهم مبدأ التجاوز ، في حالة وقوع خلاف عليها ، كما أجاز بعض الخوارج من الشيبانية عقد الإمامة للمرأة ومخاطبتها للرجال .

تاسعاً : وكما كان للخوارج ذيوع وانتشار ووجود حتى العصر الحديث ببلاد المشرق العربي والإسلامي في عمان ، والبحرين ، وفارس وزنجبار ، فإنه أصبح لهم انتشار واسع في إفريقيا الشمالية والمغرب الأوسط بطرابلس وجـــربى - وجبل نفوسة والجزائر وغيرها وكونوا دولاً أهمها دولة رستم .. عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب ، وهم يمثلون

الجانب المعتدل من الخوارج الإباضية . وقد صمد هؤلاء الإباضية حتى الآن بالمشرق والمغرب وشمال إفريقيا ولهم آثار عقائدية وسياسية في بعض النظم السياسية . ويدعون انتسابهم إلى مذاهب أهل السنة ويكرهون تسميتهم بالخوارج .

عاشراً : حدث تقارب واتفاق بين الخوارج وبعض المعتزلة في المسائل الجوهرية السياسية والعقائدية كإغفال شرط القرشية والعروبة والحرية . في اختيار الإمام واستبدال ذلك بالإسلام والعدالة . لما دخل في صفوف هؤلاء وأولئك من أجناس وعناصر إسلامية غير عربية ، كذلك عدم الإقرار بوجوب الإمامة ، وإجازة الثورة والخروج علي الإمام الجائر أو عزلة من منصبة واختيار آخر تتوافر فيه شروطهم يضاف إلي ذلك قولهم بالقدر ، وأن الأعمال ترد إلي الفرد خيرها أو شرها ولا تنسب إلي الله تعالي ، وإن كان بعضهم كما أسلفنا أقر بالاستطاعة مع الفعل متفقين مع جمهور أهل السنة ، وأتفق الخوارج وبعض المعتزلة في مرتكب الكبيرة وأنة مخلد في النار .

وقد أتضح لنا مدي الفارق الكبير بين مقالات الخوارج وبين مقالات أهل السنة والمرجئة . وكذلك الشيعة ، سواء في الإمامة أو مسألة الإيمان والكفر ، ويربط الإيمان بالعمل .. والتقية . والفعل الإنساني ، إذ بينما يكفر الخوارج مرتكب الكبيرة ، صغرت أم كبرت وتخليده في النار فإن المرجئة يقرون بإيمان العاصي إذ لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .. وهكذا .

الحادى عشر : كان لأصول الخوارج وعقائدهم السياسية والدينية خطر كبير في محيط الفكر الإسلامي السياسي والديني ، فشذوا بذلك عن مذاهب جمهور المسلمين ، وابتدعوا نظاما وأفكاراً سياسية مؤولة علي عقائد ونصوص دينية أثروا تأثيراً عميقاً علي بعض مذاهب الأصوليين القدماء وفي العصر الحديث إذ نلاحظ تسرب بعض أفكار الخوارج وعقائدهم السياسية ، والدينية في أفكار بعض الأصوليين المتشددين والنصيين في

العصر الحديث ، ومن مظاهر ذلك ما تجده من امتزاج بين فكر الخوارج المتطرفين كالمحكمة الأولي ، والازارقة والنجدات والعجاردة والشيبية ، وبين فكر جماعات التكفير والهجرة . وجماعات الجهاد ، والجماعات الإسلامية الأخرى المتشددين في النص ، والقائلين بنظرية " الحاكميه " والجهالة أو الجاهلين [illegible] ، إلا أن جماعة الأخوان المسلمين ظهرت لديهم [illegible] الاتجاهات المعتدلة تختلف عن هؤلاء جميعاً أهمهما التأكيد على النص ، والتمسك بالكتاب والسنة وأصول الشريعة الإسلامية في مواجهة تيارات العلمانية ، والحداثة ، والتفكيك وغير ذلك من نعرات التجديد والإصلاح ، فإن كانت تسربت أو تشابهت بعض أفكارَ الجماعات [illegible] مع بعض أفكار الخوارج إلا أن هناك بعض الاختلافات الأخرى .

يضاف إلي ذلك أن خوارج الإباضية . الذين يمثلون الجانب المعتدل في مذاهبهم ، لهم آثار واضحة علي بعض النظم الفكرية والاجتماعية والسياسية في شمال إفريقيا ، والمغرب الأوسط وقد أشرنا إلي وجود بعض التقاليد الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء لدي بعض الزعماء العرب الحدثين والمعاصرين . فالزعيم الليبي معمر القزافى . ولد بمدينة جربا وبجوار وشمال غرب مدينة طرابلس ، وجبل نفوسه ، وهذه المدن كانت وما تزال معاقل لمذاهب الإباضية أو الصفريه ، وتبدو هذه المظاهر الفكرية والاجتماعية فيما أشار الزعيم الليبي في كتابة " الأخضر " وشروح الكتاب الأخضر . من ضرورة التحام القائد أو الزعيم بشعبة وجماعته ، وأن الزعامة الحقيقية إنما تكون في امتزاج الزعيم مع شعبة وجماعته ومواطنيه دون حواجز أو تفرقة بينه وبينهم . لذا كانت هذه اللجان الشعبية بديلاً عن النظم النيابية أو البرلمانية الحديثة ، كما نرى ذلك بالكتاب الأخضر وشروحه ،

" ثبت المصادر والمراجع "

" العربية والأجنبية "

أولاً : المصادر العربية : -

١ - أبن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة - المجلد الثالث . ط دار القلم ببيروت .

٢ - أبن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة - جـ ١ ، جـ٢ ، جـ٣ ، جـ٤ ، جـ٧ ، جـ١٣ ، جـ٢٠ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٤ م.

٣ - أبن الأثير - الكامل في التاريخ - جـ٣ - ط القاهرة - ١٢٨٥ هـ.

٤ - أبن تيمية : منهاج السنة - جـ٣ - تحقيق دكتور محمد رشاد سالم - ط المدني عام ١٩٦٢ م

٥ - أبن جماعة (بدر الدين) : تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام - المجلة الألمانية - ١٩٣٤ م .

٦ - ابن الجوزي البغدادي (جمال الدين أبي الفرج) : تلبيس إبليس - ط مكتبة المتنبي بدون تاريخ .

٧ - أبن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة - جـ٤ - ط القاهرة ١٣٢٣ هـ

٨ - أبن حزم الأندلسي : الفصل في الملل والأهواء والنحل - جـ٤ - ط الحلبي١٣٢٠هـ

٩ - أبن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة - ط دار القلم ببيروت ١٩٨٤ م.

١٠ - أبن سعد : الطبقات الكبيرى - جـ٣ - ط ليدن ١٣٣٣ هـ .

١١ - أبن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المصري) : فتوح مصر والمغرب والأندلس - ط ليدن - ١٩٢٠ م.

١٢ - أبن عبد ربه : العقد الفريد - جـ٣ - ط القاهرة ١٣٠٢ هـ .

١٣ - أبن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : الإمامة والسياسة - جـ١ ، جـ٢ ط ١٩٦١ م.

١٤ - أبــن قــيم الجوزيــة : مــدارج الســالكين - ط دار أنصـــار الســنة المحمديــة. القاهرة ١٩٨٣ م.
١٥ - أبن منظور (جمال الدين المصري) : لسان العرب (معجم لغوي) - ط بولاق القاهرة ١٣٠٩ هـ .
١٦ - أبن النديم : الفهرست - ط ليبتزج - ١٨٧١ م.
١٧ - أبن هشام (محمد بن عبد الملك) سيرة النبي محمد ﷺ (المعرفة بسيرة أبن هشام) - ط دار التحرير القاهرة . بدون تاريخ .
١٨ - أبـو بكـر بـن العربـي : العواصـم والقواصـم - تحقـيق محـب الديـن الخطيـب- ط ١٩٥٥ م.
١٩ - أبـو قحـف (دكـتور محمـد محمـود) : مذهـب الـتأويل عـند الشـيعة الباطنـية (تحليل ونقد) - ط ٢٠٠٤ م
٢٠ - أبو قحف : (دكتور محمد محمود) التصوف الإسلامي خصائصه ومذاهبه (مع دراسة ميدانية للطرق الصوفية) - ط المكتبة القومية بطنطا ١٩٩٣ م .
٢١ - أبو المعين النسفي : بحر الكلام في علم التوحيد - ١٩١٩ م .
٢٢ - إبراهيم بيومي مدكور (دكتور) : في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه - ط دار المعارف بمصر ١٩٨٣ م .
٢٣ - أحمد أمين : فجر الإسلام - ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ م.
٢٤ - أحمد أمين : ضحى الإسلام - ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م .
٢٥ - أحمد أمين : ظهر الإسلام - ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٢ م
٢٦ - أرفــيه بلوشـــي ، توفــيق متســـتيري : ليبـــيا وتطــور المؤسســات السياســية (١٩٦٩ - ١٩٧٨) م - حوليات شمال إفريقيا العدد ٢٦ / ١٩٧٧ م .
٢٧- الأسفراييني (أبو المظفر) : التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من الهالكين - تحقيق محمد بن زاهر الكوثري - ط الأنوار ١٩٤٠ م.
٢٨ - الأشعري (أبو الحسن) : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٦١ م .
٢٩ - الأشعري (أبو الحسن) : الإبانة عن أصول الديانة - تحقيق دكتوره فوقية

حسين محمود ط ١٩٨١ م.
٣٠ - أفلاطون : محاورة الجمهورية - ترجمة حنا خباز - ط بيروت ١٩٨٠ م.
٣١ - إقبال (دكتور محمد) : تجديد التفكير الديني في الإسلام - ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ م.
٣٢ - بحاز إبراهيم : ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي منذ عام (١٢٢ هـ - ٧٤٠م) في المصادر العربية ، بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية - بجامعة قسنطينة - الجزائر ط دار نوميديان ١٩٩٠ م.
٣٣ - البخاري : صحيح البخاري - جـ١، جـ٤ ، بحاشية السندي - ط الحلبي بدون تاريخ .
٣٤ - بدر الدين حمودي اليحمدي الإباضي : الأدلة المرضية في دحض ما نسب إلى الإباضية - ط مطابع النهضة بمسقط ١٩٨٨ م.
٣٥ - البلازري : أنساب الأشراف - ط القدس بدون تاريخ .
٣٦ - البغدادي (الخطيب) : تاريخ بغداد - جـ ١، جـ٢ - ط ١٣٣٦ هـ.
٣٧ - البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ط دار التراث - القاهرة بدون تاريخ.
٣٨ - الباقلاني : التمهيد في الرد على أهل الأهواء الملحدة والمعطلة - تحقيق محمود الخضيري ١٩٤٧ م.
٣٩ - البيضاوي : التفسير (سورة البقرة - الأنعام - النور - ص) ط القاهرة ١٩٥٥م.
٤٠ - جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام - ترجمة دكتور محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار - ط المكتبة العربية ١٩٥٥ م
٤١ - الجويني (أبو المعالي إمام الحرمين) : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد - تحقيق محمد يوسف موسى. ط مكتبة الخانجي بمصر ١٩٥٠ م.
٤٢ - الجويني (أبو المعالي إمام الحرمين) : غياث الأمم - مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية.
٤٣ - حسن إبراهيم (دكتور) : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

- جـ١ ط دار النهضة المصرية ١٩٧٩ م.
٤٤ - حسن إبراهيم (دكتور) : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي - جـ٢ ، جـ٣ ، جـ ٤ - ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٢ ، ١٩٨٧ م.
٤٥ - حسن حنفي (دكتور) : التراث والتجديد - ط الأنجلو المصرية ١٩٨٧م.
٤٦ - حسن البنا (الشيخ حسن البنا) : مجموعة رسائل - ط بيروت ١٩٦٥م.
٤٧ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم - تحقيق فان فلوتن - تقديم دكتور محمد حسن عبد العزيز - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤ م.
٤٨ - سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : تاريخ المغرب العربي - ط دار المعارف بدون تاريخ .
٤٩ - سيد قطب (الشيخ) : معالم على الطريق - ط دار الشروق ١٩٨٧ م.
٥٠ - سيد قطب (الشيخ) : في ظلال القرآن ط دار الشروق ١٩٧٧م.
٥١ - سالم بن حمود السيابي : أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج ط وزارة التراث القومي - عمان ١٩٧٩ م.
٥٢ - السيوطي (جلال الدين) : تاريخ الخلفاء - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - ط المكتبة التوفيقية بدون تاريخ.
٥٣ - الشماخي : سيرة علماء ومشايخ جبل نفوسة - ط حجر القاهرة .
٥٤ - الشهرستاني : الملل والنحل - جـ١ - تحقيق عبد العزيز الوكيل - ط الحلبي ١٩٦٨ م.
٥٥ - الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام - تحقيق الفريد جيوم - ط حديثة بدون تاريخ .
٥٦ - الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الطبري (الأمم والملوك) - جـ٢ ، جـ٤ ، جـ٥ - ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.
٥٧ - طه عبد الرؤوف سعد (دكتور) : المرشد الأمين (ضمن كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي) - ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨ م .
٥٨ - طه حسين (دكتور) : الفتنة الكبرى (عثمان) - ط دار المعارف بمصر ١٩٧٠
٥٩ - عبد الجبار المعتزلي (القاضي) : كتاب المغني (باب التوحيد والعدل) - ط

القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ م.
٦٠ ـ عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق (أبو بكر) ـ ط وزارة المعارف بمصر ١٩٦٨ م.
٦١ ـ عباس محمود العقاد : عبقرية الأمام علي ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٨١م.
٦٢ ـ علي بن يحي معمر الإباضي : الإباضية ـ المطبعة العربية بحرداية بالجزائر ـ ١٩٨٥ م .
٦٣ ـ عامر النجار (دكتور) : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ـ ط دار المعارف ١٩٩٣ م .
٦٤ ـ الغزالي (الإمام أبو حامد حجة الإسلام) : إحياء علوم الدين ـ ط دار إحياء الكتب العربية ـ وط الشعب بدون تاريخ .
٦٥ ـ فخر الدين الرازي (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨م.
٦٦ ـ فريتس شتيبات : العلمانيون والإسلاميون محاولة مصرية لتصنيفهم ـ في الإسلام (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) . ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي مجلة عالم المعرفة ـ الكويت أبريل ٢٠٠٤ م
٦٧ ـ فريتس شتيبات : المسلم والسلطة (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي ـ مجلة عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٤ م
٦٨ ـ فريتس شتيبات: الإيمان يعطي الأمل والنجاة (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) ترجمة د عبد الغفار مكاوي ـ عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٤ م
٦٩ـ فريتس شتيبات : خليفة الله قراءات عن صورة الإنسان في الإسلام ـ (بحث منشور ضمن الإسلام شريكاً) . مجلة عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٤ م.
٧٠ ـ فريتس شتيبات : الدور السياسي للإسلام (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) . ترجمة د عبد الغفار مكاوي مجلة عالم المعرفة الكويت عدد أبريل ٢٠٠٤ م

٧١ - فريتس شتيبات : عشر قضايا عن الأصولية الإسلامية (بحث منشور ضمن كتاب الإسلام شريكاً) ترجمة د . عبد الغفار مكاوي مجلة عالم المعرفة الكويت عدد أبريل ٢٠٠٤ م.

٧٢ - كارل الفونسو نلليـنو : بحوث في المعتزلة (الصلة بين المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين في إفريقيا الشمالية) بحث منشور ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي - ط بيروت ١٩٨٠ م.

٧٣ - المبرد : كتاب الكامل في الأدب واللغة - جـ٢ - ط ١٩٥١ م.

٧٤ - محمد حسين هيكل (دكتور) : حياة محمد ﷺ - ط دار المعارف بمصر ١٩٧٩

٧٥ - محمد الصادق عرجون (دكتور) : الخليفة المفترى عليه - ط القاهرة ١٩٥٥ م.

٧٦ - محمد الغزالي (الشيخ محمد) : عقيدة المسلم - ط ١٩٨٧ م.

٧٧ - محمود رزق ماضي (دكتور) : قواعد العقائد في الفكر الإباضي - ط دار الأرقم - ١٩٩٣ م .

٧٨ - محمود رزق ماضي (دكتور) : سيد قطب بين الأصالة والمعاصرة - ط دار الأرقم ١٩٩٨ م .

٧٩ - مصطفى حلمي (دكتور) : نظام الخلافة في الإسلام - ط دار الأنصار ١٩٧٧م.

٨٠ - معمر القذافي (الزعيم الليبي وقائد الثورة) : الكتاب الأخضر - ط المركز العالمي لدراسة وأبحاث الكتاب الأخضر - طرابلس الجماهيرية ١٩٩٠ م.

٨١ - المسعودى - مروج الذهب - ط دار التحرير للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٥ م .

٨٢ - المقري الفيومي (أحمد بن علي) : المصباح المنير (معجم) مادة خليفة المطبعة الوهبية بمصر - ١٣٠٠ هـ.

٨٣ - المقريزي : الخطط والآثار - ط دار التحرير للطباعة بالقاهرة ، و ط بولاق ١٢٧٠هـ.

٨٤ - الملطي (أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن) : التنبيه في الرد على أهل الأهواء والزيغ والبدع - تحقيق محمد بن زاهر الكوثري ١٩١٩ م .

٨٥ - الماوردي (أبو الحسن) : الأحكام السلطانية - جـ٤ - ط القاهرة ١٢٩٧هـ.

٨٦ ـ النشار (دكتور علي سامي) : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١ ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٨١ م .

٨٧ ـ النشار (دكتور علي سامي) : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ٢ (الشيعة) ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م.

٨٨ ـ النشار (دكتور علي سامي) : فرق وطبقات المعتزلة ، ط منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٧١ م .

٨٩ ـ النوبختي : فرق الشيعة ـ ط النجف ١٩٣٦ م.

٩٠ ـ هويدي (دكتور يحي) : دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية ـ ط دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٢ م.

٩١ ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ـ ط النجف ١٩٢٩ م.

٩٢ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ ط ١٩٣٦ م.

٩٣ ـ ويصا واصف سيرسي : اضطرابات وقلاقل في مصر والمغرب ـ ط الشرق الحديث ١٩٧٧ م.

٩٤ ـ وايزابيلا كاميرادا فيلتو : التكفير والهجرة والشمولية الإسلامية ـ في مصر ـ ط الشرق الحديثة ١٩٧٨ م .

٩٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢٩ ، ١٧ ، مواد : الإباضية ، والأزارقة ، الخوارج ، خليفة ، خلافة ـ الخ ، كتبها لفيف من العلماء ، مراجعة أحمد الشنتناوي ، زكي خورشيد وآخرون ـ ط الشعب بدون تاريخ .

٩٦ ـ شرح الكتاب الأخضر ، الجماهيرية الليبية ، مركز الدراسات ، طرابلس ١٩٩٠

٩٧ ـ كتب الأحاديث : صحيح البخاري ، جـ١ ، جـ٤ .

ـ النووي على مسلم ـ جـ٧ .

ـ سنن أبو داود جـ٤ .

ثانياً: المراجع الأجنبية :

1- A , Ahmad, Islamic Modernism in India , and pakestan , london 1964.
2- Encyclopedia of Islam , N , 11 , (The Calephate) london , 1927 .
3- Muir , sir , william temple , The life of Mohammad , Edimbury , 1923 .
4- Sir Thomas , W, Arnald , The Islamic of Faith , london , 1928 .
5- Charles , C , Adoms , Islam and Modernism in Egypt , oxford university milford , london ,1933.

" فهرس الموضوعات "

رقم الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢١٧٩٦ / ٢٠٠٥

الناشر

المكتبة القومية الحديثة

طنطا شارع القاضي ت ٣٣٤٩٠٦٩

٢٠٠٥ / ٢٠٠٦